

أنا...

تتحدث عن نفسها

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية. إدارة الشؤون الفنية

شريف، عمرو

أنا... تتحدث عن نفسها/ د. عمرو شريف - القاهرة: نيوبوك للنشر والتوزيع/ ط ١ /

القاهرة: ٢٠١٧ م.

ص: ١٧ × ٢٤ سم

تدم: ٥-٢٧-٦٥١٩-٩٧٧-٩٧٨

رقم الإيداع: ٢٠١٦/١٤٣٣٢

١- الأنا

٢- الإيمان (فقه إسلامي)

أ- العنوان

١٥٤٠٢٢

دار النشر: نيوبوك للنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: أنا... تتحدث عن نفسها

الكاتب: د. عمرو شريف

رقم الطبعة: السابعة

تاريخ الطبع: ٢٠١٧



نيوبوك

٦ عمارات الدفاع الوطني - حدائق القبة - القاهرة

ت: ٠١٠٩٢٦٧٣٢٧٤

newbooknb@gmail.com

أنا...

تتحدث عن نفسها

د. عمرو شريف

أستاذ الجراحة العامة



2017



إهداء

إلى المفكر والإعلامي والداعية الإسلامي العربي الكبير...

إلى فضيلة الشيخ

الدكتور محمد العوضي

التقينا على درب الحقيقة الذي هجره الكثيرون...

فوجدت في صحبتكم الاتناس والمؤازرة.

د. عمرو شريف



فهرس

الصفحة

الموضوع

- إهداء 5
- مقدمة الطبعة السابعة 11
- قبل أن تقرأ هذا الكتاب 15
- مَنْ أنا؟ - كم ضللتوني عن ذاتي الإنسانية - من عرف نفسه عرف ربه - حول
الكتاب الذي بين يديك
- الباب الأول: أنا... في العلوم الطبيعية 27
- الفصل الأول: أنا ذات عاقلة 29
- أنا.. ذات واعية - أنا.. ذات مدركة - أنا.. ذات فاهمة مُفكِّرة - أنا.. ذات
متوحدة متجسدة، ذات خصوصية - أنا.. ذات حُرَّة لها إرادة، وقادرة على
الاختيار - أنا.. ذات ممتدة عبر الزمن، وقادرة على الانتقال فيه - أنا.. كائن
خيالي - أنا.. ذات ذكية مبدعة - أنا.. ذات تؤمن بالسببية - أنا.. ذات تحب
الاستطلاع والبحث - أنا.. ذات تعاطفية اجتماعية - أنا.. ذات ذات بيان -
أنا.. ذات فنانة متذوقة للجمال - أنا.. صاحبة العصبونات البانية للحضارة -
أنا.. الذكر، وأنا.. الأنثى - أنا.. ذات متسامية.
- الفصل الثاني: الوعي يقهر اللاوعي 87
- فرويد وما بعد فرويد - الفطرة أم التنشئة - نضج المخ البشري - التنشئة
نوع من الهندسة الوراثية - مخاطر التنشئة اللاتوافقية - الفطرة أم التنشئة...
القول الفصل - حرية الإرادة الإنسانية... والعلاقة بين الوعي واللاوعي
- التحكم في اللاوعي والنشاطات اللاإرادية - آليات التحكم في اللاوعي
والنشاطات اللاإرادية - هل من سبيل لإعادة البرمجة؟ - دور الوعي واللاوعي
في الصحة والمرض.

- 111 الفصل الثالث: لست روبوتًا
الانقلاب الكاذب - أكذوبة الجين الأناني - حوارى مع د. بروس لبيتون.
- 131 الفصل الرابع: قوى الإنسان الخفية
دعوة واستجابة - تحذير - الطاقة: بيولوجيًا وكونيًا - تأثير متبادل - آليات
التواصل والتأثير - حواراتى فى ويليام بتلر.
- 171 الفصل الخامس: كيف صرت بشرًا
رحلة فى الأزمان الغابرة - الفرق بيننا وبينها - كيف صرنا بشرًا - التطور
الجينى للإنسان - وقفة مع حجم المخ.
- 199 الباب الثانى: أنا... فى العلوم الإنسانية
- 201 الفصل السادس: أنا فى المرأة
تأملات فلسفية - حوارى مع الفيلسوف كارل بوبر، الفلسفة المادية والخلق
- مع كارل بوبر، وتسلسل النظرة إلى الذات الإنسانية - الفلسفة اليونانية -
الفلسفة الحديثة - الذات الإنسانية فى الفكر الشرقى القديم - الإنسان المصرى
القديم والذات الإنسانية.
- 253 الفصل السابع: كيف بَنَيْتُ الحضارة
كائن متميز منفرد - الملحمة - أسلافى الصيادون وجامعوا الثمار - إنتاج
الغذاء - الفلاحون الدائمون - الثورة المدنية - التحديث - مع الحضارتين،
المصرية القديمة والعربية الإسلامية.
- 293 الفصل الثامن: جعلونى مسخًا مشوهًا
حقيقتى بين الكينونة والتملك - حوارى مع د. عبد الوهاب المسيرى: أنا..
ألعوبة الحضارة المادية.
- 245 الباب الثالث: أنا... فى القرآن الكريم
- 247 الفصل التاسع: الذات الإنسانية فى القرآن الكريم
الجسد - العقل - القلب - الروح - النفس.

383 الفصل العاشر: أنا.. والموت
	مفهوم الموت في الحضارات الإنسانية - الطب والموت - الدين والموت -
	أعلنوني مَيِّتًا - تأملاتي مع الموت - أنا بعد الموت - طبيعتي في الجنة.
411 حصاد الرحلة
429 تعريف بالمؤلف

مقدمة الطبعة السابعة

القارئ الكريم..

أشكر لقرائي الترحاب والحنو الكبيرين اللذين استقبلوا بهما كتابي أنا تتحدث عن نفسها، وكذلك بقية كتبي، حتى صارت أكثر الكتب الفكرية العربية مبيعا في الوقت الحالي.

وقد اقتضت ظروف النشر أن تخرج بعض كتبي (ومنها هذا الكتاب) في هيئة جديدة، فقمنا بتغيير تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي، وانتهزنا الفرصة لعمل مراجعة وتنقيح شاملين لكل كتاب منها.

وقد أثارت الطبعات السابقة من هذا الكتاب حراكاً فكرياً كبيراً حول معظم الموضوعات التي تناولها على الكثير من المستويات وفي الكثير من المجالات، ولعل أهمها ما دار حول الفصلين الرابع والخامس.

ففي الفصل الرابع: «قوى الإنسان الخفية»، عرضنا ما أثبتته العلم من أن أخاخنا تُصدر طاقات مختلفة تُحدث تأثيراً في العالم المادي المحيط، مما يعد ثورة علمية كبيرة لا تقل عمقاً وتأثيراً عن ثورة فيزياء الكوانتم. وتأييداً لما ورد في الفصل، ذكر لي صديقي المفكر الحجة د. وسيم السيسى أنه استضاف في صالونه الثقافي الشهري راهباً بوذيّاً من تايلاند، ليحاضر رواد الصالون حول هذا الموضوع، وقد قام الراهب أمام الحضور بتركيز ذهنه وبصره عن بُعد على عملة معدنية فانصهرت، وأيضاً على بعض شوك الطعام فالتوت!! بذلك تأكد عندي بشكل أكبر ما سبق أن طرحته في الفصل.

وقد أثار هذا الفصل ردود أفعال متقابلة. ما بين معارض يُكذّب ما جاء في الفصل، مدعيّاً

أن ذلك يدخل في دائرة العلم الكاذب، وبين متحمس لما ذكرت، وكان معظم المتحمسين ممن يارسون أو يقتنعون بفكرة العلاج بالطاقة والطب البديل، فقد سعدوا بأن يقدم مفكر علمي موضوعي دعمًا لما يتبنون من أفكار وما يقدمون به من ممارسات.

وقد سبق أن حذرت في الفصل من كلا الفريقين (المكذب والمتحمس)، باعتبار أن الأول ليس على اطلاع بالجديد في هذا المجال العلمي. وأن الثاني يستغل بعض مفاهيم الطب الصيني القديم لمآرب شخصية دون إخضاعها للتقييم العلمي الدقيق.

أما الفصل الخامس؛ كيف صرت بشرًا، فقد أثار محتواه جلبة شديدة في أوساط السلفيين الإسلاميين الأصوليين في كل مرة ورد فيها في أحد كتبي. فبالرغم من أن 99% من علماء العالم يجزمون بأن التطور البيولوجي هو آلية تنوع الكائنات الحية وصولًا إلى الإنسان، مما جعلنا نتبنى مفهوم التطور الموجه الذي يقوم به الإله الخالق، فإن هؤلاء الأصوليين لم يكتفوا بمعارضة التطور الذي يحظلا بالإجماع العلمي، لكنهم يهاجمون ما نطرح بشدة، تصل ببعضهم إلى حد التكفير! حتى وصلت أطروحاتهم مثارًا للسخرية والتندر والانتقاص من الإسلام من الأوساط العلمية، فينبغي على القارئ، التنبه إلى ذلك.

وإذا كنا في كتاباتنا المبكرة قد ذكرنا أن التطور البيولوجي يُعتبر بمثابة «الحقيقة العلمية»، ثم ذكرنا في كتاباتنا المتأخرة أنه هو أفضل التفسيرات لتنوع الكائنات الحية، فذلك ليس تغييرًا حقيقيًا في موقفنا من التطور، لكنه تعديل في الصياغة، ألزمتنا به فلسفة العلم، بعد أن تعمقنا بشكل أكبر في دراسة مناهج البحث. تتبنى فلسفة العلم أن علوم النشأة (نشأة الكون - الحياة - الإنسان - المنظومة الأخلاقية... إلخ) تتبع في دراستها «المنهج الاستردادي»، الذي يحاول أن يسترجم أحداث نشأة الظاهرة تدريجيًا، ليصل إلى أفضل سيناريو محتمل، وهو ما يسمى بـ «اللجوء إلى أفضل التفسيرات». والفرق بين الحقيقة العلمية وبين أفضل التفسيرات، هو أن الأولى غير قابلة للتغير، أما أفضل التفسيرات فقابل للتغير تبعًا لما يستجد من الاكتشافات العلمية. وفي نفس الوقت؛ فإن هناك من أفضل التفسيرات ما هو كامل الحجية، حتى يصل بالمفهوم إلى مستوى الحقائق العلمية التي تقابلنا في العلوم التجريبية والرصدية، ولعل مفهوم التطور البيولوجي أحد هذه التفسيرات الأفضل.

القارئ الكريم..

أتمنى لك بعد هذه الملاحظات حول كتابنا الذي بين يديك، قراءة ممتعة مفيدة، وأدعوك لأن تبدأها بقراءة المقدمة الأصلية للكتاب، والتي تمهد للإبحار بيسر في هذه الرحلة الفكرية.

قبل أن تقرأ هذا الكتاب

- 1 -

مَنْ أَنَا؟*

لَمَّا كَانَ الْغَرَضُ مِنَ الدِّيَانَاتِ هُوَ التَّوَاصُلُ بَيْنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَبَيْنَ سَيِّدِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ، كَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يُخْبِرَنَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِحَقِيقَتِنَا وَبِالْعَلَّةِ مِنْ وَجُودِنَا فِي بَدَايَاتِ آخِرِ كِتَابِهِ السَّمَاوِيَّةِ؛ لِذَلِكَ جَاءَ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

عَرَفْتُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ خَلِيفَةَ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي الْأَرْضِ...

وَعَرَفْتُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ تَطَلَّعَتْ إِلَى تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ...

وَعَرَفْتُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ اعْتَقَدَتْ - خَطَأً - أَنَّ التَّسْبِيحَ وَالتَّقْدِيسَ هُمَا مَبْرَرِ الْاِسْتِخْلَافِ...

ثُمَّ يَبِينُ الْحَقَّ عَزَّوَجَلَّ مَسْوَغَاتِ الْاِسْتِخْلَافِ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَادَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُؤُونَ ﴿٣٣﴾﴾

(*) هذا الجزء بعنوان (من أنا؟!) من وحى كتاب: الدين والعلم وقصور الفكر البشرى، للدكتور مهندس محمد الحسيني إسماعيل، عام 1999 - مكتبة وهبة.

بذلك أخبر الله عزَّوَجَلَّ ملائكته بأن مسوغات الخلافة هي العلم والمعرفة...

ثم يوضح الله عزَّوَجَلَّ للإنسان حقيقة وجودية باقية ما دامت السموات والأرض: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

أسجدَ الله عزَّوَجَلَّ الملائكة لآدم لما يتميز به من علم ومعرفة...

من ثم، يصبح التسييح والتقديس تابعين للعلم والمعرفة... يا الله...

ولكن...

هل العلم وحده كافٍ لإنقاذنا؟... تظهر الإجابة عن هذا السؤال في قول الله عزَّوَجَلَّ:

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة].

لا... ليس العلم وحده كافياً لإنقاذنا

فآدم تعلمُ الأسماء كلها ورسب في أول امتحان للذات...

لماذا؟

لم يذكر لنا القرآن الكريم مقاومة من آدم لإبليس...

كان آدم على الفطرة... كان لا يزال في ساحة البراءة...

كان آدم عالمًا... ولم يك كاملاً...

فالاكتمال يتطلب الإنضاج بنار الاحتكاك بالآخرين...

إن الذين يعتزلون العالم ليسوا بكاملين... لم تنضج ذواتهم...

كان إبليس جزءاً ضرورياً من القصة... فهو يخدمنا...

الشر الذي نهزمه يخدمنا... إنه نضجٌ وإثراءٌ واكتمال...

يرقىنا حتى نصل إلى سدره منتهانا...

ذاق الإنسان الشجرة المحظورة... واستطابها...

وما زال يحوم حولها... تارة يجاهدها... وتارة يستلذها...

لم يكن خروج آدم من الجنة عقوبة نتحمل توابعها...

فنحن لم نذق طعم الجنة... لم نُعانِ استشعار الفرق...

الإسلام لا يعترف بالخطيئة الأصلية...

ما حدث لأبويننا كان تمهيداً لبداية قصتنا...

التي هي فرصة وتحد...

ثم بين الله عزَّجَلَّ لنا الحكمة من المعرفة: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٢٧﴾ قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ [البقرة].

تفجرت العبادة من ينبوع المعرفة والمعاناة والتجربة...

لم تولد المعرفة من رحم العبادة...

ليست المعرفة فضيلة أو ضرورة... إنها استكمال للإنسانية...

نشأ آدم في الجنة... في المجرد... بذلك تتساقط نظريات تشكيل الإنسان بالتاريخ، أو الاقتصاد، أو التنشئة، أو العرف...

صار آدم بنفخة الروح خلقاً آخر... ذا تطلعات غيبية سماوية...

سجود الملائكة تكريم وتشريف... واستثنائية إزاء الكون كله... ارتقى الإنسان حتى تجاوز المَلَك... ليس في القرآن آية تقول إن الملائكة تؤمن... فالإيمان خصيصة إنسانية... تحمل معنى البحث والاستدلال والتجريب والترقى... انظر قصة نفرس إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في السماء... انظر قصة طلبه من الله عزَّجَلَّ أن يريه كيف يُحيى الموتى...

أكرم تعريف للإنسان أنه الكائن المتسائل الباحث عن الله عزَّجَلَّ...

حتى وإن عَبَدَ حجراً...

كائن يتردد بين نقيضين... أسفل سافلين... وذُرا الأنبياء والصالحين...

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾

[الشمس]

أنا كائن حُرٌّ مختار...

قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ... ﴾ [الأحزاب: 72].

ولم يقل: إن حَمَلْنَا الأمانة

سُئِلَ عبد الله بن المبارك: لو قيل لك هذه آخر ساعة من عمرك، ما أنت فاعل فيها؟! قال:
أطلب فيها العلم...

من هذا المنهل رُضعت إدراكي بذاتي...

وعلى هذا فُطمت...

- 2 -

كم ضللوني عن ذاتي الإنسانية...

من نكد الدنيا على الإنسان المعاصر أن صار يحيا في ظل حضارة مادية بحتة، جعلت منه مسخًا مشوهًا وسجنته في إطار حيواني ثلاثي:

منتج: كما تنتج الأبقار اللبن.

مستهلك: كأكلات الرّمم.

مستمتع: أشدَّ شَبَقًا وشرهة من كل حيوانات الأرض.

وفي ظل هذه الحضارة، صار «توازن الرعب» هو الرادع لنا عن الاعتداء على الآخرين (على المستوى الشخصي ومستوى الدول)، وليس القيم والأخلاق والدين.

كم أهانوني ووصفوني بالأعاجيب...

وصفني الفيلسوف أفلاطون بأني ... حيوان سياسي.

وصفني الفيلسوف أرسطو بأني ... حيوان اجتماعي.

وصفني الفيلسوف ماركس بأني ... حيوان اقتصادي.

وصفني الفيلسوف سان سيمون بأني ... حيوان مُصنَّع.

وصفني فيلسوف العدمية ديفيد هيوم بأني ... حيوان منحط.

وصفني فرويد بأني ... حيوان شهواني.

اجتثَّ دارون جذوري السماوية... وأرجع نشأتي إلى الصدفة والعشوائية.

ووصفت أبطًا بأني: حيوان ناطق... حيوان ضاحك... حيوان تليفزيوني...

والقائمة تصيبني بالصداع والدوار، وتنزعي من إنسانيتي، وتسمني بالحيوانية، وبما هو أدنى.

حتى إن (جون واطسن) مؤسس علم النفس السلوكي، لا يُسَوِّغ الحديث عن علم نفس

إنساني وآخر حيواني، بل يعتبر أن الفرق بين سلوكيهما فرقًا كميًا وليس كميًا، ومن ثمَّ يدعو إلى علم نفس واحد يندرج ضمن العلوم الطبيعية.

كم مزقوني بين المتناقضات ...

يرى فيلسوف المادية جون لوك أن الإنسان لا يتمتع بفضرة أخلاقية، لكن المجتمع هو

الذي يشكل له ضميره! وسار على دربه دوركايم، إذ رأى أن الإنسان إناء يملأه المجتمع، أي أن

الأخلاق والضمير والدين «نبت اجتماعي».

ويرى آخرون (مثل آدم سميث) أن آلة الإنتاج هي التي تُشكِّل الإنسان، أي أن «الأصالة

للاقتصاد». بينما رأى خصمه ماركس أن الأصل هو «جدلية التاريخ»، أي الصراع!

وإذا كان نيتشه يدَّعي أن الإله والدين من «إبداع الضعفاء» ليصبرَّاهم على بلأوهم،

وليستجدوا الأغنياء باسم السماء، فإن ماركس يدعي أن الإله والدين من «إبداع الأقوياء»

ليسيطرأ به على الضعفاء، ويهونوا عليهم واقعههم المرير!

وهذا آدم سميث يوافقنا على أن الإنسان «خَيْرٌ بطبعه»، بينما يرى مان فيلد أن «الشر هو الأساس»، ولو اختفى الشر لتساقطت المجتمعات!

هل رأيت - قارئ الكريم - التناقض الصارخ بين نظرة رضعتها وقُطمت عليها (عرضتها تحت عنوان: مَنْ أنا؟!)، نظرة سَمَّتْ بالإنسان إلى ذُرا السمو، وبين نظرة مادية مطلقة هوت به إلى أسفل سافلين.

ألا ترى أن الإنسان في حاجة إلى رد اعتبار...!

من أجل ذلك جاء هذا الكتاب.

- 3 -

من عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ

حدثتك فيما سبق عن بعض صفات وسمات ذاتي الإنسانية، وسأحدثك عن الكثير منها عبر فصول الكتاب. وإذا كان العنوان الفرعي للكتاب «من عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» - الأرجح أنه لحكيم العرب يحيى بن معاذ - فإنني أطمع أن تُقَرِّبنا هذه الدراسة من فهم بعض أسماء وصفات ربنا عَزَّوَجَلَّ. فالغاية الأولى من هذه الدراسة المزيد من التعرف على الذات الإنسانية من أجل المزيد من التعرف على الله عَزَّوَجَلَّ، فهو الغاية الأولى من الخلق⁽¹⁾.

ويرى الشُّراح لهذا القول معاني شتى، منها أن الأمور تُعَرَفُ بأضدادها. فمن عَرَفَ ضَعْفَ نفسه عرف ربه بقوته، ومن عرف عَجَزَ نفسه عرف ربه بقدرته، ومن عرف فَقْرَ نفسه عرف ربه بغناه، ومن عرف جَهْلَ نفسه عرف ربه بعلمه... ومن ثمَّ، إذا عرفنا أنفسنا بكل ما فيها من نقائص ومحدودية، عرفنا بعض ما عليه ربنا من كمالات وإطلاق. وفي ذلك يقول ابن عطاء الله السكندري في حِكْمِهِ: **تَحَقَّقْ بِأَوْصَافِكَ يُمِّدُكَ بِأَوْصَافِهِ، وَتَحَقَّقْ بِذُلِّكَ يُمِّدُكَ بِعِزَّتِهِ، وَتَحَقَّقْ بِعِجْزِكَ يُمِّدُكَ بِقُدْرَتِهِ، وَتَحَقَّقْ بِضَعْفِكَ يُمِّدُكَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ.**

(1) في تفسير عبد الله بن عباس لقول الحق عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات] أن معنى «ليعبدون» هو «ليعرفون».

ويرى آخرون، أن الله عَزَّجَلَّ قد أعطى الإنسان شيئاً من صفاته؛ فأعطاه من علمه، وحلمه، وغناه، وقدرته، وإرادته، وصبره... مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الصفات في حق الله عَزَّجَلَّ ذاتية، كاملة، مطلقة، أما في حق الإنسان فهي مُعارة ناقصة محدودة كما وكيفاً.

وقد كان منح الله عَزَّجَلَّ الإنسان شيئاً من صفاته أمراً ضرورياً، حتى تتحقق معرفة الإنسان بربه، وهي الغاية القصوى من الخلق. ذلك أن إدراكنا لمعاني أسماء الله عَزَّجَلَّ وصفاته لا يكون إلا إذا مارسنا وتدوقنا هذه الأسماء والصفات. فكيف ندرك معنى اسم الله «الحليم» ما لم نكن قد مارسنا الحلم، وكيف ندرك معنى اسمه عَزَّجَلَّ «المريد» ما لم نمارس حرية الإرادة، وكيف ندرك معنى اسمه «الرحمن» ما لم نمارس الرحمة. لذلك جاء في الحديث الصحيح: من لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ⁽¹⁾، أى إذا أردنا أن نعامل بصفة الله عَزَّجَلَّ (الرحمن الرحيم) علينا أن نتخلق بالرحمة.

كذلك كان حصول الإنسان على بعض من صفات الله عَزَّجَلَّ أمر ضروري للقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، فكيف يقوم جاهل عاجز مسلوب الإرادة بحق الخلافة من الله، أليس من المحتمى أن يكون للمستخلف بعض صلاحيات من استخلفه؟ من ذلك نفهم لماذا جعل الله عَزَّجَلَّ تسيير شئون الكون من خلال قوانين وضعها وألزم مخلوقاته بالخضوع لها، وقام في نفس الوقت بكشف هذه القوانين للإنسان تدريجياً حتى يتسنى له استغلالها في التعامل مع الطبيعة.

لذلك أسأل من يقرأون قول الحق عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس]، ويفهمون أن المقصود من «كن فيكون» الامتثال المباشر «الآنى» خارج إطار الأسباب، أسألهم، وكيف يتسنى للإنسان أن يكون خليفة في أرض تُدار بكلمة «كن»، في حين أنه لا يملك سر تفعيلها!! إن استجابة الوجود للأمر «كن» يكون من خلال السنن والقوانين. فإذا كنا أنا وأنت قد خلقنا بكلمة كن فقد تطلب ذلك بقاءنا في الأرحام فترة تسعة أشهر كاملة.

هذا وسنلاحظ مما ذكرنا في بداية المقدمة، ثم سنتولى توضيحه (قدر المستطاع) عبر فصول الكتاب، أن إدراك حقيقة الذات الإنسانية أمر بعيد المنال، وأنا عاجزون عن ذلك بالرغم من كل ما أوتينا من علم وفلسفة، فما بال أقوام يتباحثون في الذات الإلهية ويسعون لإدراك

(1) رواه البخارى.

حقيقتها، ويتخذون عن العجز عن ذلك مبررًا للإلحاد بالوجود الإلهي. وقد أعجبنى في الرد على هؤلاء بيتين من الشعر الصوفي حفظتهما في صباي، يقول فيهما أبو عبد الله الجلاء:

كَيْفِيَّةُ الْمَرْءِ لَيْسَ يُدْرِكُهَا فَكَيْفِ كَيْفِيَّةِ الْجَبَّارِ فِي الْقَدَمِ
هُوَ الَّذِي أَحْدَثَ الْأَشْيَاءَ مَبْتَدِعًا فَكَيْفِ يُدْرِكُهُ مُسْتَحْدَثَ النَّسَمِ

سبحان الله عَزَّوَجَلَّ

الذي ليس كمثله شيء.

- 4 -

حَوْلَ الْكَتَابِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ

تخيل كائنًا فضائيًا هبط (وليكن من كوكب المريخ) إلى كوكبنا الأرض، وكان هبوطه ليلاً، الأرجح أنه سيختار إحدى المدن مكانًا لهبوطه، فهي مليئة بالأنوار. ربما كان أول ما سيلفت نظر جارنا المريخي هو غزارة تواجد الكائن الأرضي في كوكبنا، فالمدينة المزدهمة ستشعره بأننا أكثر الكائنات تواجدًا فيه.

ولاهتماماته السياحية المتأصلة - وهذا ما جاء به إلى الأرض - قام الكائن المريخي بعدة جولات في المدينة وما حولها، فلاحظ ظاهرة سلوكية إنسانية غريبة، وهي تعدد نشاطات الإنسان واهتماماته وهيئاته. رأى بعض الناس في المكتبات والمدارس منكبين على كتب يقرأون فيها ويدرسون، ورأى بعضنا يجري وراء جسم صغير كروي الشكل يركلونه بأقدامهم وآخرين متحلقين حولهم يصفقون لهم ويهللون. ورأى أقوامًا من الرجال والنساء أشباه عرايا يرقدون فوق الرمال ليصطلوا بأشعة الشمس ثم يجرون إلى البحر ليلقوا بأنفسهم فيه، وفي الوقت نفسه رأى آخرين (رجالًا ونساءً أيضًا) يتسربلون بالملابس من قمم رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم. ورأى في بنايات نظيفة هادئة أقوامًا مُصْطَفِّين في صفوف يرفعون أيديهم ويركعون ويسجدون ويبتهلون. وفي مدينة مجاورة رأى أقوامًا يتصارعون بالأيدي وبنصال لامة، وقد يوجه بعضهم آلات حديدية تجاه آخرين فيسقطون قتلى... رأى.. ورأى.. ورأى من الأشياء العجيبة ما أثار اندهاشه من هذا الكائن الأرضي.

أراد الكائن المريخي أن يتوصل إلى حقيقة جاره الأرضي، فبحث عمن يسأل، فدلوه على مكان شاسع مليء بالنباتات التي تفصل بينها مساحات خضراء، ويطلقون عليه اسم «الجامعة»، وأخبروه بأن بها الكثير من العلماء المتخصصين في شأن «الإنسان». قضى الزائر أياماً عديدة في مكاتب الجامعة، يستمع إلى ما يطرحه عليه الأساتذة المتمرسون العالمون بالإنسان، وخرج من هذه الزيارات أكثر حيرة من ذي قبل! فهذا الخبير أخبره بأن الإنسان عبارة عن دوائر كهربائية كتلك التي تضيء في سقف الغرفة وربما في مركبته الفضائية. وهذا أخبره بأن الإنسان عبارة عن تفاعلات كيميائية، بل إنه مزج أمامه كميّتين ضئيلتين من سائلين فتفاعلا وخرجت منهما أبخره ساخنة، وقال له الأمر هكذا! وفهم من آخر أن الإنسان إنما هو سليل لتلك الحيوانات التي رآها تقفز بين الأشجار في حديقة الحيوان، بينما أكد له غيره أن الإنسان كائن متفرد متمسام وأنه خليفة في الأرض من الإله خالق هذا الكون وخالق كوكبه المريخ.

تحدث ضيفنا في الجامعة إلى هؤلاء العلماء المتخصصين في الفيزياء، ثم الكيمياء، ثم البيولوجيا، ثم الشريعة الإسلامية. بل وتحدث إلى آخرين قدموهم إليه باعتبارهم أساتذة في الفلسفة وفي علم النفس وفي علم الاجتماع، وفي.. وفي.. فأسمعوه كلاماً لا يقل غرابة وتبايناً عما سمعه من السابقين، فازدادت حيرته بخصوص هذا الكائن الإنساني شديد التعقيد، وقرر أن يوجه جهوده الرامية للتواصل مع الحضارات الكونية إلى كوكب آخر، فربما عثر فيه على كائنات أكثر انسجاماً وأكثر تناغمًا وأكثر بساطة وقابلية للفهم.

جال بخاطري هذا السيناريو التخيلي بينما كنت أتابع إحدى جلسات المؤتمر الحادي عشر لشركة الإبداع الأسرية بالكويت، والذي انعقد في شهر يناير من عام 2012، وكنت قد دُعيت للمشاركة في فعالياته بإلقاء محاضرتين لاقتا قبولاً حسناً. كان عنوان المؤتمر الذي أثارني وحفزني للحضور هو «أنا... روح، عقل، عاطفة، جسد»، وربما أدركت - قارئ الكريم - أن موضوع المؤتمر هو الذي استثار الخواطر التي تواردت في ذهني عن هذا الزائر المريخي، الذي احتار حيرة شديدة في فهم جاره الإنسان. ومن وحي عنوان المؤتمر بزغت فكرة تأليف كتاب عن هذه الـ «أنا» الغامضة، لا ليكون دليلاً للكائنات الفضائية التي قد تزور كوكبنا - فالأرجح أنها لا تتقن لغتنا العربية - بل ليكون دليلًا لنا نحن البشر ليعرف كل منا الآخر، وقبل ذلك، ليعرف كل منا نفسه⁽¹⁾.

(1) أعجبنى شعار المؤتمر، فاستأذنت أن أقتبس منه جزءاً عند تصميم غلاف كتابي هذا. والشعار من تصميم =

والمنهج الذي اتبعته في عرض فصول الكتاب، هو أن أعرض في بداية كل فصل بعض المفاهيم المتعلقة به وأحللها، وربما أطرح حولها بعض التساؤلات، ثم أعرض المزيد من الأفكار عن طريق إدارة حوار مع عالمٍ معاصر - التقيت به أو لم ألتق - على التخصص في هذا المجال.

تستطيع - قارئى الكريم - أن تعتبر أن حواراتى مع شخصيات الكتاب حوارات أكثر من حقيقية! فقد تمت الفعل بين عقلى وعقولهم أثناء دراستى لكتاباتهم. فقد كنت كلما قرأت فكرة أعمل فيها عقلى مُحللاً وناقداً، وكثيراً ما كنت أجد الكاتب بعدها (أو في موضع آخر) يجيب عن تساؤلاتى. ألا ترى أن هذه الحوارات ربما كانت «أكثر حقيقية» من الكثير من الحوارات التى تدور بين شخصين يلتقيان وجهًا لوجه. وقد اخترت أن أستعين بأسلوب الحوار في فصول الكتاب لأنه يسهل على القارئ فهم الأفكار بشكل أكبر وأيسر فهمًا، كما يُعين في تحليل الأفكار واستيعابها وتذكرها.

القارئ الكريم

قد يبدو الكتاب من النظرة الأولى غير متناسق، فهو يحوى موضوعات شتى، تتراوح بين البيولوجيا، والفيزياء، والكيمياء، والطب، وعلم النفس، والطب النفسى، والفلسفة، والأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، والدين. ولكن أليست الـ «أنا» على هذا التباين، بل أشد. إن الخيط الذى ينتظم هذه اللائى التى انتقيتها لك هو «الذات الإنسانية».

وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب، تضم عشرة فصول. الباب الأول هو «أنا... في العلوم الطبيعية»، ويشتمل على خمسة فصول: الأول «أنا... ذات عاقلة»، أتعرض فيه للسماة التى تميز الإنسان ككائن يتفرد بالعقل. والفصل الثانى بعنوان «الوعى يقهر اللاوعى» ويركز على كيفية برمجة العقل اللاوعى بأفكار سلبية تتحكم في مصائرنا، وإمكانية إعادة البرمجة بأفكار إيجابية. والفصل الثالث بعنوان «لست روبوتًا» وندحض فيه مفهوم الحتمية البيولوجية الحاطى، والذى يصورنا ككائنات لا إرادة لها. والفصل الرابع «قوى الإنسان الخفية»، وهو فصل شديد الأهمية، إذ يتعرض بالأدلة العلمية لأحد أخطر المجالات المسكوت عنها، وهو مجال طاقات

= الأستاذة منيرة القناعى وبخط الأستاذ جاسم المعراج. وستعرف سر إعجابى بشعار المؤتمر عند مطالعتك للفصل الأول من الكتاب، تحت عنوان: أنا... ذات فنانة متذوقة للجمال.

الإنسان الحيوية، مما أدى إلى سوء استغلالها من قبل الدجالين وجامعي الثروة. ونتعرض في الفصل الخامس «كيف صرثُ بشرًا» لنشأة الإنسان بآلية التطور الموجه عن أسلاف أدنى منه.

والباب الثاني بعنوان «أنا... في العلوم الإنسانية»، وتناول في الفصل السادس منه نظرة العقل الإنساني للذات الإنسانية، من خلال طرح آراء بعض الفلاسفة الذين تناولوا هذا الموضوع، والفصل بعنوان «أنا... في المرأة». وفي الفصل السابع «هكذا بنيت الحضارة» نعرض ملحة رحلة الإنسان الحضارية، من أطواره البدائية إلى الحضارة المعاصرة. لكن هل حققت الحضارة الحديثة طموحات الإنسان؟ وهل حقق من خلالها ذاته الحقيقية؟ أم أن المسار الحضارى قد انحرف به عن فطرته، وهذا ما سنعرضه في الفصل الثامن بعنوان «جعلوني مسخًا مشوهًا».

بعد هذه الجولة مع نظرة العلوم المختلفة للذات الإنسانية، يأتي أو أن الكلمة النهائية التي تنظر إلى الإنسان باعتباره كلاً واحداً متكاملًا، ولا يكون ذلك إلا الخالق الإنسان، الذي لا يعلم عنه «الظاهر» فحسب، بل يعلم عنه «السرّ وأخفى»؛ لذلك جاء الباب الثالث حول «أنا... في القرآن الكريم»، وهو من فصلين: الفصل التاسع بعنوان «الذات الإنسانية في القرآن الكريم» وبتناول فيه مكونات الذات الإنسانية كما وردت في القرآن: الجسد - القلب - العقل - النفس - الروح. ونختم رحلتنا بالفصل العاشر بعنوان «أنا.. والموت» ونطرح فيه مفهوم الموت بالمنظور العلمى والمنظور الدينى، وعلاقة الروح بالموت، والفرق بين الموت والوفاة!

ونختم الكتاب بحصاد الرحلة، الذى نقطف فيه ثمارها.



وفي ختام المقدمة، ينبغى أن أشيد بجهود مجموعة من المثقفين الذين شاركوا في جمع المادة العلمية لفصول الكتاب وأيضًا في تبادل وتنقيح بعض أفكاره. وهؤلاء هم د. محمد عمرو شريف مدرس مساعد الطب النفسى بجامعة عين شمس، واستشارى الأشعة التشخيصية د. أحمد جلال، والمهندس حسام مؤنس، وأحمد عمرو شريف الطالب بكلية الطب، ومنار رأفت معيدة اللغة الإنجليزية، والأطباء والطبيبات بمستشفيات جامعة عين شمس: محمد طبال، آية عبد السلام مجاهد، سلمى المختار، سارة عبد القادر، آية أبو اليسر، ياسمين يسرى. فلهم منى جميعًا الشكر.

الباب الأول

أنا...

في العلوم الطبيعية



الفصل الأول

أنا ... ذات عاقلة

- 1- أنا.. ذاتٌ واعية
 - 2- أنا.. ذاتٌ مدركة
 - 3- أنا.. ذاتٌ فاهمةٌ مُفكِّرة
 - 4- أنا.. ذاتٌ متوحدة متجسدة، ذات خصوصية
 - 5- أنا.. ذاتٌ حُرَّة لها إرادة، وقادرة على الاختيار
 - 6- أنا.. ذاتٌ ممتدة عبر الزمن، وقادرة على الانتقال فيه
 - 7- أنا .. كائنٌ خيالي
 - 8- أنا .. ذاتٌ ذكيةٌ مبدعة
 - 9- أنا.. ذاتٌ تؤمن بالسببية
 - 10- أنا.. ذاتٌ تحب الاستطلاع والبحث
 - 11- أنا.. ذاتٌ تعاطفية اجتماعية
 - 12- أنا .. ذاتٌ ذات بيان
 - 13- أنا .. ذاتٌ فنانة متذوقة للجمال
 - 14- أنا.. صاحبة العصبونات البانية للحضارة
 - 15- أنا.. الذكر - وأنا.. الأنثى
 - 16- أنا .. ذاتٌ متسامية
- القارئ الكريم

في ضوء نظرية التطور الدارويني، اهتم العلم المعاصر بالبحث عن «التشابهات» الشديدة بيني وبين الحيوانات، حَلَقًا وَخُلُقًا، وتوسع في التأكيد على هذه التشابهات، بينما أغفل «التناشزات» الجَمَّة بيننا، حتى صار يُنظر إلَيَّ باعتباري حيوانًا!. لقد ركز العلم المعاصر على جسدي، وتجاوز عن باقي طيفي الواسع الممتد، بالرغم من أنه قد أثبت وجود العنصر الإنساني بتنوعاته المختلفة.

إن الإنسان ظاهرة غامضة، يقف العلم الحديث عاجزًا حيال معظم مفرداته الإنسانية، التي بالإمكان رصدها ملاحظةً وتجريبًا. إن كَلَامَ التشابه والتباين الشديدين بيني وبين الحيوان له دلالاته المهمة في فهم حقيقة الإنسان.

وإذا كان العلم التجريبي المعاصر قد قطع بصحة «الماضي الحيواني للإنسان»، فإنه قد قطع أيضًا بعدم صحة «الحاضر الحيواني للإنسان». لقد أثبت العلم - دون أن يقصد - «خطأ الظن الواهم» بأنني «الآن» لست إلا حيوانًا، حتى وإن «كنت» في أصل نشأتي الغابرة حيوانًا ليس إلا⁽¹⁾.

إن الوقائع التجريبية تشهد كل يوم بوجود أصول أخرى لـ «الظاهرة الإنسانية» غير الأصل الحيواني، وفي الوقت نفسه يعجز العلم المعاصر عن تحديد تلك الأصول، وقبل أن ننطلق في البحث عنها، ينبغي أولاً أن نتأمل سِمَاتِ الإنسانية التي سَمَّتْ بي فوق كل الكائنات.

يمكنك أن تعتبر أن «التعقل» هو السمة الجامعة التي تميزني عما سواي من الكائنات، وإذا كان التعقل يشتمل على النشاطات العقلية (بالمعنى الأكاديمي) التي تُمارَس عن طريق المنخ، فإنني أضُم إليها أيضًا المشاعر الروحية التي استشعرها، ذلك بعد أن أثبت العلم الحديث دور المنخ المحوري في تذوق هذه المشاعر.

(1) لمعرفة ما نقبله وما نرفضه من نظرية التطور لدارون انظر الفصل الخامس، بعنوان «أنا.. وكيف صرت بشراً».

لعلك لاحظت أنني استخدمت في الفقرة السابقة لفظ «التعقل» ولم أستخدم اسم «العقل». فإن كانت الفلسفة وعلم النفس يحدثاننا عن «العقل Mind»، فإنهما - بالإضافة إلى علوم المخ والأعصاب - قد عجزوا عن تحديد موضعاً للعقل في المخ، واكتفوا بالحديث عن العمليات العقلية. كذلك القرآن الكريم، فبالرغم من أن آياته تحدثنا قرابة خمسين مرة عن التعقل (بمشتقاته اللغوية) فلم يرد فيه لفظ «العقل» مرة واحدة. هل نستنتج من اتفاق كلمات العلم والفلسفة والدين أن ليس هناك عضو أو مركز محدد يمكن أن نطلق عليه «العقل»؟

وسيكون منهجى في هذا الفصل، أن أطرح ما يميزني من نشاطات عقلية، على أن أعرض بعد كل نشاط حوارات علمية دارت بيني وبين عدد من العلماء الأفاضل حول بعض التفاصيل. وقد كانت معظم حواراتي (في هذا الفصل) مع حُجة العلوم العصبية والنفسية د. راماشاندران⁽¹⁾، الذى أمدنى بعرض مبهر لعدد من الحالات المرضية النادرة التى تحدث بسبب تعطلِّ الدوائر العصبية المسؤولة عن بعض هذه النشاطات العقلية، مما سيُعَمِّق من فهمنا لها (فبضدها تتميز الأشياء). لقد أدهشنى وأذهلنى ما قال، فتلك الأمراض تفوق في غرابتها أشد قصص الخيال العلمى تطرفاً!. وسترى بنفسك، والآن إلى هذه النشاطات العقلية:

1- أنا.. ذات واعية

كنت نائمًا نومًا طويلاً عميقًا خاليًا من الأحلام، بل لا ينبغى أن أقول إننى كنت، فحينها «أنا» لم أكن.

استيقظت، أصبحت موجودًا، إذ أصبحت واعيًا بنفسى.

ثم أصبحت واعيًا بعالمى الداخلى، الغنى بالمكونات العقلية؛ المشاعر، الأحاسيس، المعانى، القيم،...

(1) راماشاندران V.S.Ramachandran: وُلِدَ في الهند ويعيش في كاليفورنيا. يشغل في جامعة سان دييجو في كاليفورنيا مناصب: مدير مركز أبحاث المخ والمعرفة، وأستاذ الدراسات العليا في علوم المخ والأعصاب، وأستاذ بقسم علم النفس.

توصل راماشاندران من خلال الفحص الطبى للمرضى إلى العديد من المفاهيم الجديدة حول آليات المخ/العقل، حتى استحق أن يوصف بأنه ماركو بولو علوم المخ والأعصاب، وبول بروكا العصر الحديث. وقد اختارته مجلة التايم الأمريكية عام 2011 كواحد من أكثر مائة شخص تأثيرًا في العالم.

كذلك أصبحت **واعياً بالوجود الخارجي**؛ أين أنا؟ مواصفات فراشي وغرفتي، من يوقظني؟ ماذا عليّ أن أفعل الآن، ثم بعد قليل؟...

إن لوعبي ثلاثة مستويات: وعي بنفسي، وعي بعالمي الداخلي، ووعي بالوجود الخارجي.

خلل الوعي بالذات



(شكل ١)

راماشاندران Ramachandran

ماركوبويو طولم المخ والأعصاب

لا أعتقد أن في عالمنا اليوم أحداً أقدر على أن يحدثنا عن معضلة الوعي من حجة العلوم العصبية والنفسية **د. راماشاندران (شكل - 1)**، وكنت قد اعتدت أن ألقه وأحاوره كلما عثت لي مشكلة في هذا المجال، وما أكثر ما يحدث ذلك. وفي حوارى معه هذه المرة، صدّق راماشاندران على طرحي البلاغي المبسط لمفهوم الوعي، ثم قال: ينبغي أن تعلم أن **الوعي هو المقدمة أو الأساس لباقي عملياتنا العقلية**؛ كالإدراك والفهم وحرية الإرادة والتخيل وغيرها، فإذا لم يكن الإنسان واعياً لما استطاع ممارسة هذه النشاطات. كما ينبغي أن تدرك أن **وعيك بذاتك وبصورة جسدك يحدده نشاط مخك، وأن هذا الوعي يمكن أن يضطرب إذا عالى المنع من مشكلات.**

وبدأ راماشاندران يحدثني عن **أنماط لما يمكن أن يعيب وعينا من خلل**. فذكر عدداً من المتلازمات المرضية Syndromes⁽¹⁾ التي تنشأ نتيجة لتلف الدوائر العصبية المخية الموصلة بين مراكز **تعرفنا على أنفسنا وعلى الآخرين**⁽²⁾ وبين مراكز العاطفة (خاصة اللوزة المخية Amygdala)، ويؤدي هذا الخلل إلى اضطراب وعينا وفقدان ما ينبغي أن نشعر به تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين، فنشعر أننا لسنا نحن وأنهم ليسوا هم!.. فهذا مريض متلازمة **كابجر**⁽³⁾ يعتقد

(1) المتلازمة المرضية Syndrome: مجموعة من الاضطرابات المرضية التي تبدو متباينة، لكنها ترجع إلى خلل واحد. وعادة ما يُطلق على المتلازمة اسم العالِم الذي وصفها.

(2) أهم هذه المراكز هو التلفيف المخزلي fusiform gyrus.

(3) Capgras' syndrome..

أن والده مُدعى، وأنه شخص آخر يشبه والده، لكنه ليس هو، إذ إنه لا يشعر تجاهه بعاطفة البنوة!. والأدهى من ذلك مريض متلازمة كوتارد⁽¹⁾ الذي يفقد تعاطفه تجاه نفسه، عندها يشعر أنه غير موجود، أو أنه مجرد محارة فارغة، أو أنه مات وصار جثةً بدون دليل أنه يشم رائحتها العفنة! وقد حاول عدد من هؤلاء المرضى الانتحار حتى يتمشى ما يؤمنون به مع الواقع!

ويضيف راما؛ وإذا حدث العكس، وزاد نشاط الدوائر الموصلة بين مراكز التعرف وبين مراكز العاطفة، واجهنا متلازمات مرضية متناقضة. فهذا مريض متلازمة فريجولي⁽²⁾ يخبرنا أن كل الآخرين يشبهون فلان الذي يحبه (أو يكرهه)، إذ إنه يشعر تجاههم بنفس ما يشعر به تجاهه!. وقد اكتسب كل ما يحيط بالإنسان معانٍ أعمق فيحس بالتسامي والتوحد مع شيء خالد، فيستشعر مثلاً أنه متوحد مع الإله⁽³⁾.

واسترسل راما قائلاً: أستدعيت ذات يوم لمناظرة المريض جاسون مردوخ في مركز التأهيل، ووجدت أنه يعاني من حالة «الغيبوبة اليقظة»⁽⁴⁾ نتيجة لحادث أدى إلى تهتك القشرة الحزامية في مقدمة المخ⁽⁵⁾. كان جاسون عاجزاً عن السير والكلام وكان يرقد في الفراش، لا يتابع الحوار ولا يستجيب للتعليمات ولا يتفاعل مع الأهل إلا بقدر ضئيل، وفي الوقت نفسه كان يتابع المتحركين في غرفته بعينيه دون أن يتعرف عليهم، حتى والديه وإخوته.

مما أدهش راما، أن السيد مردوخ (والد جاسون) إذا اتصل بابنه تليفونياً من غرفة مجاورة، كان الابن يفيق ويتعرف على صوت والده ويدخل معه في حوار كأى إنسان طبيعي! وما أن ينهى الوالد المكالمة ويدخل على ابنه الغرفة، حتى يعود جاسون إلى غيبوبته! ويمكن أن يتكرر هذا الأمر عدة مرات يومياً⁽⁶⁾.

وركز راما عينيه في عينيّ، وقال: تأمل معنى ماذا يعني ذلك؛ كأن هناك اثنين جاسون

(1) Cotard syndrome.

(2) Fregoli syndrome.

(3) يحدث ذلك في بعض حالات صرع الفص الصدغي.

(4) Vigilant Coma.. وتعرف أيضاً باسم التوحد اللاحركي Akinetic Autism.

(5) Anterior Cingulate Cortex.

(6) أطلق الأطباء على هذه الحالة النادرة اسم «متلازمة التليفون Telephone syndrome».

محبوسين في جسد واحد، جاسون التليفوني الواعي تمامًا، وجاسون رهين الغيوبة اليقظة!. وفسر لي راما هذا الأمر بأن القشرة الحزامية الأمامية تصلها إشارات من المسارين البصري والسمعي، وأن في حالة جاسون أصاب التلف المسار البصري وسَلِمَ المسار السمعي، ففقد جاسون القدرة على التواصل البصري واحتفظ بالقدرة على التواصل السمعي!! اثنين جاسون في جسد واحد!!

ألى هذا الحد يمكن أن يضطرب إدراكى الواعى نتيجة لخلل يصيب بنية ووظيفة مراكز المخ. كم هى معقدة آليات وعى الذات الإنسانية؟!

2 - أنا... ذات مدركة

عندما كنت طالبًا في المرحلة الثانوية، سألنا مدرس الفيزياء ذات يوم:

إذا سقطت شجرة في غابة ليس فيها إنسان ولا حيوان، هل تُصدر الشجرة صوتًا؟! وبعد أن احترنا في إجابة هذا السؤال المخادع، أجابنا قائلًا: لا، لن تصدر الشجرة إلا موجات، أمّا إدراك هذه الموجات كأصوات، فيحتاج إلى أعضائنا، ففيها المستقبلات التى تُحوّل الموجات إلى أصوات وإلى صور وإلى روائح وهكذا. وقد أعجب المدرس بذلك كثيرًا حين علّقت على إجابته بقولى: إذا لم يكن هناك إنسان ولا حيوان يُدرك وجود الموجات كغابة فلن تكون هناك غابة!

ومن المعانى الأعمق للإدراك، معنى أُوَيْتَهُ لك من خلال هذا المثال:

كثيرًا ما يصف ابني أمه بأنها «مكشوف عنها الحجاب»، فكلما أراد أن يخدعها، فاجأته بأن تطلعه على ما يفكر فيه. إن القدرة على إدراك أفكار الآخرين ملكة إنسانية من الدرجة الأولى، بل إننى قادر على هذا الإدراك إلى سبعة مستويات؛ فأقول مثلًا: «أنا أعتقد» «أنتك تفترض» «أنا نريد» أن تتأكد أن «كل الآخرين يدركون» «أنسا نريد» منهم جميعًا «أن يعتقدوا» «أنا نعرف» فيما يفكرون. إن العلماء يُسمون هذه القدرة على الإدراك «نظرية العقل»⁽¹⁾.

(1) Theory of mind.

آليات الإدراك...

وعندما سألت راماشاندران عن آليات الإدراك، أجبني:

إن في أمخاخنا عددًا من المناطق يسميها المتخصصون «مناطق التريبط»⁽¹⁾، تقوم بإثراء فهمنا للعالم من حولنا، وذلك عن طريق التعرف على محتوياته، وتوجيه استجاباتنا الانفعالية والمعرفية والسلوكية تجاهه. فتلك «منطقة تريبط التشكيل»⁽²⁾ التي تمكنني من رسم صورة ثلاثية الأبعاد لجسدي وكذلك معرفة مكاني من الفراغ. وتلك «منطقة تريبط الانتباه»⁽³⁾ التي تلعب دورًا رئيسيًا في تركيز انتباهي على هدف معين، وتوجه سلوكي لتحقيق هذا الهدف، كما تقوم بحصر أفكارى في اتجاه محدد. وتلك منطقة «تريبط المفاهيم اللفظية»⁽⁴⁾، التي تقوم بتسمية وأرشفة الأشياء، واستحضار ومقارنة المفاهيم واستحضار المعاني العكسية لها، كما تقوم بتوليد المفاهيم المجردة، وتوجيه التفكير السببي.

عند ذلك الحد، سألت راماشاندران: في ضوء آليات الإدراك، كيف تفسر ما شاهدناه في فيلم Scent of a woman للممثل العالمى ألباتشينو Al Pacino⁽⁵⁾، فقد كان بطل الفيلم الضريير يراقص النساء بخفة ورشاقة ويتحرك في أمان وبساطة دون أن يصطدم بأحد أو بأثاثات المكان. أكد راماشاندران ما عرضه الفيلم! وأخبرني أن إدراكنا لما نبصر يمر بمستويين، الإبصار اللاواعي، وفيه نبصر دون أن ندرك! ومن ثم يتعامل الضريير (إذا كان لا يزال يملك هذه القدرة) مع ما حوله ويتحاشاه دون أن يدرك أنه يُبصر! بعد ذلك يأتي المستوى الثانى، وفيه نعى ما نبصر (الإبصار الواعى)! وتقوم بذلك منطقة في المخ تُعرف بمنطقة تريبط الإبصار⁽⁶⁾.

قلت في نفسى.. سبحان الخلاق العظيم.

(1) Association areas.

(2) OAA = Orientation association area.

(3) AAA = Attention association area.

(4) The Verbal Conceptual association area.

(5) قام الممثل عادل إمام بتمصير القصة في فيلمه «أمير الظلام».

(6) Visual Association area.

3 - أنا... ذات فاهمة مُفكرة

يطرق مخي في الثانية الواحدة عدد هائل من المعلومات، وبالرغم من عظم هذه المُسْتِنَات، يقوم المخ بتكوين تصور متناسق للعالم من حولى. ولتصوير مدى صعوبة هذه المهمة أعرض عليك مقارنة طريفة: إذا نظرت طفلة إلى قطة بيضاء ذات بقع برتقالية، ثم عُرِضَتْ عليها وسادة بيضاء بها بقع برتقالية، وكلب أسود، فإن الطفلة ستدرك أن الكلب أقرب إلى القطة، بينما سيُرَجِّح الكمبيوتر أن الوسادة أقرب إلى القطة لتشابه ألوانهما!. كيف قام مخ الطفلة بهذه العملية شديدة التعقيد؟

آليات الفهم

أجابني راماشاندران، عندما طرحت عليه هذا السؤال: من أجل الوصول إلى تصور متناسق للعالم، زُوِدَتْ أُمُحَاخُنَا بعدد من «الآليات» الفطرية (الغريزية) التى تعمل فى تجانس تام من أجل أن نَظُر الكائن الواعى المفكر، الذى يفهم ويحلل ويؤوّل العالم من حوله.

من بين هذه الآليات، «آلية التجميع»، التى تمكنا من أن ننظر إلى الأوراق والفروع والجذع والجذر باعتبارها شجرة واحدة، كما تمكنا من رؤية العديد من الأشجار ومجارى المياه والحیوانات، كغابة واحدة. وفى المقابل، تمكنا «آلية التفكيك» من اختزال الموجودات إلى أبسط عناصرها، فبها نرى النظام البيئى الواحد المتكامل (كالطبيعة) كمجموعة من المنظومات البيئية المتعددة (مناخ - نباتات - مرتفعات...)، وننظر إلى شعب واحد كعدد من الأفراد.

ومن تلاقى التجميع والتفكيك، تنطلق المفاهيم العامة. فنرى الذئب والثعلب والكلاب كمجموعة واحدة أسميناها «ذوات الأنياب»، وتقوم بهذه المهمة «آلية التجريد». وقد مكنتنا هذه الآلية من أن نتعامل أيضًا مع المفاهيم المجردة (التي تتجاوز الحواس الخمس) وأن نضع النظريات العلمية والأفكار الفلسفية والأيدولوجيات السياسية، وأن نفهم العقائد الدينية.

قاطعت راما قائلًا له: منذ قرابة الثلاثين عامًا، كنت مهتمًا بالشعر العربى بعصوره المختلفة (ابتداء من الشعر الجاهلى وحتى الشعر الحديث)، وكثيرًا ما يثور فى خاطرى تساؤل؛ أكل هذا

الثراء والغنى وليد ثمانية وعشرين حرفاً من حروف اللغة العربية؟ وكل هذا الإبداع هو نتاج توليفات لا حصر لها على عدد محدود من بحور الشعر؟ أجابني راماشاندران قائلاً: إنها «آلية التوليد»، القدرة على إنشاء عدد غير محدود من التعابير من رموز محدودة؛ كترتيب الحروف والكلمات، وتسلسل النغمات الموسيقية، وإنشاء سلسلة من الرموز الرياضية.

علقت على إجابة راماشاندران قائلاً له: أرى أن الخالق عزَّجَلَّ قد استخدم آلية التوليد في الخلق؛ فكتب الشفرات الوراثية لجميع الكائنات من أربعة حروف فقط، كما بنى مئات الآلاف من بروتينات الكائنات الحية من عشرين حمضاً أمينياً، وأنشأ هذا الوجود المهول من شحنتين كهربائيتين فقط؛ السالبة والموجبة. بهذا تكون «آلية التوليد» إحدى مناطق الالتقاء بين الحكمة الإلهية وبين عقلي البشري، الذي شاء الله عزَّجَلَّ أن يكون نفخة من روحه.

هز راماشاندر رأسه معجباً بطرحي، واستأنف عرضه لآليات الفهم قائلاً: إن ما مضى من آليات الفهم (التجميع - التفكير - التجريد - التوليد) لم يكن لها أن تعمل لولا «آلية الترميز» التي أعطت كل شيء اسماً، وأعطت كل نغمة موسيقية علامة. إن هذه الرموز قد مكنتنا من أن نحفظ بـمعارفنا وأن نتبادلها وأن نُورِّثها للأجيال التالية. بل إن الرموز قد مكنتنا من أن نفكر!

وتقوم «آلية الكم» بتوجيه تعاملنا مع الكميات (الوقت - المسافة - الأوزان...) في حياتنا اليومية. ولأهمية ذلك صار «تكميم العلم» (أن يُقاس كمياً) هو هدف كل العلوم، فما نضجت الفيزياء والكيمياء إلا بعد أن تم تكميمها، وإلى هذا يصبو علم البيولوجيا، وبهذا يحلم المتخصصون في العلوم الإنسانية.

ومن أجل تعميق فهمنا للأشياء، تقوم أمخاخنا بوضعها في وجودين متضادين؛ أعلى وفي مقابله أسفل - داخل وخارج - قبل وبعد - سالب وموجب - عالم الغيب وعالم الشهادة، وتقوم بتلك المهمة «آلية الشق الثاني».

أما «آلية السببية» التي تعيننا على فهم الوجود كمجموعة من المقدمات (الأسباب)، تتبعها النتائج، فهي التي دفعت الإنسان للبحث عن علل الأشياء، ومن ثم دفعت تقدم العلم والفلسفة، كما كانت ضرورية لتجذُّر الديانات في نفوس البشر إذ تدفعنا للبحث عن أجوبة لتساؤلاتنا الوجودية الأساسية.

وبعد ذلك، فإن ما في عقولنا من معارف ومعلومات ما كان له أن يخرج إلى الوجود إلا «بآلية الإيجاد»، التي تحولها إلى وجود حسي أو مادي، فيها تحول معلوماتك النظرية إلى عمليات جراحية، وبها يحول المهندس أفكاره إلى بنايات وأجهزة.

قلت لراما مقاطعاً، إن جميع ما مضى من آليات يشارك في رسم صورة الوجود لعقولنا بشكل متناسق، وهذه مهمة قد يقوم بها روبوت متقدم تم برمجته لذلك، أليس هناك إضافة تعطي تلك الآليات الشكل الإنساني؟ أجابني راماشاندران من فوره: إن عقولنا لا تصبح عقولاً إنسانية إلا بعد أن يتم مزج كل ما سبق من مدركات بالمشاعر والانفعالات. وإذا كانت الآليات السابقة تمدنا بالقدرة على تحليل وفهم الوجود من حولنا، فإنها لا تمدنا بالدافع النفسي لفعل الشيء أو تركه، فإن ذلك يحتاج إلى المشاعر، كالخوف من شيء، والتعلق بشيء، والرغبة في صحبة الآخرين، والرغبة في الزواج، والرغبة في البقاء. ويحتاج ذلك كله إلى «آلية الانفعال»، التي لولاها لما صرت الكائن الذي هو أنت.

قلت لراما... أرى أن بعض الكائنات تقوم بأنشطة تبدو منها أنها «تفكر» بل إنها تؤديها بدقة كبيرة، فهل هي فاهمة لما تفعل؟

قال راما؛ ينبغي في البداية أن نُعرِّف التفكير: مع الصعوبة الجمّة في تعريف المجردات، يمكننا تعريف التفكير بأنه «قدرة المخ على التعامل مع الرموز (بشكل مفتوح) مع الالتزام بالقواعد». ولكن ما معنى (بشكل مفتوح)؟ فلنجب بمثال؛ يلتزم العنكبوت عند نسج شبابه بقانون توتر الأوتار المشدودة⁽¹⁾، لكن هل يعرف العنكبوت هذا القانون؟ إن مخ العنكبوت لا يعرف القانون أصلاً، لكنه يلتزم بتطبيقه بخطوات عملية ثابتة عند نسج شبابه، ولا يستطيع أن يستخدمه في أغراض أخرى. هذا بخلاف الإنسان، فالمهندس يدرس القانون في علم الفيزياء، ويستطيع تطبيقه في استخدامات لا حصر لها (وهذا معنى بشكل مفتوح)، وهذا أحد استخدامات التفكير.

وأضاف راما: إن معظم المعارف الإنسانية تقع بين هذين الطرفين؛ الإدراك العنكبوتي المحدود، والفهم المجرد القابل للتطبيق المتعدد المفتوح.

(1) Tension of stretched strings Law = Hook's Law.

قلت لراما: أفهم من طرحك أن هناك وظيفتين عقليتين يقوم بهما المخ الواعي في تتابع متلاحق؛ وظيفة الإدراك لما حولنا، ثم وظيفة فهم ما ندرك، ومن ثم فإن هذه الوظائف الثلاث المتتابعة (الوعي - الإدراك - الفهم) هي أعمدة عملية التفكير.

هز راما شاندران رأسه مؤيداً لما أقول.

4 - أنا... ذات متوحدة متجسدة، ذات خصوصية

لا شك أن «الواحدية» من أهم صفاتي، فجميع سمات الذات وروافدها تصب في أنها تخص «شخص واحد»، لذلك فالقرارات التي يتخذها العقل تكون لمصلحة ذلك الشخص، الذي هو «أنا».

وهذا الشخص الواحد ليس وجوداً اعتبارياً أو وجوداً غير مادي، بل إنني أنا - وكذلك أنت - وجود «مرتبط بجسد مادي واحد»، نستشعر أبعاده في الوجود المحيط، حتى وإن أغمضنا أعيننا. وقد تم المحافظة على «خصوصية» ذاتي الواعية المتوحدة المتجسدة، بأن أصبحت كل مدركاتي وحياتي العقلية خاصة بي، لا يطلع عليها الآخرون.

ولا ينتقص من هذه الخصوصية أن يشاركني الآخرون فيما أحسه من أحاسيس جسدية!! أعلم أن هذه الإضافة الأخيرة سندهشك، لكنني ما زلت أذكر عندما كنت أخطب جرحاً في ذراع مريض، وكان أخوه يحس بوخز الإبرة في ذراعه! ويرجع ذلك إلى وجود الخلايا العصبية المعروفة بـ «عصبونات المحاكاة»⁽¹⁾ والتي سيحدثنا عنها راما شاندران بعد قليل.

خلل التوحد والتجسد

قال راما شاندران عندما تناقشت معه حول سَمِّي التجسد والتوحد:

إن في أمخاخنا صورة فطرية لأجسادنا Body image، ويتم تدعيم هذه الصورة عن طريق إشارات حسية مستمرة من مختلف أجزاء الجسم. لكن هناك أنواعاً من الخلل تؤثر في استقبال هذه الإشارات فتكون النتيجة خللاً في شعورنا بالتجسد وكذلك بوحدة الذات.

إن شعورنا بذواتنا وبخصوصيتنا يرجع إلى التنسيق بين نشاط عصبونات المحاكاة

(1) عصبونات المحاكاة Mirror Neurons، لنا عودة إليها بمزيد من التفصيل صفحة 60.

(التي تجعلنا نشعر بما يشعر به الآخرون فيحقق لنا الإحساس بالتمازج مع الآخر)، وبين الآليات الكابحة لهذه العصبونات. لذلك فإن اختلال هذا الاتزان يؤدي إلى خلل في شعورنا بخصوصيتنا. لا تندش، فهذا أمر شائع. ففي الحب الرومانسي يشعر المحب بامتزاج مع من يحب. وفي متلازمة كوفاد⁽¹⁾ يشعر الزوج بأعراض الحمل (انتفاخ البطن، غثيان، قىء...) مشاركة منه لزوجته الحامل. وفي مرض التوحد⁽²⁾، عادة ما يخطف الطفل ويخاط في كلامه بين «أنا» و«أنت»!. ويظهر هذا الاختلال أيضًا في إحدى آليات الدفاع النفسي لفرويد وهي «الإسقاط»⁽³⁾ فنجد أن الإنسان يتنكر لمشاعره غير السوية وينسبها إلى الآخرين.

وأضاف رامان، ولا شك أنك سمعت بالمرضى الذين يشعرون أنهم أسرى لجسد من الجنس الآخر، ويسعون حثيثًا لتغيير هيئة أجسادهم إلى هذا الجنس⁽⁴⁾. ومن الحالات النادرة لخلل التوحد أن يشعر المريض أن هناك نسخة أخرى منه⁽⁵⁾، وكذلك المريض الذي ينكر أن ذراعه المشاولة تخصه بل يؤكد أنها تخص أمه أو أخيه⁽⁶⁾، لذلك قد يطلب بتر هذه الذراع (وبالفعل يجري نصف هؤلاء المرضى جراحة البتر!)⁽⁷⁾.

ألى هذا الحد يكون إدراكى لتوحدى وجسدى وخصوصيتى عملية معقدة؟

وإلى هذا الحد يمكن أن يضطرب إدراكى لذائقى!

5 - أنا... ذات حرة

لها إرادة، وقادرة على الاختيار

يدهشنى كثيراً أن بعض المدارس الدينية والفلسفية تدعى أنى مُجَبَّرٌ فى جميع تصرفاتى، وأن يرى

(1) Couvade Syndrome.

(2) Autism.

(3) projection.

(4) تعرف هذه الحالة بـ Transsexuality.

(5) تعرف هذه الحالة بـ Reduplication.

(6) تعرف هذه الحالة بـ Somatoparaphrenia.

(7) تعرف هذه الحالة بـ Apotemnophilia.

بعض البيولوجيين أن هناك حتمية بيولوجية، أي أن سلوكي تفرضه جيناتي. كذلك ترى المدرسة التربوية أن سلوكي محصلة لأسلوب تربيتي ونشأتي، وفي النهاية فلا إرادة لي ولا حرية اختيار.

إن قضية «هل الإنسان مُسَيَّرٌ أم مُخَيَّرٌ» التي شغلت الفكر البشري كثيرًا - وما زالت - ما كان ينبغي لها أن تُطرح، فسلوكنا اليومي تجاه ما يمر بنا من مواقف خير شاهد على حرية الإرادة؛ فأنت ببساطة تستطيع أن تستكمل قراءة هذا الفصل من الكتاب أو أن تغلقه.

وأقول للمتدينين القائلين بالجبر - ظنًا منهم أن في ذلك كمال التنزيه لله عَزَّجَلَّ - إن نفي حرية الإرادة يعني أن كل الديانات هُراء، فهي تقوم على الثواب والعقاب تبعًا لأفعالنا التي نقوم بها بناء على اختياراتنا الحرة. ونصوص القرآن الكريم المُحكمة تجزم بذلك⁽¹⁾.

ويمكن تعريف حرية الإرادة بأنها قدرتي على الاختيار بوعي بين بدائل، في الوقت الذي يمكنني فيه أن أقوم باختيار آخر.

وانطلاقًا من قناعة علم النفس بإرادتي الحرة، يتمسك القانون الجنائي بالآلية التي إرادتي بارتكاب جريمة ما إلا إذا توافرت لدي عند القيام بالجريمة أربعة شروط: أن أكون قادرًا على تخيل بدائل أخرى للفعل المطروح، وأن أكون قادرًا على الامتناع عن الفعل، وأن أكون واعيًا بنتائج فعلي على المدى القريب والبعيد، وأخيرًا أن أكون راغبًا في النتائج التي ينتج عنها الفعل. هل هناك تأكيد لأهمية حرية الإرادة أكثر من ذلك؟

للاختيار آلياته

عندما حملت القضية إلى راماشاندران، أيد بشدة مفهوم حرية الإرادة، بل وأكد لي أن مفهوم ذاتي الحرة لم يعد قضية دينية فلسفية، بل إن العلوم العصبية الحديثة قد توصلت إلى الآليات المخية التي تقوم بالاختيار. ففي البداية، يطرح نصف المخ الأيسر الاحتمالات المختلفة تجاه الموقف الواحد⁽²⁾، ثم يقوم فصّي المخ الأماميين بالاختيار بناء على قيم الإنسان⁽³⁾.

(1) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا﴾ (١٠) ﴿وَقَدْ غَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ (١١) [الشمس]، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...﴾ (٢١) [الكهف].

(2) يقوم بهذه المهمة التلفيف فوق الحافي Supra marginal Gyrus.

(3) يدفَعني التلفيف الحزامي الأمامي Anterior Cingulate gyrus للاختيار بناء على قيمي، ويكون ذلك بتوجيه من القشرة المخية قبل الأمامية Prefrontal Cortex.

وحتى يبعد راما عن ذهني تمامًا أن تكون حرية الإرادة ملكة إنسانية غيبية ليس للمخ المادى دور فيها (كما يعتقد كثير من المتدينين)، روى لى قصة المريضة أليس، التي أصيبت بجلطة في الشريان المغذى للجسم الجاسى⁽¹⁾ (الذى يصل بين نصفي المخ ويحقق تنسيق العمل بينهما) أدت إلى أن يعمل كل من نصفي مخ أليس بشكل منفصل عن الآخر⁽²⁾. كانت شكوى أهل المريضة أنها - كل فترة - تمد يدها اليسرى إلى عنقها وتحاول أن تخنق بها نفسها رغماً عنها! ثم يرونها تمد يدها اليمنى لتزع يدها اليسرى عن عنقها!! كان تفسير راما أن المراكز الشعورية في نصف المخ الأيمن تعانى من الاكتئاب والرغبة في الانتحار، فكانت تدفع اليد اليسرى لتنفيذ المهمة. وفي الوقت نفسه كان نصف المخ الأيسر (الأكثر منطقية) يقوم بتوجيه ذراع أليس اليمنى للدفاع عنها بنزع اليد اليسرى⁽³⁾!!

يا الله!! إرادتان متضادتان لدى إنسان واحد.

6 - أنا... ذات ممتدة عبر الزمن وقادرة على الانتقال فيه

تعلمت السباحة في سن السابعة، وتعلمت ركوب الدراجات في العاشرة، وبالرغم من انقطاعى عن ممارستهما لسنوات طويلة، فإننى أعود إلى ممارستهما بسهولة - دون احتياج لأن استحضر - بشكل واع - كيف أضرب الماء بيديّ وكيف أُبدل بساقيّ. إن تلك الذاكرة الإجرائية⁽⁴⁾ (غير الواعية) يشاركنى فيها الكثير من الحيوانات.

وما زلت أذكر أن رفيقى في ممارسة السباحة كان اسمه حسن، وأن دراجتى كانت حمراء اللون. ولما كان قرد الشمبانزى يعرف (على الأرجح) أن الموز لونه أصفر، فلا شك أنه يشاركنى أيضاً ذاكرة المعانى⁽⁵⁾ هذه.

(1) Corpus Callosum.

(2) تُعرف هذه الحالة بـ «متلازمة المخ المنقسم - Split Brain Syndrome».

(3) تُعرف هذه الحالة المرضية بـ «متلازمة اليد الغريبة - Alien Hand Syndrome».

(4) Procedural Memory.

(5) Semantic Memory.

وإذا كانت ذاكرة المعاني تشبه قاموس اللغة، فلي ذاكرة ثلاثة تشبه الدفتر الذي أدون فيه مذكراتي، وهي «ذاكرة الأحداث»⁽¹⁾، وهي الخاصة بأن أتذكر -مثلاً- أحداث ثورة يناير وماذا كان قبلها وماذا كان بعدها. كما أستعمل ذاكرة الأحداث في ترتيب ما يقع من أحداث بشكل تتابعي زمني؛ هذا ماضٍ وهذا حاضر، بل تمكنني أيضًا من أن أخطط للمستقبل وأتوقع ما يمكن أن يحدث فيه، وهذا ما جعلني أستشعر أنني ذاتٌ ممتدة لها استمرارية، ولست مجموعة من الأحداث يرتبط كل منها بذات منفصلة.

إن ذاكرة الأحداث (بهذا المفهوم) خاصة بالإنسان، فهي قد حققت لنا (بشكل متفرد) ما صار يُعرف بـ «الانتقال العقلي عبر الزمن». لقد مكنت أسلافي من بذر البذور وترقُب إنباتها في المستقبل، ومن تصور شكل الأداة الحجرية التي ينبغي صنعها من أجل استخدامها فيما بعد في الصيد. وتُعرف ذاكرة الأحداث وذاكرة المعاني بالذاكرة التقريرية (في مقابل الذاكرة الإجرائية)، وقد أعانت الذاكرة التقريرية (بلا شك) أسلافي على ابتكار اللغة وتطويرها.

خلل الذاكرة

وبينما كنت أتأمل استمرارية ذاتي عبر الزمن؛ كيف أنها نفس الذات التي مر بها كذا وكذا، وتمارس الآن كذا، وستقوم غدًا بكذا، وكيف أن لها القدرة على الارتجال عبر الزمن جينة وذهابًا باستمرار، قطع راماشاندران رحلتي العقلية عبر الزمن، وقال لي:

لا شك أنك خلال عملك في جراحات الحوادث قد صادفت بعض مرضى إصابات الرأس، الذين يجدون صعوبة في استرجاع ما حدث خلال الأسابيع أو الشهور السابقة للإصابة، لكنهم يذكرون ما وقع من أحداث بعد الإصابة⁽²⁾.

وفي حالات أخرى⁽³⁾ يظل المريض محتفظًا بكل ذكرياته السابقة، وينحسر عجزه في عدم القدرة على تكوين ذكريات جديدة. ويحدث هذا النوع من فقدان الذاكرة نتيجة لتلف منطقة فرس البحر في جانبي المخ، مما يشير إلى أن هذه المنطقة مسئولة عن الاحتفاظ بالأحداث الجديدة فقط.

(1) Episodic Memory.

(2) يُعرف هذا النوع بفقدان الذاكرة للسابق Retrograde Amnesia.

(3) يُعرف هذا النوع بفقدان الذاكرة لللاحق Anterograde Amnesia.

وهناك نوع من فقدان الذاكرة أكثر ندرة، فيه يفقد المريض ذاكرة الأحداث التي وقعت منذ الطفولة، كما يعجز عن تكوين ذاكرة للأحداث الجديدة، بينما تظل ذاكرة المعاني والذاكرة الإجرائية على ما يرام. ولا شك أن هذا النوع الأخير يؤثر على إدراكنا لذواتنا حيث إنه يعتمد على ما يقع من أحداث إلى حد بعيد.

وأضاف راماء، كيف يكون حال الإنسان لو فقد ذاكرتي الأحداث والمعاني فيما يخص الماضي والحاضر؟ لا شك أنه سيكون في حالة يرثى لها، فلن يتذكر حتى نفسه، لن يُعَد إنساناً له ذات، وإن كان سيظل قادراً على الأمور الإجرائية كالسباحة وركوب الدراجات، وأضاف: حمداً لله، لم ألتق بحالة مثل هذه من قبل.

ثم ختم راماشاندران طرحه قائلاً: تذكر دائماً أن الإنسان قد صار إنساناً عندما أصبح قادراً على طرح هذه التساؤلات التي تحتاج الإجابة عنها إلى الذاكرة:
«من» فعل «ماذا» «لن»، و«متى» و«أين» و«لماذا»؟⁽¹⁾.

7 - أنا... كائن خيالي...

بالرغم من أن الفوارق ضئيلة جداً بيني وبين باقي الرئيسيات، في التشريح ووظائف الأعضاء والجينات، وبالرغم من كل ما قيل عن وجود مفاهيم حضارية لدى الشمبانزي والأورانج أوتان وربما الحيتان، فهناك كائن واحد لديه القدرة على تصور البدائل، وتوقع الأفضل والأسوأ، وتقدير النتائج مسبقاً والتخطيط لتحقيق أفضلها، وهذا الكائن هو «أنا». وقد تمكن الإنسان بذلك من بناء الحضارات وتحقيق التقدم التكنولوجي والعلمي والمادي، وحقق في الوقت نفسه الاستمتاع الروحي. فما مصدر اختلافنا هذا عن جميع الكائنات الأخرى؟

عالم الخيال

حملت هذا التساؤل إلى روبن دنبر Robin Dunbar (رئيس مركز أبحاث علم النفس

(1) هذا قول لعالم نفس اللغات ستيف بينكر Steve Pinker: who did what to whom, when, where and why? .Pinker

التطوري والسلوك البيئي بجامعة ليربول ببريطانيا)، علَّه أن يضع يدي على أهم جانب عقلي يجسد الاختلافات العقلية العديدة بين الإنسان وباقي الكائنات. فقال دنبر: لا أدري كيف أصف هذا الجانب العقلي الذي استشعره أثناء تعامله مع مختلف الحيوانات، ربما يكون قدرتنا على أن نتصور عالمًا خياليًا، فالإنسان هو الكائن الوحيد القادر على انتزاع نفسه من الواقع، وطرح التساؤل: كيف كان الحال يبدو لو كان الأمر على غير ما هو عليه الآن؟.

بالرغم من أن إجابة دنبر كانت مختصرة؛ إلا أنها كانت نافذة حتى النخاع. إنه لأمر هائل، أن يكون للإنسان حياة عقلية داخلية خيالية. إن هذا الخيال يقف وراء العلم والأدب والفلسفة والدين. فالعلم يقوم على التساؤل؛ لماذا صار العالم على ما هو عليه الآن، بينما كان يمكن أن يكون غير ذلك؟ إن العلم يقوم على البحث عن إجابة لهذه الـ «لماذا؟». كذلك يقوم الإبداع الأدبي على تصور أحداث خارج حياتنا اليومية، سواء كانت من نفس نمط هذه الحياة أو كانت حياة افتراضية مختلفة. إن هذه القدرة على تصور عالم مختلف تمكنا من وضع التصورات حول عالم روحى متسام، وحول وجودنا قبل النشأة الإنسانية وحياتنا بعد الموت؛ إن هذه القدرة - باختصار - تعين على الإجابة عن الأسئلة الوجودية المحورية التي شغلت الفلسفة ونزلت الديانات لتجيب عنها.

8 - أنا ... ذات ذكية مبدعة

عشت معظم حياتي أنظر إلى الذكاء باعتباره القدرة على التحصيل الدراسي⁽¹⁾، ثم اطلعت مؤخرًا على النظريات الحديثة⁽²⁾ التي تبين أنني أتمتع بأنواع متعددة من الذكاء، وأن لكل نوع مركز محدد في المخ، إذا أصابه العطب تأثر هذا النوع من الذكاء دون سواه.

وأول هذه الأنواع هو «الذكاء اللغوي»؛ ويتضمن تمكني من مهارات فهم اللغة، قراءة واستماعًا، وأيضًا مهارات إنتاج اللغة، كتابة ونطقًا⁽³⁾.

(1) كان عالم النفس الفرنسي «بنييه» أول من وضع اختبارات قياس الذكاء منذ حوالي مائة عام، وركز فيها على قدرات التحصيل الدراسي، وهذا ما أدى إلى شيوع هذا المفهوم.

(2) وضع عالم النفس هاورد جاردنر الأستاذ بجامعة هارفارد، نظرية الذكاء المتعدد Multiple Intelligence Theory عام 1983، وطرحها في كتابه «أطر العقل».

(3) مركز فهم اللغة هو منطقة فيرنيك الموجودة بالفص الصدغي الأيسر من المخ بجوار منطقة السمع. ومركز إنتاج اللغة هو منطقة بروكا التي تقع في الفص الأمامي الأيسر من المخ.

ثم يأتي «الذكاء المنطقي الرياضي»، ويتضمن تمكني من التفكير المنطقي، وكذلك التعامل مع الأرقام والقيام بالعمليات الرياضية. ولا شك أن هذا النوع من الذكاء، مع الذكاء اللغوي كانا وراء تفوقى في اختبارات التحصيل المدرسى واختبارات الذكاء التقليدية.

وهناك «الذكاء البصرى المكافى»، وبه أتعامل مع الوسط المحيط، فانتقل من مكان إلى مكان، وأحدد الأبعاد الثلاثة في الفراغ وأقرأ الخرائط. وقد أعاننى هذا الذكاء على الفوز ببطولات الشطرنج عندما كنت طالبًا في كلية الطب، ثم أعاننى بعد ذلك على أن أصبح جراحًا متميزًا، ويعين هذا الذكاء أيضًا أصدقائى من الملاحين الجويين والبحريين، وممارسى الرسم والنحت.

ومما أعاننى أيضًا كجراح، وأعان كذلك ممارسى فنون التمثيل ورقص الباليه والرياضات البدنية، ما يُعرف بـ «الذكاء الجسمى - الحركى»، إذ إنه يوجه استخدام الجسم أو أجزاء منه لأداء عمل معين.

ثم يأتي «ذكاء فهم الذات»، و«ذكاء فهم الآخرين»، وكما يشير اسميهما، فالأول يُمكننى من فهم مشاعرى وألويأتى ونقاط ضعفى وقوتى، ومن ثم يعيننى على تنظيم حياتى وعلاقاتى بالآخرين، وتحتاج هذه العلاقات إلى التعرف على مشاعرهم ودوافعهم ونواياهم، ويعين على ذلك الذكاء الثانى.

ومن الأمور التى كانت تثير تساؤلاتى، أن بعضًا من زملاء الدراسة الذين لم يكن مشهودًا لهم بالتفوق المدرسى قد حققوا بروزًا واضحًا فى حياتهم العملية، ثم أدركت سر ذلك عندما قرأت عما وصفه المتخصصون بـ «الذكاء الاجتماعى» و«الذكاء الانفعالى (العاطفى)»، وهما مطلوبان للنجاح فى حياتنا العملية، والمسئول عنهما بصفة خاصة ذكاء فهم الذات وذكاء فهم الآخرين.

أما «الذكاء الموسيقى» الذى يقف وراء المواهب العظيمة التى نستمتع بها فى هذا المجال، فلا يتمتع به فقط ممارسو الغناء والعزف والتأليف الموسيقى، بل لا بد أن يتوافر فيمن يتذوقون هذه الفنون.

ومما تميز به عالم البيولوجيا الكبير تشارلس دارون (صاحب نظرية التطور التى أقامت الدنيا ولم تقعد لها حتى الآن) قدرته على تصنيف الكائنات الحية، تلك القدرة التى يقف وراءها ما يعرف بـ «الذكاء التصنيفى»، المسئول عن إدراك وتصنيف أنماط الموجودات والمفاهيم على اختلاف أنواعها، والمسئول أيضًا عن بعض النشاطات مثل هواية جمع طوابع البريد.

ولما كنت دائماً أتساءل عن سر اهتمامي بالدين والمفاهيم الروحية والقضايا فوق الحسية منذ كنت صبيًا، فقد أشبع بعضًا من فضولي هذا أن أعلم أن العلماء يتحدثون مؤخرًا عما يعرف بـ«الذكاء الروحي أو الوجودي»، الذي يهتم بهذه المجالات⁽¹⁾.

ويبقى أن أقول إنني (كرجل) أتفوق في بعض أنواع الذكاء، كالذكاء المنطقي الرياضي والبصري - المكاني وفي التأليف الموسيقي، بينما تتفوق النساء في الذكاء اللغوي وفهم الذات وفهم الآخرين، ومن ثم الذكاء الاجتماعي والذكاء العاطفي.

لا تظن - قارئ العزيز - أن توافر أنواع الذكاء المختلفة قادر وحده على أن يُخرج للبشرية العباقرة والمبدعين! ويكفي هنا أن أذكر كلمة أينشتاين الشهيرة: «العبقرية 10% ذكاء و90% عرق».. أرايت السر؟

9 - أنا.. ذات تؤمن بالسببية

لا أحتمل أن أقف عاجزًا فاغترًا فاهي أمام الأحداث المهمة التي تمر بي في حياتي؛ كالموت والمرض، بل وتجاه كل ما يقع حولي، كهبوب الرياح وسقوط المطر واشتعال النار وخمودها. وذلك لأن الإيمان بأن «وراء كل حدث سبب» ملكة فطرية غريزية في عقولنا، تجعلنا نسعى لأن نفسر الأحداث، جليلها وبسيطها، لإشباع نهم الإنسان العقلي، وليصبح للعالم من حولنا معنى. لذلك وضع الإنسان الأساطير لتفسير الظواهر، المادى منها والغيبي، ثم استخدم عقله ليضع الفلسفات التي تجيب على هذه التساؤلات.

ولا شك أن العلاقة بين السبب والنتيجة أحد أهم الأدلة على وجود الإله الخالق عزَّجَلَّ. فهذا الكون الذي أثبت العلم أنه نشأ من عدم لا بد له من موجد أو وجد «المُفَرَّدَة Singularity» التي بدأ بها «الانفجار الكوني الأعظم»، ووضع القوانين التي ستحكم سلوك المكونات الأولية للكون، ولا بد أن يكون وضع تلك القوانين قد تم قبل وجود هذه المكونات، ولا يقوم بذلك إلا إله خالق عليم حكيم قادر.

(1) سيكون لنا عودة مرة أخرى للحديث عن هذا النوع من الذكاء.

هنا تتوقف السببية

كثيراً ما قدمت الطرح السابق في حواراتي ومناظراتي مع الملاحدة، ولما كانت هذه الحجة ذات قيمة استدلالية عالية، فإن معظمهم يتهرب منها بطرح تساؤل (عهدناه كثيراً) يعتمد أيضاً على العلاقة بين السبب والنتيجة، فيقول: إذا كان الله قد خلق الكون، فمن خلق الله؟ إن إجابتنا عن هذا السؤال - أيضاً - لا يمكن دحضها، وهي أن تسلسل السبب والنتيجة لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، ولا بد أن يصل في القَدَم إلى سبب أول لا مسبب له، وهذا المفهوم هو ما يقول عنه المناطقة أن «التسلسل يمتنع». لذلك فالسؤال عن «سبب من لا سبب له» سؤال لا معنى له، بل سؤال غبى. وإذا كنا عاجزين عن «تصور» موجود لا موجد له، فقد رأينا أن «العقل والمنطق» يُحْتَمَن وجوده، لذلك يطلق المناطقة على السبب الأول أنه «واجب الوجود». عندما نصل بالحوار إلى ذلك الحد، يقول الملاحدة: ولم لا يكون واجب الوجود هو الطبيعة؟ وهذا أيضاً طرح مرفوض، فواجب الوجود لا بد أن يكون سابق للزمان والمكان والطاقة والمادة، والطبيعة ليست كذلك. من ثم لا يكون واجب الوجود والسبب الأول إلا الله عَزَّوَجَلَّ⁽¹⁾.

10 - أنا... ذات تحب الاستطلاع والبحث

أنا بطبيعتي شغوف بالمعرفة، وقد دفعني حب الاستطلاع إلى البحث. والبحث في حد ذاته ليس سمة قاصرة على الإنسان، فكل الكائنات تبحث. النباتات تبحث عن الضوء، والحيوانات تبحث عن الغذاء، والميكروبات تبحث بعضها عن الضوء وبيحث البعض الآخر عن الأكسجين، وكلها تتحرك بعيداً عن العوامل الضارة.

كذلك الحيوانات الأكثر تطوراً، وعلى رأسها الشمبانزى، تمارس البحث. لكن لماذا أصبح الشمبانزى مهدداً بالانقراض (بالرغم من التشابه الجيني الشديد بينه وبينى) بينما ساد الإنسان كوكب الأرض وتطلع إلى الفضاء الخارجي؟!.

(1) تفاصيل نظرية الانفجار الكوني الأعظم ودلالته على وجود الله عَزَّوَجَلَّ، راجع الفصلين الأول والثاني من كتاب «كيف بدأ الخلق» للمؤلف - مكتبة نيويورك للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 2012.

لقد اقترح بعض البيولوجيين تسمية الإنسان بـ«الإنسان الباحث Homo quaevens» قياساً على اسمه البيولوجي الحالي «الإنسان العاقل». فلماذا نحن متميزون في البحث؟
بُحْثُنَا وَبَحْثُ الحَيَوَانَات

عندما حملت السؤال إلى راماشاندران، أجبني بأن الفرق بين بحث الإنسان ومن سواه من الكائنات الحية هو فارق دقيق وشاسع في الوقت نفسه؛ فبحث الإنسان ليس بدافع الضرورة والفائدة المباشرة (كباقي الكائنات)، ولكن من باب حب الاستطلاع والمعرفة وغريزة الإيمان بالسببية. هل هناك فائدة عملية مباشرة لاستكشاف منابع النيل، أو إنزال رجل على القمر، أو... ما الذي دفع أسلافنا للخروج من أفريقيا إلى آسيا وأوروبا، منذ فترة تراوحت بين 1.9 مليون - 100.000 سنة. وما الذي دفعهم للانتقال من آسيا جنوباً وعبور المحيط الهندي للوصول إلى أستراليا في قوارب بدائية منذ حوالي 50.000 سنة. وما الذي دفع آخرين منذ 12.000 - 16.000 سنة لعبور سيبيريا والوصول إلى آلاسكا ثم الأمريكتين. لماذا تحمّل أسلافنا مخاطر تلك الهجرات؟

وأضاف؛ إن من السلوكيات الهامة عند الأطفال أنهم، ينظرون بتركيز أكبر ولمدة أطول إلى الأشياء الجديدة، وبتكرار ذلك يعتادون هذا الجديد ويقل اهتمامهم به، فإذا حدث تغيّر في هذا الشيء عاد اهتمامهم به، وهذا ما يُسمى بتتالي الاعتياد والتجديد.

سألت راما، لكن لماذا يُفضّل الإنسان جمع معلومات جديدة (استكشاف) على الاكتفاء والالتزام بما عنده من معلومات تكفل له السلامة؟

أجبني؛ إن الأمر يرجع إلى بنية المخ، ففي دراسة شيقة قام بها عام 2006 فريق من الباحثين في جامعة لندن، وجدوا أن مناطق معينة تنشط في المخ عند اتخاذ قرارات المخاطرة والمغامرة، بينما تنشط مناطق أخرى عند اتخاذ القرارات المحافظة. وقد وجدوا أن مناطق المخاطرة مقارنة بمناطق الالتزام أكبر في مخ الإنسان عما سواه من الرئيسيات.

11 - أنا... ذات تعاطفية اجتماعية

بصفتي جراحاً أبذل أقصى طاقتي من أجل إنقاذ حياة مريض أصيب في حادث، مدفوعاً في

ذلك بدوافعي الإنسانية قبل التزامي المهني، فإنه يدهشني كثيراً ما أطلعته في التاريخ من نماذج الحكام المستبدين، ابتداء من فرعون موسى إلى هولاكو إلى هتلر وموسوليني، وكذلك استئصال المستوطن الأبيض الأمريكي للهنود الحمر والمحاولات المشابهة في فلسطين، والتصفية العرقية في البوسنة والمهرسك، وإلقاء قنبلتين ذريبتين على هيروشيما ونجازاكي، والقائمة لا تنتهي من عمليات إبادة مئات الآلاف والملايين من البشر. ما تفسر هذا السلوك مقابل سلوك الطبيب الذي يكون أحياناً مستعداً لأن يضحي بحياته من أجل إنقاذ مريض واحد؟

إن ما عرضت من نماذج شاذة - مهما تعددت - لا تنفي طبيعتي البشرية التعاطفية التي فطرت عليها، والتي ينبغي أن تتعهدا تربية الوالدين لأطفالهما بالرعاية والتنمية. أما إذا افتقرت التربية إلى التوافق والحنان، انطفأت في نفوس الأطفال جذوة التعاطف مع الآخرين، فيشبون وقد امتلأت - قلوبهم باللامبالاة بمن حولهم، وينشأون أمساحاً بشرية تمارس كل أخلاقيات الانحراف الاجتماعي والتحرش.

وإذا أردت أن تعرف مدى تميزي بالتعاطف، قارن سلوكي هذا بما سواي من الكائنات. فإذا كنا بني البشر نرعى أبناءنا لأكثر من عشرين سنة، وتستمر علاقة البنوة والأمومة والأبوة طوال الحياة، فإن مثل هذه العلاقة لا تستمر في باقي الثدييات إلا شهراً أو سنوات قليلة، وبعدها يصبح الصغار الذين كبروا منافسين لأمهاتهم وآبائهم في كل شيء. كذلك فإن إناث المفصليات (كالعناكب والعقارب) والحشرات (كالنحل) تقتل ذكورها بعد الإخصاب، كما تلتهم إناث الزواحف صغارها فور فقس البيض ما لم تبادر بالهرب، ولا شك أن هذا ليس سلوكاً تعاطفياً بالمرّة!

السلوك الاجتماعي الإنساني العميق

سألت راماشاندران عن سلوكي التعاطفي، منشأه وآلياته، فأجابني مشيراً إلى رأسي: هل تعرف أن في دماغك هذا عقليين؛ «عقل منطقي» مركزه القشرة المخية الأمامية، و«عقل انفعالي» مركزه الجهاز الحوفي، خاصة تجتمع من العصبونات يشبه شكل «اللوزة» ويتسمى باسمها⁽¹⁾.

(1) العقل المنطقي: Rational Mind - العقل الانفعالي: Emotional Mind

الجهاز الحوفي: Limbic System - اللوزة: Amygdala

ويقف العقل المنطقي وراء كل إنجازات الحضارة الإنسانية من فكر وعلم وفن وثقافة، كما يقوم بتوجيه مشاعر الإنسان والتحكم في انفعالاته. أما العقل الانفعالي فهو الذي يتحكم فينا حين تسيطر علينا الشهوة أو الغضب أو الوله في الحب أو التراجع خوفاً؛ إنه المسئول عن انفعالاتنا وعواطفنا.

ولاشك أن الدوائر العصبية بين العقلين هي محور كل الممارك - وكذلك اتفاقات التعاون - بين العقل والقلب، أي بين التفكير والشعور. إن تلقاً أو توترًا يصيب تلك الدوائر العصبية والتي يحكمها تناغم دقيق يؤدي إلى اضطراب نفسي عصبي شديد.

وأضاف راما... لاشك أن معظم عواطفنا وانفعالاتنا لا اعتبار لها دون التعامل مع الآخرين، فمعظمها موجه تجاههم: الحب - الكره - الخوف - الكبرياء - الغضب - الاحتقار - الإشفاق - الغيرة... بل كثيرًا ما نوسع من مجال تعاطفنا ليشمل الموجودات غير الإنسانية، فأنا أحب الحيوانات الأليفة وأحب الطبيعة، وأكره الزلازل وأيضًا غصن الشجرة الذي أصابني في عيني، وهذه المشاعر تجاه الإنسان وغير الإنسان منزلة كبيرة في بنية الديانات، ولذلك أيضًا تصف علوم النفس والاجتماع الإنسان بأنه أكثر الكائنات اهتمامًا بالسلوك الاجتماعي.

استوقفت راما معترضًا؛ وقلت له: أليست أمم النحل والنمل أكثر اجتماعية منا نحن البشر؟ أليست تجمعاتها أكثر عددًا، كما أن كثافة مجتمعاتها أعلى وتعاملاتها ألصق، وتوزيع المسئوليات بينها أكثر صرامة؟

أجابني راما؛ يعترض أندرو ويتين (المتخصص في سلوك الحيوانات) على الذين يطرحون هذا الطرح، بأن السلوك الاجتماعي الإنساني يتسم «بالعمق»، إذ يختلف عن السلوك الاجتماعي لباقي الكائنات في أربعة جوانب. أولها، قدرة الإنسان على معرفة فيما يفكر الآخرون، وتسمى هذه القدرة بـ «نظرية العقل». والجانب الثاني هو مساهمة الحضارات الإنسانية - بما تحتوي عليه من علاقات اجتماعية - في تشكيل السلوك الاجتماعي للبشر بشكل أعمق كثيرًا عما تقوم به البيئة في تشكيل سلوك الحيوانات، حتى إن المتخصصين يصفون التأثيرات الحضارية بأنها «التأثير الوبائي»، إذ إن السبات الحضارية والثقافية تنتقل (ثم تتكاثر) من عقل لآخر في البيئة الواحدة. والجانب الثالث هو «اللغة»؛ تلك الوسيلة المثلى للتواصل ونقل ما في عقولنا من نوايا وأفكار ومعلومات للآخرين، مما يجعل للعقل الاجتماعي البشري عمقًا لا مثيل له. وأخيرًا

يأتي «التعاون» كسمة مميزة للسلوك الاجتماعي الإنساني، حتى إن المجموعات البشرية تسلك ككائن واحد، لكل فرد فيها دوره الذي يقوم به من أجل تحقيق أهداف الجماعة، تمامًا كما أن لكل عضو في جسم الإنسان وظيفته.

قاطعت راما قائلًا: إن سمة التعاون، التي تجعلنا ننظر إلى المجتمع ككائن واحد، شديدة الوضوح في مملكة النمل، ربما بشكل أوضح من مجتمعاتنا الإنسانية. فقال راما: ولكن يبقى فارقًا جوهريًا بينها وبين الإنسان، وهو الوعي العقلي الكامل لكل إنسان بدوره في خدمة الجماعة.

12. أنا... ذات ذات بيان⁽¹⁾

«أبوك السقّامات»

كلمات طالما سمعناها في صباننا تُنسب لبيغاء الجيران. وعندما كبرنا قرأنا أن القرد كنزى قد تعلم الكلام، وقرأنا أن قردة الشمبانزى والدلافين تُصدر أصواتًا تقابل كلماتنا التي هي رموزنا اللغوية. كما نشاهد في الفضائيات العلمية أفلامًا تبين أن لبعض الكائنات (كالحل والنمل) لغاتها التي تتواصل بها. هل يمكن أن نعتبر تلك الأصوات ووسائل التواصل التي تستخدمها الحيوانات بمثابة لغات تشبه لغات البشر، خاصة وأن القرآن الكريم يخبرنا بأن لبعض الكائنات لغاتها.

اللغة ملكة فطرية

حملت هذا التساؤل إلى ناعوم تشومسكي⁽²⁾، أبو علم اللغويات الحديث (شكل - 2)، لأروى

(1) أرى أن اصطلاح «البيان» هو أفضل وصف للغة الإنسان، وجاء ذكره في القرآن الكريم ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن].

(2) ناعوم تشومسكي Noam Chomsky: ولد في ديسمبر العام 1928، ويشغل منصب أستاذ كرسي اللغة في جامعة إم آي تي MIT، وتعد أعماله الأكثر أهمية في مجال «نظرية اللغة» في القرن العشرين، بل وامتد تأثيرها إلى علم النفس. وتشومسكي، إلى جانب تخصصه، عالم في الرياضيات والفلسفة وعلم النفس، وهو أيضًا إنسان مثقف صاحب اتجاه سياسي يتسم بالتعاطف مع بلاد الجنوب عمومًا (خصوصًا مع القضية الفلسطينية) وبمهاجمة الرأسمالية الأمريكية المتوحشة بصفة خاصة.

ظلماً في هذه القضية الجوهرية. قال تشومسكي: دعني أمهد للإجابة عن هذا التساؤل المهم بمقدمة وأمثلة أستخدم فيها لغتك العربية الرائعة:
انظر إلى هذا القول:

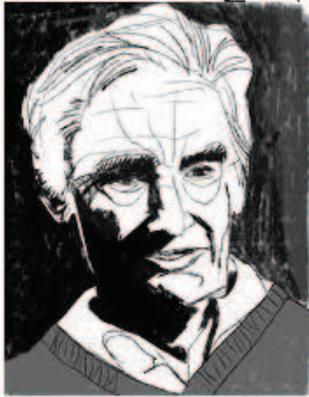
فإن الأخلاق الأمم ذهب **بقيت ذهبوا إنما ما هم أخلاقهم**

لعلك لاحظت أن القول عبارة عن بعثرة لكلمات بيت شعر حكيم العرب المتنبي:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت **فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا**

إن بنية الكلمات في القول المبعثر سليمة ومعالي الكلمات واضحة، ولكن لا معنى للقول، إذ إن كلماته لم تتبع قواعد معينة.

وانظر كذلك إلى هذا القول: الحقد الأخضر عديم اللون يتعلم التفاح.



(شكل - ٢)

أيضاً هو كلمات كل منها له معنى، ولكن ليس للقول معنى ولا يخضع لقواعد، بل إنه مليء بالتضارب (كيف يكون عديم اللون أخضر).

لعلك لاحظت من المثليين أن الجملة اللغوية تتكون من ثلاثة عناصر يتم نسجها معاً حتى لا تكاد تشعر بفرق بينها: الألفاظ؛ بنيتها ومعناها⁽¹⁾ - معنى الجملة⁽²⁾ - والقواعد اللغوية (النحو)⁽³⁾. ولا تكون الجملة صحيحة إلا إذا كانت عناصرها الثلاثة صحيحة.

ناعور تشومسكي Noam chomsky

كبير علوم اللغويات في القرن العشرين

ويضيف تشومسكي: لقد أثبت أن الطفل يولد وعنه معد لتكوين جمل صحيحة ذات معنى

(1) Lexicon.

(2) Semantics.

(3) Syntax.

بمجرد أن يسمع مثالاً أو مثالين صحيحين، فيقوم بالقياس عليهما⁽¹⁾. كما أثبت أن الجنس البشري بأكمله يتعامل مع اللغة بطريقة متماثلة على اختلاف أصوله ولغاته⁽²⁾، ومن هذا التشابه أن الجملة تتكون من فعل وفاعل ومفعول، وأن للأحداث زمنًا ماضيًا ومضارعًا ومستقبلًا، وغيرها.

تواصلنا وتواصل الحيوانات

بعد هذه المقدمة عاد تشومسكي لسؤاله وقال: إن لغة الإنسان تميزها عن الرموز والأصوات التي تستخدمها الحيوانات في التواصل عدة سمات:

□ تتميز لغات الإنسان بثراء شديد في المفردات، وكلماتها عبارة عن رموز عقلية تجريدية؛ فكلمة طعام مثلاً لا علاقة لرسمها أو نطقها بالطعام! أما القرد إذا أراد أن يُعبّر عن الطعام حرك فمه بصوت كأنه يأكل، كما أن رموزه الصوتية قليلة جداً، ولا يجمع أكثر من رمزين سوياً.

□ رموز الحيوانات مجرد منعكسات استثنائية تدل على أشياء أو أحداث حاضرة، أما الإنسان فلغته قادرة على التعبير عن الماضي والمستقبل أو عن معنى افتراضي تخيلي.

□ الرموز (الكلمات) التي يستخدمها الإنسان تحكمها قواعد، ويعتبر معظم اللغويين هذه السمة أهم مميزات اللغات الإنسانية.

□ تستخدم اللغة الإنسانية المجاز والاستعارة والتشبيه بشكل شديد التركيب، انظر كيف يُعبّر شاعركم الجاهلي امرؤ القيس ببراعة عن شدة همومه في الليل:

وليلٍ كموج البحر أرخى سُدوله علّى بأنواعِ الهمومِ لبيتلى

أما مجاز الحيوانات فهو بدائي وبديهي، كأن يشير القرد الذكر إلى عضوه التناسلي أمام ذكر آخر قاصداً إهانتته.

(1) أطلق تشومسكي على هذه السمة اسم: الأجرومية (النظام) الخلاقية Generative Grammar.

(2) أطلق تشومسكي على هذه السمة اسم: الأجرومية (النظام) العالمية Universal Grammar.

- تتفرد لغات الإنسان بوجود كلمات وظيفية (function words) لا قيمة لها خارج الجملة، مثل «ثم» و«عندما» و«And» و«If».
- يمكن إدراك اللغة الإنسانية بثلاث حواس (السمع - البصر - اللمس)، أما البغاء - مثلاً - إذا فقد صوته فقد لغته.

من كل ذلك نرى استحالة أن تكون اللغات الإنسانية تطوراً عشوائياً لأي من وسائل التواصل بين الرئيسيات، بل إنها ظاهرة جديدة تماماً انبثقت عند الإنسان، وعلى هذا المفهوم تقوم نظريتي التي وضعتها لتفسير نشأة اللغة، والتي أسميتها «نظرية الانفجار اللغوي الأعظم⁽¹⁾» محاكاة لنظرية الانفجار الكوني الأعظم الذي أوجد الكون من عدم.

اللغة والتفكير

أثارت إجابة تشومسكي العميقة، في عقلي تساؤلاً جذرياً آخر؛ إذا كان الإنسان لا يمكن أن يتحدث دون تفكير، فهل نستخدم في «التفكير» لغة غير منطوقة، هل حقاً لا نستطيع أن نفكر دون لغة؟!

لم أحتج كثيراً فيمن أحمل إليه السؤال، فليس هناك أفضل من راماشاندران، فارس هذا الميدان. قال راماشاندران: لا شك أن هناك بعض النشاطات التي تحتاج إلى تفكير ولا تحتاج إلى لغة. فإذا طلبت منك - مثلاً - تغيير مصباح السقف، وكان في الغرفة ثلاثة صناديق متدرجة الحجم، فالأرجح أنك ستضع الصندوق الأكبر تحت المصباح، ثم تضع فوقه الأوسط ثم الأصغر، وتصعد فوق الصناديق حتى تصل إلى المصباح⁽²⁾. أنت لم تقم بالتفكير باستخدام لغة صامتة للقيام بهذا الأمر، فأنت لم تقل في نفسك دعني أجرب الصندوق «أ» فوق «ب»... لكنك قمت بالتعامل مع الصورة البصرية للصناديق للوصول إلى الحل الأمثل. لكن من المدهش أن الدوائر العصبية التي تتعامل مع اللغة، هي نفس دوائر هذه العملية البصرية!

والآن ننظر إلى مثال آخر: إذا قلت لك أن أحمد أكبر من باسل وأن باسل أكبر من

(1) The Big Bang theory of Human Language.

(2) لا يقوم الشبانزي بهذه المهمة للوصول إلى الموزة من أول مرة، ولكن سيقوم بالعديد من المحاولات.

جاد، فما العلاقة بين أحمد وجاد؟ لا شك أنك ستفكر (ولتستخدم لغة الرموز): إن (أ) < (ب) و(ب < ج) إذا (أ < ج).

كيف امتلكننا القدرة على هذا الاستنتاج الذي يعتمد على التسلسل؟ هل هي قدرة فطرية أم مكتسبة؟ هل تعتمد على لغة داخلية تستعمل نفس دوائر اللغة المنطوقة في أمخاخنا؟ وهل سبقت اللغة التفكير المنطقي أم العكس؟ أم أن كلاً منهما ليس ضرورياً للآخر وإن كانا يتبادلان المصلحة؟

أسئلة عديدة محيرة أعجزت الفلسفة لقرون، وبدأ العلم التجريبي يدلى بدلوه للإجابة عنها. لكن الطريق مازال في أوله، فلا شك أن آلية ممارسة مليارات العصبونات⁽¹⁾ عملية التفكير شديدة الغموض، خاصة أنها لا تتم في مركز مخي واحد، ولكن تشارك فيها الكثير من مراكزه. لكن هذه هي مهمة العلم؛ أن يتوصل إلى الأجوبة خطوة خطوة عن طريق طرح الافتراضات وإجراء التجارب.

13 - أنا... ذات فنانة

متذوقة للجمال

قرأت حكمة هندوسية قديمة، أجابت عن الكثير من تساؤلاتي حول الجمال والفن، تقول الحكمة: «لقد أعطى الإنسان الحس الجمالي، الذي يجعله يتفاعل مع الجمال، ويرى اللمسة الإلهية في جميع ما حوله».

هناك من الشواهد ما يشير إلى أن هذا الحس الجمالي ليس أمراً مكتسباً وليس إفراراً للحضارة الإنسانية، ولكنه ملكة فطرية غريزية تجمع بيننا وبين الكائنات الأخرى. فإذا كنا نُعجَب بتناسق الزهرة وألوانها، ونُشجِننا زقزقة العصافير، ونستشعر الجمال والكبرياء في ذكر الطاووس، فلا تنس أن النحلة تدرك جمال الزهور، وأن إناث الطيور تنجذب إلى زقزقة ذكور العصافير وجمال ذكور الطاووس⁽²⁾.

(1) العصبونات = الخلية العصبية Neurons.

(2) لا تظن أن هذا الانجذاب عملية غريزية تتم من خلال الفيرومونات الكيميائية التي تجذب هذه الكائنات و فقط، بل إن الإحساس بالجمال عنصر جاذب لدى تلك الكائنات. وللاستدلال على ذلك، دعنا نتأمل =

ومن أجل أن نعرف كيف مُنحَتْ الحسَّ الجمالى وكيف يستجيب مخي للجمال، ينبغي أن نعرف ما هو الجمال، وكتمهيد لذلك دعنا نتأمل متى نصِفُ شيئاً أنتجه الإنسان بأنه فن:

اختلفت النظرة إلى الفن بين طرفين، طرف يرى أن الفن ترياقٌ للقيح والسخف والمعاناة الموجودة في حياتنا الإنسانية، وأنه المهرب من بحار الدموع⁽¹⁾. وفي الطرف الآخر، الرأى الذى يجسده الفيلسوف دادا Dada، الذى يرى أن «كله ماشى Anything Goes»، وأن اعتبار شيء ما فن إدراك ذاتي، وليس له مقاييس حقيقية موضوعية⁽²⁾، لماذا هذا التأرجح بين نقيضين؟ وإذا كانت الطبيعة جميلة، فلماذا لا يكون أرقى الفنون هو أنجحها في نقل جمال الطبيعة بحذافيرها، ومن ثم يكون أعلاها هو التصوير الفوتوغرافي؟

بالرغم من أنني لست من المتذوقين للمرحلة التكعيبية في رحلة بيكاسو الفنية، إلا أن المتخصصين يرون أن ما تتميز به نساء بيكاسو في لوحات هذه المرحلة من وجود العينين في جانب واحد من الوجه، وتحذب ظهورهن، وأزرعتهن الخارجة من أما كن غريبة من الجسم، إنما هو هروب عبقرى من طغيان الواقع، باللجوء إلى الترميز والمجاز! لكن لا شك أن ليس كل انحراف عن الواقع يُعتبر فناً، فمتى نعتبر الانحراف فناً؟!

= ما تفعله ذكور الطائر صانح الأقواس Bowerbird، الذى يعيش في أستراليا وغينيا الجديدة؛ إنها تبني أعشاشها وتزينها لجذب الإناث بأسلوب يعكس موهبتها الفنية الحسنة. فسقف العش يبلغ ارتفاعه ثمانية أقدام، وله مدخل واسع وبداخله أقواس، كما يزين الذكر أركان العش بالزهور مختلفة الألوان، وبقشور البيض والحصى، وبما يجده من قطع الزجاج أو رقائق الألومنيوم التى تتلألأ كالجواهر حين تسقط عليها الشمس. أليست تلك موهبة فنية لدى الذكر، وقدرة فطرية على التذوق الجمالى لدى الأنثى.

(1) في ذلك المعنى أَلَّفَ أمير الشعراء أحمد شوقي أبياتاً بالعامية يصف فيها الفن والفنانين، وغناها الفنان محمد عبد الوهاب:

ياللى بَدَعَتِو الفنون	وفد إيدكوا أسرارها
دنيا الفنون دى خميلة	وانتو أزهارها
والفن لحن القلوب	يلعب بأوتارها
والفن دنيا جميلة	وانتو أنوارها

(2) من هذا السخف أن يصنع أندريه سيراتو تمثالاً صغيراً للسيد المسيح ويضعه على صليب ويغمره في كأس به بول، ويطلق على هذا العمل اسم «فلتتبول على المسيح Piss Christ». ويقول بعض النقاد إن هذا فنٌ، ويُباع منه عشرات الآلاف من النسخ!!

ونعلم أن هناك مدارس فنية عديدة، فنحن نسمع عن الفن الإسلامي، والفن المصري القديم، والفن القبطي، واليوناني القديم، والأفريقي، والهندوسي، وفن عصر النهضة. كما نسمع عن المدارس التأثرية والتعبيرية والتكعيبية والتجريدية... قائمة لا نهاية لها، ولكل من هذه المدارس سماته المميّزة، ولكن هل هناك سمات عامة تُعبر الحدود والحضارات وتميز الفن بصفة عامة؟

وإذا كانت ملكة التعرف على الوجوه أمرًا فطريًا، بينما تعرّف الطفل على وجه أمه (بالتحديد) أمر مكتسب، فهل للإحساس بالجمال وللتجربة الفنية عنصر فطري وآخر مكتسب من البيئة؟

من هذه التأملات والتساؤلات تبرز بضعة أسئلة محورية: هل هناك آليات عصبية مخية تمكننا من الإحساس بالجمال ومن تذوق الفن؟ هل يمكننا وضع نظرية علمية لإدراك الجمال، وبمعنى آخر نظرية علمية للتجربة الفنية؟ باختصار، هل يمكن أن نتحدث عن الفن كعلم، ومن ثم نتحدث عن علم الفن Science of art؟

قوانين تذوق الفن والجمال

تحتاج الإجابة عن هذه الأسئلة إلى خبير في علوم الأعصاب وأيضًا في الفن، وهل يكون إلا العالم القذراماشاندران، فلجأت إليه:

أطرق راماشاندران قليلًا، ثم صوّب عينيه الواسعتين الفاحصتين إلى عينيّ، وبدأ كلامه قائلاً: لقد شغلتنى قضية الإحساس بالجمال وتذوق الفن، وعلاقة ذلك بنشاط المخ، في الفترة الأخيرة. ومفتاح الإجابة عن تساؤلاتك هو كلمة «Rasa» التي تتردد كثيرًا في الفن الهندي، وهي كلمة باللغة السنسكريتية يصعب ترجمتها، لكنها تعني تقريبًا «التوصل إلى جوهر الشيء»، وعرضه بأسلوب يثير مشاعر ومزاج المشاهد، فكيف يتوصل الفنان إلى ذلك الجوهر ليبر عنه؟ وكيف يضع المشاهد يده عليه عند تأمل العمل الفني ليتذوقه؟

إن مهمة الفن ليست نقل نسخة ماثلة تمامًا للوجود، وإلا لكفانا أن نسير في الدنيا نتأمل ما حولنا، بل على العكس؛ إن مهمة الفن هي تغيير صورة الوجود، أو التركيز على إحدى جزئياته، لتحقيق الإمتاع (وأحيانًا القرف!) للمشاهد، وكلما حقق الفنان ذلك، تصاعدت رجة الاستمتاع بالجمال، وكان الفنان قديرًا.

وأضاف راما؛ لقد توصلتُ إلى عدة سمات (أو قوانين) لا بد أن يلتزم بها الفنان (أو مصمم الأزياء) من أجل أن يحقق للمشاهد من الإمتاع والإثارة ما لا تحققه الرؤية الواقعية. ولا يعني التوصل إلى قوانين وآليات تحكم الفن فقدان البعد الروحي له، فإدراكنا لآليات الحب وممارسة الجنس لا يلغى البعد الروحي لهما، كذلك فإن تعمقنا في دراسة دقائق علوم اللغة لا ينتقص من استمتاعنا بمعلقات الشعر الجاهلي ولا إبداعات نجيب محفوظ، كما أن إدراكنا أن الماس يتكون من الكربون وتوصلنا إلى خطوات تكوينه في باطن الأرض عبر ملايين السنين لا ينتقص من استمتاع النساء به. كذلك لا يعني وجود قوانين وآليات فطرية غياب دور التشئة والحضارة في تذوقنا للفن وفي تعبيره عن مدرسة معينة.

وبدأ راما في طرح القوانين (السمات) التي تحكم الحس الجمالي والتذوق الفني، وقال:

□ أولها «قانون التجميع The law of Grouping». فأنت إذا نظرت إلى السماء التي تزينها قطع متناثرة من السحاب، قد تستطيع أن تربط بين بعض هذه القطع وتصورها على هيئة قطعة مثلاً، عندها قد تُخرج زفرة من صدرك وتقول معجباً متعجباً؛ «آه».

وإذا ذهبت في رحلة إلى الأدغال، ورأيت وأنت في سيارة السفاري بقعاً صفراء تفصل بينها أعشاب السافانا الخضراء، ثم في لحظة تتواصل في مخيلتك هذه البقع وتدرِك أنك أمام أسد تخفي الأعشاب أجزاءً منه، عندها قد تُصدر «آها» أخرى.

وعندما تذهب المرأة لشراء حقيبة يد حمراء، فإنها تحرص على شراء حذاء أحمر، وربما حزاماً وإشارباً أسودين، إذ ترى أن هذه الألوان متناسقة.

تقدم هذه الأمثلة تجميعات لأشياء متناثرة، قد لا تكون موجودة في الحقيقة (في مثال القط السحابي)، وقد تكون موجودة (في مثال الأسد)، وقد تكون تجانساً لألوان في مناطق مختلفة يعطيك الشعور بالارتياح.

لقد «جُبِلت» = فُطِرَت» أمخاخنا على التوصليل بين الأجزاء المنفصلة لتشكيل أقرب الصور المتكاملة المعروفة لديها (القط - الأسد)، عندها تنتشط في القشرة المخية البصرية العصبونات المقابلة للصورة المتكاملة، فترسل إشاراتنا إلى مركز الشعور (اللوزة) فتثير ما يرتبط بالصورة من مشاعر (الارتياح لتصور القط، والخوف من الأسد). كذلك فإن في عقولنا نماذج للألوان

المتناسقة، لذلك ترسل القشرة البصرية المسئولة عن الألوان إشارات إلى اللوزة، فتثير فينا الشعور بالارتياح.

□ أما القانون الثاني، فهو «قانون بلوغ الحد الأقصى Peak Shift». فعندما يريد فنان الكاريكاتير أن يعبر في رسمه عن أنوثة امرأة، صَحَّمَ السمات المميزة للمرأة والتي تختلف بها عن الرجل (التديين - الأرداف - الفخذين - الخصر النحيل - انحناءة الجذع - استدارة الكتفين - اكتناز الشفتين - اتساع العينين..). وبالرغم من أن نَسَب الرسم تكون مخالفة للحقيقة وربما مثيرة للضحك، إلا أنك قد تُعَلِّق: «يالها من امرأة!».

ويقوم الفنانون التجريديون بنفس العمل؛ فهم يستخلصون السمات المميّزة للعمل الذي يريدون تجسيده ثم يظهرونها ويضخمونها؛ ربما على هيئة خطوط مستقيمة أو متعرجة أو دوائر أو مربعات أو بقع من الألوان. إنهم بذلك يُتَشَطُّون بشكل فوق طبيعي Supernormal المراكز المخية العصبية عند المُشاهد. لذلك يُطلق علماء الأعصاب على هذا التأثير اصطلاح: التنشيط فوق الطبيعي للمراكز البصرية والشعورية.

ويبدو أن بأرشيف منح كل منا صورًا للهيئات القصوى لكل سمة من السمات الجمالية، وغالبًا ما تختلف الصورة المُفضلة من شخص لآخر. لذلك لا تدهش إذا وجدت أحد أصدقائك يتعلق إلى درجة العشق بفتاة قد تراها أنت خالية من علامات الجمال، ثم ترضخ في النهاية وتقول إنها «الكيميا»، وكما تقولون في مصر «كل فولة ولها كيّال» وهذا هو عين الصواب.

□ إن القانون الثالث هو «قانون التباين Contrast». هكذا قال رامبا قبل أن يوجه لي سؤالاً: هل تستطيع أن تميز رسماً باللون الأبيض على خلفية بيضاء؟ ثم استطرد مجيباً، إن وجود التباين بين مكونات العمل الفني أمر ضروري لإدراكه وتذوقه، حتى إن الحيوانات لا تلتفت إلى الثمار الخضراء غير الناضجة داخل الشجرة ذات الأوراق الخضراء، بينما يسيل لعابها إذا نضجت الثمرة وتحولت إلى اللون الأحمر أو الأصفر، لذلك أتوقع إذا كان في كوكب المريخ أشجارٌ أوراقها صفراء، أن تكون ثمارها زرقاء اللون.

هذا وقد فُطِرَت عقولنا على تذوق بعض أشكال التباين أكثر من البعض الآخر. فالأزرق مع الأصفر (كما في المريخ) أمتع من الأصفر مع البرتقالي.

ومن ثمَّ يمكن تعريف التباين بأنه الانتقال المفاجئ بين منطقتين متجاورتين، سواء انتقال في اللون أو الإضاءة أو العمق أو الملمس... وقد استغل مصممو الأزياء والديكور مفهوم التباين في تصميماتهم إلى حد بعيد.

□ والقانون الرابع للفن هو «قانون الإبراز (العزل) Isolation». فهل خطر ببالك لماذا تبدو بعض الرسوم التخطيطية (كرسوم الحمام ليكاسو) أكثر جمالاً وتعبيراً من صورة فوتوغرافية ملونة للشيء المرسوم⁽¹⁾؟

تكمن الإجابة في أن مراكزنا البصرية تهتم في أول مراحل الإبصار بالحدود الخارجية للشيء وليس بتفاصيله الداخلية وألوانه، وهذا ما يُركز عليه الرسم التخطيطي. لذلك فإن النظر إلى الصورة الفوتوغرافية يوزع الاهتمام بين الحدود الخارجية وبين الألوان والتفاصيل.

وقد سبق أن ذكرت لك أن الفنان يبرز عنصراً واحداً يُعتبر جوهر الشيء وروحه Rasa (قد يكون اللون - الشكل - الحركة...). لذلك إذا رأى الفنان أن سر جمال الشيء يكمن في الألوان، فإنه يقوم بالتركيز عليها، مع التقليل من العناصر الأخرى (كالخطوط الخارجية)، وهذا ما يقوم عليه الفن التأثيرى لقان جوخ ومونيت⁽²⁾.

□ والقانون الخامس هو «قانون الغموض الممتع Perceptual problem solving⁽³⁾». فهل فكرت لماذا تبدو عَيْنِي امرأة وقد غطت نصف وجهها الأسفل بحجاب أكثر جاذبية منها إذا كشفت وجهها تماماً؟! يقول الرجال أن ذلك «يترك مجالاً للخيال». هل معنى ذلك أن الفن ليس تعظيم مواطن الجمال، كما يعتقد البعض؟ نعم، وإلا لكانت المرأة العارية تماماً أكثر إثارة من تلك التي تدفع خيال الرجل ليعمل بأن تغطي جزءاً ضئيلاً من جسمها، لذلك تقول القاعدة الفنية: إنك تستطيع أن تجعل الشيء أكثر جاذبية بأن تجعله أقل ظهوراً.

(1) لذلك اخترت رسوماً تخطيطية لبعض الشخصيات التي حاورتها في هذا الكتاب.
(2) والإبراز ليس قاصراً على الرسم فقط، فلتفسير عبقرية أينشتاين بَيْنَ بعض من قاموا بتشريح مخه أنه كان يتمتع بتلايف زاوية كبيرة Angular Gyros، وهي المناطق التي تقوم بالربط بين القدرات الرقمية (الفص الجدارى الأيسر) والقدرات الفراغية (الفص الجدارى الأيمن). أى أنه كان يتمتع بمستوى عالٍ من «الإبراز» لملكة المزج بين القدرات الرقمية والقدرات الفراغية.
(3) أرى أن الترجمة إلى «الغموض الممتع» تقرب المعنى أفضل من الترجمة الحرفية، وهى «حل المعضلات الإدراكية».

ويرجع ذلك بيولوجياً إلى أن المنح البشرية قد «تم إعداده سلفاً» بحيث تعطى المراكز الانفعالية ومراكز الإثابة شعوراً بالرضا والنشوة كلما توصل المنح «بنفسه» لحل مشكلة؛ رياضية كانت أو سمعية أو بصرية أو فزورية أو...؛ لذلك يقوم الفنان بحجب بعض من مكونات عمله الفني بحيث يدع للمشاهد المجال ليستكمل الصورة تبعاً لما يُرضيه، وبالتالي فالإبصار ليس مجرد إدراك ما هو بالخارج، بل يتأثر تذوقنا لما نبصر بخلفياتنا وبانفعالاتنا، ومن ثم فإن كلاً منا يرى العمل وقد امتزج بذاته ليلبغ الصورة القصوى المُبرَّجة في ذهنه.

واسترسل راماشاندران قائلاً:

□ أما القانون السادس، فهو شديد الأهمية من الناحية الفنية، وهو « قانون المجاز Metaphor». ولا شك أن استخدام المجاز في اللغة معروف لدينا جميعاً، سواء في الأدب أو في حياتنا اليومية. أما غير المشهور فهو المجاز في الفن المُبصر (رسم - تماثيل - معمار)، وربما كان من أكثر الفنون اهتماماً بالمجاز الفن الهندوسي والفن المصري القديم.

قطعت استرسال راماشاندران، وطرحت عليه بعضاً من أمثلة المجاز في الفن الإسلامي، فحدثته عن المثذنة، وكيف أنها تنتصب في شموخ تعلق كل ما حولها مُعبرة عن التوحيد. أما الشرفات الثلاث المتتالية فيراها البعض كأنها تشير إلى مستويات: الإسلام والإيمان والإحسان، ويرى آخرون أنها تشير إلى مقامات اليقين الثلاثة؛ علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين. وفي قمة المثذنة هناك الهلال المنفتح على السماء كذراعين ممدودتين بالدعاء، وإذا كان الهلال هو نصف دائرة يشير إلى عالم الشهادة فإن باقى الدائرة (الغائب) يشير إلى عالم الغيب، وبذلك تكتمل دائرة الوجود.

أطرق راماً قليلاً ثم قال لى: اعتدت في طفولتى أن أرى المآذن في الهند، لكنى لم أفهم منها ما طرحت على الآن، لذلك سأضم الفن الإسلامى إلى الفنين الهندوسى والمصرى القديم باعتبار أكثر الفنون اشتمالاً على المجاز.

أما أنت قارئى الكريم، فتأمل معى تماثل «نهضة مصر» للعبرى المصرى سليل المصريين القدماء «محمود مختار»، فقد طوّع خامة الجرانيت ليُخرج لنا هذا الإبداع الذى يتكون من كتلة واحدة من عنصرين؛ الفلاحة المصرية التى ترمز إلى أمنا مصر، وأبى الهول منتصباً على

ساقية الأماميتين مشيراً إلى نهوض مصر الحديثة من غفوتها. وما أحوجنا لأن نستحضر معاني هذا الرمز بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير.

تأمل كذلك كلمة «أنا» في عنوان الكتاب على غلافه الأمامي، ولاحظ كيف أن حروف الكلمة تتقارب وتتباعد ويحتضن بعضها بعضاً، مشيرة إلى امتزاج عناصر «أنا» الخمسة (الجسد- العقل- القلب- النفس- الروح). ولاحظ أن نقطة النون تمثل مركزاً تحيط به باقي دوائر الذات الإنسانية التي تقع في قلب دائرة الوجود المتمثلة في قرص الشمس، والتي تشع النور والدفء على كل ما حولها. ولاحظ امتداد حرفي الهمزة والألف لأعلى، خارج دائرة وجودنا المادى المحدود، وكأنها الجزء المفارق لعالم الشهادة والمتطّلع إلى العوالم الغيبية. كما يرمز حرف النون إلى وعاء الجسد الذي ينبثق منه عنصرنا الغيبي المتمثل في حرفي الهمزة والألف.

ومن تأملاتنا هذه، يردني راماشاندران إلى البيولوجيا، ليضع بصمته الأخيرة على قانون المجاز الذي يخضع له الجمال والفن؛ فيقول، عادة يستشعر النصف الأيمن من المخ (النصف الفنان) جمال المجاز، قبل أن يفهم النصف الأيسر (النصف العالم) تفسيره. ونستشعر ذلك بشكل أوضح في الموسيقى؛ فالمعزوفة الموسيقية تُحدث تأثيرها في النفس قبل أن نقوم بتحليلها وإدراك ما فيها من معاني.

ثم استأنف راما عرضه لقوانين تذوق الجمال والفن، وقال:

□ ثم يأتي «قانون كراهية التصادف (Abhorrence Of Coincidences)». تصور فنّاناً يرسم مكاناً فيه أشخاص ذوو قامات متساوية وتفصل بينهم مسافات واحدة، من الوارد من قبيل المصادفة النادرة حدوث ذلك في الواقع، لكن نفس المشاهد لن ترتاح لهذا المنظر، بل ترتاح أكثر لأفراد مختلفي الطول، وعلى مسافات متفاوتة من بعضهم البعض. إن أمحاًخنا تسعد أكثر بما هو شائع، وتُعافي الاحتمالات القليلة التي لا تتواجد إلا بالمصادفة.

□ لذلك يُعتبر «قانون الانتظام والتوقع (Orderliness)» أحد القوانين المهمة للفن وإدراك الجمال. فلا شك أن ميّلاً برواز الصورة ينتقص من استمتاعنا بها، وكذلك درج المكتب غير المغلق جيداً، أو بعض الخيوط البيضاء أو قشر الشعر على كتف البدلة السوداء. إن هذا كله خروج على ما اعتدنا عليه ونتوقعه في مثل هذه المواقف، إلا إذا كان ذلك مقصوداً لمعنى خاص.

وبينما يضرب راما هذه الأمثلة، خطرت ببالى أمثلة أخرى: فلا شك أن خالاً (حَسَنَةً) يقع أسفل الشفة إلى اليسار يكون أجمل من خالٍ يُرَسَم أسفل منتصفها تمامًا. كذلك عند النظر إلى سجادة شيرازى، نتوقع وحدات متكررة تزيد السجادة جمالاً، بينما يكون وجود زهرتين أطول من باقى الزهور متساوية الارتفاع فى مزهريه أكثر جمالاً.

أفقت على تعليق راما النهائى بشأن هذا القانون، قال، إن الفن يكمن (مع مساييرة التوقع) فى التوازن بين الانتظام المطلق المزعج وبين الفوضى المطلقة، فهل يتبع هذا التوازن علاقات رياضية؟ وما هى؟ ولماذا؟

يتحدث الفنانون والمتخصصون فى الرياضيات عما يعرف بـ «النسبة الذهبية Golden Ratio» ويقدرونها بـ 01.618 والمقصود منها العلاقة الرياضية بين موجود جزئى بالنسبة إلى الموجود الكلى، فمثلاً علاقة طول الأنف بالنسبة لطول الوجه، أو مساحة مربع صغير داخل مربع كبير، ويعتبرون أن توافر هذه النسبة الذهبية يعطى العلاقة بين الجزئى والكلى بُعداً جمالياً. لكن لا شك أننا ما زلنا بعيدين عن التوصل إلى الأسس الرياضية التى تحكم الجمال⁽¹⁾.

□ أوحى إلى قانون الانتظام والتوقع بعلاقة بين الأشياء توقعت أن يكون لها دور فى تذوق الجمال، ألا وهى «علاقة التماثل». فدائماً يعجبني منظر المئذنتين على جانبي بعض أبواب الحرم الشريف فى مكة، كما يعجبني تماثل جانبي المحراب فى المساجد. نقلت لراماشاندران شعورى هذا، فأيدنى قائلاً: نعم، إن «قانون التماثل Symmetry» يُعتبر أحد قوانين تذوق الجمال، فعيناك ترتاحان لتماثل فانوسى السيارة، وكذلك لكرسيين موضوعين على جانبي منضدة فى أحد أركان غرفة الاستقبال فى البيت. والأرجح أن الارتياح للتماثل «فطرى» فى أمخا، ففى أحد الاختبارات وُجد أن الطفل المولود حديثاً يركز بصره على بقع الحبر المتماثلة، أكثر من غير المتماثلة. وكذلك نعتبر أن التماثل فى بنية وخطوات الإنسان والحيوانات فى أثناء السير دليل على الصحة الجيدة.

(1) النسبة الذهبية: إذا افترضنا أن خطأً مستقيماً ينقسم إلى جزء كبير (أ) وجزء صغير (ب)، فإن العلاقة بينهما تصبح نسبة ذهبية إذا توافر فيها:

$$\text{أنا ... ذات عاقلة} \quad \frac{أ+ب}{ب} = \frac{أ}{ب} = 1,618$$

□ ثم أضاف رامبا، أما عاشر وآخر ماتوصلت له من قوانين الجمال والفن فهو «قانون الصدى البصري (Visual Resonance (Echo)». فأحياناً يعطى الشكل العام للشيء إيحاءاً بمعناه، فتجد المصممين يكتبون كلمة «مائل» بحروف مائلة، ويكتبون كلمة «رعب» بخط متذبذب مرتعش ينقل الإحساس بارتعاشاتك الداخلية، وكذلك ما حدثتني عنه من شكل المثدنة وارتفاعها الذي يوحي بالتوحيد.

عندها خطر ببالي أنني في صباى عندما كتب مُدرسى على السبورة ذات مرة كلمة «فجأة» قلت له: إن شكل حرف الهمزة المرتفع يوحي بالمفاجأة، كذلك فإن حروف الكلمة منضغطة إلى بعضها فصارت تشبه طلقة الرصاص، مما يزيد من شعوري بالمفاجأة؛ لا أدري لماذا شعر المدرس بالمفاجأة من كلمات ذلك الصبي!

ثم أضاف رامبا، ولا شك أنه كلما اجتمع في العمل الفنى قدرٌ أكبر من هذه القوانين العشر كلما زاد استمتاعنا به وقدرتنا على تذوقه. إن ذلك يشبه الطبخة التي يستعمل فيها الطباخ العديد من العناصر، حتى يتذوق فيها آكلها العديد من الطعوم.

بيولوجيا تذوق الفن والجمال

ولم يفت رامبا قبل الانتهاء من مناقشة سمة التذوق الجمالى والفنى المميزة لى كذات إنسانية، أن يطلعنى على بعض أسرارها البيولوجية، فقال: إن المخ يستخدم نفس المناطق المخية تقريبا في إبداع الفن وعند تذوقه. وهناك قدر من التخصص في مناطق المخ يتناسب مع نوع الفن، فالنون التي تتعامل مع الوجوه لها مركز إدراك معين⁽¹⁾، والتعامل مع مناظر الطبيعة له مركز آخر⁽²⁾ وتلك التي تستعمل الكثير من المجاز مركز ثالث⁽³⁾.

وتستخدم النون البصرية الجزء الداخلى من الفص الأمامى من المخ⁽⁴⁾، ويحدث بين هذا الجزء وبين المنطقة المسؤولة عن الذاكرة البصرية⁽⁵⁾ تبادل للمعلومات جيئة وذهاباً، مما يرقى

(1) التلغيف المغزلى Fusiform Gyrus.

(2) الفصيص الجدارى الأسفل الأيمن RT Inferoparietal Lobule.

(3) التلايف الزاوية اليمنى واليسرى Rt & Lt angular Gyri.

(4) Ventero - Medial Cortex.

(5) تقع في الفص الصدغى.

تدريجياً بتذوق المدركات البصرية، ويتراكم الإحساس بالجمال حتى يصل إلى ذروة تجتاح مركز الإثابة⁽¹⁾، فيستشعر الإنسان كمال الرضا والانتشاء.

الجمال والحسن بن الهيثم

انتهت إجابة راماشاندران عن تساؤلاتي حول سمة التذوق الجمالي والفني كسمة مميزة لذاتي الإنسانية. ثم حدث أن جلست مع ابني - الذي التحق بكلية الطب العام الماضي - أحدثته عن القوانين العشر التي توصل إليها راماشاندران لتحكم هذا الأمر. علق ابني قائلاً: إنني أقرأ الآن في كتاب *Lost History*⁽²⁾، تأليف Michael Hamilton Morgan، والكتاب يتحدث عن الإنجازات العلمية والفنية والسياسية للحضارة الإسلامية، والتي أثرت في حضارات الشرق والغرب، خاصة الحضارة الغربية الحديثة. وأضاف أحمد قائلاً: هناك فقرة طويلة أوردتها المؤلف نقلاً عن عالم الفيزياء العبقري المسلم «الحسن بن الهيثم»⁽³⁾ توضح كيف يدرك الإبصارُ الجمال.

أحضر ابني الكتاب، وأشار في فقرة في صفحة 105، وقرأتها، فاعترتني الدهشة، فالحسن ابن الهيثم حدد مقاييس موضوعية لتذوق الجمال قبل راماشاندران بألف عام. وقررت أن أترجم لك الفقرة التي بين يديك الآن:

«يدرك النظر الجمال من خلال كل صفة من صفات الإبصار، بل «إن كل صفة تُشعر بنوع مختلف من الجمال»، ويؤدي «امتزاج هذه الصفات» إلى استشعار أنواع أخرى من الجمال أكثر تركيباً:

«فموضع الأشياء» يفضي عليها جمالاً، كما أن «ترتيبها» يفضي عليها جمالاً آخر. ومثال ذلك حروف الكتابة التي يبرز جمالها من موضعها وترتيبها، فصارت بذلك فناً من الفنون.

(1) Septal Nuclei & Nucleus Accumbens.

(2) صدر الكتاب عام 2007، وقدم له الملك عبد الله ملك الأردن، والناشر ناشيونال جيوغرافيك.
(3) الحسن بن الهيثم: من أعظم العلماء قاطبة في علم البصريات، وكانت أعماله هي الأساس الذي بنى عليه علماء الغرب جميع نظرياتهم في هذا الميدان، سواء في اكتشاف المجهر والتليسكوب أو في فسيولوجيا الإبصار.

كذلك فإن «انفصال الأشياء» يعطيها جمالاً، لذلك فالنجوم المتناثرة تبدو أكثر جمالاً من نجوم مجرة درب التبانة المتراخمة، لذلك أيضاً فإن البراعم والأزهار المنتشرة في المروج تكون أكثر جمالاً من تلك المجمعة في باقات.

وفي الوقت نفسه فإن «الاستمرارية» تعطي جمالاً، لذلك فالمروج الخضراء الممتدة أمام البصر (وكذلك مياه البحر) أجمل من تلك التي تقطعها المنازل والطرقات. وفي الوقت نفسه فإن «امتداد اللون الأخضر» لتلك المروج أجمل من المناطق التي تتباين ألوانها.

انتهى كلام ابن الهيثم الذي كتبه منذ ألف عام.

14. أنا... صاحبة العصبونات البانية للحضارة

كانت النظرة التقليدية لوظائف المخ تقتصر على أنني عندما أرى شخصاً يمارس عملاً ما (كأن يلعب الكرة مثلاً)، يتنشط مركز الإبصار الواقع في قشرة الفص الخلفي من مخي، وفقط. وحديثاً، ظهر باستخدام تقنيات تصوير المخ أن رؤية حركة ما تُنشط في مخ الرائي (أيضاً) المراكز العصبية المسؤولة عن القيام بهذه الحركة، وأطلق العلماء على هذه المراكز اسم «عصبونات المحاكاة». إذاً يمكن تعريف عصبونات المحاكاة بأنها الخلايا العصبية التي تنتشط عندما يمارس الكائن عملاً ما، وأيضاً عندما يرى هذا العمل يُمارس أمامه، أي أنها تحاكي العمل الذي يُمارس أمامها⁽¹⁾.

وتقع هذه العصبونات في المراكز الحركية والحسية، ويبدأ نشاطها في الإنسان بعد انقضاء العام الأول من الولادة، وهي أكثر نشاطاً في الإناث عن الذكور. وقد أعانا التعرف على هذه الخلايا العصبية المتميزة على فهم الكثير من الوظائف المخية؛ مثل تعلّم المهارات الحركية واللغة، والوعي بالذات، ونشأة الإرادة الإنسانية، وإدراك كيف يفكر الآخرون، وكذلك التعاطف معهم⁽²⁾.

(1) يُعتبر اكتشاف «عصبونات المحاكاة Mirror Neurons» أهم الاكتشافات الحديثة في مجال علوم المخ والأعصاب، وقد وصفها لأول مرة عام 1992 فريق الباحثين بجامعة بارما Parma بإيطاليا، بقيادة العالم Vittorio Gallese.

(2) توجد عصبونات المحاكاة، بالإضافة إلى الإنسان، في باقي الرئيسيات وفي الطيور وبعض الحيوانات الأخرى.

فعلى سبيل المثال، لقد اختلف فهمنا لآليات التعلم عن ذي قبل. فإن مشاهدتي لك وأنت تمارس لعبة تنس الطاولة، مثلاً، ليست مجرد رؤية و فقط، لكنها تنشيط العصبونات المسؤولة عن ممارسة اللعبة في مخي، ومن ثم أكتسب قدرًا من المهارة دون ممارسة اللعبة، فإذا شرعت في ممارستها، أديتها كأني قد تلقيت تدريبًا عليها من قبل.

هل فكرت يومًا كيف تعلّم ابنك نفس طريقتك في الكلام، والإشارة بيديك، والإيماء برأسك؟ لا شك أنك لم تتعمد تعليمه ذلك، كذلك فهو لا يتعمد تقليدك كما يعتقد البعض، لكنه تقليد لا إرادي. لقد تعلّمت عصبونات المحاكاة في مخه جميع حركاتك من مجرد مشاهدتك؛ فصارت تعطى الأوامر لممارسة نفس الأفعال بنفس الطريقة.

كما تفسر عصبونات المحاكاة ما يستشعره المرء من لذة إذا شاهد فيلمًا جنسيًا مثيرًا، فهي ليست مجرد رؤية، لكنها تنشيط لمراكز ممارسة الجنس في المخ.

كذلك يُفسر مفهوم عصبونات المحاكاة ما نستشعره من تعاطف عند رؤية شخص في محنة. فإذا كانت محنته تنشيط بعضًا من المراكز في مخه، فإنها تنشيط أيضًا نفس المراكز في مخ من يشاهده. ومثال ذلك ما يستشعره البعض من وخز بالإبرة في أذرعهم إذا شاهدوا مريضًا تجرى له خياطه الجرح في ذراعه!. وكذلك عندما نرى رجلًا يُضرب على عينه فإننا نبادر بوضع أيدينا على عيننا.

إن تأمل مفهوم عصبونات المحاكاة، يطرح على بال المرء خاطرًا مثيرًا. إن هذه الخلايا العصبية تجعل البشر جميعًا كأنهم شخص واحد؛ يتعلمون «فعليًا» من بعضهم البعض، ويجعل ما اكتسبه الفرد من خبرة كأنه خبرة «حقيقية» للآخرين، كما يجعلنا نستشعر «فعليًا» ما يشعر به الآخرون من سعادة أو معاناة.

وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»⁽¹⁾.

التحكم في عصبونات المحاكاة

وبينما أنا أحدث بعضًا من تلاميذي عن عصبونات المحاكاة ودورها في حياتنا، طرّحت

(1) رواه النعمان بن بشير، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

إحدى تلميذاتي سؤالاً ذكياً ينم عن الفهم واستيعاب ما قلت؛ قالت: إذا كانت مراكز الحركة والإحساس في أمخاخنا تنتشط، فلماذا لا نحكي كل حركة نراها ولماذا لا نشعر بما يشعر به كل من نشاهدهم من آلام ولمسات؟ وقتها لم تكن عندي إجابة عن سؤال تلميذتي النابهة، فاعتذرت لها، ووعدتها بالبحث عن الإجابة.

حملت السؤال إلى أهل الذكر؛ فأجبنى راماشاندران قائلاً: بالنسبة لعصبونات محاكاة الحركة، هناك دوائر عصبية تنقل إليها من الفص الجبهي إشارات «كابحة» تمنعها من محاكاة ما تشاهد من حركات.⁽¹⁾ أما بالنسبة لأحاسيس الألم واللمس، والتي يمكن أن نستشعرها نتيجة لتنشيط عصبونات محاكاة الإحساس، فإننا لا نحس بمعظمها نتيجة لخروج إشارات «نافية» من الجلد نخبّر مراكز المخية العليا بأن ليس هناك منبه (ألم - لمس) وصل إليها⁽²⁾.

سرحت مفكراً فيما يقول راماشاندران.. هل معنى ذلك أن جلودنا هي المسئولة عن شعورنا باستقلاليتنا، وأنه لولا الإشارات النافية الصادرة من جلودنا لشعرنا بكل ما يشعر به الآخرون أي صرنا كأننا جسد واحد!! يا الله.

أفقت من تأمل العميق على قول راماشاندران (وكانه قد قرأ أفكارى)؛ إذاً يمكننا القول إننا نحيا في تفاعل دائم مع حركات وأحاسيس الآخرين مع احتفاظنا باستقلاليتنا، نتيجة للتنسيق بين ثلاثة عناصر: عصبونات المحاكاة، دوائر الفص الجبهي الكابحة للحركة، والإشارات النافية للإحساس التي تُصدرها جلودنا.

عصبونات المحاكاة وبناء الحضارة

ثم أضاف راماشاندران... هل تعلم أن لعصبونات المحاكاة دوراً هاماً في نشأة الحضارات الإنسانية واستمرارها حتى الآن؟ إن قيام الحضارات يعتمد على التواصل بين الأجيال ونقل المعارف والمهارات العديدة المعقدة من الكبار إلى الصغار، ويتم ذلك من خلال وسيطين شديدي

(1) إذا أصاب تلف هذه الدوائر، يقوم المرء بمحاكاة كل ما يرى من حركات، وتعرف هذه الحالة بـ Echopraxia.

(2) أُجريت تجارب تم فيها وخز المتطوعين بإبر في أصابعهم، وتم تخدير أذرعهم من يشاهدونهم، عند ذلك شعر المشاهدون بالخز، إذ إن تخدير الذراع منع وصول الإشارات النافية إلى المخ.

الأهمية؛ اللغة والتقليد. وتقوم عصبونات المحاكاة بدور رئيسي في كلا الوسيطين، وذلك من خلال عدة آليات:

فعندما تنشط هذه العصبونات (نتيجة لنشاطات حركية أو حسية يقوم بها آخرون) فإن نشاطها ينتقل إلى المراكز العليا المسؤولة عن الإدراك، عندها ندرك ما وراء نشاطات الآخرين من مقاصد ونوايا، أي أننا نقرأ أفكار الآخرين؛ وهذا ما يُعرف «بنظرية العقل»⁽¹⁾، وهو جوهر عملية التواصل.

كذلك فإن تقليد حركات الآخرين الذي تعين عليه هذه العصبونات كان له الدور الأكبر في تعلم المهارات من الأجيال السابقة.

وأخيراً، أعانت عصبونات المحاكاة على نشأة اللغة الإنسانية من خلال القدرة على محاكاة حركات شفاة الآخرين (محاكاة النطق)، وكذلك فهم مقصد الآخر، وأيضاً نشأة المجاز في اللغة وفي الفن.

15. أنا.. الذكر.. وأنا.. الأنثى⁽²⁾

كلما تأملت الأطفال الرُّضَّع في مهدهم، ثم وهم يَجْبُون ثم يَجْرُونَ، وكلما تأملت سلوك المراهقين، ثم سلوك الرجال والنساء في بيوتهم وفي دواوين العمل، أدركت - دون أدنى شك - أن هناك فوارق جوهرية في أولويات وفي أسلوب تفكير وسلوك كل من الجنسين. فيا ترى، هل ترجع هذه الفوارق إلى الاختلافات البيولوجية بين الجنسين، أم إلى اختلاف أسلوب تنشئتنا لأبنائنا الذكور والإناث؟ إنها قضية «الطبيعة Nature» أم «التنشئة Nurture»؟

لقد تجمَّع لدى العلماء خلال العقود القليلة الماضية من الأدلة البيولوجية والحقائق العلمية ما لا يترك مجالاً لادعاء التماثل بين مخ/عقل كل من الرجال والنساء، ذلك التماثل الذي يدعيه بعض المطالبين بالمساواة بين الجنسين، فقد اختلط عليهم أن المساواة مفهوم سياسي

(1) Theory Of Mind.

(2) للمؤلف كتاب حول هذا الموضوع، شارك في تأليفه خبير التنمية البشرية د. نبيل كامل، والكتاب بعنوان «المخ ذكر أم أنثى» - نيويورك للنشر والتوزيع - الطبعة السابعة، 2017.

اجتماعي، ونحن نطالب به، أما المماثلة فمفهوم علمي بيولوجي. فكما توجد فروق ظاهرية بين الذكور والإناث (في شكل وحجم الجسم، وبنية الهيكل العظمي والأسنان، والأعضاء التناسلية والأعضاء الداخلية و...) وهي ما تعرف بـ «الفوارق الجنسية Sex»، فإنه توجد فروق جوهرية بين كلا الجنسين في بنية المخ وطريقة أدائه لوظائفه، وتنعكس هذه الفروق على أولويات وأسلوب تفكير وسلوك كل من الجنسين، ونطلق عليها اسم «الفوارق الجنسية Gender» وهذا ما أعلنته رسمياً الأكاديمية الأمريكية لعلوم المخ والأعصاب عام 1999⁽¹⁾.

العقل الذكوري والعقل الأنثوي

لا شك أن الغالبية العظمى من الرجال والنساء لا يدركون وجود الفوارق الجنسية، ومن ثم يتعامل كلا الجنسين مع بعضهما البعض كأنهما متماثلين، مما يؤدي إلى مشاكل وخلافات كبيرة بينهما. هل تعلم - قارئ الكريم - أن نسبة الطلاق بين المتزوجين حديثاً في مصر بلغت 48%!!، ولا شك أن أهم الأسباب وراء ذلك هو عدم إدراك كل من الطرفين للفوارق في أسلوب تفكير وأولويات الطرف الآخر. كما ينعكس عدم إدراك هذه الفوارق سلباً على تعاملات الجنسين في أماكن العمل والدراسة وحتى المجالات.

ألا ترى وجوب أن نشجع بيننا ثقافة وجود الفوارق العقلية والنفسية والشعورية بين الجنسين، وأن نتوقف عن النظر إلى الذات الإنسانية باعتبارها نسخة واحدة. لا شك أن كلاً من الرجال والنساء ذات مختلفة كثيراً عن الأخرى، وكان النساء من الزهرة والرجال من المريخ⁽²⁾!

لم يكن من السهل التوصل إلى عالم «غربي» حجة لمحاورته في هذا الأمر. فقد خشيت إن أنا لجأت إلى متخصص من الشرق أن تشوب آراءه بعض ما يعتدل في بلادنا من «عرف» يجور كثيراً على المرأة. وأخيراً وجدت ضالتي في الدكتور سيمون بارون كوهين (أستاذ علم النفس والأمراض النفسية بجامعة كمبردج) (شكل - 3)، فالرجل شديد الاهتمام بهذا الموضوع، وله فيه عدة مؤلفات، أهمها كتاب «الفوارق الحقيقية بين المخ الذكوري والمخ الأنثوي». وما أن طرحت عليه القضية، حتى ابتسم وقال: خلاصة الأمر أن هناك بالفعل نوعين من الأناخ/

(1) أكثر الجهات في العالم تخصصاً في علوم المخ والأعصاب.

(2) إشارة إلى الكتاب المشهور Men are from Mars, women are from Venus لمؤلفه جون جراي.

العقول، الأول خاص بالإناث، أطلق عليه اسم **المخ/العقل التعاطفي** Empathising Brain، والثاني خاص بالذكور وأطلق عليه اسم **المخ/العقل التنظيمي** Systematising Brain.

ويمكن أن نُجمل السمات المميزة للمخ/العقل الأثوي التعاطفي في أنه يهتم عادة بالعلاقات مع الأشخاص وبالتواصل والحميمية، وأنه يفهم مشاعر الآخرين بشكل أفضل ويحرص عليها، إذ إنه يتميز بقدرات أعلى على قراءة الأفكار والمشاعر، لذلك فهو لا يسعى للسيادة والقيادة من خلال العنف والتنافس.



(شكل ٢)

سيمون بارون كوهين S.B. Cohen
استاذ الطب النفسى وعلم النفس
بجامعة كمبرج

ويستغرق العقل التعاطفي في التفاصيل المحيطة بالمواقف التي يتعامل معها، وبالتالي فإن له قدرات تنفيذية عالية (**التفكير التكتيكي**) مع قصور في النظرة العامة المحيطة بالأمر، والتي تتغاضى عن التفاصيل (التفكير الإستراتيجي)، ويرجع ذلك إلى أن العقل التعاطفي أقل ميلاً للنشاط العقلي التحليلي والتصنيفي والإنشائي، كما أنه يضيّق بالقواعد والقوانين الجامدة ويتمرد على الالتزام بها.

وأخيراً فإن للعقل التعاطفي ردود أفعال قوية مع أسلوب ساخن في التعبير عن المشاعر، يستغل فيه قدراته اللغوية المتميزة.

أما **المخ/العقل الذكوري التنظيمي** فيتميز بالاهتمام بالإتجاز والسيادة وبحب الرياضة، وكذلك الاهتمام بالأشياء أكثر من الأشخاص، ويُعيّنه على ذلك تميزه بالجرأة والمبادأة والحوية.

ويوصف المخ/العقل التنظيمي بأنه صاحب (**تفكير إستراتيجي**)، إذ يهتم بالتركيز على الهدف الأساسي والتفاصيل المهمة، ولا يتأثر كثيراً بالعوامل النفسية والشعورية عند إصدار أحكامه واتخاذ قراراته. ويرجع ذلك إلى تفوقه في القدرات التحليلية والتصنيفية والإنشائية.

كذلك يتميز المخ/العقل التنظيمي في القدرات البصرية الفراغية.

ولا شك أن كلاً من الرجال والنساء يتمتع ببعض السمات العقلية المُميزة للجنس الآخر. فطبيعة الوجود الإنساني تستلزم أن يتمتع الرجال بقدر من التعاطف، وأن تتمتع النساء بقدر من سمات العقل التنظيمي. ولا شك أن هذا التداخل هو سبب سوء الفهم الذي أدى إلى ادعاء التماثل العقلي بين الجنسين.

الفوارق الجنوسية في حياتنا العملية

سألت د. كوهين، وكيف تنعكس هذه الفوارق على حياة كل من الجنسين؟

فأجابني: إن هذه السمات التنظيمية والتعاطفية تُفسّر العديد من الفوارق العقلية والنفسية والسلوكية والعملية بين الجنسين في مختلف المجالات، وتتركز هذه الفوارق في ثلاثة مجالات رئيسية: المجال الأول هو مجال الجنس ومؤسسة الأسرة، فنظرة كل من الرجال والإناث إلى الجنس تختلف إلى حد بعيد، فإذا كان الرجل يسعى إلى الممارسة الجنسية للحصول على المتعة الحسية في المقام الأول، فإن المرأة تسعى إلى الشعور بالحنيمية والمشاركة، أكثر من سعيها لتحصيل المتعة الحسية. كذلك جُبل الرجال على الرغبة في إقامة علاقات جنسية متعددة، على عكس المرأة التي وعت منذ أزمان بعيدة أن رحمها هو مستودع الحياة، فاكثفت بالعلاقة الجنسية الأحادية.

وتنعكس هذه الفوارق الجنسية (بالإضافة إلى الفوارق العقلية) على نظرة كل من الرجل والمرأة إلى دوره في مؤسسة الأسرة وعلى توقعاته من رابطة الزواج.

والمجال الثاني هو مجال الأمومة والأبوة، فلا شك أن هذه الرابطة من أكثر الروابط التي تتجلى فيها الفوارق بين الجنسين. فالأمومة غريزة فطرية تفجرها عند الولادة التغيرات الهرمونية التي حدثت خلال الحمل، أما الأبوة فمكتسبة. وتنعكس القدرات التعاطفية المُميزة للعقل الأنثوي في أقصى درجاتها على سلوك الأم، كما يضع العقل المنطقي بصماته على السلوك الأبوي.

كذلك تُحدث الأمومة في المخ الأنثوي تغيرات تجعل المرأة أكثر جسارة ومثابرة، وأكثر قدرة على القيام بأعمال متعددة في وقت واحد، وتستمر هذه التغيرات بعد ذلك طوال حياة المرأة، حتى يمكننا القول بوجود ثلاثة أنماط من الأبخاخ/العقول: المخ/العقل الذكوري، والمخ/العقل الأنثوي، ومخ/عقل الأم.

أما المجال الثالث، فهو مجال القدرات والاهتمامات والعمل. فلا شك أن القدرات التعاطفية للإنسان والقدرات التنظيمية للذكور تنعكس على ما يختاره كل من الجنسين في دراسته وفي عمله وعند ممارسة هواياته.

فالذكور يفضلون المجالات التي تحتاج إلى قدراتهم المكانية الفراغية، كما تحتاج لتميزهم في التفكير المجرد ونظرتهم الإستراتيجية للأمور، وتكفل لهم تحقيق الذات من خلال الإنجاز المادى والترقى في السلم الوظيفى.

أما الإناث فيملن إلى المجالات التي تحقق لهن الإشباع النفسى من خلال العلاقات الإنسانية الاجتماعية، وتستغل قدراتهن اللغوية وتميزهن في الإحاطة بالتفاصيل.

الآليات المخية للفوارق الجنوسية

من أجل الإلمام بأطراف الموضوع، قلت للدكتور سيمون بارون كوهين: بعد هذه السياحة مع الفوارق العقلية والنفسية والسلوكية والعملية بين الجنسين (والتي اصطلاح المتخصصون على تسميتها بالفوارق الجنوسية Gender، لا بد أن يثور في الذهن سؤال حول الآليات البيولوجية وراء هذه الفوارق فقال لى:

ثبت للعلماء خلال العقدين الماضيين أن التمايز العقلي والنفسى والسلوكى والعملى بين كل من الذكور والإناث تقف وراءه فروق مؤكدة في بنية المخ التشريحية وفي آلية أدائه لوظائفه، وقد أطلق العلماء على هذه الفروق اصطلاح «الثنائية التركيبية الجنوسية - Sexual Dimorphism»، ونجمل هذه الفروق في عدة نقاط :

□ اكتشف العلماء في العقد الثامن من القرن العشرين أن للذكاء البشرى أنواعًا متعددة تُمارَس من خلال مناطق مختلفة من القشرة المخية الجديدة. كما ثبت تميُّز الذكور في بعض أنواع الذكاء (كالذكاء الفراغى البصرى والذكاء التصنيفى)، وتميز الإناث في أنواع أخرى (كالذكاء اللغوى وذكاء التعامل مع الآخرين).

□ ويحتوى المخ على عقليين وذاكرتين! العقل الأول هو العقل المنطقى، ومركزه قشرة الفص الأمامى من المخ، وهى تمثل أيضًا (بالإضافة إلى منطقة فرس البحر) مستودع ذاكرة هذا العقل.

والعقل الثاني هو العقل العاطفي / الانفعالي، ومركزه مكونات الجهاز الحوفي خاصة اللوزة المخية، وتمثل اللوزة أيضاً مستودع الذاكرة العاطفية / الانفعالية.

وإذا كان العقلان (المنطقي والعاطفي / الانفعالي) يعملان في تناغم فيما بينهما، فقد أثبتت الاختبارات المختلفة تمييز الذكور في قدرات العقل المنطقي مقابل تميز النساء في القدرات العاطفية الانفعالية.

□ كما اكتشف العلماء أن لنصفي الدماغ وظائف مختلفة. فالنصف الأيسر مسئول عن التفكير العقلاني: المنطق والاستنتاج والتحليل والكلام (لذلك يُطلق عليه اسم النصف العالِم). أما النصف الأيمن فمرتبط بالتفكير العاطفي: الحدس والخيال والإبداع (النصف الفنان). وقد تبين أن النصف الأيسر أكثر تطوراً لدى الرجال في حين أن النصفين متعادلان لدى النساء. كما يمكن للمرأة أن تُشغَل النصفين معاً في آن واحد بقدر أكبر من الرجل.

□ واكتشف العلماء أيضاً أن موقع بعض المهارات يختلف في دماغ الرجل عن دماغ المرأة. فالمهارات اللغوية، على سبيل المثال، تتمركز في النصف الأيسر فقط من دماغ الرجل، في حين أنها تتوزع في نصفي دماغ المرأة. لذلك يعمل دماغ الرجل بطريقة أكثر تخصصاً من المرأة، فلكل وظيفة مخية مركزها المحدد في مخ الرجل (مفهوم أدراج المكتب المنفصلة)، مما يُسهل تركيز الرجل عند القيام بمهمة معينة دون تشويش من مراكز العاطفة المحيطة.

□ وفي المقابل يتواصل النصفان الكرويان في مخ المرأة عن طريق الجسم الجاسم بشكل أكبر من مخ الرجل. كما أن الإستروجين (الهورمون الجنسي الأنثوي) ينشط الخلايا العصبية في جميع أجزاء المخ ويدفعها إلى إقامة تواصل أفضل فيما بينها. وإذا كان ذلك يعين المرأة على استعمال ملكاتها كلها في آن واحد، فإنه يؤدي إلى قدر من الشوشرة والتداخل بين الوظائف المختلفة خاصة عند اتخاذ القرارات.

□ وفي عام 2006، توصل الدكتور ريتشارد هاير أستاذ علم النفس في كاليفورنيا، إلى أن الرجال يستخدمون الخلايا العصبية في التفكير بمعدل أكبر ستة مرات ونصف المرة من النساء، بينما يعتمد التفكير عند النساء على التواصل بين تلك الخلايا بمعدل أكبر عشر مرات من الرجال. معنى ذلك أن التفكير في الرجال يعتمد على «معالجة» المعلومات، أما في النساء فيعتمد على «تبادل» المعلومات.

□ كما ثبت أن حجم ونشاط واتصالات المراكز العاطفية والانفعالية والغريزية (تقع في الجهاز الحوفي وبعض نُوَيَّات تحت المهاد) يختلف في الذكور عن الإناث بطريقة تؤدي إلى التباين الواضح بين كل من الجنسين في السلوك العاطفي الانفعالي والسلوك الغريزي.

□ وأخيراً - وليس بآخر - فإن النشاط الكهربائي لمخ الرجل ينخفض أثناء الراحة بمقدار 70%، بينما تكون النسبة 10% فقط في مخ المرأة، مما يعني أن مخ المرأة - حتى في أوقات الراحة - مشغول دائماً وبصورة آلية في مراجعة ما مر به من مواقف، ولا شك أن هذه المراجعة تكون ذات توجهات عاطفية وانفعالية.

وأضاف د. كوهين، لقد صارت هذه المفاهيم بمثابة أساسيات وحقائق علمية راسخة في علوم المخ والأعصاب، حتى إن الكثير من المراجع الأساسية لهذه العلوم (Text Books of Neuroscience) أصبحت تُفرد من بين فصولها فصلاً عن الفوارق بين مخ الذكور ومخ الإناث.

الآليات البيولوجية لتجنيس المخ

كانت تلك الإجابة التي قدمها لي د. كوهين بمثابة الوجبة العلمية الدسمة التي استفدت منها كثيراً، لكن بقيت جزئية أساسية حتى تكتمل فائدتها، فسألته: وكيف تتشكل آليات التمايز الجنوسي؟

أجابني د. كوهين قائلاً: تقوم «الهورمونات الجنسية» بدور محوري في عملية تجنيس مخ الجنين في رحم الأم وأثناء مرحلة الطفولة المبكرة. فهورمونات الذكورة تُشكل المخ على النمط الذكوري، وتستمر هذه المهمة من الأسبوع الرابع إلى الأسبوع الثامن عشر من الحمل. بينما يؤدي غياب هذه الهورمونات ووجود الهورمونات الأنثوية في الأنثى إلى أن يستمر تشكُّل المخ على نمطه الابتدائي (وهو النمط الأنثوي).

وإذا كانت «الكروموسومات الجنسية» هي التي توجه تكوين المناسل (المبيضين في الجنين الأنثى والخصيتين في الجنين الذكر)، فإن لهذه الكروموسومات دوراً مباشراً في تجنيس المخ، يبدأ قبل تشكُّل المناسل التي تفرز الهورمونات الجنسية.

كذلك لاشك أن «لعوامل التنشئة» دوراً مهماً في صقل السلوك الجنوسى. ويمكن توضيح التكامل بين العوامل الخلقية البيولوجية وعوامل التنشئة من خلال هذا التساؤل المُعَبَّر: أيها أكثر انعكاساً على مساحة سطح ما، طول السطح أم عرضه (البيولوجيا أم التنشئة)؟ لاشك أن كليهما يؤثر بشكل مباشر في مساحة السطح.

وينبغى أن نؤكد في هذا المقام أن وجود «خلفية بيولوجية» للسلوك الإنسانى لا «يفرض» سلوكاً إنسانياً معيناً. لذلك لا ينبغى أن يتخذ من وجود الخلفية البيولوجية لسلوك ما تكأةً لالتماس العذر للقتلة والمغتصبين أو مبرراً للشذوذ الجنسى. كذلك فإن إرجاع الفوارق الجنوسية العقلية والنفسية والسلوكية بين الذكور والإناث بشكل كامل إلى التنشئة والعوامل الاجتماعية - كما ترى نظرية التنشئة - مرفوض جملة وتفصيلاً. ومن ثمَّ فإن القول «بالحتمية التربوية» مرفوض تماماً مثل القول «بالحتمية البيولوجية». إن الصواب هو أن الخلفية البيولوجية تُمدُّ الإنسان «بنمط» سلوكى معين، ثم تأتى التنشئة لتقوم بتوجيه هذا النمط السلوكى، وقد تنجح في ذلك وقد لا تنجح. فمثلاً، يمكن أن يرث الإنسان عن والديه (جينياً = بيولوجياً) سلوكاً عدوانياً، ثم يأتى دور التنشئة لتوجه السلوك العدوانى لهذا الشخص، فنُربيه ليصبح جراحاً! أو زعيماً لعصابة⁽¹⁾!

16. أنا ... ذات متسامية⁽²⁾

كنت أشعر منذ صباى برغبة جارفة في البحث عن أجوبة لتساؤلات مُلِحَّة تعتمل داخلى حول الوجود، والحياة والموت، وحول الديانات وحول الإله. ولم تكن نفسى تقبل حلولاً لتلك المعضلات لا تُشبع تطلعاتى المعرفية (الإجابة عن التساؤلات) وطموحاتى الشعورية (الشعور بالطمأنينة).

كذلك كان يصدمنى تمسك الماديين بأن الديانات ابتداع إنسانى، من أجل تحقيق فوائد مادية ومعرفية وشعورية! ومن ثمَّ يعتبرون ما نستشعره من طمأنينة نفسية، وشعور بالتسامى

(1) نعرض في الفصل الثانى بمزيد من التفصيل مبررات رفض «الحتمية البيولوجية» و«الحتمية التربوية». (2) للمزيد حول هذا الموضوع ارجع إلى كتاب «ثم صار المنح عقلاً» للمؤلف، نيوبوك للنشر والتوزيع، 2017. الباب الثانى بعنوان «نحن أرواح متجسدة».

وبالمشاعر الروحية، أوهاماً نفسية أو هلاوس مسئول عنها نشاط غير سوي لبعض مراكزنا المخية.

وإذا كان الماديون يعتبرون الدين ابتكاراً إنسانياً وظاهرة تبريرية، فدائماً ما أتساءل؛ ما هو «التحدى التطوري» الذي واجه الإنسان حتى يكسبه آليات عصبية بيولوجية تشعره بعالم علوي غيبي غير حقيقي، يتضاءل فيه الشعور بالذات، مما يتعارض تماماً مع هدف التطور الأساسي، وهو المحافظة على الذات، مما يعني انعدام «الفائدة التطورية».

كذلك أتساءل؛ إذا كان الدين أكبر الكوارث التي مُني بها الإنسان (كما يدعى الماديون أمثال ريتشارد دوكنز)، فلمَ لم تَقم آليات الانتخاب الطبيعي بالتخلص منه مبكراً؟!

الوجود المادي والوجود الغيبي

بحثت عن متخصص يجمع بين الاهتمامات الروحية والاهتمام بالبحث العلمي، خاصة في علوم المخ والأعصاب، ليساعدني على الإجابة عن هذه التساؤلات، فدلني العالمون على الدكتور أندرو نيوبرج Andrew Newberg (شكل -4) (أستاذ الأشعة التشخيصية ورئيس مركز الأبحاث الروحية بجامعة بنسلفانيا وأحد مؤسسي علم البيولوجيا العصبية للتدين NeuroTheology، والمتخصص في دراسة الأسس العصبية البيولوجية للمشاعر الروحية)، فحملت إليه دعاوى الماديين، لأعرف آخر ما توصل إليه العلم في هذا المجال.

بدأ نيوبرج حديثه بأن طرح عليّ ملخصاً لما أسفرت عنه الأبحاث العلمية، عن دور وظائفنا المخية فيما نشعر به من مشاعر روحية، فقال: يهتم مركز الأبحاث الروحية ببنسلفانيا - وغيره من المراكز العالمية - بهذه القضية. وقد أجرينا عدداً من الدراسات على العديد من العبّاد من مختلف الديانات، استخدمنا فيها أحدث تقنيات التصوير الإشعاعي للمخ⁽¹⁾، وقد أثبتت هذه الأبحاث أن ما يستشعره الإنسان من طمأنينة، ومن مشاعر روحية، ومن وجود غيبي علوي يستوى على عرشه إله حق، إنما هي إدراكات لوظائف مخية سوية، وليست مجرد هلاوس وتوهمات. كذلك أثبتت الدراسات أن تقسيم ما ترصده عقولنا إلى «وجود مادي حقيقي» و«وجود غيبي غير مادي غير حقيقي» تقسيم غير علمي. فالوجود المادي ليس إلا

(1) FMRI - PET - SPECT Camera.



(شكل - ٤)

أندرو نيوبيرج Andrew Newberg

من مؤسس علم البيولوجيا العصبية للتدين

ما ترصده أدمغتنا بآليات الإدراك في المخ، شأنه في ذلك شأن الوجود الغيبي تمامًا. ويبرهن على صحة هذا الوجود الغيبي ما قدمه العلم من أدلة (في مجالي الكونيات والبيولوجيا) تؤكد أن الوجود الإلهي وجود حق، ويتماشى ذلك مع ما يستشعره الإنسان عن طريق آليات التسامي الروحي.

شعورنا بالتسامي

وحتى أمسك الخيط من بدايته، ما لت نيوبيرج، هلاً بينت لي كيف يقوم المخ بإشعارنا بمشاعر التسامي الروحي، وبوجود عوامل علوية غيبية؟

أجابني نيوبيرج: بدايةً، ينبغي أن نؤكد أن

للعقل الإنساني رغبة فطرية في تجسيد الأفكار والمشاعر، رغبة تقف وراءها مراكز ودوائر عصبية. فنحن نرى الموسيقين، مثلاً، يحركون أصابعهم باللحن الذي يتخيلونه، كما تتمايل نحن عند الاستماع إلى قطعة موسيقية تطربنا. من هنا جاءت رغبة المخ/العقل في تجسيد المعتقدات الدينية على هيئة طقوس، خاصة المفاهيم المهمة للإنسان؛ كالمت والبعث وعوالم الغيب.

وعادة ما تكون الطقوس الدينية مصحوبة بشحنات انفعالية، نتيجة لتأثير الإيقاع الحركي والصوتي للطقوس على الجهاز الحوفي والجهاز العصبى اللاإرادي والقشرة المخية⁽¹⁾. ويشارك في هذا التنشيط - مع الإيقاع - طقوس أخرى، كالركوع والسجود وحركات اليدين في الصلاة، وكهية المكان والصوم والتنفس المنتظم في أثناء الذكر، ورائحة البخور، وغيرها، وكلها عوامل في تُشعر الإنسان بأن ما يفعله أمرًا مختلفًا عن نشاطاته المعتادة. ويؤدى ذلك إلى الشعور بالرهبة التي يمازجها السكون، والشعور بالورع والنشوة الدينية.

(1) الجهاز الحوفي limbic system هو المسئول من نشاطاتنا الانفعالية، والجهاز العصبى اللاإرادي ANS هو المسئول عن وظائفنا اللاإرادية، والقشرة المخية مسئولة عن نشاطاتنا العقلية وأفكارنا ومعتقداتنا.

أما دور القشرة المخية في هذا السيناريو فهو حيوي للغاية؛ إذ يمتزج ما فيها من أفكار ومعتقدات مع الانفعالات السابقة. من هنا يمكن النظر إلى الطقوس باعتبارها أداة تحويل المعتقدات إلى تجربة شعورية، سواء كانت هذه المعتقدات دينية أو غير دينية؛ كالإخلاص للحزب أو لفريق كرة القدم.

آليات التسامى

قلت للدكتور أندرو نيوبرج، إن ما وصفت من مشاعر تصاحب الطقوس الدينية يكون مصحوباً عادة بتساؤل الشعور بالذات، وقد يتزايد هذا التضاؤل حتى يصل المرء إلى ما يسميه العبّاد والصفوية بـ«الفناء»، وقد يصحب ذلك مكاشفات لعوالم غيبية، وشعور بالتوحد مع تلك العوالم، وأحياناً مع الإله المستوي على عرشها، وهذا ما يسمونه تارة وحدة شهود، وتارة وحدة وجود، هل لهذه المشاعر آليات بيولوجية عصبية؟

أجاب نيوبرج؛ توجد في قشرة مخ الإنسان عدة مناطق تربط Association areas، تقوم بربط المعلومات الحسية والشعورية التي ترد إليها مع ما في ذاكرتنا من مفاهيم، وذلك لتشكيل نظرتنا وفهمنا للعالم من حولنا، تمهيداً لتوجيه استجاباتنا الانفعالية والمعرفية والسلوكية تجاهه.

وتُعتبر منطقة تربط التشكيل Orientation Association area = OAA في الجزء الخلفي من الفص الجداري أهم المناطق التي لها دور في المشاعر الروحية. وتوجد هذه المنطقة في كل من نصفي المخ، وهما مختلفتان في الوظيفة لكنهما متكاملتان؛ فالمنطقة اليسرى مسئولة عن تحديد وإدراك صورة ثلاثية الأبعاد لجسدنا المادي، واليمنى مسئولة عن تحديد موضع جسمنا وعلاقته بالوجود المحيط. وبالتالي فالمنطقتان تحولان المعلومات الحسية الخام إلى صورة حية لأجسامنا (الذات) وللوجود من حولنا (المحيط)⁽¹⁾.

(1) قد تندم من أننا نحتاج لإنجاز مثل هذه المهمة البسيطة البديهية (التفريق بين أنا والمحيط) إلى كل هذه الآليات المعقدة. نعم هي مهمة بسيطة لأن منطقة تربط التشكيل تقوم بدورها بدقة وكفاءة متناهية. والدليل على ذلك أن الأشخاص الذين يعانون تلقاً من هذه المنطقة يجدون صعوبة كبيرة في التنقل في الوسط المحيط. فعندما يصلون إلى أسرّتهم مثلاً، يعجز المخ عن حساب الزوايا والمسافات، وبالتالي لا يستطيعون تحديد موضع أجسادهم وموضع الفراش، ومن ثم قد يسقطون على الأرض بدلاً من أن يستلقون على الفراش. إن استقبال ومعالجة هذه المعلومات يتم بسرعة وكفاءة تعجز الدوائر الإلكترونية لدسته من الكمبيوترات فائقة السرعة عن القيام بها!

وإذا كان شعورنا بـ«الذات» و«الوجود» إنجازًا حَيًّا، تقوم به منطقة تربيط التشكيل، فإن ذلك لا يعني أن ليس للذات والوجود من حولها وجود حقيقي، بل معنى ذلك أن هذه المنطقة تستقبل صورة الواقع وتجعلنا نستشعره، وأنها لا تُشكّل الذات والوجود من عدم.

وفي جميع الديانات، تتخذ طقوس التأمل عددًا من الأشكال⁽¹⁾، تهدف جميعها إلى تسكين العقل الواعي وتُسكين الحواس، فتقل المُدخّلات المُنشّطة إلى منطقة تربيط التشكيل OAA مما يؤدي إلى هدوء نشاطها، ويُعرف ذلك بـ«الإغلاق Deafferentiation»، مما يؤدي إلى فقدان التمييز بين «أنا» و«الوجود». ومع استمرار طقوس التأمل تنشيط آليات الإغلاق بشكل أكبر، حتى يتلاشى الإحساس بالذات وبالوجود من حولنا، وقد يتم الشعور بالمازجة مع حقيقة غيبية أكبر من الوجود المادي، وهو ما يُعرف بـ«وحدة الشهود/الوجود».

وأضاف نيوبرج؛ إن ما شرحناه هنا من آليات الإغلاق التي تؤدي إلى التسامى ليست قاصرة فقط على التجارب الصوفية العميقة، بل أنت شخصيًا (وإن لم تكن صوفيًا) تستفيد منها كثيرًا في حياتك اليومية.

فعلى سبيل المثال؛ إذا كنت عائدًا إلى بيتك بعد أسبوع عمل مجهد بدنيًا وذهنيًا ونفسيًا، وقررت أن تأخذ حمامًا بطريقة متميزة -تحقق لك الاسترخاء، فأطفأت الأنوار وأوقدت الشموع وأدرت أسطوانة تحمل موسيقى إيقاعية حاملة، ثم غمرت نفسك في حوض الاستحمام المملوء بماء دافئ معطر، فأنت بذلك تقوم بسلسلة من الطقوس التي تُنشّط آلية الإغلاق لمنطقة تربيط التشكيل، فتبدأ بالإحساس بحالة من الصفاء الممتع. ومع استمرار الموسيقى الإيقاعية يزداد الإغلاق فيزداد الصفاء وتبدأ في التوحد مع الموسيقى.

إن نفس التأثيرات يمكن أن نحصل عليها من أي إيقاع رتيب يصاحب التركيز على شيء نقوم به، كقراءة الشعر، وهددة الطفل، والصلاة. كذلك فإن الإيقاعات المنتظمة السريعة؛

(1) تعتمد بعض الطقوس على استبعاد جميع الأفكار وإلغاء التركيز على أي شيء (ويسمى ذلك بالأسلوب السلبي Passive approach)، ويعتمد البعض الآخر على التركيز الشديد على هدف محدد، كالكعبة أو شمعة متقدة أو وردة، أو على تأمل بعض النصوص المقدسة أثناء الصلاة (ويسمى ذلك بالأسلوب النشط active approach)، ويستعمل البعض هذه الطرق جميعًا في آن واحد.

كالجري لمسافات طويلة وممارسة الجنس والاهتاف مع آلاف الأشخاص في مباراة لكرة القدم مثلاً، يمكن أن تؤدي إلى تنشيط عملية الإغلاق والشعور بالتوحد مع الآخرين.

لذلك يمكن القول بأن بنية المخ البشري مجهزة تماماً للتعامل مع بنية الدين، ويظهر ذلك في عدة مستويات، تبدأ بالقدرة على الفهم العقلي للوحي السماوي، ثم وجود الشوق الفطري إلى مفاهيم الألوهية والدين، والرغبة الفطرية في تجسيد المفاهيم العقلية، ثم القدرة على إغلاق دوائر الشعور بالذات وبالوجود المادي مع استحضار مشاعر التسامي.

وأنتهى نيوبرج طرحه بتساؤل: كيف تم إعداد المخ بهذه الهيئة ليكون ملائماً تماماً لبنية الديانات، أو كيف تم صياغة الديانات لتكون ملائمة تماماً لبنية المخ البشري؟

ليس لدى الدراوثة الماديين إجابة عن هذين التساؤلين.

الارتقاء بالتسامي

ثم سألت أندرو نيوبرج سؤالاً الأخير حول «التسامي» كسمة مميزة لذاتي الإنسانية؛ هل يمكن تدريب المخ ليُحسَّن من أدائه في الجوانب الروحية؟

أجابني نيوبرج: لقد تبدلت النظرة السابقة التي كانت تعتبر المخ تكويناً ثابتاً غير قابل للتغيير، كما تبدل المفهوم الذي روج له الفرويديون من أن العقل اللاواعي هو القائد الذي يوجه الإنسان. إن النظرة العلمية الآن ترى أن المخ تكوين ديناميكي يمكن بالتدريب تعديله بيولوجياً لإعادة صياغة اللاوعي وللتحكم في اللاشعور.

لذلك وضع المتخصصون عددًا من التدريبات والوسائل التي تُعين على تحسين صحتنا الجسدية والعقلية والنفسية. وبعد تحقيق ذلك يمكن للمرء اللجوء إلى «التأمل» الذي يحقق للإنسان السكينة والسمو الروحي. وتمثل مجاهدة النفس عاملاً مهماً في نجاح تلك الممارسات.

وأضاف نيوبرج، وأستطيع أن أقول - بناء على دراساتي على عدد من العباد المسلمين - أن عبادات الدين الإسلامي (من صلاة وذكر وقراءة القرآن) تشتمل على الكثير من الآليات التي وصفها العلماء المتخصصون لتحسين صحتنا الجسدية والعقلية والنفسية، ولتحقيق السكينة والسمو الروحي. كذلك فإن التوجه إلى الله عزَّجَلَّ بصفته الرحمن الرحيم يؤدي إلى المزيد

من السكينة والسمو. أما العبادة التي تُركّز على الخوف من الله عزَّوجلَّ ذى البطش الشديد، وكذلك التطرف الديني، فيؤديان إلى تلف الكثير من الدوائر العصبية المخية، ومن ثم إلى الشقاء النفسي والأمراض العضوية والشيخوخة المبكرة.

لماذا العبادات؟

وبينما كان أندرو نيوبرج يسترسل في هذا العرض الشيق للآليات المخية لاستشعار المشاعر الدينية والروحية، تذكرت سؤالاً سألتني إياه ابني الأصغر عام التحق بالجامعة، قال:

لماذا تشتمل الديانات السماوية على عبادات؟ ألا يكفي أن تكون هناك عقيدة في الإله نؤمن بها، ثم نلتزم بمكارم الأخلاق وحسن معاملة الآخرين، وكفى، مثل كثير من ديانات الشرق الأقصى؟

وقتها، أجبته ابني بما كان في جعبتي، وقلت له: إن أهمية العبادات بالنسبة للديانات ترجع إلى أنها:

أولاً: دليل على طاعة المؤمن لأوامر الله عزَّوجلَّ، حتى وإن لم نعرف لها تفسيراً. مثل عدد الركعات في كل صلاة، وأن يكون بعضها سرّاً وبعضها جهراً. ومن ثمّ فهي دليل على صدق العبودية لله عزَّوجلَّ.

ثانياً: للعبادات فوائد شخصية واجتماعية هامة. فالصلاة - مثلاً - تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصوم ترقية للنفس وإشعار بمعاناة الفقراء، والزكاة تكافل اجتماعي....

هاتان الفائدتان من أهم مقاصد الشريعة، وكنت أعرفها منذ صباي. ولكنني استشعر الآن بأن ما قلته كان قاصراً. ولا شك أن فيما ذكره نيوبرج إضافات سوف أعرضها على ابني، وهي:

ثالثاً: العبادات تجسيد لمعتقداتنا ومشاعرنا، وهذه فطرة لها آلياتها في المخ/العقل، وتعتبر خطوة مهمة لتعميق معتقداتنا.

رابعاً: العبادات - بما تحويه من طقوس - تُحوّل العقيدة من مفاهيم عقلية إلى تجارب ذاتية ومشاعر وأحاسيس.

خامساً: عندما تؤدي ممارسة العبادة إلى إغلاق مناطق الشعور بالذات وبالمحيط، يستشعر الإنسان قدرًا كبيرًا من التسامي، قد يصل إلى التواصل الحقيقي مع الوجود الغيبي المتوحد المطلق. لقد جعلتني تلك الحقائق فخورًا بأني من المتدينين الحريصين على ممارسة طقوس دينهم.

القارئ الكريم

اخترت أن أبدأ الكتاب بهذا الفصل، الذي حدّثتُك فيه عن أهم النشاطات العقلية التي تميز ذاق الإنسانية، والتي جعلتُ مني سيدًا مسيطرًا على هذا الكوكب، بينما أوشكتُ قِرْدَة الشمبانزي على الانقراض، بالرغم من التشابه الشديد بين بنيتنا الجينية وبنيتها!

وكان طبيعيًا أن أبدأ الحديث عن ذاتي الواعية، ففي غياب الوعي ليس هناك مجالًا للنشاطات العقلية الأخرى. ثم تابعتُ عرض النشاطات العقلية لذاتي الإنسانية، ولا أستطيع أن أحدد أي النشاطات أهم؛ الإدراك، أم الفهم والتفكير، أم التوحد والتجسد، أم حرية الاختيار، أم الخيال، أم الذكاء والإبداع، أم القدرة على الانتقال عبر الزمن، أم... أم...

وقد استمتعت كثيرًا وأنا أحدثك عن ذاتي ذات البيان، بل إنني صرت أتأمل كلام من يخاطبونني؛ فأنظر في بنية الجمل وتناسقها، وما تحمله الكلمات من معانٍ، وأقوم في الوقت نفسه بمقارنة هذا الكلام بمثيله في اللغة الإنجليزية، فأدرك تميز لغتنا العربية التي كنت أتذوقها في الشعر العربي بمختلف عصوره، ثم صرت أعشقها منذ اهتمت بالترجمة والتأليف.

وقد أسعدتني صحبة العلامة الفذ راماشاندران، خاصة وهو يحدثني عن الجمال والفن، وعن نظريته في الربط بين نشاطات المخ وبين التذوق الجمالي، وأقوم كلما سنحت لي الفرصة بتطبيق هذه النظرية بقوانينها العشرة على ما تقع عليه عيني من جمال، فيزداد استمتاعي ويتضاعف.

وقبل نهاية الفصل حرصت على أن أبين الفوارق بين المخ/العقل الذكوري والأنثوي، حتى لا يتبادر لذهن القارئ من حديثي عن الذات الإنسانية أنها ذات واحدة، فتعمُّ البلوى، لما يسببه ذلك من صدام بين الجنسين!. ولن تكون النشاطات العقلية مكتملة دون الوصول إلى ذروة الغاية من الوجود الإنساني، وهي مفارقة العالم المادي، والتسامي والعروج إلى العوالم التي جاء منها الإنسان وإليها منتهاه، لذلك كانت وقتنا مع التسامي.

القارئ الكريم... أتمنى مع نهاية هذا الفصل أن تكون قد ازددت معرفة بذاتك الإنسانية،
ولا تنسَ أن «من عَرَفَ نفسه... عَرَفَ ربه».



الفصل الثانى

الوعى يقهر اللاوعى

- فرويد وما بعد فرويد
- الفطرة أم التنشئة
- نضج المنخ البشرى
- التنشئة نوع من الهندسة الوراثية
- مخاطر التنشئة اللاتوافقية
- الفطرة أم التنشئة ...
- القول الفصل
- حرية الإرادة الإنسانية ...
- والعلاقة بين الوعى واللاوعى
- التحكم فى اللاوعى والنشاطات اللاإرادية
- آليات التحكم فى اللاوعى والنشاطات اللاإرادية
- هل من سبيل لإعادة البرمجة؟
- دور الوعى واللاوعى فى الصحة والمرض
- القارئ الكريم

يعرض فيلم «الإشعاع Shine» - الحائز على جائزة الأوسكار - قصة حقيقية في حياة عازف البيانو الأسترالي الشهير ديفيد هالفجوت David Helfgott. لقد تربى ديفيد كطفل وصبي يهودي على الخوف من الاضطهاد النازي، الذي عاناه والده بشدة، ومن ثمَّ فقد تمت برحمة عقله على ألا يظهر اجتماعيًا، وعلى أن النجاح في حياته العملية يجعله عُرضة للشهرة، مما قد يُعرضه للاضطهاد والبطش.

ثم قُدِّر لديفيد أن ينجح في حياته العملية كعازفٍ ماهرٍ للبيانو. وفي إحدى المسابقات في لندن، كان ديفيد يعزف كونشرتو البيانو الثالث للموسيقى الروسي راخمانينوف. وقبل نهاية الفيلم، ركز المخرج على ما يعتمل في نفس ديفيد من صراع؛ بين عقله الواعي الساعي للفوز في المسابقة، وبين عقله اللاواعي الذي تمت برحمته على أن يخشى من الشهرة لما يمكن أن تجرّه عليه من عواقب. نتيجة لهذا الصراع والتوتر، بدأ العرق يتصبب من جبينه، وأخذ قلبه يدق بشدة. بذل ديفيد أقصى الجهد للتغلب على مشاعر الخوف، ولإلزام نفسه بإتقان العزف حتى نهاية الكونشرتو. بعدها ذهب في إغماءٍ طويلة نتيجة للجهد الهائل الذي بذله للتغلب على ما سبق برحمته في عقله اللاواعي، وكان الثمن الذي دفعه ديفيد لانتصار عقله الواعي في هذا الصراع أنه عندما أفاق كان مصابًا بلوثة عقلية!!

تُظهر هذه القصة الواقعية مدى تَجذُّر ما يتم برحمته من مفاهيم في عقلنا اللاواعي في أثناء تنشئتنا. ولا شك أن تلك المفاهيم تتباين في تأثيرها وسيادتها تبعًا لعمقها وخطورتها. فالمفهوم الذي تربى عليه ديفيد؛ من أن النجاح والشهرة يمكن أن يُعرضا الإنسان للبطش والهلاك، يتعلق بشكل مباشر بحياة الإنسان؛ لذا لير يكن من السهل تجاوزه، بل دفع ديفيد ثمنًا باهظًا للتغلب عليه.

فرويد وما بعد فرويد

ويمكن النظر إلى العقل اللاواعي باعتبار أنه يتكون من شقين؛ شق غريزي وشق مكتسب.

وقد اهتم عالم النفس النمساوي سيجموند فرويد (1856 - 1939) بالشق الغريزي، واعتبر أن عقلنا الواعي ما هو إلا واجهة تخفى وراءها 90% مما يتم بشكل لا شعوري داخل أخطاها، كما اعتبر أن عقلنا اللاواعي كثيرًا ما يحتاج عقلنا الواعي عند اتخاذ القرارات، ليس ذلك فقط، بل إنه يؤثر في أداؤنا الجسدي العضوي، كما رأينا في قصة ديفيد هلفجوت.

وترى نظرية فرويد في التحليل النفسي أن المنظومة البنائية لوصف العقل تتكون من ثلاثة عناصر، يمكن النظر إليها مجتمعة باعتبارها «الذات الإنسانية» وهذه العناصر هي:

1- الـ (هذا) ID⁽¹⁾؛ ويشير إلى دوافع الإنسان الغريزية (المستوى الغريزي)، وأهمها غريزة الجنس والغرائز العدوانية. وينظر فرويد إلى هذه الغرائز باعتبارها دافع الإنسان الرئيسي للقيام بكل نشاطاته، حتى ما نعتبره نشاطًا روحيًا كالدين.

2- الأنا الأعلى Super Ego؛ وهو الذي تعارفنا عليه باسم «الضمير» الذي يوجه الإنسان لاتباع المثل العليا «افعل - لا تفعل». ويمثل كل من هذا والأنا الأعلى (الشق اللاواعي للعقل).

3- الـ (أنا): Ego، والأنسب تسميته (I)؛ وهو العنصر الذي يستقبل مدخلات الـ «هذا» و«الأنا الأعلى» و«الوسط المحيط» ويمزج بينها ليشكل السلوك المناسب الذي نتعامل به في حياتنا. ويمثل هذا العنصر (الشق الواعي للعقل).

وبين العقل الواعي والعقل غير الواعي توجد «النشاطات العقلية قبل الواعية» Pre Conscious، كالذاكرة التي تحتفظ بالمعلومات التي لا نفكر فيها الآن.

يُؤخَذ على هذه المنظومة البنائية لفرويد أنها لا تفسر الكثير من النشاطات العقلية (كحرية الإرادة)، وأنها تحتزل كل دوافع الإنسان في الدوافع الغريزية (الجنسية والعدوانية). ويرجع ذلك إلى أن فرويد قد انطلق في نظريته من حالات مرصية قليلة قام بتحليلها نفسيًا ثم بسط استنتاجاته على توصيف سلوك الإنسان السوي.

ولتصحيح هذه النظرة القاصرة، ظهرت نظريات فرويدية حديثة، تصف للإنسان

(1) يُترجم مصطلح «ID» أيضًا إلى «الذات»، ونرى أن الذات تشمل العناصر الثلاثة، كما يُترجم إلى الـ «هو»، ولم نستخدم هذه الترجمة لأنها توحي بأننا نتحدث عن شخص آخر!

دوافع أخرى عديدة، وترى أن جزءًا كبيرًا من هذه الدوافع يُكتسب خلال حياة الإنسان المبكرة (الشق المكتسب).

كذلك ظهرت المدرسة المعروفة بـ «علم نفس الأنا Ego Psychology» التي تُنسب الكثير من نشاطاتنا العقلية إلى نشاط الأنا الواعي، وتجعل للـ «هذا» و«الأنا الأعلى» الممثلين للعقل اللاوعي دورًا أقل، ولا شك أن ذلك يرفع الإنسان من المهوة التي وضعها فيها الماديون الفرويديون⁽¹⁾.

وإذا كانت نقطة انطلاق مختلف مدارس علم النفس هي العقل «كأفكار ومشاعر وسلوك»، ومنه تحاول أن تصل إلى العلاقة بين النشاطات العقلية وبين بنية المخ، ففي المقابل، ظهرت مدرسة علم النفس المعرف في Cognitive Psychology، التي تنطلق من المخ ومراكزه ودوائره العصبية، لتفسر مختلف النشاطات العقلية والنفسية.

لذلك فإن العلم التجريبي الحديث، بعد أن ناطح الفلسفة وأزاحها عن عرشها كوسيلة وحيدة لقرون عديدة لسبر أسرار العقل، فقد أخذ يناطح أيضًا علم التحليل النفسي الذي وضع أسسه فرويد، والتي أُعتبرت لفترة غير قصيرة الأساس لفهم وظائفنا العقلية.

الفطرة أم التنشئة

وإذا تأملنا عقلنا اللاوعي، واجهتنا متقابلة:

«الفطرة / الطبيعة / البيولوجيا» في مواجهة «التنشئة / التربية»

Nature Vv Nurture

(1) بالرغم من الكثير من المفاهيم الخاطئة التي طرحها فرويد، فلا ينبغي أن ننكر عبقريته التي تمثلت في ثلاثة إنجازات رئيسية، قلبت الكثير من مفاهيمنا عن المخ والعقل. لقد كان فرويد من الرواد الذين قالوا بأن الطبيعة البشرية يمكن أن تخضع للتمحيص العلمي، ومن ثم يمكن أن نستخرج القوانين والمفاهيم التي تحكم حياتنا العقلية والنفسية، تمامًا كما يدرس أطباء أمراض القلب وظائف القلب. كما نبهنا فرويد إلى أن عقلنا الواعي ما هو إلا واجهة تخفي وراءها الكثير مما يتم بشكل لا شعوري داخل أعضائنا. وأخيرًا، وضع فرويد يده على آليات الدفاع النفسي التي نمارسها يوميًا، وطرحها للتحليل العلمي؛ فصرنا نسمع عن آليات الإنكار، والكبت، والقمع، ورد الفعل، والتبرير، والإسقاط.....

وهي تعنى: أيهما المتحكم في سلوك الإنسان، عوامله الوراثية التي تنتقل إليه من والديه، أم ما يُنشئونه عليه من مفاهيم.

وكعادة الثورات (العلمية وغير العلمية) أعقب «الثورة الجينية» تطرف كبير. فصار الناس (حتى العلماء منهم) يعتقدون أن دور الأبوين تجاه أبنائهما يقتصر على إمدادهم بالجينات التي تحمل برامج تشكيلهم، وليس عليهم بعد ذلك إلا إمدادهم بالغذاء والملبس والمأوى، تلك الاحتياجات التي يمكن أن توفرها أي دور للحضانة، ويالها من فكرة مناسبة لأبوين مشغولين أو كسولين.

وبالرغم من تلك الفكرة التي يروج لها الإعلام كثيرًا، فقد أثبت العلم الحديث أن الحقيقة غير ذلك تمامًا. انظر إلى ما يطرحه توماس فيرنى Thomas Verny (من رواد علم نفس الأجنة! والأطفال المولودين حديثًا)، يقول: لقد أثبتت مراجعة الأبحاث العديدة التي أُجريت على مدى عقود، أن لتنشئة الوالدين لأطفالهما تأثير كبير على حالتهم النفسية والعقلية، ويبدأ هذا التأثير من مرحلة ما قبل الولادة⁽¹⁾. لقد ثبت خطأ الاعتقاد بأن أخماخ أولادنا لا تعمل إلا بعد الولادة. بل إن الجهاز العصبي وذاكرة الأجنة تعمل بهمة كبيرة، وتكون ما يُعرف بالذاكرة المطلقة Implicit Memory. ويبين فرنى كذلك خطأ مفهوم «فقدان الذاكرة الطفولي Infantile Amnesia» الذي طرحه فرويد، والذي يعنى أن معظم الناس ينسون ما حدث لهم خلال السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من حياتهم⁽²⁾.

ويقول ديفيد شامبيرلين David Chamberlain (من رواد علم نفس الأجنة! والأطفال المولودين حديثًا): في الحقيقة، لقد ثبت خطأ الكثير مما اعتقدناه حول أبنائنا، فهم ليسوا كائنات بسيطة ساذجة، بل إنهم كائنات شديدة التركيب وذوو أفكار فطرية كبيرة⁽³⁾.

ويقول عالم النفس د. بيتر ناثانييلز⁽⁴⁾ Peter Nathanielsz: تتجمع الشواهد على أن برمجة عقولنا التي تقوم بها الظروف المحيطة بنا في حياتنا الجنينية، لا تقل أهمية - إن لم تزد - عن

(1) 1981 Verny and Kelly.

(2) في كتابه المنشور عام 1981: The Secret life of the unborn child.

(3) في كتابه المنشور عام 1998: The mind of New born baby.

(4) في كتابه The origin of health and disease عام 1998.

البرمجة الجينية الوراثية (عن طريق الجينات)، وبالتالي فهي تحدد مصائرنا؛ أي كيف سيكون أداءنا النفسي والعقلي والسلوكي والبدني. ومن ثم فإن قصر النظر الجيني Gene Myopia الذي يرى أننا نتاج لبرمجة جيناتنا فقط، مفهوم خاطئ تماماً.

نضج المخ البشري

إذا كانت الرئيسيات المختلفة تولد بمخ يقارب حجمه حجم أمخاها عند البلوغ، فإن مخ الإنسان الوليد يبلغ حجمه ربع حجم المخ البالغ، وما يتبع ذلك من نمو مطلوب للتدرج في التعلم. وقد أثبتت الدراسات المقارنة، أنه كلما كان الكائن أعلى في سلسلة التصنيف كلما ازداد دور القدرات المكتسبة بالتنشئة. لذلك يؤكد عالما الأنثروبولوجيا شولتز ولاقندا⁽¹⁾ أن السلوك الإنساني- لما يتسم به من تعقيد شديد- يعتمد على التعلم (وليس الجينات) أكثر من أي كائن آخر.

وقد أظهرت الأبحاث الحديثة أن نشاط المخ البشري يتطور مع المراحل العمرية، بحيث يصبح مؤهلاً لبرمجته بكم هائل من السلوكيات والمعتقدات. وقد أجرت د. ريم لايو Rima Laibow⁽²⁾ أبحاثاً هامة على نشاط المخ الكهربائي في تلك المراحل⁽³⁾، فوجدت أن ما بين الولادة وسن العامين تكون الموجات الكهربائية السائدة في المخ هي موجات دلتا البطيئة (Delta 0.5 - 4 HZ)، ثم تسود موجات ثيتا (Theta 4 - 8 HZ) الأنشط قليلاً بين العامين والستة أعوام. ومع موجات دلتا وثيتا يكون المخ أكثر قابلية للبرمجة والإيجاء، فبراً كم مخ الطفل كمًا هائلاً من المعارف السلوكية والمعتقدات. لذلك ننصح بعدم توجيه الملاحظات السلبية لأطفالنا (مثل أنت غبي، أنت لاتستحق...) حتى لا يتم برمجتها وبالتالي يعتبرها المخ من الحقائق البديهية التي يصعب تغييرها فيما بعد.

ومع التقدم في السن، تسود موجات ألفا الأسرع (Alpha 8 - 12 HZ)، التي يصحبها شعور بالوعي وبالذات. ومن سن الثانية عشرة تظهر موجات بيتا الأكثر سرعة (Beta 12 - 35 HZ)، وتسود في فترات التركيز الواعي، مثل قراءة هذا الكتاب.

(1) A. Schultz & Robert Lavenda 1987.

(2) د. ريم لايو تشغل منصب المدير الطبي لمؤسسة Natural Solutions Foundation.

(3) Quantitative EEG and Neurofeedback 1999,2002.

وحدثنا تم وصف موجات جاما ($\text{Gama} < 35 \text{ HZ}$) التي تظهر في حالات التركيز الشديد كقيادة الطائرات وإجراء العمليات الجراحية والتأمل.

سبحان الله الخالق الحكيم؛ أي هذه الدقة يتم إعداد المخ في المراحل العمرية المختلفة: في البداية، يتم إعداده ليتقبل البرجة بما سيُعتبر فيما بعد من البديهيات، ثم يُعد للإدراك الواعي واستشعار الذات، ثم ليكون مؤهلاً للتركيز الواعي والعمليات العقلية العليا، ما رأيكم أيها الدراوثة القائلين بعشوائية الخلق؟



التنشئة نوع من الهندسة الوراثية

وبينما أتأمل المعنى السابق، الذي يدور حول نضج المخ البشري، تردد في خاطري مفهوم مرتبط به، طرحه عبقرى علم النفس دانييل سيجل ⁽¹⁾ Daniel Siegel في كتابه The



(شكل - 1)

دانييل سيجل Daniel Siegel
أستاذ علم النفس وأبحاث المخ

developing mind، وهو «أن التنشئة نوع من الهندسة الوراثية»، فأردت أن أستوضح من هذا الخبر مراده، وأن أعرف كيف يقوم الوالدان (أو قل المهندسين الوراثيين) بدورهما الأمثل في تنشئة أبنائهما.

حملت تساؤلاتي إلى دانييل سيجل (شكل - 1)، وبادرته قائلاً: عندما ذكرت أن التنشئة نوع من الهندسة الوراثية، هل كنت تشير إلى مفهوم علمي، أم أنه قول أدبي بلاغي لإظهار أهمية دور التنشئة؟ أجابني سيجل؛ بل إنه مفهوم علمي دقيق، ألا تعلم - وأنت الأستاذ في الطب - أن الجينات يتم تنشيطها وتفعيلها أو يتم إيقاف دورها تبعاً لعوامل بيئية

(1) وُلِدَ دانييل سيجل عام 1957، واستكمل دراسة الطب بجامعة هارفارد، وتخصص في علم نفس الأطفال والمرهقين والكبار في جامعة UCLA حتى صار أستاذاً بها. وبالإضافة لذلك فهو يرأس مؤسستين كبيرتين لأبحاث المخ وعلم النفس. وهو من رواد علم جديد صار يعرف بـ Interpersonal Neurobiology، ويهتم بالأسس العصبية للعلاقات بالآخرين. وله عدة كتب أهمها The Developing mind, The mindful brain

تُعتبر التنشئة من أهمها، وهذا ما يعرف بـ «علم التحكم في الجينات Epigenetics». إن طريقة تواصل الوالدين مع أطفالهما يمثل أهم عامل مؤثر في تنشيط الجينات Gene Expression المسؤولة عن تكوين دوائر السلوك وبرمجة المفاهيم التربوية في الذاكرة.

كان طبيعياً أن أسأل د. سيجل؛ وما الذي ينبغي على الوالدين فعله حتى تُنتج هندستهما الوراثية مُنتجاً جيداً؟ فأجابني قائلاً: إن ذلك يبدأ قبل حدوث الحمل! ثم أضاف قائلاً: لقد أثبتت الدراسات أن في آخر مراحل نضج البويضات والحيوانات المنوية (التي ستكوّن الجنين) يتم ضبط نشاط مجموعات معينة من الجينات المسؤولة عن الكثير من صفات الطفل⁽¹⁾؛ لذلك فإن ما يجري في حياة الوالدين في هذه المرحلة يكون له تأثير كبير على جسم وعقل أبنائهما⁽²⁾.

ويضرب عالم نفس الأجنة فيرنى⁽³⁾ على ذلك مثلاً مهماً، فيبين أن هناك فرقاً بين حدوث الحمل في جو من الحب أو العجلة أو الكره، وفرق بين أن يكون الطفل مرغوباً فيه أم لا، كذلك هناك تأثير إيجابي كبير لأن يعيش الوالدان في جو مستقر مدعومين من الأهل والأصدقاء. وقد أدركت الحضارات القديمة أهمية ذلك منذ آلاف السنين، فكانوا يُجرون طقوساً لتطهير أجسادهم وعقولهم قبل اللقاء الزوجي الذي قد ينتج عنه الحمل.

ويستمر سيجل في النقل عن فيرنى قائلاً: وأثناء الحمل، يتجاوب الجنين مع كل فعل للأُم أو فكرة أو شعور، وينعكس ذلك على تشكل مخ الجنين وعقله وعلى مزاجه وشخصيته. فلو هجر الأب الأم - مثلاً - وبدأت في تحمل مسؤوليات الحياة في وحدة قاتلة، تأثر الجنين إلى حد كبير. كما أظهرت دراسة شقيقة أُجريت في إيطاليا - باستخدام تصوير الموجات الصوتية - أن عراكاً بين الأم والأب يجعل الجنين يقفز خوفاً وقلقاً⁽⁴⁾.

ولا شك أن تمسك العلماء لفترة طويلة بفكرة الحتمية الجينية وإنكارهم لدور العوامل المكتسبة، جعلت أطباء النساء والتوليد لا يبالون إلا بأمور سطحية بالنسبة للأم الحامل؛ هل

(1) تعرف هذه المرحلة بـ Genomic Imprinting.

(2) Surani 2001- Reik and walter 2001.

(3) في كتاب: pre-parenting: Nurturing your child from Conception, 2002.

(4) دراسة أجرتها Italian Concious Parenting Organisation.

تأكل جيداً، هل تأخذ الفيتامينات، هل تمارس الرياضة... أما الآن فالصورة قد تغيرت. فالجنين لا يأخذ من أمه الغذاء فقط، بل إذا كانت الأم دائماً التوتّر فإن ذلك يؤدي إلى إفراز كميات كبيرة من هورمونات التوتّر (الأدرينالين - النورأدرينالين - الكوريتزون) التي تصل إلى الجنين وتؤدي إلى تنشيط الدورة الدموية في عضلاته ومنطقة تحت المهاد في المخ، على حساب الدم الذي يغذي مقدمة المخ، مما يؤثر في قدراته العقلية والسلوكية⁽¹⁾.

كذلك ظهر أن تلك الظروف البيئية تؤثر في معامل الذكاء بمقدار 51 %، مقارنة بدور الجينات التي لا يتجاوز تأثيرها 34 %⁽²⁾.

يضاف إلى هذه التأثيرات العقلية والنفسية والسلوكية في الجنين عددٌ من التأثيرات الجسدية، قد تؤدي إلى أن يولد الطفل ناقصاً في الوزن، وقد تؤدي فيما بعد إلى زيادة احتمال حدوث عدد من الأمراض بنسب تتراوح بين 25 - 30 %. وأهم تلك الأمراض ارتفاع ضغط الدم وأمراض القلب والسكري ومشكلات الكليتين والسمنة⁽³⁾.

وختم د. سيجل حديثه عن تلك المرحلة من حياة الإنسان قائلاً: لا شك أن الزمن الذي كنا نعتبر فيه الأجنة كائنات غير ناضجة بالقدر الكافي، ولا تتأثر إلا بالعوامل الغذائية، قد ولى إلى الأبد.

أثار هذا التعليق في ذهني تساؤلاً، فقلت لسيجل: ولماذا زوّد الجنين بآليات تجعله يتفاعل مع بيئة ومزاج والديه؟ فأجابني: يبدو أن ذلك لأن الجنين سيجد نفسه بعد قليل في هذا الوسط، ومن ثم ينبغي إعداده مُسبقاً ليحيا فيه.

ثم استأنف د. سيجل طرحه لدور الوالدين كمهندسين وراثيين لأبنائهما، وانتقل إلى مرحلة ما بعد الولادة، فقال: وتؤدي الرضاعة الطبيعية دوراً حيوياً في تنشئة الطفل. جاء في إحدى توصيات مؤتمر أكاديمية نيويورك للعلوم الذي عُقد عام 1996: أن الرضاعة الطبيعية

(1) Lesage 2004 - Christensen 2000 - Arnsten 1998 - Leutwyler 1998 - Sapolsky 1997 - Sandman 1994.

(2) دراسة تحليلية لنتائج 212 دراسة سابقة، قام بها عام 1997 بيرني ديفلين Bernie Devlin أستاذ الطب النفسي بجامعة بتسبرج.

(3) ناثنيلز 1999، Nathanielsz، في كتابه Life In The Womb.

لا تقدم فقط تركيبة غذائية مناسبة، بل إنها تمثل خطوة مهمة في نُضج المخ بما لها من تأثير على الجهاز العصبي والجهاز الهورموني للطفل. وهذا ما قصده طبيب الغدد الصماء «أيزاك كوخ - Yetizhak Koch» حين قال: إن لبن الأم ليس مجرد مصدر للغذاء، إنه طريق تنقل به الأم المعرفة لطفلها. كذلك فإن للحميمية الجسدية (احتضان الطفل وحمله أثناء إرضاعه) دورًا كبيرًا في توصيل عواطف الأمومة المتدفقة إلى الوليد⁽¹⁾.

وبالنسبة لأسلوب معاملة الأطفال، يؤكد العالم النفسي «دانييل شتيرن» على أهمية تبادل النظرات واللمسات وتكرار المداعبات بين الوالدين والطفل. ويعتقد «شتيرن» أن غرس المفاهيم الأساسية للحياة العاطفية للإنسان يتم خلال هذه اللحظات الحميمة، فهي تجعل الطفل يدرك أن مشاعره تُقابل بالتعاطف وأنها مشاعر مقبولة ومتبادلة، وقد أطلق على هذه العملية اسم «التوافق».

ويرى «شتيرن» أن اللحظات المتكررة من التوافق، أو عدم التوافق، بين الوالدين وأطفالهما تشكل ما سيجملونه معهم في شبابه من سلوكيات يتعاملون بها مع الآخرين. إن هذه اللحظات قد تكون أكثر تأثيرًا من أكبر الأحداث التي تمر بهم في طفولتهم. وقد أظهرت دراسات أجريت في المعهد القومي للصحة النفسية بالولايات المتحدة أن اختلاف الأطفال في مقدار تعاطفهم مع الآخرين يرجع إلى الكيفية التي درّب بها الآباء أطفالهم على التعاطف. فالأطفال الأكثر تعاطفًا هم الذين لفت والداهم انتباههم إلى ما يسببه تصرفهم من آلام لشخص آخر، كأن يقال للطفل إذا أساء التصرف مع أخته مثلاً «انظر كيف جعلتها تشعر بالحزن...» بدلًا من القول «لقد كان سلوكك هذا عنيفًا».

كما يتشكل تعاطف الأطفال مع الآخرين من خلال رؤيتهم لرد فعل المحيطين بهم تجاه شخص يمر بمحنة. ومع محاسنهم لما يرونه من ردود الأفعال ينمو لدى الأطفال مخزون من استجابات التعاطف، كما تتكون لديهم الرغبة في تقديم المساعدة للآخرين الذين يمرون بضائقة.

(1) قام الباحثون في إحدى التجارب بإرضاع القروود الوليدة عن طريق أمهات صناعية تم تصنيعها من مواد مختلفة على هيئة أنثى القرد، لقد قُصّل الرضيع الأم المصنوعة من القطن والقماش اللين الناعم عن الأم المصنوعة من السلك !.

مخاطر التنشئة اللاعنفية

لا شك أن نقص التوافق والتعاطف في علاقة الطفل بوالديه يكلف المجتمع والإنسان ثمناً باهظاً طوال حياته. وقد أظهرت دراسة أجريت على مجموعة من المجرمين الذين ارتكبوا أقسى الجرائم عنفاً اشتراكهم في سمة واحدة يختلفون بها عن المجرمين الآخرين، فهؤلاء لم يتمتع معظمهم في طفولتهم بالاستقرار، إذ تنقلوا من بيت من بيوت رعاية الأحداث إلى بيت آخر، أو نشأوا في ملاجئ الأيتام.

تعد أطفال الإهمال العاطفي عند هؤلاء الأطفال جذوة التعاطف مع الآخرين، نتيجة الإيذاء العاطفي الحاد والمستمر الذي تعرضوا له من جراء المعاملة القاسية المتسمة بالتهديدات السادية والإذلال والإشعار بالدونية، ومن ثمَّ سبَّ الأطفال الذين عانوا كل هذا وقد امتلأت قلوبهم بمشاعر سلبية لا تبالى بالمرّة بالآخرين من حولهم.

لذلك نجد المجرمين المصابين بهذا الاضطراب النفسي (السيكو باثين Psychopaths) يتصفون بالتجرد التام من أي شعور بالندم، بل نجدهم يتحدثون عن أشد جرائمهم قسوة وبشاعة بلذة ونشوة ومباهاة.

كذلك تغيب الملكات التعاطفية بصورة مأساوية عند من يرتكبون جرائم الاغتصاب والمتحرشين بالأطفال والنساء. بل إنهم يبررون جرائمهم بالكذب على أنفسهم وعلى الآخرين، فيقولون مثلاً «الواقع أن النساء يرغبن في الاغتصاب ...» أو «المرأة إذا قاومت، فهي تتمتع لكى تزيد من رغبة الرجل ...». ويقول المتحرشون بالأطفال: «أنا لا أؤذى الطفل، أنا أظهر له الحب فقط ...» أو «إن الصبية يفعلون ذلك مع بعضهم ...».

وبينما كان د. سيجل يعرض هذه الأنماط من الانحراف السلوكي، تجسدت في خاطري بعض الحوادث التي تتكرر في الشارع المصري. فبعض الأطفال الذين حُرِّموا من «التوافق» مع الوالدين أصبَحوا يشكِّلون ظاهرة «أطفال الشوارع»، وعندما يكبرون يمارس المنحرفون منهم البلطجة (كما حدث عقب ثورة 25 يناير) والاعتصاب والتحرش بالأطفال والنساء، كما ظهرت نماذج مثل «التوربيني» الذي كان يتخلص من ضحاياه من الأطفال بإلقائهم من فوق القطار التوربيني، ولا شك أن عدم التعامل بحكمة وجدية مع ظاهرة أطفال الشوارع يمكن أن يحول هذا النموذج التوربيني إلى ظاهرة.

وتنبهت على صوت د. سيجل وهو يقول، ومن الأمثلة البارزة التي تنتجها التنشئة الخالية من التوافق والتي تُطفئ جذوة التعاطف عند الطفل بل وتحوله إلى مسخ بشري، هو السلوك الديكتاتوري عند الحكام المستبدين.

وإذا كانت الحضارات البشرية تقدم نماذج من الحكام المستبدين، ابتداءً من فرعون موسى إلى هولاكو إلى هتلر وموسوليني، فإن الأسلوب الديكتاتوري لا يحتاج بالضرورة إلى حاكم ومحكومين، بل قد يمارسه قزم صغير يترأس مؤسسة كبرى أو ناظر مدرسة يبطش بتلاميذه. وبينما د. سيجل يطرح هذه الأمثلة للاستبداد، طافت بيالي أمثلة أخرى، مثل استئصال المستوطن الأبيض الأمريكي للهنود الحمر والوضع المشابه في فلسطين، والتصفية العرقية في البوسنة والهرسك.

ثم أضاف سيجل، وقد صدرت المئات من الدراسات والكتب عن «سيكولوجية الديكتاتورية والاستبداد»، وتتفق كلها على أن هؤلاء المستبدين يجمعون كل السمات النفسية للمنحرفين الآخرين؛ فالديكتاتور المستبد يمتلئ قلبه بمشاعر لا مبالية بالمرّة بمن حوله، ويتسم بالتجرد التام من أي شعور بالندم رغم كل ما يسببه من مصائب، كما يبرر جرائمه بالكذب ويدّعي أن الآخرين لا تُصلحهم إلا هذه المعاملة المهينة أو تلك. وهو في كل الأحوال يمارس استبداده وهو في حالة من السرور الخفي، وكلما ازداد بطشه ازداد هدوءاً وارتياحاً. وربما كان هذا السلوك من أشد ما استثار الشعوب العربية، التي قامت بثوراتها التي عُرفت باسم «الربيع العربي» ضد حكامها الديكتاتوريين في الفترة الأخيرة.

وفي أثناء استماعي لحديث د. سيجل عن دور برهجة اللاوعي التي تقوم بها التنشئة، أدركت حكمة الإسلام حين أخبرنا رسول الله ﷺ بأن أول حقوق الطفل على أبيه أن يُحسن اختيار أمه، وأن تكون الأولوية في المفاضلة عند الزواج (سواء في الرجال أو النساء) لذوي التدين، فإن ذلك سينعكس بشكل مباشر على أسلوب تربيته لأبنائه⁽¹⁾. كما أوصانا الإسلام بأن نجتمع

(1) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِذَا جَاءَ كُمْ مِنْ تَرْضُوعٍ دِينُهُ وَخُلُقُهُ فَأَنْكِحُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَقَسَادٌ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ فِيهِ قَالَ «إِذَا جَاءَ كُمْ مِنْ تَرْضُوعٍ دِينُهُ وَخُلُقُهُ فَأَنْكِحُوهُ». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. [سنن الترمذي].

في أسلوب تربيتنا بين التوجيه المباشر والحنان الدافق⁽¹⁾، حتى لا نخرج للمجتمع مسوخًا بشرية تُعيث فيه فسادًا وإفسادًا.

الفطرة أم التنشئة... القول الفصل

واستطرد د. سيجل في حديثه عن عمق تأثير التنشئة وعلاقتها بالفطرة (البيولوجيا/ الجينات) فقال: وإذا أردنا أن نلخص رأى العلم في قضية كل العصور؛ الطبيعة أم التنشئة Nature Vv Nurture، وجدنا أنه إذا كان للجينات بعض دور في تحديد صفاتنا العقلية والنفسية والسلوكية (الإيجابية والسلبية)، فإن تلك الجينات يتم تفعيلها وتوجيهها من قِبَل الظروف المحيطة. لذلك لن يفيد كثيرًا أن يمتلك الجنين (ثم الطفل) جينات إيجابية بدرجة كبيرة، إذا كان سيواجه الإهمال وسوء التوجيه الذي سيعطل تلك الجينات.

معنى ذلك، أن الجينات تُحدد الاستعداد الوراثي، أما التنشئة فتحدد نوع السلوك الذي يتبناه الشخص. فعلى سبيل المثال، قد يرث طفلان من والديهما جينات تدفع للسلوك العدواني، ثم يأتي دور التنشئة لتوجه هذا السلوك، فيستخدم أحدهما عدوانيته ليكون بطلًا في المصارعة أو جراحًا، بينما يُنشأ الآخر ليكون زعيمًا لعصابة.

حرية الإرادة الإنسانية... والعلاقة بين الوعي واللاوعي

أضاف د. سيجل: وإذا كان لكل من الفطرة والتنشئة دور أساسي في تشكيل ذاتنا الإنسانية، فليس معنى ذلك أن تأثيرهما مُلزم. بل يتضح مما ذكرت أن مفهوم «الحمية الجينية» قد ذهب إلى الأبد، كما أن مفهوم «الحمية التربوية» - أي أننا عبيد لأسلوب تربيتنا - ينبغي أن يذهب أيضًا. فدائمًا هناك دور لـ «حرية الإرادة الإنسانية»، ذلك الدور الذي يقف وراء الوعي البشري في مواجهة اللاوعي⁽²⁾.

= عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «تُنَكِّحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَأَظْفَرُ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ». [صحيح البخارى].

- (1) قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنْ لِي عَشْرَةٌ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ. [صحيح البخارى].
- (2) سناقش هذا الموضوع بالتفصيل في الفصل القادم.

أثار حديث د. سيجل عن العلاقة بين الوعي واللاوعي، وعن حرية الإرادة الإنسانية اهتمامي. فالحرية - دون شك - أهم مكونات ذاتي الإنسانية، ولولاها لما كان لوجودي معنى، ولما كان للديانات التي تقوم جميعها على الثواب والعقاب أى معنى. فى نفس الوقت كانت فكرة «الحتمية الجينية» و «الحتمية التربوية» ما زالت تؤرقنى، فرويت لسيجل قصة عازف البيانو الأسترالى ديفيد هلفجُت (القصة التي ذكرتها فى أول الفصل) وكيف أنه دفع ثمنًا باهظًا ليتحرر مما تم برمجته فى عقله اللاوعي، ثم قلت له: لقد فهمت من حديثك أنه ينبغى أن ننظر إلى «السلوك الإنسانى» من خلال ثلاثة مستويات؛ المستوى الأول يمثله اللاوعي الغريزى الذى تحدث عنه فرويد وساندته مدرسة الحتمية الجينية، والمستوى الثانى ويمثله اللاوعي المكتسب الذى يهتم به التربويون كثيرًا (مدرسة الحتمية التربوية)، وأخيرًا حرية الإرادة المسئول عنها العقل الواعى. ثم سألته: ما حقيقة العلاقة بين هذه المستويات الثلاثة؟

أجابنى د. سيجل: يمكن النظر إلى العقل اللاواعى فى الإنسان باعتباره الطيار الآلى Auto pilot الذى يوجهنا، بينما يمثّل العقل الواعى التحكم الإرادى (اليدوى) Manual Control. ومن أجل تحقيق ذلك، زُوِدَ العقل اللاواعى بقدره هائلة على استقبال ومعالجة قُرابة العشرين مليون رسالة فى الدقيقة، مقارنة بالعقل الواعى الذى يستقبل ويعالج أقل من 2500 رسالة فى الدقيقة! لذلك إذا اقتربت كرة قذفها طفل من عينك - مثلاً - فإن العقل الواعى لن يجد وقتًا لإدراك الموقف والتصرف تجاهه، أما العقل اللاواعى فسيدفعك لأن تتحاشى الكرة أو يدفعك لأن تضع يدك على عينك، أو لأن تغلقها.

كذلك يقوم العقل الواعى ببرمجة العقل اللاواعى (الطيار الآلى) بالكثير من البرامج التى يستعملها فى مهامه. تذكّر أول مرة جلست فيها أمام عجلة قيادة السيارة؛ كم عدد الأشياء التى كان عليك استحضارها بشكل واع فى وقت واحد؟، كان عليك أن تركز على الطريق (عرضه - منحنياته - السيارات التى تشغله...) وفى نفس الوقت كان عليك النظر فى المرايا التى أمامك وعلى جانبي السيارة (لتدرك ما يدور خلفك وعلى جانبيك) وأن تنظر إلى عدادات السيارة (السرعة - الحرارة - الزيت...) وأن تُحرِّك قدميك بين دَوَّاسات القيادة الثلاث فى تناغم مع تحريك يدك اليمنى لناقل التروس. ومع كل ذلك عليك أن تحافظ على أعصابك هادئة. إنها مهام شاقة لا يستطيع الواعى أن يستمر فى ممارستها لفترة طويلة، ولا مفر من تدريب اللاوعي

على القيام بها بتلقائية عجيبة، حتى إنك قد تقود السيارة بأمان في طريق مزدحم بينما يقارن عقلك بين المرشحين لرئاسة الجمهورية، أيهما تختار؟

وبالإضافة لقيام العقل الواعي ببرمجة العقل غير الواعي، فإن الأول يقوم أيضًا بمراقبة أداء الثاني لمهامه، ويتدخل وقت اللزوم لإيقافه، ويقوم بتولى المهمة بنفسه، وربما يوجهها لاتجاه آخر، وهذا هو جوهر «الإرادة الحرة»، التي لا تركنا رهنًا لبرامج مسبقة. وما أن ينسحب العقل الواعي بعد ذلك (ليقوم - مثلًا - بالتخطيط لأمر مستقبلي، أو للانغماس في بعض أحلام اليقظة) حتى يعود العقل اللاواعي للإمساك بالدفة.

وأضاف د. سيجل، أما قصة عازف البيانو ديفيد هلفجُت فتبين أن أكبر معوقات النجاح هو تعارض ما تم برمجته في العقل اللاواعي مع طموحاتنا الواعية، والقصة في نفس الوقت خير دليل على قدرة العقل الواعي في تجاوز برامج اللاوعي (حرية الإرادة الإنسانية)، فقد استمر ديفيد في العزف وكسب المسابقة. أما الثمن الفادح الذي دفعه فيرجع إلى أن ما برمج في اللاوعي كان أمرًا شديد الخطورة وقد يكلف ديفيد حياته. أما في معظم مواقفنا الحياتية التي يتصدى فيها الوعي لللاوعي لا تكون المعاناة بهذه الشدة ولا يكون الثمن بهذه الفداحة.

ولا تعتقد أن العلاقة بين الوعي واللاوعي سلبية في جميع جوانبها. فإذا نظرنا إلى الوجه الآخر للعملة، وجدنا أنه يمكن برمجة لاوعي أطفالنا من أجل تحقيق النجاح وإقامة علاقات طيبة مع الآخرين (عكس ما تم مع ديفيد)، عندها سيكون السعي لتحقيق النجاح العملي والاجتماعي أمرًا فطريًا بديهيًا لا يحتاج منا لجهد كبير.

التحكم في اللاوعي والنشاطات اللاإرادية

سألت د. سيجل: وهل خضعت العلاقة بين عقلنا الواعي واللاوعي للأبحاث والتجارب العلمية؟

ابتسم سيجل وقال: لقد أثبت العلم التجريبي أن لعقلنا الواعي وإرادتنا قدرة على التحكم في نشاطات عقلنا اللاواعي وكذلك في عملياتنا الحيوية اللاإرادية. وأذكر لك طرفة من جهود العلماء من أجل إثبات قدرة الإنسان على هذا التحكم.

في شتاء عام 1985 جلست مجموعة من الرهبان البوذيين في أعلى جبال الهيمالايا في شمال الهند يمارسون «التأمل» في هدوء عميق، وبالرغم من ثيابهم القليلة فقد بدا عليهم عدم الاكتراث بالبرودة التي وصلت إلى حدود التجمد، بل كان يمر عليهم راهب شاب يلف كلاً منهم ببشاكير مبللة بالماء البارد. في هذه الظروف - عادة - تنخفض درجة حرارة الجسم ويصاب الشخص بصدمة ويفقد وعيه خلال دقائق. وبدلاً من الارتجاف، بدأ الرهبان يتعرقون، وارتفع البخار من البشاكير المبللة، وخلال ساعة كانت جافة تماماً. استبدل الراهب الشاب البشاكير الجافة بأخرى مبللة شديدة البرودة، فجفت أيضاً، وكذلك دُفِعةً ثالثة. لقد تحولت أجسام الرهبان إلى ما يُشبه القرن!

وفي تلك الأثناء، كان يقف فريق من العلماء بقيادة هيربرت بينسون Herbert Benson، وهو طبيب متخصص في القلب في كلية الطب بجامعة هارفارد، يرقبون المعدات الطبية الموصولة بأجسام الرهبان، لالتقاط أي دليل يشير إلى الآليات الفسيولوجية التي تجعل الجسم يُنتج هذه الكمية الاستثنائية من الحرارة. باختصار، لقد كان الرهبان قادرين على «التحكم» في معدل الأيض (الاحتراق) في أجسامهم من خلال قوة أفكارهم فقط!⁽¹⁾

أمضى بنسون سنوات يدرس تأثيرات «التأمل» على الدماغ وبقية وظائف الجسم، وكانت مادته البحثية هي الرهبان البوذيون في أقصى الأرض. بل لقد لفتت أبحاث بنسون وحماسته اهتمام مؤسسات أكاديمية كبيرة في أنحاء الولايات المتحدة، وبحلول القرن الحادي والعشرين كان هؤلاء الرهبان مادة التجارب المفضلة في مختبرات علماء الأعصاب، خاصة في جامعات هارفارد وبرينستون وديكسون وبنسلفانيا⁽²⁾.

(1) هذا بالرغم من أن الأيض يُعتبر أحد العمليات الحيوية «اللاإرادية» التي تمارسها الكائنات الحية.
(2) بدأ الاهتمام بإمكانية التأثير الإرادي على الجهاز العصبي اللاإرادي في العلم الغربي منذ أوائل الستينيات. فقد كان نيل ميللر Neil Miller عالم السلوك والأعصاب بجامعة ييل Yale أول من طرح عام 1961 أن الناس يمكنهم أن يتعلموا التحكم في ضغط الدم وحركة الأمعاء. وبعدها بفترة قصيرة بدأ د. باسماجيان J. Basmagean أستاذ إعادة التأهيل بجامعة ماك ماستر McMaster في أونتاريو بكندا، في تدريب الأشخاص المصابين بأذى في النخاع الشوكي على استعادة السيطرة على ما تبقى من خلايا سليمة في نخاعهم. وفي نفس الوقت تقريباً بدأ عالم النفس إيلمار جرين من معهد ميننجر Menninger في تدريب مرضاه على «الاسترخاء» لعلاج نوبات الصداع النصفي الشديدة وكذلك علاج داء وينولد الذي يصيب الأوعية الدموية باليدين ويسبب آلاماً شديدة بها.
ومنذ ذلك الحين، بدأ استخدام ما صار يُعرف بالتدريب الذاتي Autogenic Training، الذي يهدف إلى =

آليات التحكم في اللاوعي والنشاطات اللاإرادية

سألت د. سيجل، وكيف تؤثر بوعينا في اللاوعي وفي النشاطات اللاإرادية للمخ؟ أجبني سيجل: لقد أُجريت العديد من الدراسات لمعرفة آليات تأثير نشاطاتنا الذهنية (متمثلة في التأمل Meditation الذي يقوم به العباد) على نشاطات المخ اللاواعية واللاإرادية.

نبدأ بتلك الدراسة التي أجراها ريتشارد ديفيدسون Richard Davidson (عالِم الأعصاب وعلم النفس في جامعة ويسكونسون) على ثمانية من كبار ممارسي التأمل عند الدلاي لاما (الزعيم الروحي لبوذي التبت) عام 1992. أوصل ديفيدسون بأدمغة كل من هؤلاء الرهبان 256 حساساً Sensor يسجل النشاط الكهربائي لمختلف مناطق المخ. بعد 15 ثانية من التأمل، سجل رسام المخ الكهربائي EEG موجات متسارعة، تُعرف بموجات جاما، وتعني أن المخ يعمل بأقصى طاقاته. وعندما وصل التركيز إلى أقصاه لاحظ ديفيدسون أن جميع مناطق الدماغ في نصفى المخ ترسل موجات جاما بشكل متزامن، وهذا التزامن أمر جوهرى لما يحسه المتأملون والمصلون من مشاعر⁽¹⁾.

وفي دراسة أجراها العالم النفسى دانييل جولمان Daniel Golman⁽²⁾، وجد أن تلك الزيادة في النشاط الكهربائي للقشرة المخية يصحبها تحرر القشرة من تحكم مراكز العاطفة، مما يسمح للقشرة المخية بالتركيز بكامل طاقتها على إدراك ما يحدث في اللحظة الراهنة. كذلك وجد أن التأمل يجعل أدمغتنا حساسة بشكل أكبر لاستقبال المدخلات، ويمنع الاعتياد على ما تستقبله.

أما سارا لازار Sara Lazar (عالمة الأعصاب في مستشفى ماساتشوستس العمومى وخبيرة التصوير الرنيني المغناطيسى للمخ) فلم تركز على الرهبان الذين كرسوا حياتهم للزهد والتأمل، بل اهتمت بدراسة الأشخاص العاديين الذين يقومون بالتأمل لمدة عشرين دقيقة يومياً⁽³⁾. لقد

= إخضاع عمليات الجسم الحيوية لإرادة الشخص، من أجل علاج العديد من المشكلات الصحية المزمنة: مثل نقص الانتباه وفرط النشاط، والدوار الحركي، وتأهيل العضلات المشلولة، والربو، ونوبات الصرع، والتهاب الأمعاء التقرحي، وإزالة الأثر من موضع الطرف المبتور وغيرها.

(1) توصلت إلى نفس النتائج 25 دراسة أخرى أُجريت على التأمل.

(2) مؤلف كتابي الذكاء الانفعالي والذكاء الاجتماعي.

(3) تقارب مجموع فترات صلواتنا اليومية الخمس.

وجدت سارا أن التأمل لتلك الفترة يؤدي إلى زيادة نشاط القشرة المخية المسؤولة عن الانتباه، وكذلك زيادة نشاط الجسم اللوزي Amygdala المسئول عن الانفعالات وأيضًا منطقة تحت المهاد Hypothalamus المسؤولة عن الأفعال اللاإرادية، ويحقق ذلك تكاملًا بين العمليات المعرفية الواعية والنشاطات الانفعالية واللاإرادية. ليس النشاط فقط هو الذي يتزايد بل إن التأمل يؤدي إلى زيادة حجم مناطق المنخ المسؤولة عن الانتباه والإدراك الحسي، وكلما زادت فترات التأمل اليومي، تضخمت هذه المناطق، كما ثبت لها أن التأمل يقلل من ضمور هذه المناطق مع التقدم في السن.

وقد قام الدكتور أندرو نيوبرج Andrew Newberg رئيس مركز الدراسات الروحية والعقلية التابع لجامعة بنسلفانيا بأبحاث متميزة -بالإضافة إلى مراجعة مئات الدراسات الطبية والعصبية والنفسية - حول تأثيرات التأمل على الإنسان، فتوصل إلى نتائج مذهشة أثبتتها في عدة كتب من تأليفه⁽¹⁾.

ويعتبر الباحثون أن من أهم ما تشير إليه الدراسات السابقة (وغيرها) أن التأمل يزيد من حدة الانتباه، وذلك يناقض ما كان متعارفًا عليه من قبل، من أن التأمل يؤدي إلى حالة من الخمول العقلي.

وختم د. سيجل حديثه قائلاً، هكذا تثبت الأبحاث العلمية دورًا للوعي في التأثير على النشاطات البيولوجية اللاإرادية للإنسان، وكذلك في التأثير على المشاعر التي يقف وراءها ما تم برمجته في اللاوعي.

هل من سبيل لإعادة البرمجة؟

سألت سيجل، تحدثت عن قدرة الوعي على التحكم في اللاوعي، كما تحدثت عما ينبغي أن نبرمج عليه لاوعينا، فماذا عما تم برمجته بالفعل من مفاهيم سلبية، هل من سبيل لإعادة البرمجة بمفاهيم إيجابية؟

ابتسم سيجل وقال، إن هذا السؤال هو مرتبط بالفرس. فإن ما يتم تنشئنا عليه من مفاهيم

(1) تم في الفصل الأول التعريف بالدكتور أندرو نيوبرج وعرض نتائج أبحاثه.

سلبية يؤدي في الأغلب إلى توتر مزمن، يعطل عمليات البناء والنمو وتجديد الخلايا، ويؤدي إلى تناقص مناعة جسم الإنسان وضمور المخ، أليس ذلك بمثابة انتحار يُقدم عليه من لا يتخلص من توتره؟

أما إعادة برمجة ما تم دمغه في اللاوعي من مفاهيم سلبية، فهذا هو جوهر العلاج عن طريق جلسات التحليل النفسي، وهو ما يُعرف بالعلاج المعرفي السلوكي Cognitive Behavioral Therapy. ومن أجل أن نعرف كيف يمارس هذا العلاج دوره، نذكر أن ما يمر بنا من أحداث يشير في عقولنا (بشكل لا إرادي) أفكارًا لا إرادية تثير مشاعر لا إرادية، وحلقة الوصل بين الأحداث والأفكار هي معتقداتنا. ففي مثال عازف البيانو هناك اعتقاد مبرمج في اللاوعي بأن الشهرة تجلب الموت، ومن ثم فإن حدثًا كالفوز في المسابقة يثير أفكارًا عن البطش والتنكيل والهلاك، فتثير بالتالي مشاعر الخوف والفرع والهلع. ودور العلاج المعرفي السلوكي هو إقناع المريض بخطأ هذا المعتقد، فيتبدل ما يثيره الحدث من أفكار ومشاعر لا إرادية.

دور الوعي واللاوعي في الصحة والمرض

سألت د. سيجل، هل يمكن أن نستغل قدرة العقل الواعي في التأثير على نشاطاتنا اللاإرادية في العلاج من الأمراض؟ فأجابني: لاشك أنك كطبيب قد سمعت عن «العلاج الإيحائي»، وهو ما يُعرف بـ «تأثير البلاسيبو Placebo Effect» (يُعرف أيضًا بتأثير الإدراك أو تأثير الإيمان). والبلاسيبو من المفاهيم شديدة الدلالة على وجود تأثير كبير للأفكار الواعية على الحالة الصحية للإنسان. والمقصود بالعلاج الإيحائي إعطاء مادة ليس لها فعالية علاجية للمرضى، مع إيهام المريض أن هذه المادة عقار فعّال لعلاج مرضه. وكان المعتقد أن العلاج الإيحائي يؤثر بمقدار 30%، وثبت حديثًا أن معدل هذا التأثير قد يصل إلى 70-80%، خاصة في علاج مشكلات القلب؛ وخشونة الركبتين، والربو الشعبوي، والشلل الرعاش. بشرط اعتقاد المريض أن الدواء سينفع لعلاج هذه الحالة واعتزام المريض تناوله بدقة.

وفي دراسة على مرضى الاكتئاب، ظهر أن 80% من تأثير العقاقير المضادة للاكتئاب يرجع إلى التأثير الإيحائي⁽¹⁾. وأيدت تلك النتيجة، دراسة دقيقة، أظهرت فيها تصاوير المخ

(1) دراسة أجراها د. إرفنج كيرش Irving kirsch أستاذ علم النفس بجامعة كونيتيكت Connecticut، =

تغييرات واضحة في القشرة المخية قبل الأمامية عند مرضى الاكتئاب الذين استخدموا العلاج الإيجابي⁽¹⁾.

وفي المقابل، فإن المعتقدات السلبية تؤثر بالسلب على الصحة، وهو ما يُعرف بتأثير النوسيبو Nocebo. فمريض السرطان الذي أخبره الطبيب أنه لن يعيش أكثر من ستة أشهر لن يُكمل هذه الفترة إذا اعتقد فيما يقوله الطبيب. لذلك فالقاعدة عندي تقول: «إذا اعتقدت أنك تستطيع، أو اعتقدت أنك لا تستطيع، فَسَتُحْصَلُ في النهاية النتيجة التي تعتقدها».

إن الدرس الذي عَلَّمَنَا إياه الرجال العظام في تاريخ البشرية هو «أن تدفع عقلك في الجانب الإيجابي». فأنت الذي تختار كيف ستحيا؛ حياة مليئة بالإنجاز، أم حياة مليئة بالإحباط. ويعجبني قول شديد الدلالة للمهاتما غاندى، وهو: «إن معتقداتك تشكل أفكارك، وأفكارك تشكل كلماتك، وكلماتك تشكل أفعالك، وأفعالك تشكل عوائدك، وعوائدك تشكل قيمك، وقيمك تحدد مصيرك».

وعادة ما يكون اللاوعي هو المسئول عن الدوافع السلبية، ويكون الوعي هو المسئول عن الأفكار الإيجابية، وكثيراً ما يفوز اللاوعي في الصراع بين السلبى والإيجابي، لكن - كما ذكرنا - ما زال هناك إمكانية لتغيير نتيجة هذا الصراع. لذلك «فالإرادة الحرة» تتركز في قدرة العقل الواعى على التغلب على السلوك المُبرمج اللاوعى.

ومن الظواهر الأخرى التى تُثبت دور التأثير النفسى للمعتقدات على الحالة الصحية للمريض ما يُعرف بـ«التنويم المغناطيسى الإيحائى Therapeutic Hypnosis». وفيه يتم تنويم المريض مغناطيسياً ثم الإيحاء إليه بأفكار محددة. ومن أشهر وأنجح الأمثلة على ذلك علاج عدد من المرضى بداء جلد السمكة، الذى تظهر فيه قشور في الجلد تشبه قشور السمك وتغضى معظم أجزاء الجسم⁽²⁾.

= ونُشرت في مجلة The American psychological Association: prevention and treatment، والدراسة

بعنوان The Emperor's New Drugs

(1) أجرتها جانس شونفيلد Janis Schonfeld عام 2002.

(2) في إحدى الدراسات، تم تنويم خمسة مرضى، وطُلب منهم التركيز على أجزاء محددة من أجسامهم، وتخييل أن البشرة تعود لطبيعتها. وخلال بضعة أسابيع فقط تم شفاء 80% من جسم كل من المرضى الخمسة شفاء تاماً، وعاد الجلد طبيعياً أملس.

وباستخدام نفس التقنية، أجرى الجراح الأسباني د. أنجل إسكوديرو A.Escudero أكثر من 900 جراحة معقدة دون تخدير. وقد قامت كاميرات محطة BBC بتصوير إحدى المريضات أثناء إجراء جراحة لساقها، وكان على المريضة - حتى لا تشعر بالألم - أن تكرر لنفسها جملة: ساقى مُحَدَّرَةٌ! ويتم استخدام «التنويم المغناطيسي الإيحائي» في مجالات علاجية أخرى تتحكم فيها آليات عضوية، كالآلام المزمنة، وإيقاف النزيف من البواسير والإسراع بشفاء الحروق.

وأضاف د. سيجل، وفي محاولة لفهم ما يقوم به التنويم المغناطيسي الإيحائي، أجريت دراسة مهمة أظهرت نتائج مذهلة. لقد قمت بعرض لوحات ملونة أمام المشاركين، وطلبت منهم أن يتخيلوا أن الألوان تتلاشى بينما يتبقى الأبيض والأسود ودرجات الرمادي. وقد أظهر التصوير بالانبعاث البوزيتروني PET نقص تدفق الدم ونقص النشاط في مراكز الدماغ التي تدرك الألوان، في حين زاد التدفق والنشاط في المراكز التي تتعامل مع الأبيض والأسود! ثم عكست التجربة، وطلبت من المشاركين أن ينظروا إلى صور رمادية باعتبارها ملونة، فحدثت تغيرات عكسية في نشاط الدماغ! إن هذا يعني أن الدماغ أسير للفكرة، وأن التعليمات الفكرية أكثر أهمية من الصورة البصرية الحقيقية للشيء!!

وأضاف د. سيجل مختصاً حوارنا: ومن الحالات المثيرة للحيرة، ما يُعرف في الطب بحالات «الشفاء التلقائي». وهي حالات مرضية تصل بالمرضى أحياناً إلى شفا الموت، ثم إذا بهم يتحدثون تقديرات الأطباء ويقهرون أمراضهم بين ليلة وضحاها (فعلياً) دون مساعدة أدوات الطب الحديث.

وقد ضمت قائمة الأمراض التي جمعها معهد Noetic Science لحالات الشفاء التلقائي عدداً من سرطانات الجلد والجهاز البولي التناسلي، والسكري وتصلب الشرايين وداء أديسون⁽¹⁾. وقد أظهرت دراسات المعهد أن الكثير من حالات الشفاء التلقائي تحدث في المرضى الذين تدهورت حالاتهم بسبب تراكم أفكار سلبية في عقولهم. ويحدث الشفاء عادة بعد أن يمر المريض بتحول نفسي إيجابي كبير. والتفسير المقبول لهذه الظاهرة، أن حالة المريض النفسية وما يعتمل

(1) مرض أديسون Addison's disease: مرض ينشأ نتيجة لنقص إفراز هورمونات الغدة الكظرية (الجار كلوية)، وخاصة هورمون الكورتيزون.

في ذهنه من أفكار يؤثر سلبًا أو إيجابًا على نشاط جهازه المناعي، ومن ثمَّ على الأطباء أن يُعينوا مرضاهم على التخلص من الأفكار الهدامة، وأن يستبدلونا بها أفكارًا بناءة.

شكرت د. سيجل حوارنا الشائق حول الصراع بين الوعي واللاوعي، وقررت أن أُولي موضوع تأثير الوعي واللاوعي على الصحة والمرض - بصفتي طبيبًا - المزيد من اهتمامي.

القارئ الكريم

كانت النظرة السائدة طوال قرون تُركز على دور الإرادة الحرة والعقل الواعي في توجيه السلوك الإنساني، حتى جاء فرويد وفتح آفاق البشرية في أوائل القرن العشرين على دور العقل اللاواعي، واعتقد أن عقلنا الواعي ما هو إلا واجهة تخفي وراءها 90% مما يتم داخل أُمخاخنا بشكل لا شعوري، مما يعني تقلُّص دور الإرادة الحرة إلى حد بعيد. وفي منتصف القرن، توصل فرانسيس كريك وجيمس واطسون إلى بنية جزيء الدنا DNA وآلية قيامه بوظائفه، مما مثَّل تأكيدًا لدور البيولوجيا في السلوك الإنساني.

كانت النتيجة أن انقسم معظم العلماء إلى فريقين، يتبنى كل منهما رأيًا يجعل الإنسان أسيرًا لآليات مُلزمة، أحدهما أنصار «الحتمية البيولوجية» والآخر أنصار «الحتمية التربوية». يرى الفريق الأول أن الإنسان أسير للظروف الطبيعية والآليات البيولوجية، ويرى الثاني أنه أسير لأسلوب تنشئته. المحصلة النهائية، أن سقطت حرية الإرادة الإنسانية، واعتبر الإنسان مجبرًا أي مسيرًا في سلوكه، تبعًا للاصطلاح الديني.

ثم دخلت الاكتشافات العلمية مرحلة يمكن أن نطلق عليها «ما بعد العلم المعاصر»، وثبت أن دور اللاوعي ليس بهذه الطلاقة، بل إن الإنسان قادر بوعيه على التحكم في وظائفه الفسيولوجية الإرادية، وفي نشاطاته اللاواعية. لذلك يهتم الطب النفسي من خلال «العلاج المعرفي السلوكي» بإعادة برمجة عقلنا اللاواعي لاستبدال ما تم دمغه فيه من منظومات سلبية بمنظومات إيجابية.

بهذه الاكتشافات ثبت تحرر الإنسان ومتمعه بقدر كبير من حرية الإرادة، التي ينبغي أن تتوافر لمن جعل في الأرض خليفة، ولتتوارى القائلون بالجبر والتسيير. لذلك نكرر ما ذكرناه

من أن الدرس الذي عَلَّمَنَا إياه الرجال العظام في تاريخ البشرية هو «أن تدفع عقلك في الجانب الإيجابي». فأنت الذي تختار كيف ستحيا؛ حياة مليئة بالإنجاز، أم حياة مليئة بالإحباط. وهذا ما عَبَّرَ عنه المهاتما غاندى بقوله: «إن معتقداتك تشكل أفكارك، وأفكارك تشكل كلماتك، وكلماتك تشكل أفعالك، وأفعالك تشكل عوائدك، وعوائدك تشكل قيمك، وقيمك تحدد مصيرك».



الفصل الثالث

لست روبوتًا

- الانقلاب الكاذب
- أكذوبة الجين الأناني
- حوارى مع د. بروس ليتون
- لسنا عبيدًا لجيناتنا
- البيولوجيا الجديدة
- تلاشى الحتمية الجينية
- آليات التحكم فى الجينات
- مخ الخلية وسر حياتها
- تجميع الخلية الحية
- غشاء الخلية المعجز الأعجوبة
- الخلية والطاقة
- القارئ الكريم

حتى سنوات قليلة مضت، كانت تسوعى عبارة - طالعتها في أكثر من موضع - تلخص في سطور توجهات الفكر الغربي الحديث، تقول العبارة:

«هناك ثلاث ثورات أدت إلى إنزال الإنسان عن عرشه. الأولى، ثورة كوبرنيكوس، التي أثبتت أن كوكب الأرض (والإنسان الذي يسكنه) ليس مركز الكون، بل ذرة من رمل في فضاء الكون الفسيح. والثانية ثورة دارون، التي أظهرت أن الإنسان يشترك مع باقى الرئيسيات في سلف مشترك، وأن الإله لم يخلقه بيديه كما تقول التوراة. ثم جاءت ثورة فرويد، التي ترى أن ما يظهر من سلوك الإنسان الواعى إنما هو قمة جبل الثلج، أو التنفيث عن غليان مرجل الانفعالات اللاواعية. ومن ثمَّ فنحن لا نحررنا الحكمة، إنما الانفعالات. أى أن سلوكياتنا الراقية ونشاطاتنا العقلية ومشاعرنا الروحية ما هى إلا تنفيث عن غرائز بدائية، خاصة الغرائز العدوانية وغريزة الجنس».

الانقلاب الكاذب

كانت هذه الدعاوى تسوعى، وتدفع بتساؤلات مُلِحَّة إلى خاطرى:

هل تعنى سُكناى فى كوكب صغير كحبة الرمل فى فضاء الكون الشاسع فقدانى لتميزى ككائن متفرد فى الكون!؟

وهل تنفى نشأى التطورية عن كائنات أدنى منى ثبوت تميزى الإنسانى؟

وهل حقًا يرجع سلوكى الإنسانى الراقى، الأخلاقى والروحانى، إلى غرائزى العدوانية وغريزة الجنس!؟

ما كل هذا الحقد الذى يعتمل تجاهى فى نفوس بعض بنى جلدتى!؟ وكأنهم، وقد عجزوا عن مجاراة النفوس البشرية السوية فى سَمُوها، لجأوا إلى محاولة الانتقاص من ذلك السمو. وبغض

النظر عن المفاهيم الدينية، ألا يستحق ما حققته من إنجازات حضارية وإنسانية وأخلاقية أن أكون ملكاً في الكون؟! ولا تحسب أن ما يردده هؤلاء هو رأى العلم كما يدعون، فما يعرضونه هو تأويلاتهم الفلسفية لمفاهيم علمية؛ تبدلت كثيراً خلال الربع قرن الأخير.

أقول، إن ما تطرحه العبارة السابقة من مفاهيم كانت تسوعني، إلا أنني خلال السنوات القليلة الماضية، أعملت فيها عقلي وبحثت في براهينها العلمية والفلسفية، فتأكد لي خطأها بشكل قاطع، فهدأت نفسي واطمأنت إلى علو منزلتي في الكون، وهذه حُججِي:

نعم... لقد أظهر العلم أن كوكبنا كوكب متوسط الحجم، يتبع نجماً متوسطاً (الشمس) ينتمي إلى مجرة من بلايين المجرات في الكون. ومع ذلك فقد أثبتت العديد من الدراسات أن الأرض كوكب متميز، حتى أطلق عليه بعض علماء الفلك اصطلاح «الكوكب صاحب الامتيازات الخاصة» The Privileged Planet، فقد ثبت أن كوكب الأرض يتوافر فيه عدد من السمات جعلت منه كوكباً ملائماً تماماً لنشأة الحياة وتطورها وصولاً إلى الإنسان⁽¹⁾. كما يرى هؤلاء العلماء أن فرصة تكرار تلك السمات في كوكب آخر في كوننا بشكل يسمح بأن تنشأ فيه حياة تكاد تكون معدومة⁽²⁾.

وسواء قبلنا أو لم نقبل الرأى بأن كوكبنا يتمتع بامتيازات خاصة على باقى الكواكب، باعتباره التربة الصالحة لنشأة الحياة في الكون، فإن كوكبنا يميزه وجودنا، أى أن كوكب الأرض يتشرف بأن الإنسان هو ساكنه، ولسنا نحن الذين نكتسب منزلتنا من موقع كوكبنا أو أهميته في الكون!.

(1) من هذه السمات نوع وموقع مجرتنا (درب التبانة) في الكون، وكذلك موقع وحجم نجمنا الشمس داخل المجرة، ثم بنية كوكبنا وحجمه وموقعه وزاوية ميله في مواجهة الشمس، وكذلك وجود القمر كتابع يدور حوله، وأيضاً وجود الكواكب المحيطة به من باقى أعضاء المجموعة الشمسية. وللمزيد حول هذا الموضوع، راجع للمؤلف كتاب «كيف بدأ الخلق» - الفصل الثانى - مكتبة الشروق الدولية - الطبعة الثانية - 2012م.

(2) توجد آيات في القرآن الكريم تحمل إشارات بأن هناك دواب أخرى في السموات غير الإنسان، ومن هذه الآيات:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُشْكِرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [النحل].
 ﴿وَمِنْ آيٰتِهِ خَلْقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٧﴾ [الشورى].
 ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالذَّوَابُ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ...﴾ ﴿١٨﴾ [الحج].

وترى نظرية دارون أن هناك سلفًا مشتركًا لجميع الكائنات الحية، شاملة الإنسان، وأن تلك الكائنات قد نشأت تطورًا بآلية الانتخاب الطبيعي من بين طفرات عشوائية. أى يمكن النظر إلى الداروينية باعتبارها نظرية ذات شقين، الأول هو نشأة الكائنات بآلية التطور، وهذا ما يُعرف بـ«مفهوم التطور» والذي صار بمثابة الحقيقة العلمية الأكثر أهمية في علم البيولوجيا. والشق الثانى هو اعتماد التطور على الطفرات العشوائية، وهذا ما يعجز العلم عن تقديم الدليل عليه، بل إن الأدلة العلمية تؤكد عجز العشوائية عن تقديم الكم الهائل من المعلومات الجينية الإضافية المطلوبة لتحقيق الانتقال من كائن إلى كائن أرقى.

رأى الماديون فى الشق الأول من نظرية دارون (مفهوم التطور) دافعًا لإنزال الإنسان عن عرشه، فصاروا يركزون على جوانب التشابه بينه وبين الكائنات الحيوانية، ويتغافلون عن جوانب التمايز بينهما. كذلك رأوا فى الشق الثانى (الخلق العشوائى) دافعًا لإنزال الإله عن عرشه بل ونفيه من الوجود! فما الاحتياج إلى إله خالق، طالما كانت العشوائية قادرة على الخلق!

ولا شك أن كلا الادعائين الماديين مردود عليهما، فتميزى الذى أعطانى خصوصيتى كإنسان، وجعلنى أتربع فوق عرش الكائنات، مصدره ملكاتى العقلية التى يعجز التطور عن إيجادها، فأنا إنسان بالعقل وليس بالجسد⁽¹⁾. كذلك فإن الخلق بالتطور لا ينفى الألوهية، فالله عزَّجَلَّ له أن يخلق خلقًا مباشرًا أو أن يخلق خلقًا تطورًا باستعمال التطور كآلية، خاصة وقد أثبت العلم عجز العشوائية عن إحداث التطور، وهذا ما صار يُعرف بالتطور الموجه أو التطوير الإلهي⁽²⁾.

أما بالنسبة لمفاهيم فرويد، التى تُرجع سلوكيات الإنسان السامية إلى الدوافع الغريزية العدوانية والجنسية، فقد ثبت خطأها، وحل محلها دوافع أخلاقية ودينية غريزية ومكتسبة. وأصبحت نظرية فرويد خطوة - تم تجاوزها - فى طريق فهمنا للنفس البشرية⁽³⁾.

(1) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَجِدِينَ﴾ [ص: ٢٩].

(2) فى هذا المعنى يقول فرانسس كولنز (رئيس مشروع الجينوم البشرى، وأحد أكبر المتخصصين حاليًا فى علم البيولوجيا الجزيئية): «من الذى يَجْرُّ على الله فى أن يستخدم آلية التطور فى الخلق». وللمزيد عن هذا المفهوم انظر الفصل الخامس من الكتاب.

(3) هذا ما تبيناه ببعض التفصيل فى الفصل الثانى.

أكذوبة الجين الأناني

اطمأنت نفسي إلى ما عرضت من حجج لدحض أوهام الماديين في نفى خصوصيتي وإنزالي عن عرشي. وبقيتُ على ذلك لسنوات، حتى صك أذني صَحْبٌ وضجيج يدور حول كتاب للبيولوجي البريطاني ريتشارد دوكنز، حادي الملاحظة في الربع الأخير من القرن العشرين، وعنوان الكتاب «الجين الأناني Selfish Gene»، والكتاب يتبنى نفس النظرة القديمة؛ نظرة الازدراء التي ينظر بها الماديون والملاحظة لذاتي الإنسانية!

فدوكنز في كتابه يرى أن الكائن الوحيد الحقيقي في الوجود هو الجين، وأن الجين يستغل الكائنات المختلفة لتكاثره وتحقيق خلوده، لذلك أطلق عليه اسم «الجين الأناني». ومن ثم، يدعى أن الكائنات المختلفة (شاملة الإنسان) ليست سوى آلات حية (روبوتات) صممها الجينات لتخدم تلك الغاية. ويرى دوكنز أيضًا أن الجينات تفرض على الإنسان سلوكياته المختلفة، لذلك فإن سلوكي كإنسان تسوده التوجهات الأنانية، كنتيجة تراكمية لسلوك الجينات الأناني. ومن ثم فالجينات هي المخططة الاستراتيجية Primary Policymaker، أما المنفذ فدوره لا يتجاوز دور القائم بالتنفيذ The Executive.

عجبًا، ما كل هذا الهراء؟! لقد أصاب أينشتين حين قال إن معظم العلماء فلاسفة ضعاف. إن هذا الطرح لدوكنز يعجز عن الإجابة عن العديد من التساؤلات، منها:

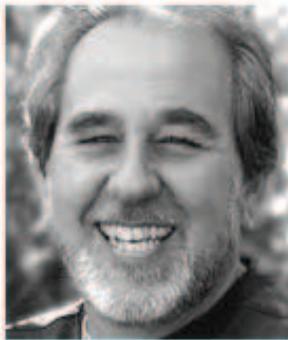
أولاً: كيف يكون كل جين كائنًا أنانيًا يدير وظائف جسم الإنسان وخلاياه لصالحه، وفي الوقت نفسه يشتمل النشاط الفسيولوجي للكائن الحي على التضحية ببعض خلاياه، مما يعني إفناء جيناتها. مثال ذلك قيام خلايا الدم البيضاء بمحاربة الميكروبات الغازية للجسم مما يؤدي إلى مقتل العديد منها، أليس في ذلك إثارة لمصلحة الكائن الحي، كيف تُقبل الجينات الأنانية لكرات الدم البيضاء على مثل تلك التضحية؟!

ثانيًا: إذا قبلنا اعتبار بعض النشاطات الإنسانية، كالتكاثر، سلوكًا أنانيًا للإنسان وللجينات، فلا أستطيع قبول ادعاء دوكنز بأن باقي السلوكيات الإنسانية هي محصلة لسلوك الجينات الأناني، خاصة وقد ثبت أن السلوك الإنساني أمر شديد التعقيد، ولا يمكن تفسيره بالنشاطات الجينية وحدها.

ثالثاً: وكما تمارس بعض خلايا الجسم سلوكاً يتسم بالإيثار والتضحية، فبعض البشر يمارسون سلوكاً مشابهاً لتحقيق مصلحة المجتمع. وهذه التضحية بالنفس لا يفserها مفهوم الجين الأنانى، حتى وإن ادعى دوكنز أن ذلك سلوك يتم اكتسابه وتعلمه، وأن ذلك يتم لخدمة الجينات الأنانية!! كيف ذلك يا دوكنز؟

□□□

حوارى مع د. بروس ليبتون



(شكل - 1)

بروس ليبتون Bruce H. Lipton
من مؤسسى علم
«البيولوجيا الجديدة للخلية»

أردت أن أعرف وجهة نظر البيولوجيين المتخصصين فيها طرحه ريتشارد دوكنز في كتابه الجين الأنانى، وأيضاً معرفة وجهة نظر العلم في اعتراضاتى؛ هل هى موضوعية صائبة أم أنها محاولات ذاتية للدفاع عن منزلتى في الوجود. حملت ملف القضية إلى أحد العلماء المتخصصين في بحوث علم الخلية، حملته إلى البروفسور د. بروس ليبتون Bruce H. Lipton (شكل - 1) الأستاذ بجامعة ستانفورد بالولايات المتحدة، وهو من الرواد الذين وضعوا أسس ما يُعرف بعلم «البيولوجيا الجديدة للخلية» New Cell Biology.

لسنا عبئاً لجيناتنا

سألت د. بروس ليبتون عن حقيقة دور الجينات، فأجابنى قائلاً: في كتاب أصل الأنواع (عام 1859)، افترض دارون أن هناك عوامل وراثية تنتقل من الآباء إلى الأبناء، وأنها هى التى تحدد سمات الإنسان. وبعد قرابة قرن من الزمان، توصل جيمس واتسون وفرانسيس كريك إلى بنية وطريقة أداء جزيء الدنا DNA لوظائفه وإلى دوره في نشاط الخلية. عندها اعتبر العلماء أننا قد توصلنا إلى سر الحياة، ونظروا إلى الدنا باعتباره الجزيء المحورى الذى يتحكم في بيولوجيا الخلية وفي صفاتنا البنائية. ثم توسعت النظرة وساد الاعتقاد أن الدنا يتحكم في

سلوكياتنا وانفعالاتنا كذلك، أى أنك إذا ورثت جين نقص السعادة، فستظل غير سعيد في حياتك!!

وفي هذا الطرح ثلاثة أخطاء فادحة. الأول، أن الجينات التى تتحكم في صفاتنا البنائية، لا تستطيع أن تتحكم في نفسها! ولا بد لها من مُنظَّم يوجه نشاطها. والخطأ الثانى يكمن في اعتبار أن الجينات تتحكم في جميع العمليات البيولوجية في الخلية، ومن ثم في حياتنا، وهذا يُعتبر تعصبًا غير منطقي لا يقل عن تعصب المتدينين المتطرفين! والخطأ الثالث هو اعتبار أن جينات قليلة تتحكم في سلوكياتنا وانفعالاتنا، فالثابت الآن أن هذه الوظائف يتحكم فيها العديد من العوامل البيئية والنفسية بالإضافة إلى تواصل هائل بين العديد من المراكز المخية.

وأضاف د. ليبتون، إن ما ذكرت لك من مفاهيم بيولوجية خاطئة أفرزت نظرة فلسفية لا تقل خطأً، فقد أصبحت الداروينية تنظر إلى الحياة باعتبارها حلبة للصراع، وأن البقاء للأقوى/الأصلح. بينما تبدو لي الحياة - عند تأمل الطبيعة - ككائن واحد، يعمل في توازن دقيق من أجل تحقيق التفاهم والانسجام، ليس بين الكائنات الحية فقط، ولكن بين جميع مكونات الطبيعة كمنظومة متكاملة. إن البيولوجيا التقليدية لا تعطى اهتمامًا كافيًا لهذا التعاون منذ أن شبهها دارون بحلبة المصارعة، وقد آن الأوان لأن نرسم خطأً يفصل بين عالمين؛ العالم الدارويني الذى تتصارع فيه روبوتات حية، وعالم البيولوجيا الجديدة التى تنظر إلى الحياة باعتبارها رحلة يتعاون فيها إناس أقوياء من أجل الحياة في سعادة وحب. ولقد آن الأوان لأن نعرف أننا لسنا عبيدًا لجيناتنا، لكننا سادة لمصائرنا.

البيولوجيا الجديدة

بدت على وجهى علامات الإعجاب، فاستطرد ليبتون شارحًا؛ وقال: إن ما أطرحه عليك ليس نظرة حاملة لرجل رومانسى، بل لقد تكشَّفت للعلم الحديث منذ العقد الأخير من القرن العشرين معارف قلبت الكثير من مفاهيمنا البيولوجية التقليدية رأسًا على عقب. فلقد ثبت أن الوسط المحيط (البيئة) بظروفه الطبيعية وما فيه من طاقات، وكذلك المتغيرات الداخلية في جسم الإنسان هى المنظم لنشاط خلايانا، لذلك فإن وعى الخلية بما حولها وبما داخلها هو المتحكم الأول في حياة الخلية. وبذلك وقف دور الجينات الأساسى عند توجيه بناء الخلايا والأنسجة والأعضاء.

بناء على المفاهيم السابقة، تأسست البيولوجيا الجديدة New Biology، التي تقوم على علمين جديدين تمامًا: الأول هو علم التحكم في الجينات Epigenetics، ويقوم بدراسة آليات تأثير البيئة (الداخلية والخارجية) على نشاط الجينات (تنشيط، كبت، تعديل نشاط) دون تغيير بنية الجينوم، وتُعرف هذه التعديلات بالتعبير الجيني Gene Expression. والعلم الثاني هو علم تحويل الإشارات Signal Transduction، الذي يهتم بدراسة التفاعلات الكيميائية داخل الخلية، والتي تستجيب بها الخلية للمتغيرات البيئية، وتؤثر بشكل مباشر على التعبير الجيني.

وإذا كان لوعى الخلية بما حولها وبما داخلها هذا التأثير الكبير على نشاط الخلية الواحدة، فلا شك أن له تأثير مشابه على الخمسين تريليون خلية التي تشكل جسم الإنسان. لذلك ينبغي النظر إلى جسد الإنسان باعتباره مجتمعًا يضم خمسين تريليون فرد (خلية)، ولكل من هذه الأفراد آلياته التي تسهم في نشاطاته لتُخرج لنا في النهاية هذا الإنسان. إن هذه النظرة الجديدة ترفع الإنسان من اعتباره ضحية لجينات فُرضت عليه، إلى أن يكون مشاركًا في توجيه مصيره. استقبلت ما طرحه عليّ د. لبيتون بدهشة شديدة، ولا شك أن الأمر احتاج إلى المزيد من الإيضاح، فسألته: حدثني عن الجديد في بيولوجيا الخلية، ثم انتقلت منه إلى بيولوجيا جسم الإنسان ككل، فما حقيقة العلاقة بينهما؟

أجابني لبيتون قائلاً، إنها علاقة شديدة التعقيد، فإن كل خلية منفردة تمثل كائن حي يستطيع الحياة بمفرده، ولا توجد وظيفة واحدة في الجسم البشري لا تقوم بها الخلية المنفردة! بدأ ظهور الكائنات وحيدة الخلية بعد أن استغرق كوكب الأرض الوليد 600 مليون سنة ليبرد، ثم ظلت هذه الكائنات هي السائدة في الأرض طوال 2.75 بليون سنة، قبل أن تبدأ الكائنات عديدة الخلايا في الظهور منذ 750 مليون سنة. إن الدافع التطوري لنشأة الكائنات عديدة الخلايا كان «توفير الطاقة» عن طريق تقسيم العمل⁽¹⁾، بدلاً من أن تقوم كل خلية بالمهام كلها، وتُعرف هذه العملية بالتمايز Differentiation. وإذا كانت الخلية بعد تخصصها تقوم بمهام محددة، فإنها تحتفظ في شفرتها الوراثية بآليات القيام بباقي مهام الجسم، وقد تأكد لنا ذلك بعد أن نجح العلماء في استنساخ كائن متكامل (النعجة دوللي) من إحدى خلايا الغشاء المخاطي.

(1) للاستدلال على فاعلية تقسيم المهام، نذكر أن مصانع فورد للسيارات كانت تستغرق أسبوعين لتجميع السيارة الواحدة، وقد انخفضت هذه المدة إلى تسعين دقيقة بعد أن استخدم هنري فورد خطوط الإنتاج التي تتخصص فيها كل مرحلة في خطوة محددة.

تلاشى الحتمية الجينية

قلت لدكتور لبيتون؛ ذكرت أن عقب اكتشاف واطسون وكريك لبنية الدنا وطريقة أدائه لوظائفه اعتقد العلماء أن الدنا هو سر الحياة، وبعد ذلك أثبتت البيولوجيا الحديثة خطأ هذا المفهوم، فهلا زدتنى إيضاحًا. قال لبيتون: قبل اكتشاف واطسون وكريك بفترة، اعتقد العلماء أن البروتينات تحدد صفات الكائن الحي ونشاطاته، ثم أثبت هذا الاكتشاف دور الدنا في بناء البروتينات، فتبدلت النظرة وأصبح الاعتقاد أن الدنا هو المايسترو المنظم للحياة، هذا بالإضافة إلى دوره الأساسي في عملية التكاثر.

ولما كان جسم الإنسان يشتمل على مائة ألف نوع من البروتينات، وعملاً بالقاعدة السائدة حينها بأن «كل جين يُشَفِّرُ لبروتين واحد»، فبحسبة بسيطة، تحتاج الخلية إلى مائة ألف جين لبناء بروتيناتها، بالإضافة إلى قرابة عشرين ألف جين لتنظيم عمل الجينات السابقة، أى أن نواة كل خلية في جسم الإنسان ينبغي أن تحتوى على مائة وعشرين ألف جين.

ثم جاءت المفاجأة مع إعلان نتائج مشروع الجينوم البشرى عام 2000. فقد ثبت أن عدد جينات خلايا جسم الإنسان لا يتجاوز خمسة وعشرين ألف جين، أى 20% من العدد الذى سبق تقديره! إن ذلك يعنى ببساطة أن عدد الجينات ليس كافيًا ليفسر حياة الإنسان تبعًا لمفاهيمنا السابقة، وعلينا أن نبحث عن آليات أخرى. وقد عبّر عن ذلك عالم البيولوجيا الكبير ديفيد بالتييمور David Baltimore - الحائز على جائزة نوبل - بقوله: «إن تميزنا عن الكائنات الأدنى منّا، لا يرجع إلى زيادة عدد الجينات، ومن ثم لم يعد ممكنًا الاعتماد على الآلية الجينية وحدها لتفسير التطور. إن التميز الإنساني ما زال سرًا يحتاج إلى المزيد من البحث»⁽¹⁾.

(1) لتوضيح على هذا المعنى، نعدد مقارنة بين جينائنا وجينات ثلاثة كائنات. فالدودة البدائية المعروفة باسم Caenorhabditis تتكون من 969 خلية، منها 302 خلية تُكوّن المخ (حوالي 1/3 خلايا الجسم)، وبكل خلية من خلاياها قرابة 24.000 جين. أما الإنسان الأرقى منها كثيرًا والذى يتكون جسمه من خمسين تريليون خلية، فيتكون مخه من 100 بليون خلية (1/500 من خلايا الجسم!) وبكل خلية من خلاياه 25.000 جين. أى يزيد عن الدودة البدائية بمقدار 1000 جين فقط! أما ذبابة الفاكهة (الأكثر تعقيدًا من الدودة) فتحوى كل خلية من خلاياها قرابة 10.000 جين أقل من الإنسان، بينما يتساوى عدد جينات الفأر مع جينائنا. وتبين هذه المقارنات أن عدد الجينات ليس بالعامل الحاسم في تفوق الكائنات!

وأضاف، لذلك فإن من أهم النتائج الفلسفية لمشروع الجينوم، تلاشي نظرة الحتمية الجينية Genetic Determinism، والتي تعني أن الجينات تحدد مصائرنا، وقد تأكد خطأ ذلك بعد أن ثبت أن التغيرات البيئية، كالغذية ودرجة الحرارة وكذلك التغيرات الداخلية كالانفعال، يمكن أن تُغير من نشاط الجينات دون تغيير في بنية الجينوم الأساسية (علوم التحكم في الجينات Epigenetics)، بل ويمكن أيضًا تمرير تلك التغيرات (في النشاط) إلى الأجيال التالية.

آليات التحكم في الجينات

واستطرد د. ليتون قائلاً: وتعتمد آلية التحكم في الجينات على ما ثبت من أن الدنا DAN يمثل فقط نصف محتوى الكروموسومات، أما النصف الآخر فيتكون من بروتينات تنظيمية Regulating Proteins كان الباحثون يلقونها في صناديق القمامة في أثناء شغفهم الزائد بدراسة الدنا. وتُشكل هذه البروتينات غلافًا يحيط بالدنا ويمنع قراءة ما به من المعلومات؛ ومن ثم يمنعه من ممارسة مهامه. وهنا يأتي دور المؤثرات البيئية، فهي تغير من شكل الغلاف البروتيني، فينفصل عن الدنا، مما يسمح بقراءته وتنفيذه ما يحمل من معلومات.

وبدلاً من أن كانت البطولة الأولى للجينات، وكانت معادلة الحياة هي:

الدنا ← الرنا⁽¹⁾ ← البروتينات.

صارت البطولة الأولى للعوامل البيئية، وأصبحت معادلة الحياة هي:

المؤثر البيئي ← البروتين المنظم ← الدنا ← الرنا ← البروتينات

كذلك ثبت أن الآلية البيولوجية «الفطرية» لا تنفرد بتوجيه عملية بناء البروتينات، بل تشاركها آلية أخرى، وهي آلية بيولوجية «مكتسبة» محورها العوامل البيئية التي تتحكم في الجينات. ولهذه الآلية المكتسبة فاعلية كبيرة، حتى إن تعامل العوامل البيئية مع أحد الجينات يؤدي إلى اختيار واحد من ألفى نوع من البروتينات التي يمكن أن يقوم هذا الجين ببنائها! هذا بعد أن كان المفهوم السائد «جين واحد لبروتين واحد». أليس هذا دوراً هاملاً للعوامل البيئية؟

(1) الرنا RNA، ثنائي الأحماض النووية في نواة الخلية، وهو أبسط تركيباً من الدنا DNA، ويقوم بالدور الرئيسي في نقل المعلومات من نواة الخلية إلى خارجها، ثم يقوم بتوجيه عملية بناء البروتينات.

كما ثبت للبيولوجيين أن الجينات ليست بالثبات الذي كانوا يتصورونه، ويوضح ذلك الظاهرة المعروفة بالانتقال الجيني Gene Transfer، حيث تنتقل بعض الجينات من كائن إلى كائن آخر من نفس الجنس، بل وإلى جنس آخر، وكأنه ليس هناك فاصل حقيقي بين الأجناس! وإذا كانت الجينات تمثل أرشيف المعلومات المتوارثة وأيضًا المكتسبة، فإن الانتقال الجيني يؤكد إمكانية تبادل المعلومات بين أرشيفات الكائنات، وكأن الطبيعة تسلك لمصلحة كائن واحد، وهو الحياة على كوكب الأرض. ويجب ألا نغفل أن الانتقال الجيني - عندما يتدخل الإنسان في توجيهه - يمكن أن يؤدي إلى أضرار كثيرة! فإذا كانت هندسة الجينات قد استطاعت أن تضيف على الطماطم مقاومة أكبر وحياة أطول، فقد تنتقل هذه الصفات من الطماطم (في أثناء الهضم) إلى البكتريا غير الضارة التي تعيش في أمعاء الإنسان، فتزيد من ضرورتها بشكل يهدد بقاء الجنس البشري!

أستدرجتُ على معلومة ذكرها لبيتون في حديثه، وسألته، وهل تُسجّل الصفات المكتسبة في جينات الخلية؟

أجابني لبيتون قائلاً: إذا كان الإنسان يتعلم من البيئة المحيطة فإن الخلايا أيضًا تتعلم من بيئتها المحيطة. ومن أهم أمثلة ذلك خلايا المناعة، التي تُكوّن ذاكرة خلوية تُسجّل في جيناتها وتجعلها قادرة على التعرف على البكتريا الغازية إذا هاجمت الجسم مرة أخرى، ويتم تمرير هذه المعلومات المكتسبة عن طريق الجينات إلى الأجيال الجديدة من الخلايا. وهذا ينفي ما يتمسك به المتحمسون للحتمية الجينية من أن الصفات المكتسبة لا تُسجّل في الجينات ومن ثم لا تُورث، ويُعد بحق ثورة في معلوماتنا البيولوجية.

مخ الخلية وسر حياتها

من أجل الاستزادة عن دور الجينات في حياة الخلية؛ سألت لبيتون: إذا كان المخ هو العضو المسئول عن التحكم في وظائف أعضاء وسلوك الكائن، وإذا كان تلفه يعني الموت، فهل تمثل النواة للخلية نفس الأهمية، أي هل النواة هي مخ الخلية؟

أجابني لبيتون قائلاً: من أجل الإجابة عن سؤالك المحورى هذا، قام علماء الخلية بعدد من التجارب أزالوا فيها نواة الخلية Enucleation، ثم تابعوا ملاحظتها لينظروا كيف تسلك.

كانت النتائج مذهلة، لقد عاشت كثير من الخلايا لمدة شهرين بدون نواتها (بدون جيناتها). لقد احتفظت الخلية بقدرتها على الحركة، وابتلاع الطعام، والتمثيل الغذائي، والتنفس، والهضم، والإخراج، والتواصل مع الخلايا الأخرى، والتفاعل تجاه المتغيرات البيئية. فقط لم تستطع الخلية الانقسام والتكاثر، بالإضافة إلى عدم القدرة على تجديد ما ينفد من بروتيناتها، وهذا هو سبب موتها فيما بعد. إن ذلك يعني أن مخ الخلية ظل موجودًا ويعمل في غياب جيناتها. لذلك نعتبر - مع بعض التجاوز - أن النواة ليست مخ الخلية، بل هي غدها التناسلية (المناسل) التي تقابل المبيضين والخصيتين في الحيوانات!

أثار ما قاله لبيتون دهشتي، وبدد الغيوم التي تجمعت في عقلي طوال أكثر من عامين، نتيجة لما قرأته وسمعته في الإعلام، عندما أعلن عالم البيولوجيا الجزيئية الأمريكي كريج فنتر في العشرين من مايو عام 2010 أنه قام باستبدال كروموسوم⁽¹⁾ خلية بكتيرية بكروموسوم آخر قام بتجميعه من مكوناته (الأحماض النووية) في المعمل، وقد استمرت الخلية في الحياة وقامت بالانقسام وتصنيع البروتينات تبعًا لشفرة الكروموسوم المصنّع الجديد. عندها قامت الدنيا ولم تقعد، تعالت صيحات الإعلام: أول خلية صناعية، حياة صناعية، خلقوا الخلية، خلقوا الحياة، أضافوا كائنًا جديدًا إلى قائمة الكائنات الحية، وغيرها⁽²⁾...

سألت لبيتون عن حقيقة ما فعله كريج فنتر، فأجابني: الأمر كما ذكرت تمامًا، فقد أحضر فنتر خلية بكتيرية من جنس المايكوبلازما ونزع كروموسومها الأوحده، أي أزال الأرشيف الخاص بكيفية تصنيع البروتينات في الخلية وبآلية التكاثر، وبقيت الخلية حية. ثم صنع فنتر كروموسومًا مطابقًا لكروموسوم بكتيريا من نوع آخر من نفس جنس المايكوبلازما، وقام بوضع هذا الأرشيف الجديد (الكروموسوم) في الخلية الأولى التي بقيت حية، عندها قامت الخلية المجمعّة بالانقسام وبناء البروتينات تبعًا للمعلومات الموجودة في الأرشيف الجديد.

وأضاف لبيتون: إن ذلك يثبت ما سبق أن ذكرته من أن الجينات (التي يتكون منها الكروموسوم) ليست هي سر الحياة وليست هي مخ الخلية، إذ بقيت الخلية حية بعد أن نزع فنتر نواتها.

(1) يحتوي الكروموسوم على مجموعة من جينات الخلية.

(2) راجع تفاصيل ما قام به كريج فنتر في كتابي «كيف بدأ الخلق»، الفصل الرابع، نيوبوك للنشر والتوزيع،

سألت ليبتون، وكيف تصف أو تُصنّف ما فعله فنتر؟ أجبني، لقد قام فنتر بعملية «استبدال»، إذ استبدل أرشيفًا للمعلومات الخاصة بمهمة معينة بأرشيف آخر، تمامًا كما يستبدل الجراحون عضوًا تالفًا في جسم الإنسان بعضو آخر، خاصة الكبد، إذ إن كرموسومات خلايا الكبد تحمل الأرشيف (الشفرة) الخاص ببناء الكثير من بروتينات الجسم.

سألت ليبتون؛ إذا لم تكن الجينات (التي تتكون منها كرموسومات النواة) هي سر الحياة، وليست هي منح الخلية، فما هو مكوّن الخلية الذي يمكن نسبة هذه المهام إليه؟

ابتسم ليبتون وقال؛ قد تندهش إذا عرفت أنني أعتبر أن منح الخلية وسر الحياة هو «غشاء الخلية» الذي يحيط بها ويحفظ مكوناتها! ذلك الغشاء المعجز الأعجوبة.

وبدأ ليبتون يشرح لي حيثيات رأيه، فقاطعتة قائلاً؛ قبل أن تسترسل في تلك التفاصيل العلمية، يُلحّ على سؤال مهم، هل سيتمكن العلماء من تصنيع غشاء الخلية في المعمل في المستقبل، فأجبني؛ الأرجح جداً أن لا. فقاطعتة؛ وإذا استطاعوا، هل نقول أنهم قد صنّعوا الحياة في المعمل، فنظر إلى ليبتون نظرة ذات معنى، وتأرجحت على شفثيه ابتسامته، وهز رأسه بالإيجاب!.

كان الوقت قد أزف، وافترقنا أنا وليبتون على موعد بلقاء آخر بعد أيام.



تجميع الخلية الحية

طوال أيام انتظاري لموعد لقائي مع د. ليبتون، كانت هناك فكرة محددة تطفو على السطح ثم تغيب في أعماق عقلي؛ هل يستطيع العلماء حقاً أن يُصنّعوا الحياة في المعمل! ألا يتعارض ذلك مع تحدى الله عزَّجَلَّ للكفار مجتمعين بأن يخلقوا ذباباً؟! وهل يدعم ذلك رأى الماديين الملاحدة الذين يدعون أن إيجاد الحياة لا يحتاج لخالق ذي قدرات إلهية، بل إنه أمر يمكن أن يقوم به العلماء في المعمل!؟

أخذت هذه الفكرة تراودني في يقظتي ومنامي، وأخذت أفكر في احتمالاتها وتداعياتها، ولا شك أن عقلي اللاواعي كان يتعامل مع الفكرة أيضًا، ذلك أنني قبل موعد لقائي التالي مع ليبتون

يوم واحد تكوّن في ذهني تصور علمي فلسفي متناسق شبه مكتمل، يجيب عن هذه القضية الحرجة، فقررت أن أطرحه على لبيتون لأستطلع رأيه فيه أثناء لقائنا الذي انتظرته متلهفًا.

قلت للبيتون: أرى أن العلماء إذا نجحوا في تصنيع غشاء الخلية وباقي مكوناتها، كما سبق وصنّعوا كروموسوم بكتريا الميكوبلازم، فإنهم بذلك يكونون قد «جمّعوا» الخلية من عناصرها، ولا أقول قد «قلدوا» الخلية، فالتقليد يتطلب بناء هذه العناصر من موادها الأولية، وهم لم يفعلوا ذلك عند تصنيع الكروموسوم، بل جمّعوه من مركبات معقدة موجودة بالفعل، تُعرف بالقواعد النيتروجينية (النيكلوटाيد Nucleotides)⁽¹⁾. حتى وإن صنّع العلماء مكونات الخلية من عناصرها الأولية، فإنهم يكونون قد صنّعوها من عناصر أوجدها الخالق عزّوجلّ، وأيضًا بناء على المعلومات التي صنّع الله عزّوجلّ بها هذه المكونات وهذه الخلية. أي أنهم يكونون قد استخدموا «المكون المادي» الذي خلقه الله عزّوجلّ، واتبعوا نفس «المكون المعرفي» الذي ابتدعه الله عزّوجلّ، والذي يشتمل على كم هائل من المعارف يتجاوز تريليونات البيّات Bites بلغة الكمبيوتر. ويصف المتخصصون في علم المعلومات هذا المكون المعرفي بأنه سر الصنعة The Know How، لذلك تحتفظ به الشركات العالمية الكبرى كأهم الأسرار الخاصة بمنتجاتها.

وأعقت رؤيتي هذه بأن شرحت للبيتون معنى «الخلق» كما نعرفه في العقيدة الإسلامية، فهو «الإيجاد من عدم على غير مثال سابق»، ثم سألته، إذا نجح العلماء في تصنيع كل مكونات الخلية هل نعتبرهم قد خلقوا الخلية أو خلقوا الحياة تبعًا لفهنا الإسلامي؟ أجبني لبيتون قائلًا: بالطبع لا، بل إنني أوافقك تمامًا في أنهم لم يوجدوا الخلية من عدم، بل استخدموا «المكون المادي» الذي خلقه الإله، كما أنهم لم يوجدوا الخلية على غير مثال سابق، بل استخدموا نفس «المكون المعرفي» الذي ابتدعه الإله.

نكتة !!!

سعدت كثيرًا عندما وافقني لبيتون على رؤيتي التي تثبت خطأ ادعاء الملاحدة بأن العلماء يمكن أن «يخلقوا» الحياة في المعمل. وعندها رويت له «نكتة» كنت قد قرأتها للصحفي

(1) يتركب جزئ النيكلوتايد من: (1) جزء من السكر الخماسي (الريبوز) منزوع الأكسجين و(2) قاعدة نيتروجينية. و(3) مجموعة فوسفاتية.

الأمريكي «لى ستروبل»⁽¹⁾ في كتابه «قضية الخالق»، فهذه النكتة تجسد المعاني التي طرحتها تمامًا، يقول ستروبل:

جلس مجموعة من العلماء يتحاورون مع الإله! قال بعضهم: نستطيع أن نفعل كل الأشياء التي فعلتها! فسألهم: مثل ماذا؟

قالوا: نستطيع أن نخلق إنسانًا!

سألهم الإله: كيف؟

قالوا نُحْضِرُ بعضًا من التراب... وقبل أن يكملوا كلامهم قاطعهم الإله قائلاً: أَحْضِرُوا ترابكم الخاص بكم، ولا تستخدموا التراب الذي خلقته أنا!

قال بعضهم: حسناً، لقد بدأت الخلق من العدم بمنتهى البساطة، فقد قَسَمْتُ العدم إلى سالب وموجب، وخلقت منهما الوجود. بدليل أننا لو جمعنا سوابب الكون وموجباته حصلنا على صفر (العدم)، ونحن سنصنع التراب بنفس الطريقة.

أجابهم الخالق عَزَّجَلَّ، عليكم أولاً أن تخلقوا قانوناً مثل (-) + (+) = صفراً، أو على الأقل عليكم أن تُفَعِّلُوا هذا القانون! الذي خلقته أنا.

ضحكت أنا وليبتون كثيراً، وعلق قائلاً: إن هذه النكتة تغني عن صفحات طويلة من الطرح العلمي والفلسفي، بل وتغني عما أنفقت فيه الليالي متفكراً محتاراً قلقاً. ولا شك أنها تضع الملاحظة في حرج شديد لا يزول مهما حقق العلم من إنجاز.

غشاء الخلية المُعْجَزِ الأعْجوبة

قلت لليبتون: نعود إلى قضية مخ الخلية وسر الحياة. لقد ذكرت أن «غشاء الخلية» هو أقرب مكوناتها لأن يستحق هذا الوصف، فكيف ذلك؟

أجابني ليبتون: إذا كان الدنا DNA يحمل المخطط التفصيلي Blue Print لكيفية تكوين البروتينات اللازمة لبنية ووظيفة الخلية، فإنه ليس مسئولاً بشكل مباشر عن تعامل الخلية مع

(1) ظل لى ستروبل ملحدًا حتى بلغ الأربعين من عمره، ثم آمن بوجود الإله الخالق.

الوسط المحيط، تلك المهمة التي تتوقف عليها حياة الخلية، ومن ثم، ليس الدنا هو المسئول الأول عن حياة الخلية. إن مهمة التعامل مع الوسط المحيط يقوم بها غشاء الخلية، الذي إذا أتلّف ماتت الخلية، وإذا تم إعطاب ما به من «مكونات نشطة» دخلت الخلية في غيبوبة تشبه حالة الموت الدماغى فى الإنسان! لذلك استحق غشاء الخلية أن يُعتبر هو من الخلية وسر الحياة.

سألت لبيتون؛ ما هى تلك «المكونات النشطة» التي إذا أعطبت دخلت الخلية في غيبوبة؟ أجاب لبيتون: من أجل أن يقوم غشاء الخلية بمهامه الذكية، تم تزويده بـ«مستقبلات Receptors» تعمل كهوائيات أو قرون استشعار تدرك ما حولها خارج الخلية وأيضًا ما بداخلها. كما تم تزويد غشاء الخلية بـ«مستجيبات Effectors» تتلقى التعليمات من المستقبلات، فتفتح بواباته أو تغلقها، لتسمح أو تمنع مرور المواد المختلفة إلى داخل وخارج الخلية، وذلك تبعًا لما ترصده المستقبلات من ظروف بيئية داخل الخلية وخارجها.

وهناك مئات الآلاف من المستقبلات والمستجيبات في غشاء كل خلية، تعمل معًا في تناغم وتنسيق، وهو ما يُسمى بـ«الأسلوب الجُمعى Holistic» الذى يعتمد على فيزياء وكيمياء الكوانتم. والمدمش، أن تلك المستقبلات والمستجيبات في غشاء الخلايا البكتيرية عديمة النواة، تقوم بجميع المهام التي يقوم بها المخ البشرى!

سألت لبيتون سؤالًا ربما بدا له ساذجًا: لقد ذكرت أن مستقبلات ومستجيبات غشاء الخلية تعمل تبعًا لكيمياء وفيزياء الكوانتم، وأنا أعرف أن رقائق الكمبيوتر Computer Chips تعمل أيضًا تبعًا لقوانين الكوانتم، فهل يمكن تشبيه أداء غشاء الخلية بأداء رقائق الكمبيوتر؟

صاح لبيتون، براقو! لقد أصبت، فكلاهما عبارة عن بللورات سائلة⁽¹⁾، تخضع في عملها لنفس القواعد! وإذا كان يمكن تعريف غشاء الخلية بأنه «غشاء من بللورات سائلة، له القدرة على التوصيل المتمايز Semiconductor (يسمح بمرور مواد ولا يسمح بمرور مواد أخرى) ومزود

(1) البللورات عبارة عن تكوينات تتراس جزئياتها في شكل منتظم متكرر، (كالجنود الواقفين في طابور عسكري)، ومن البللورات ما هو صلب كالناس وملح الطعام، ومنها ما هو سائل كذلك المستخدمة في واجهة الساعات الرقمية وشاشات الكمبيوتر الشخصى. وغشاء الخلية بللورات من النوع الثانى، الذى تسمح حالته السائلة بأن ينثنى ويتلوى دون أن تفقد جزئياته تراصها، تمامًا كالطابور العسكري إذا سار ودار حول مبنى وظل محتفظًا بتراس جنوده.

ببوابات (المستقبلات) ومسارات (المستجيبات)»، فإن هذا ينطبق تمامًا على شرائح الكمبيوتر التي تُوصَف بنفس الوصف: Semiconductor Crytals with gates and channels.

وإذا نظرنا إلى شرائح الكمبيوتر، وجدنا منها أنواعًا عديدة تبعًا لوظيفتها، ومن أهمها تلك التي تستقبل المُدخَلات وتعالجها ثم تمرر التعليمات إلى تراكيب أخرى لتقوم بالتعامل معها، وهذه إحدى وظائف جدار الخلية.

ومن جوانب الشبه الأخرى بين غشاء الخلية وشرائح الكمبيوتر، أن كليهما تتم برمجته من الخارج؛ المبرمج في حالة الكمبيوتر، والبيئة - وليس الجينات - في حالة غشاء الخلية. لذلك ينبغي النظر إلى نواة الخلية باعتبارها اسطوانة الذاكرة Memmory Disc التي تحمل وصفة بناء البروتينات، وليس باعتبارها المبرمج. والدليل على ذلك - كما ذكرنا - أن إزالة نواة الخلية يؤدي إلى فقدان القدرة على بناء البروتينات، وليس إلى فقد برامج الخلية.

لذلك نعتبر أن المسئول عن التعامل مع المتغيرات داخل وخارج الخلية بل والتعامل مع مختلف مشاعر الإنسان هو جدار الخلية، مما جعله جديرًا بأن يوصف بأنه (وليس النواة) مخ الخلية الحقيقي.

عند ذلك الحد، وجدت نفسي أهمس قائلاً: سبحان الله...

ثم أضاف ليبتون قائلاً؛ وبالرغم من ذلك، ما زال الكثير من علماء البيولوجيا ينظرون إلى الجينات باعتبارها المسؤولة عن برمجة الخلية، ويعتبرون أن هناك حتمية جينية، أي أنه لا يمكننا الفرار مما تم برمجته في جيناتنا. وهذا خطأ كبير لن يتم إصلاحه إلا بإعطاء غشاء الخلية ما يستحقه من اهتمام. إن التخلص من مفهوم الحتمية الجينية يضع مصير حياتنا في أيدينا، فنحن قادرون على برمجة الخلية من خلال غشاء الخلية (عن طريق ظروفنا البيئية وحالتنا النفسية والروحية)، ومن ثم فنحن سادة مصائرنا ولسنا ضحايا لجيناتنا.

الخلية والطاقة

شجعتني هذا الوضوح والبساطة في العرض، الذين تميزت بهما إجابات د. ليبتون على أن أستزيد وأطرح عليه سؤالاً طالما شغل بالي. سألته؛ لا شك أن «الطاقة» إحدى المؤثرات

التي تستشعرها مستقبلات غشاء الخلية، ومن ثم تؤثر في نشاطها، وبالتالي في نشاط وتوازن الإنسان ككل. فهل يدعم ذلك ما نسمع عنه الآن كثيراً في الشرق والغرب، بخصوص العلاج بالطاقة والعلاج الروحاني وغيرها من أنواع العلاج التي يختلط فيها العلم والدجل؟ وهل لهذه الدعاوى أساس علمي؟

أجابني لبيتون: ما زال اختبار هذه الأنواع من العلاج بالمنهج العلمي الصحيح في بداياته⁽¹⁾، وهذا هو المقياس الحاسم للتفريق بين العلم والدجل، لذلك لا أؤيد اللجوء إلى هذه العلاجات حتى يتضح الأمر. ولكن دعني أحدثك عما ثبت من دور الطاقة في نشاطات الخلية ونشاطات جسم الإنسان. لقد ثبت أن العديد من أشكال الطاقة الكهرومغناطيسية تؤثر في بناء جزيئات الدنا والرنا والبروتينات، وأنها تتحكم في عمل الجينات وانقسام الخلايا وتخصصها وانتظامها في أنسجة وأعضاء، وكذلك في إفراز الهرمونات، وأيضاً في نمو الأعصاب ونشاطات الخلايا العصبية.

كما ثبت أن الموجات الكهرومغناطيسية أكثر كفاءة بمقدار مائة مرة - على الأقل - من الوسائل الكيميائية⁽²⁾ في مجال نقل المعلومات إلى مختلف أجزاء الخلية. ولما كانت المعلومات حيوية جداً للحياة، فانظر أي الوسيلتين أفضل لتداولها داخل الخلية؛ الموجات التي تنتقل بسرعة الضوء (186.000 ميلا في الثانية) أم الرسائل الكيميائية التي تنتقل بسرعة 1 سم في الثانية؟ كذلك فإن العمليات الكيميائية يصبحها فقدان كميات كبيرة من الطاقة، ومن ثم فما يتبقى من طاقة يكون محدوداً (نسبياً) مما يحدد من كمية المعلومات التي يتم نقلها⁽³⁾.

كذلك ثبت أن الذرات داخل وخارج خلايا الجسم تكون في حركة دائبة يمكن قياس تردداتها، وتنتج الذرات المتحركة موجات كذلك الناشئة عن إلقاء حصاة في الماء. وتختلف موجات كل ذرة عن الأخرى، وعندما تتلاقى الموجات الناشئة من الذرات المختلفة فإنها إما تتناغم فترتفع قممها (التداخل البناء) وإما تتعارض فتخمد (التداخل الهدام)⁽⁴⁾، ولا شك أن ذلك يؤثر في تبادل المعلومات داخل الخلية. ألي يحدث في موقف ما أن شعرت فجأة بالإجهاد

(1) سنعرض في الفصل القادم أهم ما تم من أبحاث هذا المجال.

(2) تعتمد على الهرمونات والناقلات العصبية وغيرها.

(3) من بحث نشره C.w.f. Mc Clare بعنوان Resonance in Bioenergetics

(4) Oschaman 2000.

وبأنك قد فقدت الكثير من طاقتك، وفي موقف آخر تشعر بالهمة والنشاط يجتاحانك، وكأنما قد تم شحنك بالطاقة فجأة! إنه التداخل البناء والتداخل الهدام⁽¹⁾.

واختتم د. بروس ليتون حوارته معي قائلاً: وهكذا ثبت خطأ مفهوم الحتمية البيولوجية، بعد أن تبين أن النشاطات الرئيسية للخلية وكذلك مشاعرنا وسلوكياتنا تتحكم فيها عوامل خارجية وعوامل داخلية ليس لجيناتنا دخل فيها.

القارئ الكريم

لقد كان «البيولوجيا الجديدة» الفضل في أنها أطلقت إساري من قيود أكلدوبة «الحتمية البيولوجية»، فأنا (الذات الإنسانية) لست عبداً لجينات أنانية تجعلني مُسيراً مقهوراً، بل إنني سيداً لمصري.

إن الخلية الحية كائن متكامل، يحكمه مخ متفاعل مع البيئة المحيطة والوسط الداخلي للخلية، إن هذا المخ ليس هو جيناتنا، لكنه غشاء الخلية المحيط بها، ذلك الغشاء المعجز الأعجوبة، والذي تموت الخلية من فورها إذا تم إعطابه. إن القائلين بسيادة الجينات لم يهنتوا بأوهامهم قصيرة العمر، بعد أن أظهر العلم أن الحياة والمشاعر والسلوك أمور شديدة التركيب.

لقد أسدلت «البيولوجيا الجديدة» الستار على عالم الداروينية، الذي يصور الدنيا كحلبة للصراع بين روبوتات ينتصر فيها الأقوى، وفي الوقت نفسه فتحت آفاقنا على حياة جديدة تمثل رحلة يتعاون فيها إناس أقوياء من أجل الحياة في سعادة وحب.



(1) وبالرغم مما ذكرنا من معارف، حول دور الطاقة في وظائف الخلية، فلا شك أن العلماء لم يستخدموها حتى الآن في المجال التطبيقي إلا بقدر ضئيل للغاية. مثال ذلك استخدام الصدمات الكهربائية للمخ لعلاج حالات الصرع والاكتئاب والانفصام، والتي يتم استبدالها الآن بالتنشيط المغناطيسي للمخ. وكذلك استخدام مبدأ التداخل البناء في تفتيت حصوات الكلى عن طريق طاقة الموجات فوق الصوتية.

الفصل الرابع

قوى الإنسان الخفية

- دعوة واستجابة

- تحذير

- الطاقة؛ بيولوجياً وكونياً... تأثير متبادل

- أولاً: المجالات المغناطيسية تؤثر في بيولوجيا الإنسان الجسدية والعصبية
- ثانياً: قلوبنا تدق معاً
- ثالثاً: أفكارنا تؤثر في النباتات
- رابعاً: بعض القدرات الخارقة
- خامساً: العلاج عن بُعد
- سادساً: تأثير النية العدوانية - من شر حاسد إذا حسد
- سابعاً: أفكارنا تؤثر في عالم الإلكترونيات

- آليات التواصل والتأثير

- 1- صبي يتأمل: الإنسان مُرسل ومُستقبل
- 2- تسجيل وقياس النشاطات الكهربائية لأفكارنا!
- 3- كذلك الطاقة المغناطيسية
- 4- وأيضاً طاقة ضوئية
- 5- ما تأثير هذه الطاقات على المادة؟

- حوارات مع ويليام تيللر

- موقف الأوساط العلمية التقليدية من المفاهيم الجديدة
- رحلة ويليام تيللر الفكرية
- الطاقة غير المتشكلة
- ما بعد الفيزياء المعاصرة
- العالم الداخلي والعالم الخارجي
- تجارب ويليام تيللر
- كيف نُغيّر العالم
- طاقة الضوء.. والتأثير عن بُعد
- معراج الروح

- القارئ الكريم

أعرض في هذا الفصل لأحد أشد المفاهيم غموضًا وأكثرها تحييرًا عن ذاتي الإنسانية، وهو الخاص بقوى الإنسان الخفية.

فما لا شك فيه أن هناك العديد من الظواهر التي لا تخضع لأسس ومفاهيم العلم المعاصر، الذي لم يجد بُدًا من تجاهلها، انتظارًا لتقديم المزيد من الأدلة عليها. وفي نفس الوقت فإن حضارات الشرق الأقصى عبر آلاف السنين تعترف بالكثير من هذه الظواهر، وتقدم على حدوثها الأدلة وحدوثها التفسيرات، كما تضع لها تطبيقات عملية ناجحة متعددة.

ولعل من أشهر هذه الظواهر العلاج بالإبر الصينية Acupuncture، الذي أقرت أخيرًا الهيئة القومية للصحة NIH بالولايات المتحدة بدوره في التشخيص والعلاج، فأصدرت بيانًا جاء فيه: بالرغم من أنه يصعب تفسير الكثير من جوانب الطب الصيني التقليدي في ضوء مفاهيمنا التشريحية والفسولوجية، فسيظل لاستخدام الإبر الصينية دور كبير في تشخيص وعلاج العديد من الحالات المرضية.

ومن هذه الظواهر أيضًا، ما أطلقت عليه علوم المخ والأعصاب «ظواهر الإدراك خارج الحس Extra - Sensory Perception»، كالتخاطر عن بُعد Telepathy، والرؤى المسبقة، والرؤى الصادقة، والرؤية عن بُعد. وهناك مجموعة من الظواهر الميكانيكية؛ كتحرريك الأجسام عن بُعد Telekinesis، ورفع الأجسام والأشخاص في الهواء Object lifting. وهناك أيضًا ظواهر تشمل القدرة على التأثير غير الميكانيكي عن بُعد، كالمعالجة من الأمراض (يقال أن راسبوتين، الشخصية الروسية الغامضة كان ممن يتمتعون بهذه القدرة) وغير ذلك من الظواهر.

دعوة واستجابة ...

إذا كانت هيئات علمية محترمة (على رأسها الهيئة القومية للصحة NIH بالولايات المتحدة) قد أقرت بأن لدى الحضارات الشرقية مفاهيم صحيحة غريبة على العلم المعاصر، فقد آن الأوان

أن يأخذها العلم بجدية، وأن يُنفق على دراستها بسخاء، ليتحرى صدقها ولتفسير الصحيح منها، بدلاً من تجاهلها بأسلوب يُضَيِّع حقائق علمية شديدة الأهمية.

وإذا كنا نَقْدُر دافع العلم المعاصر لتجاهل تلك المفاهيم، إذ لا يمكن تفسيرها في إطار الأسس التي اعتمدها المنهج العلمي، كما أن البراهين الجازمة بصحتها لم تُقدِّم بعد، فيجدر هنا الإشارة إلى مقولة لعالم الفيزياء الكبير ويليام تيللر⁽¹⁾ تحدد ما ينبغي أن يكون عليه العلم من عقل منفتح وصدر رحب، يقول: «إن كل تقدم في العلم يُعتبر تطرف في موضع ما، وكل اكتشاف علمي جديد هو... في جزء منه... تحدي لوجهات النظر القائمة، ولكي تكون مستكشفًا حقيقياً للعلوم عليك ألا تخاف من اقتراح ما لا يمكن التفكير فيه».

وإذا كان فلاسفة العلوم يُعرفون المنهج العلمي لدراسة الظواهر الطبيعية بأنه: «طرق التوصل إلى المعرفة باستخدام منهج الملاحظة وإجراء التجارب التي يوصلنا تكرارها إلى نفس النتائج»، فإن هذا التعريف لا يأخذ في الاعتبار أن هناك طرقاً ذاتية داخلية لسبر العالم الخارجي، مثل الحدس والبداهة والحس الباطني والتوقع. وقد أسقط العلم هذه الطرق من اعتباره، إذ لا يمكن إثباتها بالأسلوب العلمي التقليدي، بالرغم من صدقها في كثير من الأحوال، مثال ذلك إحساسى بـ «أنى أحب أبنائى»، فبالرغم من صدق ذلك الشعور، فإنه لا يمكن إثباته بالأسلوب العلمي، إن ذلك مثال لما نصفه بأنه «حس ذاتى Noetic».

ولما كان وعينا الإنسانى (غير المادى) هو محصلة نشاط المنح وتواصله مع نشاطاتنا الجسيمة ومع العالم المحيط، فيمكن القول إن تجاربنا الذاتية تنبع من المادة، مما يؤكد العلاقة بين ما هو ذاتى وما هو مادى. لذلك فقد تأسست حديثاً مجموعة من العلوم تُعرف بـ «علوم البصيرة = علوم المعرفة الذاتية Noetic Sciences» التي تهتم باستخدام المنهج العلمي لدراسة التجارب الذاتية، وكذلك دراسة الآليات التي يمكن أن يؤثر بها وعينا (أفكارنا ونياتنا) في العالم المادى. والكلمة اليونانية Noetic تعنى «الحكمة الباطنة»، أو «الفهم الذاتى» أو «المعرفة المباشرة». وقد عرّفها الفيلسوف الكبير William James عام 1902 بأنها: كشف الحكمة الباطنة الخفية باستخدام العقل المنطقى والمنهج العلمى.

(1) سيتم التعريف به بعد قليل.

وفي عام 1973، أسس رائد الفضاء الأمريكي إدجار ميتشيل Edgar Mitchell⁽¹⁾ مؤسسة علوم البصيرة The Institute Of Noetic Science IONS. وقد قال معلقاً على رحلته الفضائية، ومفسراً سر اهتمامه بهذه العلوم: «لقد أدركت بشكل مباشر معنى التواصل مع الكون، كما أدركت أن الكون لا يمكن أن يكون نتاج حادث عشوائي» وأضاف «إن الحقيقة أعقد وأغرب كثيراً مما تظهره العلوم الطبيعية، ولا شك أن فهمنا لمعجزة الوجود لا يتحقق إلا بالتفاعل بين الوجود الداخلى والوجود الخارجى».

ولحسن الحظ، فإن عدداً من العلماء الكبار الذين يعملون في مراكز علمية محترمة قد أخذوا الظواهر السابقة مأخذ الجد، وبدأوا في سبر أغوارها بإجراء التجارب الدقيقة ملتزمين بالمنهج العلمى الصحيح، فتأكدت لهم صحة عدد منها، كما وضعوا أيديهم على بعض آليات تلك الظواهر.

تحذير...

القارئ الكريم... طالعتُ العديد من الدراسات العلمية المحترمة، وتأمّلت أعمال عددٍ من العلماء الكبار الذين أجروها، فتأكدت لي «قدرة الوعى البشرى ونشاطات الإنسان العقلية على التأثير بشكل مباشر على عالم المادة من خلال طاقة خاصة». ويُعتبر هذا المفهوم أمراً شديداً الأهمية، فهو مرتبط، فهو بجوهر ذواتنا الإنسانية، ولا ينبغي أن يغيب عنا، وإلا لصرنا كالمسيخ الدجال، ذلك الأعور الذى لا يبصر من الإنسان إلا جانبه المادى.

وفي نفس الوقت، هناك جانب سلبى لطرح ما توصل إليه الباحثون عن دور طاقة العقل البشرى في التأثير على عالم المادة. ويتمثل هذا الجانب في «الدجل» الذى يمارسه الكثيرون بادعائهم القدرة على استخدام طاقتهم في علاج الكثير من الأمراض الخطيرة، وفي زيادة طاقات الرجال الجنسية، وفي الكيد للآخرين، وفي فك السحر وغير ذلك من صنوف الدجل. وإذا كان ما سنعرضه من أبحاث في هذا الفصل يبين إمكانية استخدام الطاقة على أيدي قلة نادرة من البشر الذين يصلون إلى تلك القدرة بعد تدريبات ومجاهدات طويلة شاقة، فقد اتسع الحرقُ على الرتق، وكثر الدجالون الذين يمارسون النصب باسم الطاقة.

(1) أحد أفراد رحلة أبولو 14 وسادس رجل سار على القمر.

لذلك عند كتابتي هذا الفصل، كنت بين إقدام وإحجام، أقدم قدماً وأؤخر الأخرى، كنت في حيرة بين أن أعرض عليك جانباً لا ينبغي إغفاله عن ذاتي الإنسانية، وبين أن يتخذ الدجالون مما أكتب سنداً لما يمارسونه من دجل، بدعوى أن كتاباً موضوعياً لكتاب مُحقق دقيق يؤيد إمكانية أن تؤثر أفكارنا في عالم المادة. وبعد أن فكرت في الأمر ملياً، اخترت أن أعرض عليك ما توصلت إليه الأبحاث العلمية الدقيقة، وأن أذكرك في الوقت نفسه من أن معظم ما يمارس من علاجات وتطبيقات باسم الطاقة ينقصه الكثير من العلم والخبرة، كما يؤدي - في الحالات المرضية - إلى التراخي في طلب العلاج الطبى من مصادره المعتمدة، مما يسبب تدهوراً كبيراً في حالة الكثير من المرضى.

الطاقة؛ بيولوجياً وكونياً ... تأثير متبادل

والآن، أعرض عليك بعض الظواهر التي تتجلى فيها العلاقة بين الطاقات الكونية ووظائف الإنسان البيولوجية، وكذلك العكس، أى العلاقة بين الطاقات الإنسانية وأحداث العالم الخارجى.

أولاً: المجالات المغناطيسية تؤثر فى بيولوجيا الإنسان الجسدية والعصبية

يستحق فرانز هالبرج Franz Halberg⁽¹⁾ أن يُلقَّب بأبي البيولوجيا الزمنية Chronobiology، التي تهتم بالإيقاعات الحيوية اليومية Circadian Rhythm⁽²⁾، والتي تعنى أن الكائنات الحية تلتزم بإيقاع زمنى فى العديد من نشاطاتها الحيوية، وذلك على مدار يومى، نصف أسبوعى، أسبوعى، شهرى أو سنوى.

وإذا كانت هذه النشاطات غريزية فى الكائنات، توجه إيقاعاتها نشاطاتٌ مخية يؤثر فيها نشاطُ الغدة الكظرية التي تُفرز الكورتيزون، فإن اكتشاف هالبرج المذهل الأخير (وهو فى الثمانينيات من عمره) أن هذا التزامن تتحكم فيه الشمس وبقية الأجرام الفلكية، لذلك أعاد

(1) التحق كشاب نساوى بكلية الطب فى هارفارد، وأنهى حياته المديدة فى مختبره للبيولوجيا الزمنية بجامعة مينيسوتا.

(2) باللاتينية: Circa = حول ، Dien = اليوم

تسمية هذا العلم، وأطلق عليه اسم «البيولوجيا الزمنية الفلكية Chronoastrobiology». وإذا كان العلم قد أثبت أن البقع الشمسية⁽¹⁾ تسبب عواصف مغناطيسية تصيب الأرض، وتؤثر بشكل كبير على تقنياتنا الحديثة، مثل تعطيل محطات توليد الطاقة الكهربائية والتشويش على الاتصالات عالية التقنية وأنظمة ملاحاة المركبات الفضائية والأقمار الصناعية، فالجديد الذي أظهره العلم أن لتلك العواصف المغناطيسية تأثير على الكائنات الحية.

ومن هذه التأثيرات، ما اكتشفه العلماء الروس من أن بعض رواد الفضاء عانوا من نوبات قلبية أثناء العواصف المغناطيسية، نتيجة لاضطراب إيقاع ضربات القلب HRV⁽²⁾، مما يؤثر على الجهاز العصبي اللاإرادي، وكذلك نتيجة لتزايد لزوجة الدم. وقد لاحظ علماء أكاديمية أذربيجان الوطنية للعلوم في باكو أن قراءات رسام المخ الكهربائي أثناء العواصف المغناطيسية تبين زيادة نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي وانخفاض النشاط في غيره من أجزاء المخ.

كذلك ثبت أن للحقول المغناطيسية للأرض (الحقول الجيومغناطيسية الطبيعية)⁽³⁾ تأثيراً كبيراً على العمليات الخلوية والكيميائية في الكائنات الحية. وليس ذلك غريباً، فالحقول المغناطيسية تنتج من تدفق الإلكترونات والأيونات، وذلك يؤثر في وظائفنا الحيوية التي تعتمد على النشاطات الكهربائية.

وقد اكتشف العلماء السوفييت (في مركز أبحاث الفضاء في الأكاديمية الروسية للعلوم) أن تصنيع البروتينات في البكتريا الموجودة في أجسام رواد الفضاء وكذلك تصنيع المواد الغذائية في النباتات يتأثر بالحقول الجيومغناطيسية. كما وجد علماء الأكاديمية البلغارية للعلوم في صوفيا أن غياب الحقول الجيومغناطيسية في المحطة الفضائية الروسية «مير»، أدى إلى عدد من الاضطرابات في نشاط الموجات الدماغية، مما أثر على النوم العميق لرواد الفضاء.

ومن علماء الغرب المهتمين بتأثير المجالات المغناطيسية على وظائفنا الحيوية، عالم

(1) البقع الشمسية دوامات هائلة من الحقول المغناطيسية المركزة التي تحدث - في المتوسط - كل إحدى عشرة سنة، وقد تصل طاقتها إلى طاقة 40 مليار قبلبة نووية! وتمطر غلافنا الجوي بالإشعاع والأيونات.

(2) Heart Rate variability.

(3) الحقول الجيومغناطيسية الطبيعية هي محصلة (بالإضافة للمجال المغناطيس للأرض) للعديد من العوامل؛ مثل النشاط الشمسي وحركة الكواكب وموقع القمر ودوران الأرض والمياه الجوفية. والحقول الأكثر تأثيراً على النشاطات البيولوجية هي تلك ذات الترددات المنخفضة جداً (أقل من 100 هرتز).

الأعصاب الكندي مايكل بيرسنجر Michel Persinger الذي جهز مركزاً لهذه الدراسات في قبو بحرم جامعة لورينتيان Laurentian الكندية. وكان بيرسنجر يقوم بتنشيط مناطق مختلفة في مخ المتطوعين باستخدام المجالات المغناطيسية عن طريق خوذة يرتديها المتطوع (أسمائها خوذة الإله The God Helmet)، ثم يسجل ملاحظاتهم؛ وكم من متطوع رأى الجنة، أو أحس - على الأقل - بتسامٍ روحي.

وفي عام 1998، قام بيرسنجر باختبار تأثير اضطراب الحقل الجيومغناطيسية على القدرات المجاوزة للحواس (كالرؤية عن بُعد والتحرك الذهني) عند بعض الأشخاص، فوجد أنها تتأثر بشدة بهذه الحقول. وقد أيدت تجارب جاري شوارتز أيضاً هذه النتائج⁽¹⁾، مما جعلها يستنتجان أن المعلومات المرسلّة والمستقبلة من قِبَل هؤلاء الأفراد لها مكوّن مغناطيسي قوي.

كذلك اهتم بيرسنجر بدراسة تأثير الاضطرابات المغناطيسية التي تحدثها التكنولوجيا الحديثة في الوسط المحيط؛ مثل ملاصقة الهواتف المحمولة للأذن أو استخدام سماعاتها اللاسلكية، وذكر أن لهذه التكنولوجيا تأثيرات شديدة الإضرار، قد تصل إلى إحداث اضطراب يشبه نوبات خفيفة من صرغ الفص الصدغي. كذلك قد يصاب الشخص بالهلوسة نتيجة لاختلال التوازن بين نشاط الفصين الصدغيين الأيمن والأيسر. هذا بالإضافة إلى رفع درجة حرارة المخ في الجزء المحيط، مما يؤدي على المدى البعيد إلى «شّي المخ» على نارٍ هادئة⁽²⁾.

ثبتت الدراسات العديدة السابقة، أن الإنسان ليس كائنًا يعيش في صومعة تعزله عن الطبيعة. فإذا كانت للظواهر الطبيعية الملموسة (كالأمطار والفيضانات والصواعق والزلازل والبراكين) تأثيرات مباشرة على البشر، كالغرق والاحتراق والدهس، فإن علاقتنا بالطبيعة لا تقف عند ذلك، بل إن هناك نشاطات (كالنشاطات المغناطيسية التي تقع في الشمس وغيرها من النجوم الأبعد) لا تخضع لملاحظتنا المباشرة، لكنها تؤثر بشكل مباشر على قدراتنا وصحتنا، ووعينا بأنفسنا وبما حولنا، وبمزاجنا وبمشاعرنا الروحية!! إن ذلك يجعلنا جزءاً من منظومة الوجود تتأثر بها إلى حد بعيد يفوق توقعاتنا.

(1) لنا وقفة بعد قليل مع التعريف بجاري شوارتز وأبحاثه.

(2) تنشر شركات الهواتف المحمولة آراءً تنكر لهذه النتائج، وتعلن أنه لم يثبت بالدليل القاطع أن لهذه التقنيات تأثيرات ضارة!!

ثانياً: قلوبنا تدق معاً

منذ عام 1963، بدأ اهتمام مجتمع علماء القوى الذهنية بما يُعرف بـ Direct Mental Interacting Living Systems DMILS، وترجمته «التفاعل الذهني المباشر مع الأنظمة الحية».

كانت البداية على يد عالم النفس والباحث في الوعي تشارلز تارت Charles Tart، الذي قام بإجراء التجارب على نفسه، لدراسة تفاعل الأشخاص مع آلام الآخرين. لقد عرّض تارت نفسه لصدمات كهربائية خفيفة، في حين خضع متطوع «معزول في غرفة أخرى» للمراقبة الطويلة، لملاحظة ما إذا كان جهازه العصبي الودي Sympathetic N.S. يلتقط رد فعل تارت بشكل ما. كانت النتيجة مدهشة، فكلما كان تارت يتعرض لصدمة كهربائية، كان المتطوع يعاني من انخفاض ضغط الدم وزيادة معدل نبض القلب، وكأنه هو الذي يتعرض للصدمة.

أُجريت دراسة أخرى على التوائم. فكان أحد التوأمين يُغمض عينيه، فتتباطأ الإيقاعات الكهربائية في دماغه إلى مستوى موجات ألفا، عندها تتباطأ موجات دماغ توأمه أيضاً، رغم أن عينيه مفتوحتان على اتساعهما⁽¹⁾.

ومن الدراسات المهمة في مجال التأثير الذهني المباشر، تلك التي قامت بها عام 2005 مجموعة من الباحثين في جامعة باستير وجامعة واشنطن. لقد جمعوا ثلاثين زوجاً من الأفراد ممن لهم خبرة في التأمل، وتربط كل زوج منها علاقات عاطفية ونفسية قوية. ثم وضعوا أفراد المجموعة في غرف تبعد بعضها عن بعض بمقدار عشرة أمتار، وتم تعريض أحد الأفراد إلى ضوء وامض، وطلب منه أن يرسل بذهنه صورة هذا الضوء لشريكه، وتم تسجيل النشاط الكهربائي لمنح هذا الشريك، فظهرت لديه زيادة في نشاط القشرة البصرية الدماغية في نفس اللحظة التي يرى فيها الشخص المرسل الضوء. أظهرت هذه الدراسة أن دماغ المستقبل يتفاعل وكأنه يرى الصورة نفسها التي يراها المرسل في ذات الوقت، وإن كانا متباعدين ومنفصلين.

ما تفسر هذه الظاهرة التي طالعناها في التجارب الثلاث السابقة؟:

في عام 1665، لاحظ عالم الرياضيات الألماني كريستيان هيجنز C.Huygens أن بندولي

(1) حصل على هذه النتائج (كل على حدة) عالم الأعصاب الألماني هارالد والاش H.Walach في جامعة فريبورج، وعالم فيزيولوجيا الأعصاب جاكوبو جرينبرج G.Grinberg في المكسيك.

الساعتين المنتصبتين بجانب بعضهما يتأرجحان بحركة موحدة، حتى وإن بدأت حركتهما في لحظتين مختلفتين ومن جهتين متعاكستين. والآن تُفسَّر تلك الظاهرة بحدوث تبادلات ضئيلة للطاقة بين البندولين، مما يسبب تباطؤ أحدهما وتسارع الآخر حتى يصل إلى التوحد الحركي، وتُسمى هذه الظاهرة بـ «الإفضاء Entrainment».

وعادة ما يحدث الإفضاء (تبادل الطاقة) بين مصدرين لهما تردد موجي متقارب. وقد تُفسَّر هذه الظاهرة ما حدث في التجارب الثلاث السابقة. كما قد تُفسَّر ظاهرة الإفضاء ما يحدث بين المحبين من ارتياح وانجذاب. فقد أظهرت أبحاث DMILS أن ترددات موجات قلوبهم وأمخاخهم تكون متقاربة. ومن ثم يمكن أن يحدث تبادل لطاقت نبض القلب وموجات الدماغ، ونشاط الجهاز العصبي اللاإرادي بين شخصين متحابين، ليصلا إلى مستويات متقاربة حتى وإن كانا متباعدين.

ثالثاً: أفكارنا تؤثر في النباتات

كان كليف باكستر⁽¹⁾ Cleve Backster أحد أول من افترضوا أن النباتات تتأثر بالنشاطات الذهنية البشرية، وأن الكائنات الحية يمكن أن تقرأ أفكار الشخص ونيته وتتجاوب معها! وقد اعتبرت أفكاره شاذة وسخيفة لفترة استمرت أربعين عاماً⁽²⁾، قبل أن يتم قبول الكثير منها. لقد كان لباكستر خبرة كبيرة في العمل على جهاز كشف الكذب، الذي يقيس تزايد توصيل الجلد للكهرباء إذا اضطرت الإنسان للكذب، ذلك نتيجة لزيادة التعرق التي تسببها زيادة نشاط الجهاز العصبي الودي Sympathetic Nervous System، ويقوم الجهاز بتسجيل الزيادة في التوصيل الكهربائي للجلد على هيئة رسم بياني.

(1) عمل باكستر كثيراً مع المخابرات الألمانية على جهاز كشف الكذب أثناء الحرب العالمية الثانية، وبعد الحرب أسس مدرسة باكستر، التي لا تزال تحتل المرتبة الأولى في العالم في تعليم تقنيات كشف الكذب بعد خمسين عاماً من إنشائها.

(2) نشر باكستر نتائج أبحاثه في عدد من المجالات العلمية المحترمة المتخصصة في الفيزياء، وأعلن أفكاره في محاضرة أمام جمعية القدرات الذهنية الخارقة Parapsychology Association في مؤتمرها العاشر. وحققت تجاربه نفس النتائج عندما كررت في عدد من المختبرات المستقلة، خاصة مختبر ألكساندر دوبروف Dubrov، العالم الروسي المتخصص في فيزيولوجيا النبات. ومع ذلك لقي باكستر الكثير من السخرية والاستهزاء في الأوساط العلمية التقليدية، حتى صار اصطلاح «تأثير باكستر» مثاراً للسخرية، ثم تغيرت النظرة إلى أفكاره وصار هذا الاصطلاح مقبولاً علمياً.

خطرت ببال باكستر فكرة؛ إذا كان نشاط الجهاز العصبي الودي (ومن ثمّ التوصيل الكهربائي للجلد) يزداد عند الكذب، وأيضاً عندما يقع ما يهدد حياة الإنسان، فهل يحدث رد فعل مماثل إذا هددنا حياة النبات؟!

لدراسة ذلك، أوصل باكستر أقطاب جهاز كشف الكذب بإحدى أوراق نبات الدراسينيا الطويلة، ثم «فكر» في أن يهدد حياة النبات بأن يحرق طرف الورقة المتصلة بأقطاب الجهاز يعود من الثقب. في اللحظة التي «فكر» فيها باكستر بذلك، تأرجح قلم تسجيل الرسم البياني في جهاز كشف الكذب إلى أعلى مستوى، إنه لم يحرق النبات بل لم يشعل الثقب، إنما «فكر» - مجرد تفكير - في ذلك! أبعد باستر الفكرة الشريفة عن ذهنه فهدأ الرسم البياني، ورسم القلم خطأً مستقيماً. كرر باكستر التجربة عدة مرات فحصل على نفس النتيجة!

إن تفاعل نباتات باكستر مع أفكاره السلبية لم يرتبط بالمسافات، بل لقد تفاعلت النباتات الموجودة في الغرف البعيدة. كذلك شاركت الكائنات الدقيقة (كالباراميسيوم والفطريات والبكتريا) الموجودة في المعمل النباتات ردود الفعل. ففي أحد الأيام، صبّ باكستر بعضاً من الماء المغلي في حوض بغرفة أبحاثه، فوجد أن مؤشر الجهاز سجل حدوث رد فعل شديد في النبات. باستقصاء الأمر، وجد باكستر بعض الترسبات في بالوعة الحوض، وعندما فحصها بالمجهر وجد بها غابة من الكائنات الدقيقة. فسّر باكستر الأمر بأن هذه الكائنات أرسلت صيحة استغاثة قبل أن يقتلها الماء المغلي، وأن النبات قد التقط هذه الاستغاثة وتفاعل معها.

كرر باكستر التجربة باستخدام عدد من قشريات الجمبري الحية، وفي كل مرة يلقي فيها الجمبري في الماء المغلي كانت النباتات الموصولة بأجهزة كشف الكذب - في نفس الغرفة وفي الغرف المجاورة - تُظهر استجابات كبيرة.

لم يدع باكستر أن النباتات كانت تقرأ أفكار الإنسان، بل كان التفسير المقبول الذي قدمه، هو أن أفكار الإنسان السلبية تطلق موجات (وكذلك الجمبري والكائنات الدقيقة المُحتضرة) تلتقطها النباتات وتفاعل معها.

اضطر باكستر للانتظار عدة سنوات متحملاً سخافات المهاجمين، قبل التوصل إلى آلية التواصل بين الكائنات الحية. وقد توضحت هذه الآلية عندما اكتشف عالم الفيزياء فريتز

ألبرت بوب ما أطلق عليه اسم «الفوتونات الحيوية»⁽¹⁾، التي تنقل المعلومات بين مختلف أجزاء الكائن الواحد وبين الكائنات الحية المختلفة.

إن تلك النتائج تعني أن أشكال الحياة المختلفة متوافقة بدقة مع بعضها البعض، وأن الكائنات الحية ترسل معلومات تخاطرية فيما بينها في كل لحظة، مستخدمة - في الأرجح - الفوتونات الحيوية.

رابعاً: بعض القدرات الخارقة

يُعتبر بروس فرانتريس Frantzis أحد أعظم أساتذة التشي كونج Chi kung في الغرب⁽²⁾، ويحمل أحزمة سوداء في خمس من الفنون القتالية اليابانية. وقد شاهدته لين ما كتاجرت Lynn Mc Taggart⁽³⁾، بعد بضع دقائق من التركيز المكثف، وصفائح جمجمته في قمة رأسه تراقص. كما تم تصويره وهو يجعل الأشخاص يطرون في هواء الغرفة بتوجيهه لطاقة التشي كونج، ومنذ فترة أصبح يحتفظ بتلك الطاقة لمعالجة المرضى.

وقد أظهرت الأبحاث أن لدى بعض أفراد الجنس البشري قدرات كبيرة على التواصل عن بعد، إرسالاً واستقبالاً. من هذه الأبحاث تلك التي قام بها د. مايكل بيرسنجر أستاذ علم النفس بمختبره في كندا. فوجد من هؤلاء المتميزين إيجنو سوان، وشين هاربيانك اللذين يتمتعان بقدرة أكبر على الرؤية عن بعد (عبر مئات الكيلو مترات). وقد وجد أن أحماخهما تتمتع

(1) الفوتونات هي وحدة الطاقة الضوئية، ولنا وقفة أخرى مُفصّلة بعد قليل مع فريتز ألبرت بوب والفوتونات الحيوية.

(2) تشي كونج: ممارسة روحية تنتمي إلى الصين القديمة، تعتمد تدرجاتها على ممارسة الرياضة العنيفة والتأمل والتحكم في النفس والانتزام الغذائي. وبعد سنين من التدريب الشاق، يصبح هؤلاء الأشخاص قادرين على التحكم في مجالات الطاقة داخل أجسامهم، مما يكسبهم القدرة على التحكم في النفس والدفاع عن أنفسهم، ويكتسبون ملكات روحية، وبعد ذلك يكتسبون القدرة على التحكم في طاقات الوجود، والقدرة على معالجة الآخرين عن بُعد.

(3) لين ما كتاجرت: صحيفة بريطانية، تحقق كتبها دائماً مرتبة أفضل الكتب مبيعاً، وأشهرها كتاب The field. وهي مؤسسة مجلة What doctors Don't tell you، ولها شركة تقوم بعقد مؤتمرات على مستوى عالٍ من الشعبية حول الصحة والروحانيات، حتى تحولت إلى اسم مرموق في ميدان علوم الروحانيات. وقد رجعنا إلى كتاباتها كثيراً عند تأليف هذا الفصل.

بنشاط كهربائي عال (موجات جاما) وحجم أكبر من المعتاد في القشرة البصرية اليمنى والفص الجدارى الأيمن.

خامساً: العلاج عن بُعد

بالنسبة لجراح مثل، اعتاد التعامل المباشر مع أعضاء الجسم وأنسجته بالمشروط وبالإبرة والخيط، يُعتبر العلاج عن بُعد أمر شاذ، وربما أميلُ لاعتباره ضرباً من الوهم. فليس من السهل أن أتقبل فكرة تحقيق الشفاء عن طريق الاستحضار الذهني للمريض ومشكلته عن بُعد مع تركيز النية على معالجته، الأمر الذي يقوم به بعض المعالجين المتخصصين. إلا أن هذا النمط من العلاج معروف في معظم الثقافات القديمة، خاصة في حضارات الشرق الأقصى، فتعالى نقل نظرة على ما كشفته الأبحاث الحديثة في هذا المجال.

ولعل المعالجة عن بُعد Remote Healing من أوضح مجالات التأثير عن بُعد Remote Influence. وقد أُجريت لدراسة ذلك أكثر من 150 دراسة (مختلفة الدقة من حيث صرامة المعايير العلمية) أدقها دراستين أشرفت عليهما د. إليزابيث تارج E. Targ في فترة الانتشار الأعظم لمرض الإيدز في الثمانينيات، وقد أظهرت الدراستان (التي اشترك فيها 40 معالجاً عن بُعد في أنحاء الولايات المتحدة) قدرة المعالجين على تحسين الحالة الصحية لمرضى الإيدز في المراحل النهائية من المرض، رغم أنهم لم يتواصلوا جسدياً مع هؤلاء المرضى.

وفي عام 1999، أُجريت دراستان هامتان في معهد كاليفورنيا والباسفيك الطبى في سان فرانسيسكو⁽¹⁾ لاختبار نتائج المعالجة عن بُعد Remote Healing لمرضى المراحل الأخيرة للسرطان، مع الالتزام باشتراطات الموضوعية العلمية في البحث. وقد حقق هؤلاء المرضى نتائج أفضل كثيراً من المرضى الذين لم يتعرضوا لنفس النوع من العلاج. وكانت هاتان الدراستان من أوائل الدراسات العلمية المُحكّمة حول القدرة على المعالجة عن بُعد.

وقد أظهرت الدراسات الدقيقة حول آليات هذه القدرة⁽²⁾ أن الخطوة الأولى المهمة للتأثير

(1) قام بالدرستين الطبيبة النفسية إليزابيث تارج E. Targ وعالم النفس فريد سيشر E. Sicher.

(2) منها تلك الدراسات التى أجراها ستانلى كريبنر Stanly Krippner وتلميذه آلان كوبرشتين Alan Cooperstein فى كلية سايبروك Saybrook بجامعة ييل بالولايات المتحدة.

والعلاج عن بُعد هي وصول المعالج إلى ما يُعرف بـ «التركيز الثاقب» أو «ذروة الانتباه». ويمكن تحقيق ذلك باستخدام إيقاع قوى متكرر، ثبت حديثاً أنه يؤدي إلى «إغلاق» المراكز المخية المسئولة عن الشعور بالذات وبالوسط المحيط، كذلك تنقل الحرارة الشديدة (كما في غرف الساونا) الفرد إلى حالة مغايرة تجعله مؤهلاً لذلك⁽¹⁾. ومن تلك الوسائل أيضًا الصلاة، والتركيز الذهني مع الشخص المقصود أو مع صور أو كلمات رمزية.

وفي أبحاثه على المعالجين عن بُعد، اكتشف طبيب النفس المهتم بالسرطان د. لورانس لي شان Le shan أن هؤلاء المعالجين بعد وصولهم إلى حالة التركيز الثاقب يحققون قدرًا من الشعور بالتوحد مع الشخص الذي يعالجه، ثم يصبح كلاهما متحدًا مع ما يسمونه «المطلق» - The Absolute.

ويمكن تقسيم المعالجين عن بعد إلى مجموعتين؛ الأولى، اعتبر أفرادها أن إمكانية المعالجة ترجع إلى قدراتهم الخاصة. أما المجموعة الأكبر، فيعتبر أفرادها أنفسهم «قناة» تتدفق عبرها طاقة الشفاء، أي أنهم وسيلة لنقل قوة أكبر منهم. وفي هذا المعنى يقول أحد أنجح المعالجين (هارى إدواردز) أن المعالج يتقدم برجائه إلى قوة أعظم منه لتمنح المريض الشفاء، أي أن القضية إيمانية غيبية. وفي كلتا الحالتين فإن حُلُق التعاطف واللفظ والحب هو الباب لإيصال الطاقة والنية الإيجابية للشفاء، مع اقتناع واستسلام المستقبل لهذه القوة. أليس ذلك كدعائنا لمرضانا بالشفاء؟

سادسًا: تأثير النية العُدوانية - من شر حاسد إذا حسد

من النتائج التي أظهرتها تجارب العلماء المهتمين بتأثيرات الطاقة أن النوايا العُدوانية والأفكار السلبية يمكنها أن تؤثر على العالم بدرجة أكبر من الأفكار الإيجابية، أي أن نية الإيذاء هي الأقوى. ومن البديهي أن إلحاق الضرر بنظام سليم أسهل من إصلاح شيء مكسور أو تنظيم وجود فوضوي.

(1) تستخدم قبائل الأوجيبا وأنينو الأمريكية الأصلية - للوصول إلى هذه الحالة - قرع الطبول والرقص عراة بالخطوة المتكررة حول الأحجار المشتعلة.

لذلك لجأ عدد من رواد طب المعالجة الذهنية الذين اهتموا بمرض السرطان⁽¹⁾، إلى استغلال تلك الفكرة في علاج مرضاهم. فأصبحوا يطلبون من المرضى استحضار نية عدوانية وهي إبادة العدو، ويتخيلون ساحة معركة يتغلب فيها المريض على السرطان، حيث ينزل المريض إلى مجرى دمه! ليقود جيش خلايا المناعة الذي يقاتل الخلايا السرطانية، أو يتخيل أنه يقوم بإغلاق صنبور الدم الذي يغذي تلك الخلايا. وقد يحتاج الأمر إلى استحضار بعض التفاصيل العلمية؛ مثل إيقاف عمل إنزيمات الخلايا السرطانية أو التأثير على خطوات تصنيع بروتينات تلك الخلايا. وقد يقوم المرضى بتخيل أنفسهم وهم يشاركون في لعبة فيديو عنيفة يدرون فيها الخلايا السرطانية⁽²⁾.

وقد كان د. عبد الوهاب المسيري - رحمه الله - صاحب موسوعة الصهيونية، أحد من مارسوا هذا الأسلوب الصيني من العلاج لمقاومة ورم سرطاني أصيب به في نخاع العظام Solitary Myeloma، وأخبرني بأنه كان يشعر بتحسن كبير بعد كل جلسة علاجية. وقد تعلم د. المسيري هذا العلاج من صديق بريطاني يعمل في نفس تخصصه (الأدب الإنجليزي) ويعاني نفس مرضه، وكان الأطباء قد قدرُوا أن هذا الصديق سيحيا لبضعة أشهر فقط، ثم التقى به د. المسيري وهو بصحة جيدة بعد عشر سنوات من هذا التقدير!

ويشير مفهوم قدرة النوايا العدوانية السلبية عددًا من التساؤلات؛ هل من الممكن إنزال الأذى بالناس عن طريق أفكارنا، كالحسد الذي نُحَدِّثُنا عند الديانات والمتعارف عليه في معظم الحضارات؟ هل يمكن أن تنعكس أفكارنا السلبية على أنفسنا (أنا غير موهوب وكسول...)؟ هل يمكن أن نوذى أطفالنا فأفكارنا السلبية عنهم (ياله من أحمق... إنها سيئة في الرياضيات...)؟

وإذا كنا نستقبل - غافلين - تأثيرات سلبية، فماذا علينا أن نتخذ من إجراءات لإعاقتها؟ لقد طرح المهتمون بهذا الأمر عددًا من الوسائل الوقائية، وقد ذكر لاري دوسي - أحد أبرز الباحثين في هذا المجال - أن أقوى ترياق ضد النية السيئة هو الدعاء بعبارات تحمل معنى

(1) من هؤلاء الأطباء د. بيرني سيجل B. Siegel - د. كارل سيمونتون C. Simonton وعالم النفس الأسترالي

إينسلي ميرز I. Meares

(2) لا شك أن الأفكار السلبية والأفكار الإيجابية مفهوم نسبي، فما هو سلبي بالنسبة للخلايا السرطانية يُعتبر إيجابيًا بالنسبة للمريض.

«انقذنا من الشر». ليتك قارئ الكريم تتأمل سورتي المَعُوذَتَيْنِ - الأخيرتين في القرآن الكريم - فسترى أنهما بالفعل تحملان كل معاني اللجوء إلى الله عَزَّجَلَّ من أجل تحقيق تلك الحماية.

سابعًا: أفكارنا تؤثر في عالم الإلكترونيات

ماذا عن تأثير الأفكار التي تدور في عقولنا على الأشياء الجامدة في محيطنا؟

تردد حول بعض الأشخاص سُمعة بأنهم يملكون تأثيرًا إيجابيًا أو سلبًا على المعدات الإلكترونية، ويوصف التأثير السلبي من هذا النوع بتأثير الجريميلين Gremlin effect⁽¹⁾. وقد اشتهر أحد آباء نظرية الكم، وهو الفيزيائي اللامع وولفجانج باولي Pauli، بامتلاكه لحقل تأثير سلبي قوي، فكثيرًا ما كانت الآلات تتعطل فور وصوله إلى مختبره، خاصة إذا كان مزاجه سيئًا، لذلك كثيرًا ما كان فريق عمله يخرج من المعمل بتهديب وحزم.

ويهتم المعمل الدولي لأبحاث الوعي⁽²⁾ بدراسة «قوة النية الموجهة في التأثير على الآلات». وقد أمضى رئيسا المركز د. روبرت جان Robert Jahn العميد السابق لكلية الهندسة بجامعة برنستون Princeton وعالمة النفس برندا دون Brenda Dunne الأستاذة بنفس الجامعة، أكثر من ثلاثين عامًا يجمعان الأدلة حول هذا الموضوع، مع تحري المنهجية العلمية، وقد توصلا إلى الكثير من الأدلة المقنعة على وجود تأثير للأفكار على الآلات الإلكترونية.

وقد اكتشف جاك بينفينيست J. Benveniste تأثير الجريميلين أول مرة عندما كان يجري تجارب على التواصل بين الخلايا. ومنذ عام 1991، اعتبر بينفينيست أن الإشارات الرئيسية بين الجزيئات الحية ليست كيميائية، لكنها إشارات كهرومغناطيسية ذات ترددات منخفضة، تختلف من جُزء لآخر. ولا شك أن الإشارات الكهرومغناطيسية أكثر عُرضة من الرسائل الكيميائية للتأثر بما قد يصدر عن عقولنا وأفكارنا من طاقة، مما قد يفسر قدرة النية السيئة والهدامة (مثل الحسد) على إنزال الضرر بالآخرين، كما يفسر تأثير بعض الأفراد على المعدات الإلكترونية.

(1) الجريميلين مخلوق خيالي يؤدي الآلات والأدوات والمعدات الإلكترونية.

(2) International Consciousness Research Laboratory.

آليات التواصل والتأثير

بعد هذا الاستعراض للتأثيرات المتبادلة بين نشاطات عالمنا الداخلي (متمثلة في أفكارنا ونوايانا) وبين العالم الخارجي (متمثل في الطبيعة والكائنات الحية والأجهزة الإلكترونية)، يجيء أوان محاولة فهم آليات هذه التأثيرات، من خلال طرح أبحاث العلماء في هذا المجال:

1- صبي يتأمل: الإنسان مُرسِل ومستقبل

في عام 1951، كان جاري شوارتز Gary Schwartz (أستاذ علم النفس الشهير بجامعة بنسلفانيا) طفلاً في السابعة من عمره، وكان شغوفاً باللعب بالأجهزة الكهربائية القديمة. وفي أحد الأيام، قام جاري بفك وصلة هوائي الاستقبال من جهاز التلفزيون، فانقطعت البرامج وملاً التشويش الشاشة، ثم وضع إصبعه حيث يتصل الهوائي بالجهاز، فوجد ما كان تشويشاً وضجيجاً يتحول إلى صورة وصوت مثاليين صافيين. وبالرغم من صغر سنه، أدرك شوارتز أن جسمه تصرف كهوائي التلفزيون، وأنه استقبل المعلومات الخفية الموجودة في الفضاء على هيئة موجات.

وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره، تعلّم جاري عزف الجيتار الكهربائي، وكان يُعجَب بخطوط الموجات المرسومة على الشاشة الموصولة بالجهاز، والتي تتراقص مع الموسيقى. ومن باب التجريب، أوصل جاري الشاشة بميكروفون ونطق أمامه ببعض الكلمات، فحصل على موجات ذات ترددات مشابهة لترددات أصوات الجيتار.

في هذه السن المبكرة، اكتشف جاري شوارتز أن جسمه قادر على إصدار واستقبال موجات الطاقة.

2- تسجيل وقياس النشاطات الكهربائية لأفكارنا

وفي عام 1994، قام جاري شوارتز في مختبر أبحاثه بجامعة بنسلفانيا ببناء غرفة جدرانها الأربعة وسقفها من الألومنيوم، لتعمل كمستقبل للإشارات الكهربائية، وأوصل جدران الغرفة والسقف بمكبر للإشارات الكهربائية الميكروفتولتيه، ثم بجهاز لتسجيل النشاطات

الكهربائية بيانياً. بذلك حصل على آلة حساسة عبارة عن مُستقبل ومكبر ومسجل للإشارات الكهربائية الضعيفة حتى جزء من المليون من الفولت.⁽¹⁾

بعد إجراء تجارب عديدة، توصل كل من إيلمار جرين (صاحب فكرة الغرفة الأول) وجارى شوارتز (كلُّ بصفة مستقلة) إلى أن كل جزء من أجسادنا يرسل إشارات كهربائية عند قيامنا بأى حركة؛ كأن نلَّوَح بأذرعنا، وحتى عندما يقف الإنسان في الغرفة ساكناً فإن نفسه ونبض قلبه ينتجان مجالاً كهربائياً تعادل قوته 10 - 15 مللي فولت، يسجله جهاز الرسام الكهربائي، ولمرلاً، أليست أنسجتنا الحية مشحونة بشحنات كهربائية.

وفي التجارب التي أجريت على العُباد أثناء قيامهم بتدريبات التركيز العقلي والتأمل، أصدرت أدمغتهم مجالات كهربائية بلغت قوتها ثلاثة فولتات. وفي أثناء عمليات المعالجة عن بُعد التي يقوم بها أشخاص متخصصون متدربون وصلت النبضات إلى 190 فولت في بعض الأحيان! يا الله، ليست حركاتنا فقط هي التي تولد الطاقة، بل وأيضاً أفكارنا!!

وقد قام عالم ورئيس قسم فيزياء المواد بجامعة ستانفورد د. ويليام تيللر William Tiller بتصميم وبناء جهازاً عبقرياً لقياس قوة مجالات الطاقة الكهربائية التي تنتجها أفكارنا⁽²⁾. طلب تيللر من متطوعين عاديين أن يمدوا أيديهم إلى مسافة 15 سم من الجهاز، وأن يركزوا نيتهم الذهنية في أن يُزيدوا قراءة عداد الجهاز، في أغلبية الحالات (في أكثر من 1000 تجربة) اكتشف تيللر أن عدد النبضات يزداد بمقدار 50.000 مرة عن الأوقات العادية، وأن ذلك يدوم لقرابة خمس دقائق.

بهذا أكدت تجارب ويليام تيللر أن أفكارنا تنتج طاقة فيزيائية كهربائية، وأن مجالاتها قابلة للقياس!

(1) كان صاحب هذه الفكرة إيلمار جرين Elmar Green. أحد رواد علم التغذية الراجعة الحيوية Biofeed Back. وقد بنى أول غرفة مستقبلة للإشارات الكهربائية من النحاس، ثم نقل عنه جارى شوارتز الفكرة.
(2) يعتمد الجهاز على إطلاق تيار مستمر من الغاز، ثم يسجل عداد الجهاز أى تغيير في النشاط الكهربائي لذرات الغاز، نتيجة للتأين الذي قد تحدثه المجالات الكهربائية التي تنتجها أفكار الأشخاص الخاضعين للتجريب.

3- كذلك الطاقة المغناطيسية

لما كانت الطاقة المغناطيسية هي الطاقة الكونية الأكثر قوة، كما أنها تؤثر في الظواهر البيولوجية الزمنية، فقد قام جاري شوارتز بدراسة التغيرات في المجال المغناطيسي حول أيدي مجموعة متمرسة من المعالجين بالنية عن بعد، باستخدام جهاز صممه زميلته ميليدا كونور Melida Conor، فوجد تغيراً كبيراً في المجال المغناطيسي في أثناء تمرير الطاقة عن طريق أيدي هؤلاء الخبراء، مقارنة بالأفراد العاديين.

4- وأيضاً طاقة ضوئية

في أواسط السبعينيات، اكتشف عالم الفيزياء الألماني فريتز ألبرت بوب Freitz Albert Pop أن جميع الكائنات الحية، من وحيدات الخلية إلى أكثرها تعقيداً (البشر) تبعث تياراً ضئيلاً مستمرًا من الفوتونات (وحدات الضوء) أطلق عليها اسم «الانبعاثات الفوتونية الحيوية Biological photons»، واعتقد بوب - بحق - أنه اكتشف وسيلة التواصل الرئيسية بين أجزاء الكائن الحي، وأن هذا الإشعاع الضئيل أهم من الكيمياء الحيوية كوسيلة للتناغم وتنسيق العمليات بين الخلايا الحية. واكتشف أيضًا أنها وسيلة التواصل بين مختلف الكائنات الحية، وكذلك بينها وبين العالم الخارجي.

ولإثبات وجهة نظره، قام بوب بابتكار أول جهاز لتصوير الفوتونات الحيوية، واستطاع به تسجيل الترددات الضئيلة التي انبعثت من الحمض النووي الدنا DNA. ووجد أن هذه الانبعاثات تبلغ عدة مئات من الفوتونات في الثانية من السنتيمتر المربع الواحد من سطح الكائن الحي، كما لاحظ أن هذه الفوتونات الحيوية تنخفض بشدة إذا أصيب الكائن باضطراب أو مرض، وأنها تعود إلى نشاطها بعد العلاج.

وبعد أن أثبت بوب نظريته، أصبح مشهورًا عالميًا، وأسس فيما بعد المعهد العالمي للفيزياء الحيوية IIB⁽¹⁾، الذي ضم - بحلول القرن الحادي والعشرين - أكثر من أربعين عالمًا معروفًا في أنحاء العالم⁽²⁾.

(1) International Institute of Biophysics

(2) يتوزع هؤلاء العلماء في خمسة عشر مركزًا من المراكز العالمية حول العالم؛ منها معهد CERN بسويسرا، =

أثار إثبات انبعاث الفوتونات الحيوية من الخلايا الحية اهتمام جاري شوارتز، فبحث عن آلة شديدة الحساسية تستطيع تصوير أكثر الانبعاثات الضوئية خفوتًا، فوجد ضالته في كاميرات الشحن المزدوج شديدة التبريد CCD، ذات الحساسية الشديدة والتي تُستخدم في تصوير المجرات العميقة في الفضاء⁽¹⁾، وأعانتته على ذلك د. كاثي كريث Cathy Creath أستاذة علم البصريات في جامعته. ولأول مرة في التاريخ، استطاعا تصوير الضوء المنبعث من ورقة نبات الجرمانيوم، وذلك بدقة شديدة وتفاصيل مذهلة.

كذلك قام شوارتز بتقطيع كمية من حبوب الفاصوليا، وفصل بينها بحواجز يتراوح سمكها بين 1-10 مم، واستخدم كاميرا CCD لتصويرها، فاكتشف أن الكثير من الضوء (الفوتونات) ينتقل بين تلك الأجزاء عبر الحواجز، مما يدل على أن كل قطعة منها استمرت في التواصل مع بقية القطع.

لر يقف الأمر عند ذلك، بل استطاع شوارتز أن يسجل صورًا واضحة تخلب اللب لتيارات من الضوء تتدفق من أطراف أصابع خبراء المعالجة عن بعد، ومن ذلك استنتج أن نية المعالجة لدى هؤلاء الخبراء تُؤدِّد موجات من الفوتونات الحيوية، التي كانت من أكثر موجات الضوء في الطبيعة انتظامًا، وتتفق مع ما يُطلق عليه الفيزيائيون اصطلاح «الفوتونات المتماسكة»⁽²⁾.

5- ما تأثير هذه الطاقات على المادة؟

مما سبق، يتضح أن الكائنات الحية تعمل كمرسلات ومستقبلات لثلاث أشكال من الطاقة: التيارات الكهربائية والمجالات المغناطيسية والفوتونات المتماسكة، وكلها طاقات قابلة للقياس. وكما تُنتج النشاطات البيولوجية الخلوية هذه الطاقات، فقد يُستَنتج أنها تُصدر أيضًا نتيجة لنشاطاتنا الذهنية. فهل هذه الطاقات قادرة على إحداث تغيير في الروابط بين جزيئات المادة، ومن ثم يمكن أن تُحدث تغييرًا في البنية الجينية للخلايا الحية؟

=وجامعة نورث إيسترن في الولايات المتحدة، ومعهد الأكاديمية العلمية للفيزياء الحيوية في بكين، وجامعة موسكو.

(1) تُبرَد هذه الكاميرا الوسط المحيط إلى 100 درجة فهرنهيتية فوق الصفر المطلق، وتستطيع تسجيل 70 % من أي ضوء بغض النظر عن درجة خفوته.

(2) يناقش د. وليم تيلر ظاهرة «الفوتونات المتماسكة» بعد قليل.

للإجابة عن هذا التساؤل، قام بيرنارد جراد⁽¹⁾ Bernard Grad بدراسة تأثير الطاقات التي يطلقها المعالجون عن بُعد على عينات من الماء باستخدام التحليل الطيفي بالأشعة تحت الحمراء Infrared Spectroscopy، فاكتشف حدوث تغيرات جذرية في روابط الأكسجين والهيدروجين بين جزيئات الماء (الرابطه الهيدروجينية Hydrogen Bond)، وهذه التغيرات تشبه ما يحدث عند تعريض الماء لمغناطيس قوى. كما سجل آخرون في دراسات مماثلة حدوث تغيير في صفات أخرى للماء، خاصة امتصاصه للضوء. ولا شك أن هذه التأثيرات على جزيئات الماء تنعكس على جميع النشاطات البيولوجية في الكائنات الحية.

القارئ الكريم...

لا شك أن هذه المفاهيم التي جمعناها من مصادر علمية موثقة، وصنفناها في تسلسل مبسط، تُعتبر بمثابة ثورة في مفاهيم العلم المعاصر. وبالرغم من حجية مصادر ما ذكرناه، فقد أردت أن استزيد من توثيق ما فيه من معلومات فيزيائية. إن الاحتكام في موضوع كموضوعنا؛ «تأثير النشاطات الذهنية على عالم المادة»، يحتاج إلى الحكم الخبير الذي يجمع بين مجالين؛ الفيزياء، والنشاطات الذهنية والروحية. نُقِبْتُ عن هذا الحكم، فدلوني على رجل وصفه البعض قائلين: «من حُسن حظ البشرية في هذا الزمان أن يحيا فيها رجل مثل ويليام تيللر
!«William Tiller»



حواراتي مع ويليام تيللر

صرت شغوقاً إلى درجة التوتر لأن ألتقى بهذا الرجل العظيم بسبب ما عرفته عنه، فأنت لا تلتقى كل يوم (أو كل عام) برجل تتشرف البشرية بوجوده فيها. وبعد أن تبادلنا التحية وبعض الكلمات الودية، أزال ما عليه الرجل من تواضع جَم ما كان يعتمل داخلي من قلق. ثم انتقلت مباشرة إلى لب الموضوع:

(1) الأستاذ المساعد لعلم البيولوجيا في جامعة ما كجيل في مونتريال بكندا.

موقف الأوساط العلمية التقليدية من المفاهيم الجديدة

سألت د. ويليام تيللر (شكل-1)؛ هل حقًا للنشاطات الذهنية تأثير على عالم المادة؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب، فما موقف الأوساط العلمية التقليدية من هذا المفهوم؟

ابتسم تيللر ونظر إلى بعينه الثابتين ذواتا النظرة الوثأبة، التي لم تطفئها ما حفرته سنون العمر في وجهه من تجاعيد وما كست به شعره ولحيته من بياض، وقال لي: بالرغم من قبول هذا المفهوم لدى الكثير من المفكرين والفلاسفة، فإن الأوساط العلمية التقليدية ما زالت تمثل السد المنتصب في مواجهة قبول هذا المفهوم، حتى بعد أن أثبتت التجارب العلمية الدقيقة أنه قد صار بمثابة الحقيقة العلمية.

وأضاف العالم المدقق الكبير؛ إن المنهج العلمي المعاصر بنى لنفسه سياجًا من المفاهيم المقدسة التي لا يسهل تعديلها. إن الموقف يشبه ما كانت عليه الكنيسة الكاثوليكية في روما في العصور الوسطى، حين وقفت معارضة لجاليليو وكوبرنيكوس وكبلر ونيوتن. كان رجال الدين يعتقدون أنهم يملكون الحقائق المطلقة، ولا يحتاجون لإجراء التجارب أو الحسابات أو النظر خلال التليسكوب، ومن ثم كانوا يرفضون ما يطرحه العلماء مما لا ينسجم مع منظومتهم الفكرية ونظرتهم للكون.

وكان أن طويت هذه الصفحة من تاريخ الإنسانية، وحلت محلها فيزياء نيوتن التي نشرت النظرة الآلية للوجود، طوال فترة تجاوزت الأربعة قرون، ثم شاركتها منذ مدخل القرن العشرين (بعد رفض واعتراض) فيزياء الكم⁽¹⁾ ثم النظرية النسبية. بذلك استقرت النظرة إلى العلم، وأصبح من المقولات الحاكمة في المنهج العلمي ما ذكره ديكارت من «أن السمات الإنسانية كالوعى والقصد والنية والمشاعر والعقل والروح لا تستطيع أن تؤثر في التجارب العلمية الدقيقة التي أصبحت تجري في العالم المادى، ومن ثم ينبغي إخراج هذه السمات من مجال العلم التجريبي». والآن - كما سأبين لك - فإن الكثير من التجارب العلمية الدقيقة تثبت خطأ هذا المفهوم تمامًا، بل يمكن القول إن ذلك قد اتضح منذ أن أثبتت النظرية النسبية

(1) فيزياء الكم Quantum physics: الفيزياء الحديثة المعنة بسلوك الجسيمات تحت الذرية والموجات.



(شكل 1)

د. ويليام تيللر William Tiller

مؤسس علم «ما بعد الفيزياء المعاصرة»

رئيس قسم خواص المواد

بجامعة ستانفورد

لاينشتين أن للشخص الملاحظ (Observer) للظواهر المادية تأثير على قراءتنا للوجود⁽¹⁾.

وأضاف تيللر: إن مشكلة العلم المعاصر أنه قصر منظومته في إطار الزمان والمكان وقطع، أما ما هو خارج ذلك الإطار (كالسمات الإنسانية التي ذكرها ديكارت) فقد أخرجها العلم التجريبي من منظومته، أي أن العلماء هم الذين دفعوا هذه السمات خارج مجال العلم، بينما الواقع أعمق كثيراً من تلك النظرة القاصرة للوجود. وإذا كانت البشرية قد قبلت لإزاحة نظرة الكنيسة، وأحلت محلها فيزياء نيوتن ثم فيزياء الكم والنسبية، فإنني لا أدعو لإزاحة تلك المستويات من الفيزياء، فهلك علوم أدت وتؤدي الكثير للبشرية، لكنني أدعو لتوسيع مداركنا ومد المجال من حولنا لتستوعب حقائق جديدة، حقائق يرفضها الآن معظم العلماء ويضعونها تحت البساط ليرمحوا أنفسهم.

رحلة ويليام تيللر الفكرية

قلت لتيللر، إن لك وتجاربك العملية دور كبير في إثبات أن نشاطاتنا الذهنية تأثير على عالم المادة، فهل تُطلق على هذا المفهوم اسم «نظرية تيللر»، أم ماذا تسميها؟ أجابني: لا، إنها جزء أصيل من الفيزياء الحديثة، وليست فقط نظرية تُنسب إليّ. قلت له، قبل أن تشرح لي ذلك أود أن تبين لي كيف تطورت نظرتك من عالم يشارك العلماء الآخرين نظرتهم إلى الفيزياء، إلى تبني تلك المفاهيم الغريبة على العلم التقليدي، إنني شغوف لأن أعرف شيئاً عن رحلتك الفكرية.

أراح تيللر ظهوره الذي لم تحنه السنون على ظهر مقدمه المرتفع، وأخذ يسرد لي رحلته، فقال: بدأ اهتمامي بالعلاقة بين العاثر المادي والعوالم اللامادية منذ أوائل خمسينيات القرن

(1) سيشرح ويليام تيللر هذا المفهوم بعد قليل.

العشرين، فقد بدأت أنا وزوجتي تجارنا العملية حول هذا الموضوع عقب زواجنا عام 1952. وبعد أن تركت عملي كمستشار في مجال صناعات التبريد والتحقت بجامعة ستانفورد عام 1964 بدأنا في توسيع اهتماماتنا الروحية، وجعلنا لأنفسنا وقتًا محددًا يوميًا للتأمل، وقد حقق لي ذلك هدوءًا نفسيًا أفادني في عملي عندما أصبحت رئيسًا لقسم المواد في كلية الهندسة في جامعة ستانفورد عام 1966. وفي نهاية الستينيات، حين كنت وزوجتي في رحلة عمل في أكسفورد ببريطانيا، قرأنا كتابًا صغيرًا بعنوان (اكتشاف النفس خلف جدارها الحديدي)، وقد مكنتني الكتاب من أن أبلور سؤالًا محوريًا جمعت فيه شتات الأفكار التي طالما راودتني: كيف يمكن الجمع بين ما في الوجود من عجائب مادية وغير مادية بأسلوب يخضع لتصوراتنا ومنهجنا العلمي، ولا يتعارض مع ما أعرفه من أساسيات علم الفيزياء؟

وفي نهاية الأشهر الستة التي قضيناها في أكسفورد بدأت ملامح الإجابة عن هذا السؤال تتجمع. وقد تأكدت تصوراتي الجديدة حين ذهبت عام 1971 إلى الاتحاد السوفيتي في دعوة من جماعة روحية تمارس ما يُعرف بأنشطة «الطاقة النفسية Psychoenergetics». فهناك رأيت بعيني رأسي ممارسات كنت أتشكك في حدوثها؛ كتحرريك الأشياء عن بُعد Telekinesis ورفع الأشخاص في الهواء Subject Lifting. عندها لم أستطع أن أدير ظهري لهذه الظواهر، وقررت أن أجعل للاهتمام بها جزءًا أساسيًا من وقتي، وكان القرار أن أسلك طريقين في الحياة، أحدهما أهتم فيه بعملى الجامعى والمهنى والحكومى، حتى أدبر نفقات حياتى وأسرتى، وما تبقى من وقت أوجهه للطريق الآخر.

بدأت الطريق الآخر عام 1971، وكان ذا ثلاث شعب. الأولى، أن أهتم بتشكيل نفسى وترقيتها حتى «أستشعر» داخلى مفاهيمى الجديدة. والشعبة الثانية، أن أستمتر فى بلورة «نظرية» تجيب عن تساؤلى المحورى الذى ذكرته منذ قليل. والثالثة، أن أصمم وأن أجرى «التجارب العلمية» التى تؤكد أو تدحض نظرتى ونظرتى الجديدة. كذلك قمت بإلقاء العديد من المحاضرات وإجراء الكثير من الحوارات ونشر المقالات والأبحاث، كمساهمة فى توعية الناس بالعلاقة بين العالمين؛ المادى وغير المادى، والتأثير المتبادل بينهما.

ومن أجل الحفاظ على الطريقين كان على أن أحيأ كمن يسير على الحبل فى السيرك. فلا شك أن ما طرحت من أفكار جديدة قد أربع زملائى فى ستانفورد، هؤلاء القوم الذين انتووا من قبل أن يدفعونى إلى أعلى منزلة علمية دولية، إذا بهم يسقطونى من أيديهم كجمرة من نار.

وبحلول عام 1992 كنت قد انتهيت من تأليف ثلاثة كتب في علم البلورات، وشعرت بأننى قد أدت واجبى تجاه هذا العلم بعد أن سجلت كل ما اكتسبته فيه من خبرة. عندها قررت الاستقالة من عملي المنتظم بستانفورد، وبقيت هناك كأستاذ فخري لأتمم إشرافى على عدة رسائل للدكتوراه، ولأكمل مشروعات بحثية كنت متعاقدًا على إجرائها، مما سمح لى بالمزيد من الاهتمام بمجالى الجديد.

وفى عام 1997، جاءنى دعم من أحد الأثرياء ليتولى الإنفاق على أبحاثى، فانتقلت وزوجتى عام 1998 إلى ولاية أريزونا الشمالية، حيث بنيت مختبرًا أجرى فيه أبحاثى بشكل يومى. وفى عام 2001 أصدرت كتابًا يحتوى على نتائج أبحاثى خلال السنوات الثلاث الأخيرة، وكان الكتاب بعنوان: عمليات الخلق الواعية: بزوغ فيزياء جديدة.

Concious Acts Of Creation: The Emergence Of a new Physics

بذلك اكتملت براهينى وحُججى حول دور النشاطات الذهنية فى التأثير على العالم المادى، وصرت قادرًا على الوقوف وراء مفاهيمى الجديدة أمام الأوساط العلمية التقليدية. ومنذ ذلك الحين وأنا أطرح ما لدى على المجتمع العلمى، وأنازل المعارضين والمندهبين.

وبينما أنا أستمع إلى هذا التلخيص لرحلة ويليام تيللر الفكرية، أدركت كم هو عظيم ذلك الرجل الذى أحاوره، وأدركت كم هو مفيد أن يطلع مفكرون وشبابنا على الرحلات الفكرية للرجال العظماء. لقد خرجت مما سمعته بدروس كثيرة، لعل من أهمها أن الإنسان يأتى إلى هذه الحياة لبيحث عن الحقيقة، وعليه التخطيط بدقة من أجل الوصول إليها مهما تكلف من نضحيات، فالحكمة ضالة المؤمن، كما قال الرسول الكريم ﷺ.

ما بعد الفيزياء المعاصرة⁽¹⁾

أفقت من تأملاتى، وعبرت لتيللر عن إعجابى الشديد برحلته، ثم قلت له: نعود إلى ما ذكرت من أن مفاهيمك الجديدة جزء من الفيزياء الحديثة، هلا بينت لى ذلك؟

(1) ابتكرت اصطلاح «ما بعد الفيزياء المعاصرة» لوصف المفاهيم التى نتعرض لها فى هذا الفصل. فجاء الاصطلاح على وزن «ما بعد الحداثة»، مع الفارق الكبير بين المعنيين.

اعتدل تيللر في جلسته، إيداناً بالانتقال من رحلته الذاتية إلى رحلة علم الفيزياء، لم يتعامل العالم الكبير معي بما هو أهل له من مرتبة عالية؛ كأستاذ متمكن متمرس يخاطب من ليس بمتخصص، ولكن وجهه إلى كلماته بتواضع وحياء عجيبين؛ قال لي:

لقد أشتقت الفيزياء التقليدية كلها - وكل العلم في الحقيقة - من قوانين الحركة والجاذبية التي اكتشفها سير إسحق نيوتن وضمّنها كتابه (المبادئ Principia) عام 1687. وتصف قوانين نيوتن كوننا تتحرك فيه جميع الأجسام ضمن فضاء ثلاثي الأبعاد، وفقاً لقوانين محددة وثابتة للحركة، لذلك يتطلب تغيير شيء ما تسخينه أو حرقه أو تجميده أو تسييله أو ركله ركلة «قوية»! وتماشياً مع هذا المعنى يعلن عالم الفيزياء الكبير ريتشارد فينمان Richard feynman أن قوانين نيوتن هي قواعد اللعبة بالنسبة للعلوم، وأن تلك القوانين تعني أن لكل موجود من الموجودات كياناً مستقلاً، ومن ثمّ فالحياة تمضي من حولنا على وتيرتها بغض النظر عما نفعله أو نعتقد.

ثم تلقت هذه النظرة الجامدة إلى العالم ضربة عنيفة في بدايات القرن العشرين، عندما بدأ رواد فيزياء الكم يُعنون النظر في قلب المادة، فوجدوا أن أصغر جسيمات مادة الكون لا تلتزم في سلوكها بأية قاعدة عرفها العلماء من قبل، فقاموا بجمع هذا السلوك (غير المنضبط بقوانين) في مجموعة من الأفكار صارت تُعرف بتفسير كوبنهاجن Copenhagen Interpretation إشارة إلى المكان الذي صاغها فيه عالم الفيزياء الدانماركي نيلز بور N.Bohr وزميله الألماني فونر هايزنبرج W.Heisenberg. لقد أدركا أن الذرات ليست أنظمة شمسية مصغرة ككرات البلياردو، بل هي شيء أكثر فوضوية بكثير. كذلك فإن أي مُكون تحت ذري (كالإلكترونات) ليس شيئاً صلباً مستقرًا، بل يتواجد كـ«احتمال» تتأثر كتلته وسرعته وهيئته بالراصد! إن معنى ذلك أن الوعي الإنساني يؤثر بطريقة ما ليُجعل من احتمال وجود الشيء شيئاً واقعياً، وأنا في اللحظة التي ننظر فيها إلى الإلكترون (مثلاً) أو نسجل قراءة لسرعته أو كتلته فإننا نحدد حالته النهائية! ومن ثم يصبح أكثر العوامل أهمية في تشكيل كوننا هو «وعي» المراقب له.

ويقف معظم علماء اليوم عاجزين أمام هذه القضية المحيرة ذات الشقين؛ كيف يتصرف المُكون تحت الذري دون انضباط تبعاً لمفاهيم الكوانتم، وفي نفس الوقت يمثل هذا المُكون جزءاً من كل أكبر يلتزم بالسلوك الحتمي تبعاً لقوانين نيوتن!! وقد قبل الفيزيائيون - مضطرين - هذا التضاد على مدى أكثر من نصف قرن، وأصبحوا يتعاملون معه كأنه سلوك منطقي تماماً!!.

كذلك فإن أحد أغرب مفاهيم فيزياء الكم ما يُسمى «اللاموضعية Non-locality أو التشابك الذري Quantum Entanglement». فقد اكتشف الفيزيائي الدانماركي نيلز بور N.Bohr أن المكوّنات تحت الذرية (كالإلكترونات والفوتونات) يتأثر بعضها ببعض مهما كانت المسافة بينها، بغض النظر عن القوى التي تعارف علماء الفيزياء على أنها مسئولة عن التأثير المتبادل بين المكونات، كالطاقة والشحنة والمسافة. ويُشبه الفيزيائيون هذا التشابك بين المكونات تحت الذرية بالتوأمن اللذين فُصلا بعد ولادتهما، ومع ذلك بقيت الروابط التخاطرية بينهما بالرغم من بُعدهما عن بعض.

وقد رفض أينشتين مفهوم التشابك، إذ يتطلب أن تسافر المعلومات بسرعة أكبر من سرعة الضوء، وهذا مستحيل تبعاً لنظرية النسبية. لكن حديثاً أثبت بعض علماء الفيزياء المعاصرين (مثل آلان أسبيكت A.Aspect وزملائه في باريس) بشكل جازم أن سرعة الضوء ليست الحد الأعلى المطلق في العالم تحت الذري.

بذلك قبل علماء الفيزياء مفهوم اللاموضعية (التشابك) كصفة ثابتة للعالم الكوانتي (تحت الذري)، لكنهم تحفظوا تجاه انطباقها على أي شيء أكبر من الإلكترون والفوتون. ثم فوجئوا بأن عالم الفيزياء تشارلز بينيت C.Bennett الباحث في معامل أبحاث شركة IBM يثبت أن التشابك يحدث على مستوى الذرات والجزيئات! ثم أثبت الفيزيائي الكبير روزنباوم Rozenbaum وتلميذته سايا Saya أن البلورات الكبيرة التي نرصدها بالعين المجردة والتي تتكون من الآلاف من الذرات يمكن أن تخضع لمفهوم التشابك! وقد نشر أبحاثهما في مجلة Nature عام 2002.

كذلك أثبت الفيزيائي الرياضي توماس ديورت T.Durt من جامعة فريج Vrije في بروكسل - من خلال معادلات رياضية أنيقة - أن كل التفاعلات الكوانتية (على مستوى المكونات تحت الذرية) تتسم بالتشابك، حتى إن الفوتونات المنبعثة من النجوم تتشابك مع كل ذرة تلتقي بها في طريقها إلى الأرض. كذلك فإن الذرات والجزيئات في كل مكان، حتى في أجسادنا، لا تتوقف كل لحظة عن تبادل الطاقة جيئة وذهاباً. بذلك تسلك مادة الكون باعتبارها كلها مترابطة.⁽¹⁾

(1) يتحدث الفيزيائيون عن «حقل النقطة صفر» Zeiro Field Energy. ويقصدون به أنه إذا كانت المادة كلها تتوقف عن الحركة عند درجة الصفر المطلق، فإن هناك موجات تبقى مرصودة، وهذه الموجات - في =

وفي اكتشاف ثوري أثبت عالم فيزياء الكم الشهير أنطون زيلينجر A. Zeilinger في جامعة فيينا، في تجربة رائعة (أمكن تكرارها) مهولة الدلالة، أن «الجزئيات» قادرة على التواجد في مكانين في آن واحد. أي أن المادة كبيرة الحجم ليست شيئاً مستقرًا، وأنها تحت ظروف معينة تتجاهل قوانين نيوتن وتخضع لقوانين الكوانتم، ومن ثم فهي توجد في حالة احتمال صرف وتخضع لظاهرة التشابك.

لقد غرق العلماء في تطبيقات فيزياء الكم، فأخرجوا لنا كمًا هائلًا من الأجهزة الإلكترونية الحديثة، وكذلك القنابل الذرية! لقد بنينا من وراء ذلك حضارة متميزة، وجنى الكثيرون أرباحًا طائلة. لكن غابت عن العلماء التطبيقات الميتافيزيائية لتفسير كوبنهاجن، وأهمها تأثير الراصد، والذي يعني أن طبيعة الوعي بالمادة تؤثر على هيئتها، وكذلك مفهوم التشابك الذي يعني أن مادة الكون كلها مترابطة!؛ وظلت هذه المفاهيم غير مطروقة على الإطلاق.

إن هذه الاكتشافات الفيزيائية الحديثة تثبت أنه ليس هناك قانونان للفيزياء (فيزياء الأجسام الكبيرة- وفيزياء المكونات تحت الذرية) ولكن هناك قانون واحد للحياة بأسرها. ومن ثم إذا كان «للاصد» دور في عالم المكونات تحت الذرية (عالم الكم) فهل يمتد هذا الدور إلى عالم الأجسام الكبيرة؟!؛

تجارب ويليام تيللر

حدَّق ويليام تيللر بنظراته إلى سقف الغرفة، وكأنه يسترجع ماضيًا بعيدًا، وقال: منذ قرابة الأربعين عامًا، اهتمت - وكذلك مجموعة صغيرة من العلماء الرواد في جامعات مرموقة حول العالم - بتلك القضية. وطرحنا سؤالًا بديهيًا؛ إذا استطاع وعى الراصد (الانتباه) أن يؤثر على المكونات الفيزيائية تحت الذرية، فهل يؤثر على الأجسام الكبيرة؟ وهل للنية (الرغبة الأكيدة لإحداث التغيير) تأثير على تلك المادة؟! وقد صمم كل منا ما استطاع من تجارب علمية للإجابة عن هذا التساؤل.

قلت لتيللر؛ لقد اطلعت على العديد من التجارب التي أجراها هؤلاء العلماء، وكذلك تلك التي أجرتها أنت، فهلا لخصت لي ما أظهرته تجاربك.

= الأغلب - هي المسئولة عن ظاهرة التشابك. ويستنتجون من ذلك أن مادة الكون كلها تتبع حقل طاقة واحدًا مركزيًا هائلًا.

أجابني تيللر: تدور تجاربي حول فكرة محددة، وهي: إذا كان لوعى الراصد ونيته تأثير على عالم المادة فلن يكون ذلك إلا عن طريق إطلاق تلك النشاطات الذهنية طاقة تمارس هذا التأثير. من أجل ذلك ركزت في تجاربي على هذه الفكرة، والتي تُعتبر نتائجها بمثابة نقلة هائلة في علم الفيزياء، بل إنني أُشبهها بتأثير ثورة كوبرنيكوس العلمية على علم الفلك.

لقد أردت اختبار تأثير «النية البشرية» (التركيز الذهني على إحداث تغيير ما في الوسط المحيط) على بعض العمليات الكيميائية والبيولوجية. فكنيت أجلس أنا وزوجتي وشخصان آخران من خبراء التأمل أمام تجربة معينة، ونستحضر في داخلنا بشكل مُلح الرغبة في إحداث تغيير ما في وسط التجربة، مع ذكر وتكرار نيتنا بصوت مرتفع وتوجيهها بشكلٍ أمر لوسط التجربة، وكنا نكرر ذلك على مدى أيام إذا احتاجت التجربة، ولضمان علمية التجربة أجرينا معها تجربة حاكمة Control group، كانت النتائج مبهرة.

فعلى المستوى الكيميائي، استطعنا عن طريق التركيز الذهني (استحضار النية) أن نُغيّر درجة حموضة الماء (pH) بالزيادة والنقصان بمقدار وحدة كاملة دون أية إضافات كيميائية. وهذا مقدار كبير بمقياس درجة الحموضة (pH) يستحيل حدوثه تلقائياً. وقد حقق آخرون في الولايات المتحدة وأوروبا نفس النتائج حين كرروا التجربة.

وعلى المستوى البيولوجي، أجرينا تجاربنا على ذبابة الفاكهة (الدروسوفيلا)، ونجحنا باستحضار النية وتوجيهها إلى يرقات الذبابة وطورها البالغ - عبر عدد من الأجيال على مدى ثمانية أشهر - أن نزيد من معدل إنتاج جزيء الفوسفات القاعدية الثلاثية ATP (جزيء تخزين الطاقة في الكائنات الحية) من سلفه جزيء الفوسفات القاعدية الثنائية ADP، بمعدل تراوح بين 15 - 20%. وقد قلل ذلك من فترة نضج اليرقات إلى الطور البالغ بمقدار 25%، كما زاد من الكفاءة الصحية للذبابات البالغة.

وفي تجاربنا على الفئران، استطعنا عن طريق استحضار النية وتوجيهها إلى وسط التجربة لمدة 30 دقيقة من رفع كفاءة أحد أهم إنزيمات الكبد (إنزيم الفوسفات القاعدية Alkaline Phosphatase) بمقدار 25 - 30%.

لقد أثبتت هذه التجارب (بموضوعية) أنه يمكن إحداث تغييرات كيميائية وبيولوجية في

الوسط المحيط عن طريق استحضار النية الذهنية. ثم خطر ببالي خاطر جرىء (قد يرتعد الكثير من العلماء من مجرد التفكير فيه)؛ إذا كانت الأفكار تؤثر في الوسط المحيط عن طريق إطلاقها للطاقة، فهل يمكن تخزين الأفكار البشرية (الطاقة) في ذاكرة إلكترونية ونقلها إلى مكان آخر لتؤثر في العالم المادي؟ والسؤال بأسلوب تطبيقي؛ هل يمكن أن نشحن جهازاً بسيطاً ذا ذاكرة إلكترونية بطاقة نية بشرية، واستخدامها للتأثير على عمليات كيميائية وبيولوجية بعد نقل الجهاز إلى مكان آخر؟ من أجل دراسة ذلك، طورنا (في عام 1997) تجاربنا الثلاث السابقة، لذلك قمنا بتصميم جهاز إلكتروني صغير (بحجم كف اليد) يستطيع رفع مستوى الطاقة الكهرومغناطيسية التي تنتجها نشاطاتنا الذهنية ويخزنها ثم يبثها عند اللزوم، وأسميناه (جهاز تخزين النية Intention - Host Device)⁽¹⁾.

وكنا نقوم نحن الأربعة (أنا وزوجتي وخبيري التامل) باستحضار النية وترديدها (كالتجارب السابقة) في وجود جهاز تخزين النية، ثم ننقل الجهاز إلى مكان آخر يبعد 1500 ميل نجرى فيه التجارب. وفي وسط التجربة، كنا ندير الجهاز فيبث ما سجلنا فيه من نية منطوقة طوال فترة إجراء التجربة.

والمدهش، أننا حصلنا على نفس النتائج التي سبق أن حصلنا عليها عندما أجرينا التجارب في حضورنا. إن ذلك يعني أنه يمكن تخزين طاقة النشاطات العقلية (النية) لفترات ونقلها إلى مكان آخر لتمارس فعلها!!.

وأضاف تيللر: ربما كان ما توصلنا إليه من إمكانية شحن الأشياء المادية بأفكارنا، هو الأساس لفنون الشعوذة في كثير من الحضارات القديمة، وفيها تُحمَل التماثيل والتماثيل والدُمى والعرائس الورقية بنوايا سلبية، وتُستخدم لإنزال الأذى بالآخرين.

وبينما عالم الفيزياء الكبير يروي لي هذه التجارب ونتائجها المذهلة بمنتهى الهدوء والثقة، والتي قد لا أصدقها لو شاهدتها في أحد أفلام الخيال العلمي، كنت أستمع فاعراً فاهياً (أحياناً) ورافعاً حاجبياً (أحياناً) من فرط الاندهاش. كان تيللر يلاحظ رد فعلي هذا طوال حديثه،

(1) يحوى الجهاز مكثفات تزيد الطاقة (من 1 إلى 10 ميغاهيرتز)، ثم ذاكرة إلكترونية (تستقبل الموجات الكهرومغناطيسية التي تم تكثيفها) وهذه الذاكرة قابلة للتسجيل والمسح والبرمجة، وأخيراً يحوى مُسرِّعات الكوارتز التي تبث تلك الموجات الكهرومغناطيسية عند إعطاء الأمر بذلك.

لذلك ما أن انتهى من وصف تجاربه أضاف قائلاً: إن تجاربي ليست غريبة أو شاذة كما تعتقد. فتأثير النشاطات الذهنية على الكائنات الحية والتفاعلات الكيميائية وكذلك على الأجهزة الإلكترونية أصبح مجال اهتمام العديد من العلماء، حتى إنني حتى الآن أعرف - بقدر علمي - أساء 68 باحثًا مستقلًا توصلوا في أبحاثهم إلى نتائج تثبت تلك التأثيرات.

ومن أكثر الأبحاث دقة وإقناعًا، تلك التي أجراها ويليام براود W.Braud⁽¹⁾ في تكساس، والتي أظهرت أن الأفكار البشرية يمكنها التأثير على اتجاه سباحة الأسماك وحركة حيوانات أخرى كالجرذان. كما أظهرت أبحاث براود الدقيقة أن الإنسان قادر على التأثير على الجهاز العصبي اللاإرادي لشخص آخر، إذ سجلت تجاربه أن توصيل الجلد للكهرباء يتغير عندما يحملق فيه أحد، إذ إن ذلك يعرضه للضغط النفسي.

ولا شك أن أكثر التجارب موضوعية (وأسهلها رصدًا) هي محاولات التأثير على رمية النرد. وفي مجموع 73 دراسة اختبرت 2500 شخص للتأثير على أكثر من 2.5 مليون رمية نرد، كانت النتيجة قاطعة في صالح تأثير النية الإيجابية مقارنة بالصدفة.

وينبغي ألا نتجاهل النتائج المثيرة للاهتمام في نجاح النشاطات الذهنية في «لّي الملاعق»، وهي التجارب التي قام بها جون هاستد J.Hasted في كلية هيركيك بجامعة لندن.

يتضح من كل التجارب السابقة أن الذهن البشري مرتبط ارتباطًا لا ينفصم بالمادة، وأنه قادر على تغييرها عن بُعد من خلال النشاطات الذهنية، وأن هذه النشاطات يمكن تخزينها ونقلها إلى مكان آخر لتمارس تأثيرها هناك.

طاقة الضوء ... والتأثير عن بُعد

كان شرح ويليام تيللر شديد الوضوح والدلالة، وهذا شأن أصحاب الخبرة الحقيقية. وما أن انتهى من كلامه، قلت له: لقد عرضت علينا تجاربك على الموجات الكهربية والمجالات المغناطيسية الصادرة عن النشاطات الذهنية، ولا شك أن تلك الموجات والمجالات قصيرة

(1) ويليام براود، عالم النفس ومدير أبحاث مؤسسة Mind Science Foundation في سانت أنتونيو بتكساس،

المدى، بينما تتم بعض التأثيرات الذهنية (كالعلاج عن بُعد) عبر مئات وآلاف الأميال، فما رأى علم ما بعد الفيزياء المعاصرة في دور الطاقة الحيوية (التي هي فوتونات ضوئية) في التأثير والتواصل عن بُعد، وما آلية ذلك؟

أجابني تيللر:

من عطاءات أينشتين المتعددة للعلم، طرحه عام 1924 لفرضية أطلق عليها اسم تكثيف بوز-أينشتين.⁽¹⁾ وتدور الفرضية حول أنه إذا كان للذرات المختلفة سرعات مختلفة، فإن عند درجات الحرارة شديدة الانخفاض (بضع درجات فوق الصفر المطلق) تأخذ الذرات في التباطؤ حتى تصل إلى سرعات متطابقة، عندها تفقد مجموعات الذرات فرديتها، وتتصرف كذرة واحدة عملاقة، وهذه حالة جديدة للمادة، تكتسب فيها المادة خواص مختلفة تمامًا عن أي شيء معروف في الكون، وصارت تعرف بالحالة الخامسة للمادة⁽²⁾.

وعندما نشر أينشتين أبحاثه تلك، كان متشككًا فيها! كذلك لم يقتنع بها علماء الفيزياء الآخريين إلا بعد سبعين سنة (في الخامس من يونيو عام 1995)، حين استطاع كورنيل Cornell وويمان Wieman إثبات هذه الفرضية على مستوى «الذرات» معملًا، لذلك حصلوا عام 2001 على جائزة نوبل⁽³⁾. وبعدها بسنوات استطاع كورنيل إثبات نفس التأثير معملًا على مستوى «الجزيئات». كما أثبتت د. جوش نفس التأثير على مستوى «البللورات»⁽⁴⁾.

وعندما درس د. كيتزل في معهد MIT خواص تلك الحالة الجديدة للذرات والجزيئات

- (1) كان صاحب الفكرة الأساسية هو عالم الفيزياء الهندي ساتيندرا ناث بوز Bose.
- (2) الحالات الثلاث الأولى هي الحالات الغازية والسائلة والصلبة. والحالة الرابعة هي حالة «البلازما» وفيها تكون البروتونات والنيوترونات والإلكترونات حرة وغير متجمعة على هيئة ذرات.
- (3) يعمل إيريك كورنيل وكارل ويمان ضمن برنامج JILA الممول من المعهد الوطني للمقاييس والتقنيات وجامعة كولورادو. وقد نجحا في تبريد مجموعة صغيرة من ذرات الروبيديوم إلى 170 جزءًا من المليار من الدرجة فوق الصفر المطلق، فبدأت في التصرف كأنها اندمجت في كيان واحد، وبالرغم من أنها بقيت في حالة غازية، إلا أنها تصرفت بشكل أقرب إلى سلوك المادة الصلبة. وبعد ذلك بأربعة أشهر حصل وولفغانج كيتزل Ketterle من معهد MIT على نفس النتائج باستخدام ذرات الصوديوم.
- (4) أجرت سيانتاني جوش S. Ghosh في أطروحتها للدكتوراه تحت إشراف روزنباوم عام 1999 تجارب على البللورات باستخدام المجالات المغناطيسية والتسخين، أظهرت أن «البللورات»، تحت ظروف معينة، تتصرف كأنها ذرة واحدة عملاقة، وكأنها متشابكة.

والبللورات، وجد هذه الجسيمات تدور في تناغم تام، وكأنها الفوتونات في شعاع الليزر، وتصرفت كأنها فوتون واحد عملاق.

وأضاف تيللر، لعلك تسأل؛ وما علاقة هذه الجولة الفيزيائية بموضوعنا. وأجاب عن تساؤله قائلاً؛ المدهش أن الفوتونات الحيوية التي اكتشفها فريتز ألبرت بوب وفريق العاملين معه كانت شديدة التماسك وذات تردد شديد القوة، وهي ظاهرة يُشار إليها بمصطلح «الإشعاع الفائق»، وتشبه تكثف بوز - أينشتين وتشبه أشعة الليزر⁽¹⁾.

كذلك أثبت عالم الفيزياء الحيوية الألماني هيربرت فروليش H.frolich أن الطاقة البيولوجية (الفوتونات الحيوية) تترابط مع الحقول الكهر ومغناطيسية في الطبيعة، ولا تتصرف كل من هذه النظم كوحدات مستقلة، بل تتصرف كأنها فرقة مشاة مدربة جيداً تسير سيراً متناغماً. أى أن أنظمة الطاقة البيولوجية «تتوالف» مع أنظمة الطاقة الأخرى في الكون في حالة واحدة متماسكة عملاقة كما أنها تنتقل - مثل ضوء الليزر - عبر مسافات هائلة في زمن ضئيل للغاية دون أن تفقد طاقتها.

ولما كانت النشاطات الذهنية تصدر طاقات كهربائية ومغناطيسية (كما ذكرنا منذ قليل)، فقد افترض بعض العلماء أن تلك النشاطات - مثلها مثل الأنشطة البيولوجية الأخرى - تُولّد أيضاً الضوء المتماسك تبعاً لتكثفات بوز - أينشتين.

وأضاف تيللر، ولاستكمال الصورة بخصوص انبعاث الفوتونات الحيوية عن الكائنات الحية، أشير إلى ما صار يُعرف باسم تأثير كيرليان Kirlian effect، نسبة إلى المهندس Kirlian⁽²⁾، الذى اكتشف عام 1939 أن الكائنات الحية والأجسام غير الحية إذا تعرضت لطاقة كهر ومغناطيسية فإنها تولد تفرقاً حلقياً حول الجسم يظهر على هيئة حلقة من الضوء الملون يمكن التقاط صورتها على فيلم حساس، وأطلق عليها اسم الحقول الحيوية Biofields.

(1) افترض عالم الفيزياء البريطانى روجر بينروز R.Penrose وزميله طبيب التخدير ستيوارت هامرون S.Hamern من جامعة أريزونا أن الأنابيب المجهرية Microtubules في النباتات (التي تشكل البنية الهيكلية الأساسية للخلايا) هي أنابيب ضوئية تتحول فيها موجات الضوء العادية إلى فوتونات عالية التماسك ليتم إرسالها إلى باقى أجزاء الجسم، أى أنها البديل البيولوجى عن درجات الحرارة شديدة الانخفاض.

(2) لقى كيرليان الإهمال حتى عام 1960، عندما نشط الاهتمام باكتشافه، واعتُبر بطلاً قومياً في الاتحاد السوفييتى، واستُخدم اكتشافه في أبحاث الفضاء.

وقد اهتم عالم فيزياء الكم الروسي قسطنطين كوروتكوف K.korotkov⁽¹⁾ بجامعة سانت بطرسبرج للتقنية بتأثيرات كيرليان، وابتكر آلية للتصوير تعطي وضوحاً أكبر بملايين المرات من الأجهزة العادية. وقد أجرى كوروتكوف دراساته على العلاقة بين الحقول الحيوية وبين الوعي ونشاطاتنا الذهنية، واكتشف اختلافات في التفريغات الحلقية عند المعالجين بالنية عن بُعد ومعلمي الششى كونج عن الأفراد العاديين.

الطاقة غير المتشكلة

بعد هذه الجرعة الدسمة الممتعة من الفيزياء، كان طبيعياً أن أسأل د. تيللر: هل يتم تأثير النشاطات الذهنية على عالم المادة من خلال الطاقات (الكهربائية والمغناطيسية وربما الفوتونية) التي تطلقها عقولنا والتي حدثتني عنها فقط، أم أن هناك آليات أخرى؟

أجابني تيللر؛ تخبرنا الفيزياء الحديثة أن الفراغ Vacuum يحتوي على طاقة هائلة كامنة غير متشكلة Dense Energy Potential، ونصّفها بأنها كامنة لأن ليس لها تأثير ظاهر على الوجود الفيزيائي للكون. وقد أثبتت فيزياء الكوانتم والنظرية النسبية أن هذه الطاقة يبلغ مقدارها 9410 جرام لكل سم³ من الفراغ. ولتصور عظم هذا القدر نقول إن فراغاً يبلغ حجمه مقدار طرف عقلة الإصبع الصغير (1سم³) يحتوي على طاقة خام إذا تم تحويلها لمادة فستكون أكبر من مادة المجرات التي تم رصدها مجتمعة، لذلك بعد أن كان العلماء يتحدثون عن فيزياء الكم باعتبارها «أم الفيزياء»، طرحوا حديثاً علم «فيزياء الفراغ» باعتبارها الأساس الذي ينبغي أن يبدأ منه تفسير جميع الظواهر الفيزيائية. إن ذلك يعني أن كل هذا الوجود الذي يشغلنا لا يمثل إلا كمّاً يكاد يكون مهملاً من الوجود الحقيقي.

وأعتقد أن تأثير الوعي / الأفكار / النية (بالإضافة إلى الآليات التي ذكرناها) يمكن أن يتم من خلال تشكيل جزء من هذه الطاقة غير المتشكلة، والانتقال بها من الطور الكامن إلى الطور الفعّال المرصود في وجودنا الفيزيائي، وهذه الطاقة الفعّالة تؤثر في الذرات والجزيئات

(1) ألف كوروتكوف خمسة كتب حول (الحقل الطاقى الحيوى للإنسان Biofield)، واعتمدت وزارة الصحة الروسية اختراعه كأحد التقنيات الطبية والتشخيصية والعلاجية لكثير من الأمراض بما فيها السرطان والضغط النفسى، وكذلك لتقدير قدرات الرياضيين ومدى تعرضهم للإنهاك عند الإفراط في التدريب.

والتفاعلات الكيميائية. لذلك فإن مستقبلنا ومصيرنا يكمن في تنظيم الطاقات الكامنة في فراغ الذرات والجزيئات والكواكب والنجوم والمجرات.

العالم الداخلي والعالم الخارجي

قلت تيللر: إن طرحك هذا يغير من نظرتنا تجاه عالمين؛ الأول، العالم الفيزيائي، الذي لا تقف به عند حدود الطاقة والمادة المعروفين، والثاني هو عالم النفس البشرية، فأنت تخرجها عن إطار النظرة المادية وتكشف الكثير عن قواها الخفية وتجعل لنشاطاتها الذهنية تأثيراً مباشراً على العالم المادي. والآن هلا طرحتي على تصورك عن العلاقة بين عالم الإنسان الداخلي والعالم المادي الخارجي.

أجابني تيللر: تكمن حقيقة الإنسان في أننا «أرواح متجسدة»، أى أن جوهرنا (الروح) يسكن في أجساد مادية عندما نأق إلى هذه الحياة، وأرواحنا هي المسئولة عن نشاطاتنا الروحية والعقلية. ويمكن تشبيهنا بإنسان قابع داخل غواصة كروية ذات ثلاث طبقات متتالية؛ فجوهر الإنسان (الروح) يُحاط بثلاثة مجالات، أنظر إليها كالحلّل الحيوية (أى ذات طاقة). وألصق هذه المجالات بالروح هو «المجال العقلي»، يتلوه للخارج «المجال الانفعالي»، وكلا المجالين غير ماديين. ويُنتج ما تمارسه الروح من نشاط عقلي (المجال العقلي) كمّاً من الطاقة (كما ذكرنا) التي ترفع من طاقة المجال الانفعالي، وهذه بدورها ترفع من طاقة المجال الثالث الخارجي وهو «مجال كهرومغناطيسي»، وهو في الحقيقة الوجود المادي المحيط بنا، بما فيه من طاقات كهربائية ومجالات مغناطيسية.

وبتكرار نشاطاتنا العقلية تتكرر عملية التنشيط من المجال العقلي إلى المجال الانفعالي إلى المجال الكهرومغناطيسي (المادي الخارجي)، مما يجعل طاقة هذا العالم المادي أكثر نشاطاً ويصبح متشكلاً بهيئة تختلف تبعاً لنوع ما تمارسه من نية وقصد، أى أن واقعنا يتبدل كمّاً وكيفاً، ويصبح لدينا واقع فيزيائي مختلف.

بعد أن عرّض تيللر رؤيته (التي أدهشتني) لتأثير عالم الإنسان الداخلي على العالم الخارجي المادي، ختم كلامه قائلاً: بالرغم من غرابة الفكرة، فإن هذا التأثير معروف للإنسان منذ قرون! فأصحاب القلوب الحساسة إذا دخلوا أحد دور العبادة القديمة استشعروا فيها جَوْاً من

الروحانية لا يستشعرونه في دور العبادة الحديثة، مهما بلغ ما فيها من نقوش وتزيين. يرجع ذلك إلى أن هذا المكان تردد عليه عبر قرون العديد من العباد والأولياء، ومارسوا فيه الصلاة والذكر والتأمل، فارتفع مستوى ما في المكان من طاقة تشكلت بهيئة ترفع مستوى المشاعر الروحية لأصحاب القلوب الحساسة من المترددين. وقد أظهرت بعض تجاربي أن هذه الطاقات تبقى في المكان لفترات طويلة قد تصل إلى سنة كاملة، وتتناقص ببطء قبل أن تتلاشى.

وبينما كان د. تيللر يطرح هذا المفهوم، استحضرتُ بعضًا من تجاربي الشخصية في هذا المجال. فأنا أستشعر روحانية خاصة عندما أصلي في مساجد القاهرة القديمة، لا استشعرها في المساجد الأخرى. وفي أحد الأيام زارني في بيتي رجل أحسن الظن في دينه، وعندما دخل غرفة الاستقبال سألتني مبتسمًا: ماذا تفعلون في هذه الغرفة؟ فنظرت له مستفسرًا، فأضاف، إنني أرى أنواعًا واستشعر روحانية عالية في المكان. فأخبرته أنني ومجموعة من الأصدقاء نعقد بصفة دورية في هذه الغرفة مجلسًا للعلم ولذكر الله وتلاوة القرآن.

أفقت من تأملاتي وقلت لـ دكتور تيللر: إن الإسلام يوصينا بأن نؤدى بعض الصلوات في بيوتنا (سنن الصلاة) وأن نَعْمُرَها بقراءة القرآن، وإلا لصارت كالتقبور⁽¹⁾. والآن عرفت أن هذه النشاطات الذهنية والقلبية ترفع (فعليًا) من روحانية المكان.

كيف نُغَيِّرُ العالَمَ . ١.

ثم سألت تيللر: إذا كنا نستطيع بالعبادة والذكر أن نغير العالم، وأن نجعله مكانًا أفضل نحيا فيه، ألا ترى أن هذا المفهوم يتفق مع ما يتبناه المتواكلون الذين لا يربطون بين المقدمات والنتائج (يتركون الأخذ بالأسباب) ويتراخون في اقتحام المشكلات بأسلوب عملي علمي، ويكتفون بالعبادة والذكر؟

أجابني تيللر: إن معاناة إنسان الحضارة المادية التي نحياها تشبه السرطان المستشري في الجسد، علينا أن نهجمه بكل الوسائل. على الجراح أن يستأصل ما يمكن استئصاله من الورم، وعلى طبيب الأورام أن يتصدى له بالعلاج الإشعاعي والكيميائي. وفي نفس الوقت ينبغي اتخاذ

(1) قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة» - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

الإجراءات اللازمة لرفع كفاءة الجهاز المناعي للمريض، وكثيراً ما يكون هذا أهم الخطوط العلاجية. ورفع كفاءة جهاز المناعة يقابل ما يمكن أن نُحدثه داخلنا وفي الوجود من حولنا من تغييرات أشرنا إليها، عن طرق نشاطاتنا الروحية والذهنية.

سألت تيللر؛ ما الذي تقصده بالسرطان المستشري في الجسد؟ أجبني؛ إنه عدم القدرة على أن يحب بعضنا بعضاً. لذلك ينبغي أن نتعلم كيف نتحاب بشكل أعمق، ويتحقق ذلك بأن ننظر إلى العالم بقلوبنا (مشاعرنا) كما ننظر إليه بعقولنا، وأن نهتم بعمارة داخلنا، وأن نعتبر أنفسنا جزءاً من الآخرين وأنهم جزء منا، فما نضيفه إليهم هو إضافة لنا.

قلت لتيللر، أراك قد تركت حديث العلم وأدلتته وتحدثت بكلام عاطفي بلاغي. قال علي الفور؛ لا يا عزيزي، فما زلت أتحدث حديث العلم، فإن تعميق الحب بيننا يتحقق بأن تشع من روحك (التي هي لب الحُلل الثلاث) طاقة تشحن بها المجالات الثلاثة التي تحيطها، فتُغيّر هذه الطاقة الوجود من حولك وتحقق لك التواصل مع الآخرين. فكما ذكرنا، نحن على المستوى الخارجي (المجال الكهرومغناطيسي) «متشابكون Entangled»⁽¹⁾، بحيث يؤثر ما يقوم به كل منا في الآخرين ويتأثر بهم، كما أننا «متواصلون» روحياً وعقلياً وشعورياً.

وما أدعو إليه من حب تتبادله فيما بيننا، هو امتداد «للحب» المتبادل بين الإله والروح، فمنه ينبثق «الوعي»، ومن الوعي تنبثق «الطاقة» التي تؤثر في «المادة». والعلاقة بين الطاقة والمادة تتبع معادلة أينشتاين الشهيرة⁽²⁾ $E=MC^2$ ، ويبقى علينا أن نبحث عن المعادلة التي تحكم العلاقة بين الوعي والطاقة!

وأضاف تيللر؛ إن الحب هو الخلق، إنه مصدر كل شيء. فالحب يُجمّع والكُرّه يُفرِّق. نحن لم ندرك بعد ما هو الحب. فقبل الانفجار الكوني الأعظم، قبل الوجود المادي، لم يكن إلا الروح الكلي⁽³⁾، الذي «أحب أن يخلق» العقل⁽⁴⁾ والشعور. ثم شاء القصد الإلهي أن يخلق

(1) عرضنا مفهوم التشابك Entanglement صفحة 147.

(2) الطاقة = الكتلة x مربع سرعة الضوء.

(3) تشير ديانا الشرق الأقصى إلى الله عزَّوَجَلَّ باسم الروح الكلي.

(4) قال رسول الله ﷺ لما خلق العقل، قال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر.... أخرجه الإمام الطبراني في المعجم الكبير.

الوجود المادي الذي أمد العقل والشعور بغلافهما المادي الذي نكتسبه عندما نولد، ونفقداه عندما نموت. أما الوجود الروحي فهو خالد أبداً.

كاد ما طرحه تيللر من مفاهيم متلاحقة تدير العقول أن يبعض ثوابتي العلمية أشلاء. فالرجل ببساطة شديدة يُبرز أموراً كنت أعدها من المفاهيم الإيمانية الغيبية، ويعيد في ضوءها نسج المنظومة العلمية التقليدية، فيُخرج لنا لحناً متناغماً متناسقاً، أو قل يُعيد لنا شراًباً من أمزجة مختلفة لير أذق في حياتي مثيلاً له.

معراج الروح

جمعتُ أشلائى العقلية والشعورية، وسألت تيللر: تحدث كثيراً عن الوعي، الذي تنظر إليه علوم المخ والأعصاب باعتباره عكس الغيبوبة، وباعتباره المدخل لباقي النشاطات العقلية فكيف تنظر أنت إلى الوعي؟

أجابني تيللر: أنظر إلى الوعي باعتباره طريقاً صاعداً ذا ثلاث مراحل. المرحلة الأولى هي مرحلة «الشعور بالذات» وتمثل كل ما نفعله وما ننجزه، وهذا يجعلنا فخورين بإنجازاتنا وأنفسنا ويجعل ذواتنا متورمة! وإذا كنتَ محظوظاً، تُسلمك هذه المرحلة إلى «مرحلة التسليم»، وفيها تنشغل عن ذاتك الإنسانية وأنانيتها بذاتٍ أكبر تُسلم لها نفسك، عندها تدرك أنك جزء من حقيقة وجودية أعمق. وإذا وصلت إلى هذا المستوى فقد تنطلق إلى المرحلة الأخيرة، وهي «الذروة»، عندها تدرك أنك جزء من رقصة الحياة الكبرى وأن الحقيقة المطلقة تستخدمك في توجيه العالم.

سألت تيللر: من الناحية العملية، كيف نحقق هذا الترقى عبر مستويات الوعي؟ فأجابني: إن ذلك يتحقق بالهروب من المُشغلات والشواغل التي تحيط بمجالنا الخارجي، وبالخروج من دائرة الزمان والمكان، وبالتحكم في الذات والتواصل الأعمق معها. ويتحقق ذلك بتهدئة العقل، والحياة مع بصيرة القلب، عن طريق المجاهدة والتأمل والذكر⁽¹⁾.

(1) ألا يتطابق ذلك مع قول الحق عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً تُسَبِّحُكَ فَفِينَا عَذَابٌ لَّئِيمٌ﴾ [آل عمران].

إن مفتاح ذلك كله أن تحب الإله بكل قلبك وعقلك وروحك، وأن تحب جميع المخلوقات وأن تغمرها بعطائك باعتبارها أعمال الإله، وأن تنظر إلى الحياة باعتبارها رحلة ممتعة في عالم الزمان والمكان، وأنها سرعان ما تنتهي لنلحق بوجودنا الأبدى المطلق.

عند هذا الحد، أدركت أن رحلتى العلمية والفكرية والروحية مع د. ويليام تيللر قاربت هى أيضًا على الانتهاء، وبدأت أعد نفسي للحظة الفراق (التي تمنيت من كل قلبى ألا تأتى) وتبادلنا نظرات الوداع، ومددنا أيدينا للمصافحة، وأمسك تيللر بيدي وهو يقول لى: تذكر دائمًا أن الوجود وحدة واحدة متشابكة، وأن الإنسان يؤثر بعقله ونيته وإرادته فى العالم المادى وفى حقائقه الفيزيائية، وأضاف، إن الطبيعة أغزر كثيرًا وأغنى كثيرًا من كل تصوراتنا، إننا مجرد أطفال نجبى تحت أقدام الوجود... ثم افترقنا.

القارئ الكريم

بعد أن دَوَّنتُ الحوار مع ويليام تيللر، أخذت أعيد قراءته والنظر فيه، ثم أخذت أسائل نفسى، مع أى رجلين كنت أتحدو؟ أمع عالم بارز فى الفيزياء، أم مع صوفى عاشق؟ فقد كان الرجل نسيجًا وحده.

وما كنت أظن أننى سألتقى - فى هذا الزمان المادى - بمن يشاركنى الاهتمام بمشروعى الفكرى، الذى يدور حول «تجديد مُزدوج»؛ «تجديد الخطاب العلمى» ليكون دالًا على الدين، و«تجديد الخطاب الدينى» ليكون مُحفِّزًا على الأخذ بالعلم، فيقيني أننا قد صرنا نحيا فى زمان قول الحق عزَّجَلَّ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٥٣﴾ [فصلت].

إن ويليام تيللر هو أحد الرجال الذين يهتمون بتلك المعادلة الصعبة بحماس فائق، لقد أدركت الآن لماذا وصفوه بأن البشرية تفخر بأنه أحد أبنائها، ولعلك تشاركنى الرأى.

طويت صفحات الحوار مع د. تيللر، وظل الكثير من كلماته يتردد فى خاطرى، ويختلط بالكثير من المفاهيم والمقولات التى وعيتها فى شرح شبابى:

يقول الحق عزَّجَلَّ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ﴿٤٢﴾ [النجم].

وقال الرسول ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»⁽¹⁾.
وقد روى عن عيسى عليه السلام: لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم. قالوا من الموتى يا روح الله؟ قال: المحبون للدنيا الراغبون فيها.

ومن الحكم العطائية: «متى أوحشك من خلقه، فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأُنس به». والآن أدركتُ معنى آخر لهذه الحكمة العطائية⁽²⁾، فالوحشة من الخلق لا تعني أن تبغضهم أو تعتزلهم، ولكن تعني أن تنظر إليهم باعتبارهم خلق الله وأعماله، عندها تقطع الصلة بهم كذوات منفصلة، وتشعر في تعاملك معهم بالأنس بالله عزَّوجلَّ.



(1) صحيح البخارى.

(2) الحكم العطائية، أقوال شديدة البلاغة عميقة المعنى، تدور حول علاقة الإنسان بالله عزَّوجلَّ. وصاحبها هو الشيخ أحمد بن عطاء الله السكندرى (المتوفى عام 709هـ) الذى جمع السبق فى علوم الشريعة والفقہ مع السبق فى علوم التصوف.

الفصل الخامس

كيف صرتُ بشراً

- رحلة في الأزمان الغابرة
 - رتبة الرئسيات
 - موجات أشباه الإنسان
 - ثم ظهر الإنسان الحديث
 - أين نشأ الإنسان الحديث
- الفرق بيننا وبينها
- كيف صرنا بشراً
- التطور الجيني للإنسان
 - الإنسانية تقابل المزيد من المعلومات
 - جينات كانت خاملة وتم تنشيطها في الإنسان
 - ثم نظرق أبواب الشيخوخة
- وقفة مع حجم المخ
 - مع القشرة المخية والفص الجبهي
 - لماذا كبرت أمخاخ أسلافنا، بينما بقي مخ الشمبانزى على حجمه
- القارئ الكريم

أصابتنى فى مرحلة الشباب المبكر حيرة شديدة، دارت حول كيفية نشأة الإنسان. فقد كنت فى طفولتى وصباى أسمع من خطباء المساجد ومن المتحدثين فى البرامج الدينية أن الله عزَّوجلَّ قد شكَّل جد البشرية الأول (آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ) كتمثال من صلصال، وتركه أربعين سنة فى الجنة، حتى جَفَّ وصار فخاراً، ثم نفخ فيه من روحه فصار بشراً، أُهبط إلى الأرض بعد أن عصى ربه. وعندما تجاوزت الثالثة عشرة من عمرى وازداد نهى للقراءة، طالعت كتباً علمية مصورة عن نظرية التطور لدارون، والتي تخالف التصور السابق، وقد أكدت لى دراستى فى المرحلة الثانوية ثم الجامعية صحة تلك النظرية، التى ترى أننى قد نشأت نتيجة لتطور عشوائى عن أسلاف أدنى منى، وأن هذه الأسلاف تتسلسل للوراء عبر كائنات أدنى منها حتى تصل إلى الخلية الأولى التى نشأت عنها جميع الكائنات الحية، نباتية وحيوانية. معنى ذلك أن العلم لا يقبل سيناريو الصلصال والفخار ونفخة الروح والهبوط من جنة السماء إلى الأرض.

فى البداية، كان يؤرقنى التباين بين «النظرة الدينية» و«النظرة العلمية» بخصوص أسلوب نشأتى. وبعد سنوات قليلة، نتيجة لكثرة ترديد كلتا النظرتين، اعتدت أن أستمع فى المساجد وفى الإعلام الدينى غير ما أستمع إليه وأطالعه فى المصادر العلمية. وبذلك تَرَسخَتْ فى داخلى قناعة، شاعت فى الفكر الغربى، بأن للعلم مجاله وللدين مجاله، وأن «راحة الدماغ» تتحقق بالفصل بين المنظورين.

عشت على هذا الفهم المريح سنوات طويلة، حتى بزغ داخلى الاهتمام بالتوفيق بين النظرة العلمية والنظرة الدينية فى جميع قضايا حياتنا، خاصة قضية الخلق. فإذا كان التعارض بين النظرتين سمة سائدة فى الفكر الغربى، الذى تنطلق نظرتيه الدينية من الفهم الكنىسى التقليدى لسفر التكوين من التوراة، فلا ينبغى أن نجد مثل ذلك التعارض بين العلم وآيات القرآن الكريم. فإذا كان القرآن الكريم هو كتاب الله المسطور، فإن الكون (الذى يتعامل معه العلم) هو كتاب الله المنظور، وهيهات أن يوجد تعارض حقيقى بين كتابين خالقهما هو الله عزَّوجلَّ. لذلك نذرت حياتى لتعلم (وتعليم) كيف نقرأ آيات كتاب الله المنظور، لننتقل منها إلى

﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم أَنَّهُ الْحَقُّ...﴾ (٥٢)
 معرفة الله عَزَّجَلَّ. [فصلت] صدق الله العظيم.

وإليك محصلة رحلتى لاستكشاف كيف صرْتُ بشراً.

رحلة في الأزمان الغابرة⁽¹⁾

منذ أكثر الحضارات إيقالاً في القدم، وحتى منتصف القرن التاسع عشر (مروراً بسفر التكوين من التوراة) والجنس البشرى يُنظر إليه باعتباره وجوداً منفصلاً تماماً عن الطبيعة، ولم يجرؤ أحد على لفت الأنظار إلى الشبه بينى وبين القردة العليا Apes.

وعندما طرح دارون نظريته من خلال كتابه «أصل الأنواع - عام 1859»، حرص على أن يتجنب أى ذكر عن تطور الإنسان، ليس لأنه اعتبرنا مُستثنى من التطور، بل لأنه لم يُرد إثارة زوبعة من الجدال، ولكن الكتاب أثار الزوبعة بطبيعة الحال. وفي عام 1871، أحس دارون أنه لم يعد لديه ما يخسره، فنشر كتابه «أصل الإنسان».

وتتكون نظرية دارون من شقين رئيسيين، الأول؛ أن الإنسان قد خُلق تطوراً، وهذا ما أكده العلم. والشق الثانى هو أن التطور كان عشوائياً، وهذا ما لا يملك العلم له إثباتاً، بل إننى أرفضه وأتبنى بدلاً منه مفهوم «التطوير الإلهى أو التطور الموجه»⁽²⁾ الذى يوجهه الخالق عَزَّجَلَّ. لذلك ينبغى التفرقة بين «نظرية دارون» ككل، والتى ينبغى رفضها، وبين «مفهوم التطور» الذى أثبتته العلم (الشق الأول).

وقد جعل «مفهوم التطور» من تَحَدُّر الإنسان من أسلاف شبيهة بالقردة العليا استنتاجاً لا بديل عنه، نظراً القوة الشواهد المستمّدة من التشريح المقارن وعلم الأجنة ومن الحفريات، والتى أكدها أخيراً علم البيولوجيا الجزيئية بأدلة لا تُدخَس.

(1) هذه الرحلة نقلاً (بتصرف) عن كتاب المؤلف (ثم صار المخ عقلاً)، الفصل الخامس، بعنوان كيف صرنا بشراً؟، الناشر: نيويورك للنشر والتوزيع - الطبعة السابعة، 2017.

(2) للمزيد عن هذا المفهوم، راجع كتاب «كيف بدأ الخلق» للمؤلف. الناشر: نيويورك للنشر والتوزيع - الطبعة السابعة، 2017. الفصلين التاسع والعاشر.

في البداية، أُوكِّد للمعترضين على مفهوم التطور (بدوافع دينية يعتقدون في صحتها) أن العلم الذي أثبت أن النشأة الجسدية للإنسان قد تمت تطوراً عن أسلاف أدنى منه قد أثبت أيضاً أن تميزنا يرجع إلى قدراتنا العقلية والروحية (التي أرجعها القرآن الكريم إلى نفخة إلهية) وليس إلى قدراتنا الجسدية. وأُوكِّد أيضاً - من منطلق الأدلة العلمية - أن تطورنا لم يتم عشوائياً، ولكنه كان تطوراً موجهاً من قِبَل الخالق الحكيم القدير، وأن الآيات القرآنية الخاصة بخلق الإنسان يمكن أن تُؤوَّل في ظل مفهوم التطوير الإلهي، بأسلوب يتفق تماماً مع نص الآيات، ويكون أكثر انسجاماً من التفسيرات التراثية التي تتبنى مفهوم الخلق الخاص⁽¹⁾.

ولاشك أن الاكتشافات العلمية المستمرة قد تغير من تفاصيل سيناريو نشأة الإنسان. فالبعض - مثلاً - يُرجع خروج الفرع الذي أدى إلى ظهور الإنسان عن مسار باقي الرئيسيات إلى ثمانية ملايين عام مضت، ويرى آخرون (بعد اكتشاف الحفريات التي أُطلق عليها اسم «إيدا») أن ذلك قد يرجع إلى أربعة وأربعين مليون سنة. ولكن الفكرة الرئيسية في نشأة الإنسان تطوراً عن سلف مشترك جمعنا مع باقي الرئيسيات، تظل هي المفهوم الذي يقوم عليه علم البيولوجيا. أي أن التغيُّر قد يكون في التفاصيل وليس في جوهر نشأتنا التطورية. أُوكِّد ذلك في مدخل الفصل حتى لا يحتاج البعض بأن المفاهيم العلمية تتغير، وأنه قد ثبت خطأ مفهوم التطور فيما بعد.

رتبة الرئيسيات⁽²⁾ Primates

تمثل الرئيسيات رتبة من طائفة الثدييات، يتميز أفرادها بالقدرة على القبض على الأشياء بأصابع

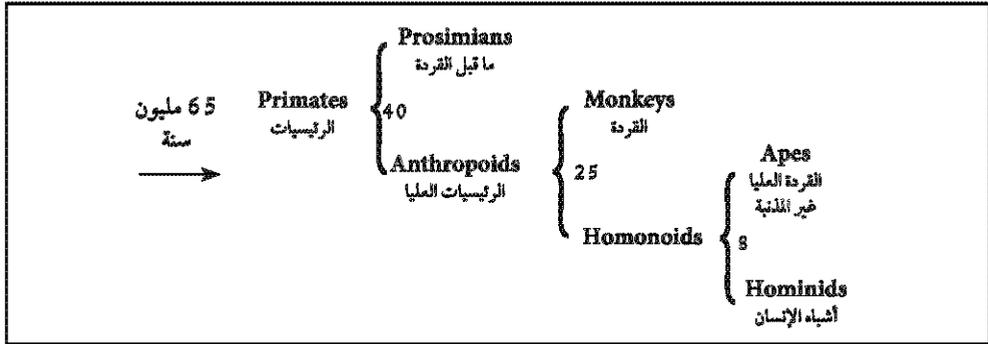
(1) للنظر في تأويل الآيات القرآنية الخاصة بالخلق في ضوء مفهوم التطور الموجه، يمكن الرجوع إلى كتاب «كيف بدأ الخلق» للمؤلف. الناشر: نيويورك للنشر والتوزيع - الطبعة السابعة، 2017، الفصلين الثاني عشر والثالث عشر.

(2) تنقسم الكائنات الحية إلى خمس «ممالك - Kingdom» (المملكة الحيوانية، والنباتية، والفطريات، والبروتستنا، والموثريا). وتنقسم المملكة الحيوانية إلى عدة شُعب - Phylum منها الفقاريات، التي تنقسم إلى خمس «طوائف - Class» (الأسماك - البرمائيات - الزواحف - الطيور - الثدييات). وتنقسم كل طائفة إلى عدة «رتب - Order»، كالرئيسيات والقوارض. وتنقسم كل رتبة إلى «عائلات - Family» منها القطط وأشباه الإنسان - Homioids. وتنقسم كل عائلة إلى «أجناس - Genus» كالجنس البشري - Homo وذوات الأنياب، ويشتمل كل جنس على «أنواع - Species» كالإنسان الحديث والذئاب.

اليدين والقدمين التي زُودت بالأطراف، كما تتميز بأعين أمامية تُكسِّمها من الرؤية المزدوجة المجسمة Binocular Vision، لتعينها على الحركة بين أغصان الأشجار. علاوة على ذلك، فإن الرغبة الجنسية للرئيسيات تستمر طوال العام بخلاف بقية الثدييات التي تقتصر رغبتها على موسم التزاوج.

وقد ظهرت أسلاف رتبة الرئيسيات منذ 65 مليون سنة، متمثلة في إحدى الثدييات ساكنة الأشجار، وكانت كائنًا ليليًا يتغذى على الحشرات.

ومنذ 40 مليون سنة انقسمت رتبة الرئيسيات إلى مجموعتين: إحداها أشبه بالسناجب وتُعرف بـ «ما قبل القردة - Prosimians»، ويمثلها حيوان الليمور. أما المجموعة الأخرى فهي «الرئيسيات العليا - Anthropoids»، وهي كائنات اجتماعية تعيش في مجموعات، وتتميز بطول فترة حضانتها لأطفالها، وبالقدرة على تمييز الألوان - Color Vision، كما ظهر فيها تنوع فصائل الدم (A, B, O). (شكل - 1).



(شكل - 1)

شجرة الرئيسيات

ومنذ 25 مليون سنة، انقسمت الرئيسيات العليا إلى مجموعتين، شكلت إحداها مجموعة القردة Monkeys، وأما الأخرى Homonoids فكانت الفرع الذي انقسم (منذ 8 ملايين سنة) إلى عائلتين «عائلة القردة العليا غير المدببة - Apes» وعائلة «أشبه الإنسان - Hominids».

وتشمل عائلة القردة العليا غير المدببة (Apes) الشمبانزي والغوريلا والأورانج أوتان⁽¹⁾ والجيون.

(1) تعنى أورانج أوتان في لغة شبه جزيرة الملايو: إنسان يسكن البرية، وقد بلغ من شبهه بالبشر أن أهل الملايو يعتقدون أنه يستطيع أن يتكلم لكنه لا يفعل، خوفاً من أن يجبر على العمل.

وقد عُثر على بعض الحفريات التي يمكن أن تكون الجذ الأعلى المشترك للقردة والقردة العليا غير المذنبة وأشباه الإنسان، ومنها الحفزية التي أُطلق عليها اسم «إيجبتوبيثيكس Aegyptopithecus» (القرود المصري غير المذنبة) الذي يرجع إلى حوالي 40 مليون سنة.

وقد أظهرت الدراسات الجينية أن القردة العليا غير المذنبة من أصل آسيوي (أورانج أوتان والجيون) لا تشبه الإنسان وراثياً، أما تلك التي من أصل أفريقي (الشمبانزي والغوريلا) فهي الأقرب إلينا. وقد ظهر أن التشابه بين الجينات العاملة في كل من الشمبانزي والإنسان يصل إلى 98.7%، أما إذا نظرنا إلى الشفرة الوراثية ككل (الجينات العاملة والحاملة)، فيصل التشابه بين الشمبانزي والإنسان إلى حد التطابق (100%)! كما أظهرت هذه الدراسات أن علاقتنا الجينية بالشمبانزي أقرب من علاقته بالغوريلا بل إن علاقتنا بالشمبانزي أقرب من علاقة نوعي الغوريلا (الشرقية والغربية) ببعضهما! كذلك أثبتت الدراسات أن الانفصال الكبير في الرئيسيات لم يكن بين الإنسان والقردة العليا بل كان بين الأورانج أوتان الآسيوي والرئيسيات الأفريقية شاملة الإنسان!

لقد أصبحت مهمة علم «البيولوجيا البشرية - Human Biology» وعلم «الدراسات البشرية: أنثروبولوجيا - Anthropology» ذات شقين: فهما من ناحية، يبرزان تفرد النوع الإنساني بالقياس إلى غيره، ومن ناحية أخرى، يوضحان كيف تطوّرت الخصائص العضوية المميزة للإنسان عن أسلاف لنا من عالم الحيوان. وإذا كنت في الفصل الأول قد تناولت جوانب التفرد الإنساني، فإنني في هذا الفصل سأتناول الشق الثاني.

موجات أشباه الإنسان

في أعقاب ظهور كتاب أصل الأنواع لدارون، نشطت بشكل محموم حركة بعثات استكشافية في مناطق العالم القديم (أفريقيا وآسيا وأوروبا)، محاولة الوصول إلى أصل الإنسان. ويمكن تلخيص نتائج حفريات هذه البعثات، في أن أربع موجات رئيسية متتالية لأشباه الإنسان Hominids قد ظهرت على وجه الأرض، حسب معلوماتنا الحالية. وقد صحب كل موجة حدوث تطور في البناء العضوي، بالمقارنة بالموجة السابقة لها، حتى وصلنا إلى الإنسان الحديث.

فمنذ حوالي 8 ملايين سنة، ظهر في غابات أفريقيا الجميلة الغنية نوع من الرئيسيات يمشي على قدمين، مما سمح له باستعمال يديه في أغراض أخرى. وكان أقدم ما اكتُشف من حفرياتها هياكل لكائنات أطلق عليها اسم «قردة الجنوب»⁽¹⁾ - Australopethicus (تمثل الموجة الأولى من أشباه الإنسان)، وقد عُرف منها ثلاثة أنواع⁽²⁾، اندثر نوعان منها، وتطور من النوع الثالث «A. afarensis» (منذ 5 ملايين سنة) كائن أقرب شبيهاً بالإنسان، وقادر على استعمال يديه بذكاء، لذلك سُمي «الإنسان الصّناع» «هوموهاييليس»⁽³⁾ - Homo habilis (الموجة الثانية من أشباه الإنسان) (شكل - 2).

ومنذ حوالي مليوني عام، تطور عن «الإنسان الصّناع» نوع آخر من الكائنات، قامتة أكثر اعتدالاً، سُمي «الإنسان منتصب القامة» «هومو إريكْتوس»⁽⁴⁾ - Homo erectus (الموجة

(1) قردة الجنوب كائنات تختلف عن الكائنات البشرية إلى حد استبعادهم من «الجنس الإنساني - Homo»، ومع ذلك فإنها تختلف كثيراً عن القردة.

وقد عثر على أول حفرة منها البروفيسور دارت، أستاذ التشريح بجوهانسبرج بجنوب أفريقيا. وفي عام 1977 اكتشف عالم الحفريات الأمريكي رونالد جونسون أشهر نموذج لها، فقد عثر على «لوسي - Luci»، وعمرها 4 ملايين سنة، وقد وُجدت في وادي عفار في إثيوبيا فسُميت Australopithecus afarensis. كما وُجدت من قردة الجنوب عدة حفريات في جنوب وشرق أفريقيا، ولم توجد أية حفريات لها خارج أفريقيا. إنها كلها أشباه للإنسان، تسير منتصب القامة وتستخدم يديها، وهي صغيرة الجسم، يبلغ طول البالغ منها أربعة أقدام فقط ووزنه حوالي 18 كجم. أما حجم أحمائها فيبلغ 500 سم³ (يعادل حجم مخ الغوريلا الحديثة)، ولكن بما أن وزنها كان ثمن وزن الغوريلا، فإن مخ القرد الجنوبي أكبر نسبياً كثيراً من مخ الغوريلا.

وقد استخدم القرد الجنوبي أدوات بسيطة جداً من العظم والخشب، ولم يستخدم الحجر الذي بدأت الكائنات الإنسانية Homo الثالثة في استخدامه.

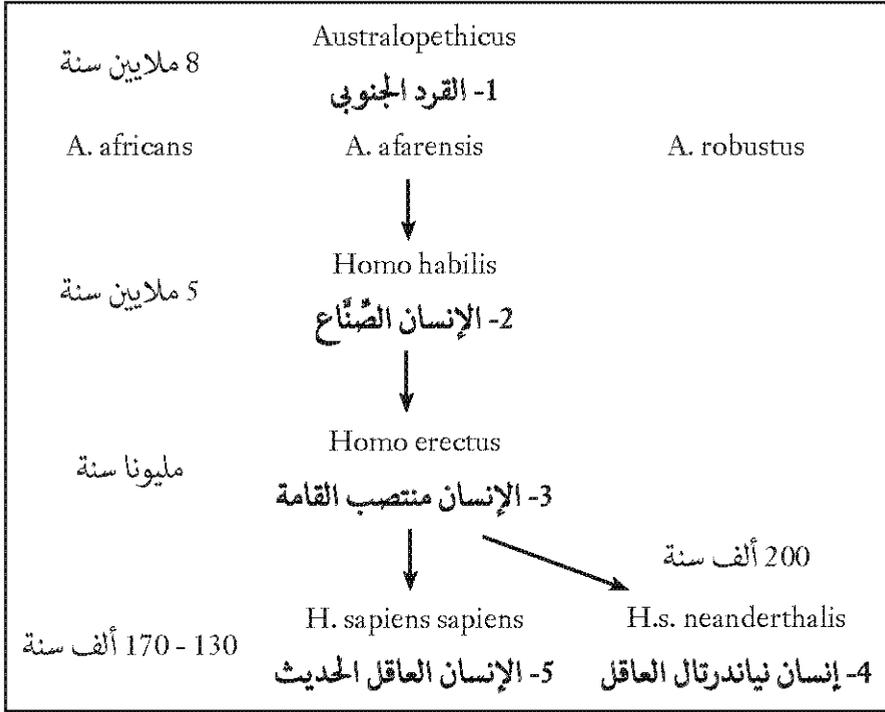
وقد أُعلن في مجلة Science (أكتوبر 2009) عن اكتشاف «أردى - Ardi» في نفس الوادي (عفار)، وهو حفرة يرجع عمرها إلى 4.4 مليون سنة، وربما كانت أكثر شبيهاً بالإنسان، واكتُشف منها ما يزيد على 35 فرداً..

(2) A. afarensis, A. africanus, A. robustus.

(3) في عام 1931، اكتشف عالم الحفريات البريطاني لويس ليكي ثلاث جماجم لهذا الجنس في تنزانيا، ووجد بجوارها أدوات حجرية بدائية، الأرجح أنها من صنعه. وكان يسير على قدميه، و يبلغ طول قامته 1.5 متر، و يبلغ حجم مخه 680 سم³.

(4) كان هومو إريكْتوس يسير منتصب القامة بشكل أفضل من أشباه الإنسان السابقة له، وتصل قامته إلى 1.6 - 1.8 متر. أما تجويف جمجمته فيستوعب مخاً حجمه 900 سم³ تقريباً، أي ما يساوي ثلاثة أضعاف =

الثالثة من أشباه الإنسان)، وهو الذي تكاثر وهاجر إلى كافة أرجاء المعمورة، ووجدت له مئات الحفريات، وأكشفت جماجمه في الصين (إنسان بكين) وإندونيسيا (إنسان جاوه) والجزائر وأوروبا. ويمكن اعتبار هذا الشبيه «الحلقة المفقودة» التي ما زال البعض يُصدِّعنا بغيابها حتى الآن، بالرغم من العثور على تلك المفقودة.



(شكل - 2)

تلخيص مبسط لتاريخ الجنس البشري

وفجأة، ومنذ ما يقرب من 200 ألف سنة، اختفى الإنسان منتصب القامة تمامًا، وحل مكانه نوع بدائي من «الإنسان العاقل» «هومو سايننس - Homo sapiens» في جميع أرجاء الأرض،

= المخ البشري الحديث، ويبلغ ضعف حجم مخ الغوريلا، فكان وسطاً بين مخ القردة العليا ومخ الكائنات الإنسانية. وللجمجمة جبهة منسحبة للوراء وحاجبان بارزان. وتشير الحفريات إلى أن الإنسان منتصب القامة هو أول من استخدم النار وأدخل اللحوم في طعامه منذ نصف مليون سنة، كما استخدم الآلات المشحودة من الحجر.

وقد وُجدت أول هياكله في أوروبا في وادي نياندرتال Neanderthal بألمانيا. وكان هذا الإنسان أقل مهارة وذكاء من الجنس البشري المعاصر، وأُطلق عليه اسم «إنسان نياندرتال⁽¹⁾» «هومو ساينس نياندرتاليس - Homo sapiens neandertalis» (الموجة الرابعة).

استمر إنسان نياندرتال يسكن الأرض حوالي 150 ألف سنة قبل أن يختفي تمامًا منذ حوالي 35 ألف سنة، وربما يرجع اختفاؤه إلى ظهور الإنسان الحديث، وما كان بينهما من صراع وسفك للدماء. فقد عمّر الإنسان الحالي الأرض في الوقت الذي كان فيه إنسان نياندرتال حيًا يرزق، واستمر هذا التداخل الزمني فترة بلغت 10 - 15 ألف سنة، كان خلالها إنسان نياندرتال مصدر إزعاج ورعب شديدين، بقامته القصيرة وملاحه الخشن وقوة بدنه وقسوته في استخدام الآلات الحجرية وكذلك السهام والحراب، لقد كان صيادًا ماهرًا سكن الكهوف والمغارات الجبلية وارتدى الملابس الجلدية.

ثم ظهر الإنسان العاقل الحديث Homo sapiens sapiens

في عام 1868، عثر العمال على عدد من الهياكل العظمية البشرية، تشبه عظامنا تمامًا، في كهف كرو - مانيون بفرنسا، فأطلق عليها اسم «إنسان كرو - مانيون Cro-Magnon»، ويرجع عمر هذه الهياكل إلى حوالي 40 ألف سنة مضت. أما النماذج الأقدم فقد أكتشفت فيما بعد في أثيوبيا وعمرها 130 ألف سنة، وفي فلسطين وعمرها 100 - 120 ألف سنة، إلا أن فرنسا هي التي قدمت الهياكل العظمية الأفضل حفظًا.

(1) في عام 1856، اكتشف بعض العمال داخل كهف بواي نياندرتال بألمانيا أربع عشرة عظمة بشرية منها جمجمة، ثم توالى العثور على هياكل عظمية كاملة في أماكن مختلفة تحمل نفس المواصفات. لقد تميز إنسان نياندرتال برأس كبير الحجم، وتحمل الجمجمة محًا يتراوح حجمه بين 1300 - 1600 سم³، ولكنه أصغر من الأمام، إذ تميل جبهته إلى الوراء، ولما كان الفص الأمامي يحتوي على مناطق المخ التي تقوم بالتفكير المجرد فقد كان قوم نياندرتال أقل ذكاء منا. كما كان بالجمجمة حواف بارزة من العظم فوق العينين لا وجود لها عندنا، وكانت ذقنها مرتدة إلى الخلف وأسنانها بارزة بشكل غير عادي. أما أطرافه فكانت عظامها غليظة وثقيلة وقصيرة نسبيًا مما يوحي بأن قامته كانت أقصر من قامة الإنسان الحالي. وقد أظهر هذا الجنس مقدرة على صنع آلات حجرية وعظمية لا بأس بها، فقد صنع المثاقب والمكاشط والإبر العظمية والرماح والسهام والفئوس والنشواطير، كما عرف دفن الموتى في قبور جُهزت خصيصًا لذلك، وكانوا يضعون مع موتاهم الطعام والأسلحة والزهور.

وقد اختلفت الصفات التشريحية لإنسان كرو- مانيون عن صفات من سبقه من أشباه الإنسان. فقد كان طويل القامة (حوالي 180 سم)، ويبلغ حجم تجويف جمجمته حوالي 1350 سم³، أما جبهته فقد أصبحت رأسية وارتفعت كثيراً فوق مستوى الحاجبين، مما يشير إلى نمو الفصوص الأمامية للمخ (التي تشتمل على مراكز التفكير والسلوك). كما أصبح فكاه السفلي وأسنانه أكثر رقة وأخف وزناً، مع بروز الذقن التي كانت مترجمة للوراء في أشباه الإنسان.

وقد أثبتت دراسات «الدنا - DNA» أن إنسان كرو- مانيون لم ينشأ من النياندرتال، بل إن كليهما نشأ من إنسان أسبق هو «الإنسان منتصب القامة»، الذي تفرع إلى فرعين: أحدهما أدى إلى النياندرتال والثاني إلى الإنسان الكرو- مانيون، فهم إذاً أبناء عمومتنا وليسوا أجدادنا. وقد تميز هذا الإنسان بحس جمالي وفني، ظهر في تشكيله للأدوات الحجرية والعظمية وزخرفتها، وفي إعداد الأماكن للسكنى، بل إنه عرف الرسم بالألوان على جدران المغارات⁽¹⁾. كما كانت له اهتمامات ميتافيزيقية، إذ تحتوى مدافنه على بقايا بشرية موضوعة بشكل جنيني ومزينة بأساور وعقود وأقراط.

وللعلماء أسلوب طريف لتبسيط المسائل المتعلقة بالزمن، فيقومون باختصار عمر الحياة على كوكب الأرض (حوالي 3.7 مليار عام) إلى عام واحد، يمثل كل يوم فيه عشرة ملايين عام تقريباً. وتبعاً لذلك التصور، تكون أشباه الإنسان قد ظهرت صباح اليوم الأخير من هذا العام، وظهر الإنسان منتصب القامة حوالي الساعة التاسعة من مساء نفس اليوم. أما الجنس البشري العاقل (هومو سايننس)، فقد ظهر قبل انقضاء الليلة الأخيرة بنصف ساعة تقريباً، بينما لا يشغل كل ما نعرفه في التاريخ من علماء وكتّاب وملوك وقادة وأحداث إلا الثواني الأخيرة من العام (10 آلاف عام).

(1) أصبحت رسومات ما قبل التاريخ التي عُثر عليها على جدران الكهوف من الفنون المشيرة للاهتمام، ومعظمها لعمليات صيد الإنسان للحيوانات. وقد وُجدت في أماكن كثيرة من العالم، كأوروبا وأفريقيا والبرازيل والهند. وتُعتبر رسومات كهف «ألتاميرا - Altamira» بإسبانيا أول ما تم التوصل إليه عام 1879، وترجع إلى حوالي 18.500 سنة، بينما تعتبر رسومات كهف Chauvet بفرنسا أقدم هذه الرسومات (منذ حوالي 32.000). ويوجد في فرنسا وإسبانيا أكثر من 350 كهفًا بها مثل هذه الرسومات.

أين نشأ الإنسان الحديث

أفريقيا ثم أفريقيا ثم أفريقيا !!

كانت هناك نظريتان حول مكان نشوء الإنسان الحديث؛ ترى الأولى أن كل السلالات الحالية قد انحدرت من «الإنسان منتصب القامة - Homo erectus» في وقت واحد في أماكن متفرقة، حيث غطى التوزيع الجغرافي لهذا الكائن المنطقة ما بين شرق أفريقيا وجنوبها إلى شرق آسيا، وتسمى هذه النظرية «النشأة متعددة المناطق - origin Theory of multiregional».

أما النظرية الثانية فتري أن سلالة «الإنسان منتصب القامة» التي عاشت في شرق أفريقيا قد تطورت هناك إلى الإنسان الحديث، الذي تفرقت عشائره خارج أفريقيا. وكان يُعتقد أن هذه النظرية قد فقدت صلاحيتها، ولكن علم البيولوجيا الجزيئية⁽¹⁾ أثبت أن الإنسان الحديث بتوزيعاته الجغرافية المختلفة انطلق من مكان واحد منذ حوالي 170 ألف سنة، وبذلك كادت القضية أن تحسم لصالح نظرية «انطلاقاً من أفريقيا - Out- of- Africa model».

وتُظهر الأدلة القوية أن إنسان كرو- مانيون بعد أن ظهر في أفريقيا، هاجر منها إلى الشرق الأوسط ثم إلى أوروبا، وعاش في هذه الأماكن مع إنسان نياندرتال لبضعة آلاف من السنين قبل أن يحل محله تماماً (حلول استبدال وليس حلول تطور أو ذوبان) منذ حوالي 34 ألف سنة.

ومنذ 13 ألف سنة هاجر الإنسان الحديث من أوروبا إلى أمريكا الشمالية عن طريق شمال شرق سيبيريا، حيث كان هناك جسر عريض من اليابسة بين سيبيريا وألاسكا قبل أن تذوب المثالج بعد العصر الجليدي. ومن أمريكا الشمالية اتجه الإنسان الحديث جنوباً صوب أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية. كما عبّر بعض أفراد الإنسان الحديث المحيط الهندي من قارة آسيا، ليستقروا في أستراليا.

إذاً، يصبح ما استقر عليه العلم (حتى الآن) أن «القرودة الجنوبيين - Australopithecus» نشأوا ووجدوا في أفريقيا فقط، وأنهم أسلاف النوع الأقدم من «الجنس الإنساني - Homo» وهو «الإنسان الصّناع - Homo habilis»، الذي ظهر في أفريقيا وتطور عنه

(1) تم هذا الإنجاز عن طريق فحص جزيئات الدنا DNA في الميتوكوندريا (والتي نرثها من الأم)، وكذلك فحص جزيئات الدنا في الكروموسوم الذكري Y (والذي نرثه من الأب).

«الإنسان منتصب القامة - Homo erectus». ويُعتبر الأخير سلف إنسان نياندرتال وإنسان كرو - مانيون، اللذين كان أول ظهور لهما في أفريقيا كذلك. لذلك استحدثت أفريقيا الجميلة العظيمة أن يُطلق عليها اسم «مهد الجنس البشري - The Cradle of Humanity».

الفرق بيننا وبينها

من العرض السابق، يتبين أن العلماء قد تمكنوا من تقديم صورة (لا بأس بها، وتحتاج إلى المزيد من البحث لتكتمل) عن تطور الإنسان من سلفه المشترك مع القردة العليا غير المذنبة، مروراً بأشباه الإنسان، حتى وصلنا إلى الإنسان الحديث. ويمكن تلخيص ملامح هذا التطور من الناحية البيولوجية في أربع نقاط رئيسية:

أولاً: الزيادة التدريجية المطردة في سعة تجويف الجمجمة، مما يعكس الزيادة في حجم المخ (حجم مخ الشمبانزي 450 سم³ ومخ الإنسان الحديث 1350 سم³ - حوالي ثلاثة أمثال). مع ملاحظة أن جزءاً كبيراً من هذه الزيادة حدث في الفص الأمامي من المخ (المسئول عن الوظائف المعرفية والسلوكية والشعورية للإنسان). (جدول: 1)

(جدول: 1)

الزيادة التدريجية في حجم مخ أشباه الإنسان والإنسان

حجم المخ	العمر	الطبقة والنوع Genus - species
500 سم ³	8 ملايين سنة	Australopithecus afarensis القرود الجنوبي
680 سم ³	5 ملايين سنة	Homo habilis الإنسان الصَّناع
900 سم ³	مليوناً سنة	Homo erectus الإنسان منتصب القامة
1600 - 1300 سم ³	200 ألف سنة	Homo sapiens neanderthalis الإنسان العاقل النياندرتالي
1350 سم ³ ± 10%	130 ألف سنة	Homo sapiens sapiens الإنسان العاقل الحديث

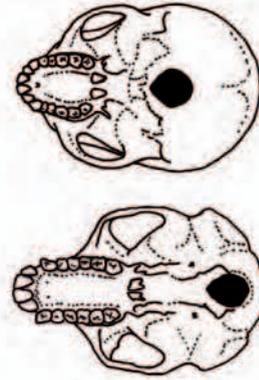
ثانيًا: لما كانت السمة الرئيسية التي تُميّز الجهاز الحركي لـ «أشباه الإنسان - Hominids» هي **السير على القدمين منتصب القامة (القدمانية Bipedalism)**، فقد أصبح **العمود الفقري** ذا قوسين (على شكل S) بدلًا من قوس واحد (على شكل C) في القردة العليا، وبذلك ينتقل وزن الرأس والجسم إلى الحوض الذي أصبح متمسكًا ومائلًا للأمام بطريقة تنقل وزن الجسم إلى **الساقين مباشرة**، وقد اقتضى ذلك أن يكون أسفل عظمة الفخذ متجهًا للداخل (شكل - 3).

وقد تطلب الوضع المنتصب للإنسان أن **يخرج الحبل الشوكي من فتحة أفقية** في منتصف قاع الجمجمة، بينما يخرج من فتحة رأسية قرب مؤخرتها في القردة العليا (شكل - 3، 4).



(شكل - 3)

قارن العمود الفقري ووضع الحوض وعظام الأطراف، في الإنسان والشمبانزي



(شكل - 4)

فتحة العجل الشوكي في جمجمة:
(1) الإنسان (ب) الشمبانزي

أما الإصبع الأكبر من القدم، فقد أصبح موازياً لبقية الأصابع في الإنسان، ليسمح بالسير على القدمين المتجاورين، بدلاً من وجوده متجهًا للداخل في الشمبانزي للقيام بالقبض على الأشجار كاللديين تمامًا. وقد أصبح وزن الطرفين السفليين يمثل 35 % من وزن الجسم بعد أن كان 18 % في الشمبانزي، كما أصبحت أطول من الأطراف العلوية (شكل - 3). ويستهلك السير على قدمين طاقة أقل ويحقق حركة أسرع وأيسر بين أعشاب السافانا، حيث عاشت أشباه الإنسان، كما يقلل من تعرض الجسم لأشعة الشمس الحارقة بمقدار الثلثين.

ثالثًا: تغيرات جوهرية في بنية وأداء «اليد»، غيرت من تعامل الإنسان مع الوجود الخارجي. لذلك يعتبر المتخصصون (في بداية القرن الحادي والعشرين) أن أي نظرية عن الذكاء الإنساني لا بد أن تشمل - بجانب نضج المخ - على الدقة في بنية واستخدام اليد، ويتمشى ذلك مع نظرة الفيلسوف الكبير إيمانويل كانت الذي اعتبر أن اليد هي «مخ الإنسان الخارجي».

ويمكن تلخيص هذه التغيرات في ثلاثة فوارق جوهرية بين يد الإنسان وغيره من الرئيسيات:

1- تحرر اليدين للاستخدام بعد أن انتصب الإنسان واقفًا، وقد صاحب ذلك نقص وزن الطرفين العلويين (أصبح 8 % من وزن الجسم في مقابل 15 % في الشمبانزي).

2- تغير في بنية اليد نفسها، فأصبح للإنسان إبهام أطول وعظام سلاميات أقل تقويًا، مما يحقق القبضة القوية والعمل الدقيق في آن واحد. فبد الإنسان تستطيع أن تحمل الأثقال الكبيرة وأيضًا أن تمرر خيطًا في ثقب إبرة. وإذا كانت القردة العليا قادرة على أن تلمس

السبابة بإصبعها الإبهام، فإنها تعجز عن ثني إبهامها عبر كفها، وهي الحركة التي تمكن الإنسان من القبض على الأشياء بقوة.

3- القدرة على التحكم العصبي الدقيق في عضلات اليد. وإذا كان للغور يلا إبهام قريب الشبه بإبهام الإنسان، فإنها تفتقر إلى هذا التحكم الدقيق، ومن ثم لا تستطيع أن تستعمل الأدوات.

وقد مكّن ذلك الإنسان من استخدام اليدين في العديد من الأغراض:

جمع الغذاء والصيد وحمل أفراد الأسرة. وبذلك نشأ مجتمع «الصيد وجمع الثمار Hunter - Gatherer»، وفيه يقوم الرجال بالصيد وتقوم الإناث بجمع الأغذية النباتية، وهو أسلوب المعيشة الذي استمر ما يزيد على مليوني سنة. وقد أمكن ذلك من تكوين الأسرة وتماسكها⁽¹⁾.

مكّن الذكاء الإنسان من استعمال اليدين في شطف الأحجار وتشكيلها، مما أدى إلى تقدم «تكنولوجيا» الصيد وسلخ الجلود ونزع اللحم عن العظام، وبذا أمكن توفير نوعية من الغذاء أكثر ثراءً وكفاءة من الأغذية النباتية. وقد تطورت هذه المهارات إلى الاستخدام المعاصر لليدين في مختلف المجالات التكنولوجية والفنية.

أستعملت اليدين في الإشارة، وأدى ذلك (مع استعمال عضلات الوجه في التعبير) إلى تحسن المقدرة على التواصل، والتي تطورت مع تشكيل المقاطع الصوتية إلى ظهور اللغة.

رابعاً: إعداد الحنجرة لإنتاج الكلام: بالرغم من أن نشأة اللغة قد حدثت بشكل مفاجئ، دعى حجة اللغة ناعوم تشومسكي لأن يُطلق عليها اصطلاح «الانفجار اللغوي الأعظم»، فلا شك أن هذه النشأة قد احتاجت إعداداً مسبقاً لجهاز إخراج الأصوات في الإنسان. وقد اخترت من بين الدراسات العديدة التي أجريت في هذا الشأن أن أخص لك - قارئى الكريم - مقالاً

(1) وساعد على تكوين الأسرة أيضاً قبول أنثى الإنسان ممارسة الجنس في أى وقت، على عكس غيرها من إناث الثدييات التي لا تقبل الجنس إلا عند التبويض، أحياناً مرة كل ستة أشهر. وقد صاحب ذلك اختلاف أسلوب الممارسة الجنسية عن بقية الثدييات (أصبح وجهها لوجه). وقد سمح تكوين الأسرة بإطالة فترة الحضانه لعدة سنوات، يكتمل خلالها نمو المخ واكتسابه خبرات أكبر. ومع تعدد العوامل التي ساعدت على تكوين الأسرة، فإن أهمها - بلا شك - هو ميول الإنسان الاجتماعية.

نُشر في مجلة «العلوم الأمريكية - Scientific American»، عدد ديسمبر 2001، لمؤلفه عالم البيولوجيا والأنتروبولوجيا الأمريكي أيان تاتيرسل Jan Tattersell، أمين متحف الأنتروبولوجيا في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي بمدينة نيويورك، والمقال بعنوان:

كيف صرنا بشرا How we came to be Human

«عندما نتأمل إنجازات الإنسان الحديث الحضارية وقدراته الإدراكية غير العادية، ندرك مقدار الإعداد والتوجيه والتخطيط في عملية نشوئه، حتى أصبحنا على الصورة التي نحن عليها الآن.

هناك مصطلح مهم ومحوري تم إدخاله حديثاً في علم البيولوجيا التطورية وهو «تكييف مسبق - Exaptation»، والمقصود به «ظهور تغيرات بيولوجية معينة في مرحلة ما، تمهيداً لاستغلالها للقيام بوظائف جديدة في مرحلة لاحقة»⁽¹⁾.

دعنا نتأمل علاقة التكيف المسبق بعنوان المقال: كيف صرنا بشراً.

عندما وصل إنسان كرومانيون (الإنسان الحديث) إلى أوروبا منذ حوالي 40 ألف سنة، مارس سلوكيات وحقق إنجازات ميزته عن جميع أشباه الإنسان التي عاشت على الأرض⁽²⁾. وقد تميزت إنجازاته جميعاً بسمة مهمة، وهي «القدرة على الإدراك والتعبير الرمزي»، فرسومات الحيوانات على جدران الكهوف ترمز إلى الحيوانات ذاتها، ودفن الموتى في وضع الجنين يرمز إلى الكمون قبل بداية حياة أخرى، وهكذا.

ولا شك أن «الإدراك والتميز - Cognition and Symbolism» أهم ما يميز عملياتنا العقلية أيضاً، فنحن «ندرك» العالم من حولنا كوجود مُقسَّم إلى عدد هائل من العناصر المنفصلة التي

(1) المثال الكلاسيكي للتكيف المسبق الذي يُستغل في مرحلة لاحقة هو ظهور ريش الطيور، فوظيفة الريش الأساسية في الوقت الحاضر هي الطيران، لكن الريش ظهر قبل ظهور الطيور بملايين السنين، واستعمل وقتها للمحافظة على حرارة أجسام بعض الديناصورات الصغيرة (الأركيوبتيركس)!! تمهيداً لاستخدامه في وظيفته الأساسية عندما تنشأ الطيور من الزواحف.

(2) من هذه الإنجازات أعمال النحت والنقش والرسم والحلي والموسيقى، والفهم البارع لخواص المواد والزركمة الدقيقة المضنية للأدوات العملية، وكذلك المفاهيم الميتافيزيقية المتمثلة في مراسم دفن الموتى.

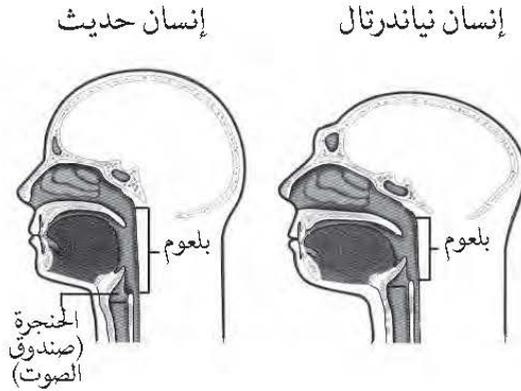
نطلق عليها أسماء خاصة، وهذا هو «الترميز». ومن خلال هذه «الرموز»، يمكننا أن نستحضر جزئيات العالم بتفاصيلها، بل وأن نعيد تشكيلها والتعامل معها من خلال طرح أسئلة مثل: ماذا يحدث لو لم تقع حادثة ما؟، إن القدرة على طرح وإجابة هذا السؤال هي أساس إبداعنا الحضارى الذى نفخر به.

وتُعتبر اللغة أفضل مثال لعمليات الترميز التي يقوم بها العقل البشرى. ولا شك أن لغتنا لم تنشأ من لغة بدائية لبعض الرئيسيات، ومن المؤكد كذلك أنه لا يتم إبداعها من جديد في كل جيل؛ لذا لا سبيل لإنكار وجود غريزة لغوية استقرت في العقل البشرى، ربما منذ بدأ نمو المخ في مرحلة «الإنسان الصَّانِع - Homo habilis» منذ خمسة ملايين عام.

إن الانتقال من أسلوب حياة غير لغوى إلى أسلوب حياة لغوى كالذى نألفه، يمثل قفزة «إدراكية» ضخمة، ولا بد أنها تمت على مراحل متعددة تشبه الطريقة التى يكتسب بها الأطفال لغتهم؛ حيث يبدعون باكتساب المفردات، يلي ذلك تشكيل الجمل ثم بناؤها بناءً صحيحاً بعد بلوغ الأطفال سن العامين تقريباً.

وكما تحتاج وظيفة الكلام إلى مركز دماغى متخصص، فإنها تحتاج إلى «ممر صوتى»⁽¹⁾ - V - cal tract «يستجيب بشكل مناسب لتعليمات الدماغ. فالأصوات الأساسية تتولد عند الأحبال الصوتية ثم تُعدّل بعد ذلك فى البلعوم والممرات الهوائية التى فوقه. وفى إنسان نيناندرتال وفى القرود العليا والأطفال المولودين حديثاً يكون وضع الحنجرة مرتفعاً فى الرقبة، فىكون البلعوم قصيراً، مما يقلل إمكانات تعديل الأصوات المنطوقة. ومع نمو الأطفال، تتحرك الحنجرة لأسفل فيزداد طول البلعوم، مما يسمح بتشكيل الأعضاء اللازمة لتعديل الأصوات المنطوقة، وتزداد معه القدرة على إخراج الكلام الواضح (شكل - 5).

(1) يتكون الممر الصوتى من الحنجرة وما فيها من أحبال صوتية، ثم البلعوم الذى هو الأنبوب الذى يعلو الحنجرة وينفتح على التجويفين القمى والأنفى، ثم اللسان والشفتين والجهاز المصاحب لهما (شكل - 5).



(شكل - 5)

مقارنة بين رأس ورقبة الإنسان الحديث وإنسان نياندرتال، تبين الفرق في بنية الممر الصوتي. إن وضع الحنجرة المنخفض والبلعوم الأطول في الإنسان الحديث، هو الذي مكن من تشكيل الأعضاء اللازمة لإنتاج الكلام الواضح

لقد أظهرت الحفريات أن بعض أشباه الإنسان اكتسبت الممر الصوتي القادر على إحداث الكلام الواضح قبل نحو نصف مليون سنة، أي قبل أن يصبح أسلافنا قادرين على ممارسة اللغة وعلى التكلم⁽¹⁾ (وهذا مثال جيد للتكيف المسبق). ويأتي الآن دور السؤال المخرج للانتخاب الطبيعي العشوائي؛ كيف يتثنى وجود هذا الممر الصوتي البشري لعدة مئات الآلاف من السنين قبل أن ننطق كلماتنا؟

لا شك أنه «التصميم الذكي والتطوير الإلهي».

انتهى كلام عالِم الأنتروبولوجيا، إيان تاتيرسل، حول دور اللغة والتميز في «كيف صرنا بشرًا»، وحول الإعداد المسبق للحنجرة لإنتاج الكلام.

ولكن، هل ما ذكرنا من الفوارق الجسدية بين الإنسان الحديث وبين من سبقه من أشباه الإنسان كافٍ لتفسير ما صرنا عليه من تميز؟ هذا ما سنناقشه الآن:

(1) كيف توصل الباحثون إلى ذلك؟ إن استطلاعة البلعوم لتشكيل الممر الصوتي الفعال تحتاج إلى تنوعات معينة في قاع الجمجمة، وهذه التنوعات تُعد عيوبًا من الناحية التشريحية، ولكنها ظهرت وظلت موجودة لمدة طويلة جدًا قبل أن يُستفاد من مزاياها اللغوية.

التطور الجيني للإنسان

الإنسانية تقابل المزيد من المعلومات

يُعتبر العلمُ الحديث أن الكائنات الحية تشترك مع المادة غير الحية في اشتغالها على المادة والطاقة، ثم تميزت الكائنات الحية بإضافة «المعلومات»، واحتزانها في شريط الدنا DNA الحامل للشفرة الوراثية، ومن ثم فإن الحياة (على المستوى البيولوجي) تقابل المعلومات.

وبالمثل، فإن حقيقة الإنسان (على المستوى البيولوجي)⁽¹⁾ تقابل المزيد والمزيد من المعلومات. فكل خلية من جسد الإنسان الحديث Homo sapiens sapiens مزودة بشريط معلومات وراثي يحتوي على أربعة آلاف مليون معلومة (أو Bit حسب لغة الكمبيوتر - الفيروس يحمل 10000 معلومة) تراكمت فيه بالتطور المُوجَّه خلال ما يقرب من 3.7 مليار سنة، هي عمر الحياة على كوكب الأرض.

ويختلف الإنسان عن أرقى الحيوانات (الشمبانزي) في حوالي 1.3% من شفرته الوراثية العاملة. وينبغي ألا ننظر إلى هذه الاختلافات نظرة كميّة فقط، ففي هذه الـ 1.3% يكمن سر التفوق المعرفي الشاسع للجنس البشري على أرقى الحيوانات، إذ أدى هذا الاختلاف الضئيل إلى نمو ضخّم للقشرة المخية، زوّد المخ البشري بالقدرة على القيام بالعمليات العقلية، نتيجة لإضافة مخزن للمعلومات في خلاياه يتسع لحوالي عشرة تريليونات (واحد على يمينه 13 صفرًا) معلومة إضافية Bit.

ويخرج الإنسان إلى الحياة ومعظم هذا المخزن المعلوماتي في المخ فارغًا، وتتولى الأسرة والبيئة المحيطة والقراءة والتعليم والتدريب إمداده بالمعلومات. ومن هنا، يفقد الإنسان الذي لا يتولى «رعاية» و«تدريب» هذه المخازن ولا يملؤها بالمعلومات المفيدة أغلب مبررات آدميته.

(1) حديثنا هنا عن الفوارق البيولوجية المادية، وليس عما يتميز به الإنسان من ملكات عقلية وروحية. فقد تحدثنا عن هذه الملكات في الفصل الأول.

جينات كانت خاملة وتم تنشيطها في الإنسان

(أ) توجيه نشأة المخ

إذا كان الفرق البيولوجي الأساسي بين الإنسان وبين الرئيسيات (وباقى أعضاء المملكة الحيوانية) يكمن في الكم الهائل من المعلومات الذي اتسعت له قشرتنا المخية، فكيف تم ذلك؟

1- تتابع⁽¹⁾ تلافيف المخ⁽²⁾ HAR1

اكتشفت عالمة الإحصاء الحيوى كاترين بولارد عام 2004، تتابعا (يبلغ طوله 118 زوجا من القواعد النيتروجينية) كان موجودا في الفقاريات بشكل حامل طوال عشرات الملايين من السنين، وظل خاملا في الشمبانزى، لكنه نشط في الإنسان. وقد ثبت عام 2005، أن هذا التتابع (HAR1) له دور حيوى في زيادة تلافيف القشرة المخية للإنسان، مما يزيد من حجمها، وهذا فرق جوهرى بيننا وبين القردة العليا.

وقد ثبت أن هذا التتابع يكون معطوبا (ومشابهًا لمثيله في الشمبانزى) في مرض خلقى يعاينه بعض الأطفال حديثو الولادة، يعرف باسم انعدام التلافيف (الدماغ الأملس - Lissencephaly).

2- جين تكبير المخ ASPN

وهذا الجين مسئول عن زيادة حجم المخ والجمجمة (مع ثلاثة جينات أخرى⁽³⁾)، ويوجد بشكل حامل في مختلف الفقاريات وصولا إلى الشمبانزى، لكن تم تنشيطه في الإنسان. كذلك ثبت أن هذا الجين يكون معطوبا (ومشابهًا لمثيله في الشمبانزى) في الأطفال المصابين بالحالة المرضية المعروفة بصغر الدماغ Microcephaly.

(1) يُطلق اسم «الجين» على مجموعة القواعد النيتروجينية في الدنا التى تشكل وحدة مسؤولة عن التفسير لإنتاج عدد من البروتينات. أما اصطلاح «تتابع» فنستخدمه للدلالة على مجموعة من القواعد النيتروجينية من الدنا المهمل (سابقًا)، والذي ثبت أن له دورًا مهمًا في التحكم في نشاط الجينات وفي وظائف أخرى سوى بناء البروتينات.

(2) HAR1 = Human Accelerated Region 1 = المنطقة البشرية المتسارعة الأولى.

(3) CDK5RAP2 - CENPJ - MCPH1

(ب) جين للغة وآخر للسمع

1- جين اللغة

عرف المجتمع العلمي منذ عام 1990، عائلة (أطلق عليها اسم K.E)، كان نصف أفرادها، على مدى ثلاثة أجيال، يعانون تعثر في الكلام تطلب تدريبهم وهم أطفال على لغة الإشارة⁽¹⁾.

وقد اتضح فيما بعد أن الجين المسئول عن هذه المشكلة (أطلق عليه اسم FOXP2) موجود على الكروموسوم السابع. وقد أصابت هذا الجين طفرة⁽²⁾ أفقدته قدرته على تشكيل العقد العصبية في الدوائر المخية المسئولة عن حركة الشفتين واللسان⁽³⁾.

ويوجد من هذا الجين أشكال خاملة في الشمبانزي والغوريلا والأورانج أوتان والفأر، ثم حدث تنشيط للجين في أشباه الإنسان خلال المائتي ألف سنة الأخيرة، فاكسب القدرة على إحداث التغيرات التي ساعدت على اكتساب البشر ملكة الكلام⁽⁴⁾.

2- جين السمع

يمتلك الإنسان جيناً اسمه «ألفا تكتورين - alpha tectorin» (يقع على الكروموزوم البشري 11)، وهو يُشفر لبناء بروتين غامض بالأذن الداخلية للإنسان، وتؤدي طفرة فيه إلى إحدى صور الصمم.

(1) ظهر من البداية أن هذه حالة وراثية، يعاني المصابون بها قصوراً في إنشاء الجميل وعدم التمكن من فهم بعض قواعد اللغة، وكذلك من عدم القدرة على نطق كلام مفهوم بسبب قصور في القدرة على تحريك الشفة العليا واللسان، بجانب انخفاض معامل الذكاء (المتوسط = 82 نقطة).

(2) غيرت الطفرة قاعدة واحدة فقط من بين الألفين والخمسمائة قاعدة التي يتألف منها الجين.

(3) مجلة Nature، 4 من أكتوبر 2001.

(4) كان التنشيط على هيئة تحوّل طفيف في الجين (لم يحدث في أي ثديي آخر)، أدى إلى تغير في حمض أميني واحد في البروتين الذي يشفر لبنائه. فتحول الحمض الأميني ثريونين في الصبيغ غير البشرية إلى حمض أسباراجين. وقد أدى ذلك إلى أن يطور الإنسان بنية الوجه والفك وأيضا القدرة على التحريك الرهيف للجم والحنجرة، ليتمكن من الكلام.

وهذا الجين البشري يختلف كثيراً عن نظيره في الشمبانزى⁽¹⁾، ويُظَنُّ أن الصورة البشرية قد تطورت مع جينات الكلام لتجعل حاسة السمع في الإنسان أكثر حِدَّةً وأكثر دقة، وهذا أمر ضروري لفهم اللغة المنطوقة المعقدة.

(ج) تتابع تسوية البنان⁽²⁾

في عام 2008، توصل الباحثون في مختبر لورانس بيركلي بالولايات المتحدة إلى تتابع القواعد النيروجينية المسئول عن تشكيل رسغ الإنسان وإبهامه، بحيث يصبح للرسغ مجال أكبر للحركة، ويصبح مجال حركة الإبهام متعامداً على كف اليد. وقد زوّدَ هذا التغير المهم في البنية يد الإنسان بالمهارة اللازمة لصناعة واستخدام الآلات المعقدة.

وقد أُطلق على هذا التتابع اسم HAR2، وقد وجد نظير له في جميع الرئيسيات لكن في هيئة خاملة لا تستطيع القيام بتلك المهمة بكفاءة.

(د) نحو هضم أفضل

إلى جانب التغيرات في البنية الجسدية، وفي حجم المخ وتركيبه ووظائفه، مر أسلافنا بتحولات عديدة أعانتهم على أن يتبنوا نمطاً غذائياً جديداً.

لقد أدى استئناس النار منذ مليون سنة، ثم الثورة الزراعية منذ 10.000 سنة إلى التوصل إلى الأطعمة الغنية بالنشا (كالبطاطس والذرة والأرز). وقد صحب ذلك حدوث تنشيط للجين AMY1 المسئول عن تكوين إنزيم الأميلاز الموجود باللعاب، الذي يُعين على هضم هذه الأطعمة التي استعاض بها الإنسان عن أكل الأعشاب الغنية بالسيليلوز كما تفعل بقية الثدييات.

ومنذ حوالي 9000 سنة بدأ تطوير الجين LCT المسئول عن إنتاج إنزيم اللاكتاز اللازم لهضم حليب الحيوانات المُستأنسة، بعد أن بدأ الإنسان في الاعتماد عليه⁽³⁾.

(1) أحد ثلاثة جينات يختلف فيها الإنسان عن الشمبانزى، من بين 21 جيناً مسئولة عن السمع.

(2) ﴿يَلَىٰ قَدْرَيْنَ عَلَىٰ أَنْ سُويَ بَنَانُهُ﴾ [القيامة: 4].

(3) المثير أن هذا التطوير حدث في قاطني أوروبا وأفريقيا بدرجة أكبر من سكان آسيا وأمريكا اللاتينية، لذلك نجد هؤلاء الآخرين أقل تحملاً للأغذية اللبنية، حتى إنهم قد يصابون بحالة مرضية تعرف باسم عدم تقبل اللاكتوز Lactose Intolerance بسبب امتلاكهم النسخة القديمة من جين أسلاف الرئيسيات.

ثم نطرق أبواب الشيخوخة

يبلغ حجم مخ الطفل الوليد ربع حجم مخ الإنسان البالغ، ثم ينمو المخ ويمر بعدة أطوار إلى أن يكتمل نضجه. ويتقدم العمر بالإنسان ويطرق أبواب الشيخوخة فتؤدى التغيرات الجينية إلى أن يصاب المخ بالضمور وينخفض عدد خلاياه العصبية، فترق قشرته المخية ويتباطأ التواصل بين مراكزه المختلفة، كما ينخفض معدل إفرازه للناقلات العصبية الكيميائية.

ويصحب هذا الانتكاس تدهور في وظائف المخ العقلية والوجدانية والسلوكية والشخصية. وفي الحالات الشديدة (عته الشيخوخة) يستمر التدهور التدريجي حتى يفقد الإنسان ذاكرته وشخصيته تمامًا ويصاب بسلس البول والبراز، ويحيا حياة حيوانية لا يعنى معها شيئًا مما حوله، ويحتاج لمن يقوم بإطعامه والاهتمام بجميع حاجياته⁽¹⁾.

ويعتقد المتخصصون أن عته الشيخوخة يعود ببنية ووظيفة أمخاخ بعض الناس إلى حالة تشبه ما كان عليه أشباه الإنسان (الإنسان معتدل القامة والإنسان الصنّاع). وإن لم يكن لدينا تصور مفصل للوظائف المخية لهذه الأسلاف، فلا صعوبة في ملاحظة وجود هذا التشابه مع أقرب الرئيسيات منا، ألا وهو الشمبانزى!

﴿ وَمَنْ تُعْمِرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس: 68].

(1) في كتاب الطب النفسى المعاصر (تأليف أ.د أحمد عكاشة و أ.د طارق عكاشة) عام 2009، يُقسّم المؤلفان

التغيرات التى تصيب مريض عته الشيخوخة إلى 4 مجموعات:

1- **تغير عقلي**: فيضطرب الفهم ويتشتت الانتباه، ويصعب التركيز وتضمحل الذاكرة، تجاه الأحداث القريبة أولاً ثم تمتد لتشمل كل حياة الفرد، مع اضطراب في تعرّف الزمان والمكان، وتدهور القدرة على الحكم والتقدير السليم.

2- **تغير وجداني**: يظهر عدم التناسب الوجداني، كالضحك والبكاء دون سبب وبطريقة اندفاعية فجائية.

3- **تغير سلوكي**: يسلك المريض سلوكًا غريبًا عن طبيعته، كالاستغراق فى الجنس واستعراض أعضائه التناسلية أمام زوجته وأولاده وأحيانًا أصدقائه، مع التصرف الصياني فى كثير من نواحي نشاطه العام.

4- **تغير فى الشخصية**: يأخذ ذلك طابع الأنانية والسلبية، وكثرة الطلبات وضيق الاهتمامات، والعزلة عن الناس مع حب التملك والسيطرة.

وقفه مع حجم المخ...

ذكرتُ أن إحدى أهم السمات المميزة للإنسان والتي تمثل فارقاً كبيراً بينه وبين أسلافه وباقي الرئيسيات، هي كِبَر حجم المخ البشري، خاصة الفص الأمامي، فهل يرجع عقل الإنسان وإنجازاته الحضارية إلى حجم مخه الكبير؟

إذا جعلنا بدايتنا مع دارون ورفيقه هكسلي⁽¹⁾، نجدهما يؤكدان أن الفوارق بين الإنسان وبقية الرئيسيات إنما هي فوارق كميّة (أي الحجم) وليست كيفية.

أما سير ألفريد والاس⁽²⁾ (نظير دارون) فيرى استحالة إرجاع الملكات العقلية للإنسان إلى التطور وزيادة حجم المخ، ويعتبر أن عقل الإنسان منحة إلهية. ومع تقدم العلم، نجد رالف هولواي (أستاذ الأنتروبولوجيا الكبير بجامعة كولومبيا) يعارض التبسيط المخل لدارون وهكسلي، ويؤكد (في منتصف ستينيات القرن العشرين) أن قدرات الإنسان العقلية المتميزة إنما ترجع إلى إعادة تنظيم بنية المخ ووظائفه، أكثر من مجرد زيادة الحجم. ويدرس تود بريوس Todd Preuss (عالم المخ والأعصاب بالمركز القومي لدراسة الرئيسيات بالولايات المتحدة) قضية حجم المخ بالتفصيل، ويلفت نظرنا إلى:

1- أن الكثير من الثدييات لديها أمخاخ أكبر من مخ الإنسان، فحجم مخ الحوت الأزرق يبلغ خمسة أضعاف حجم مخ الإنسان، فهل هو أذكى منا خمس مرات؟! بالتأكيد لا.

2- وإذا نظرنا إلى وزن المخ مقارنة بوزن الجسم، وهو ما يُعرف بـ «وزن المخ النسبي» وجدنا أن وزن مخ الإنسان يمثل قرابة 2% من وزن جسمه، ويمثل في الحوت الأزرق قرابة 0.01%، بينما يبلغ وزن مخ فأر الجيب Pocket Mouse 10% من وزن جسمه!، أي خمسة أضعاف الوزن النسبي لمخ الإنسان. لا شك أن هذه المقارنة تقلل من شأن حجم المخ بالنسبة للقدرات العقلية.

(1) توماس هكسلي Thomas Huxley: عالم البيولوجيا البريطاني، أكثر المتعصبين والمدافعين عن الدارونية، حتى لُقّب بـ «كلب دارون البولودوج Darwin's Bulldog».

(2) للمزيد عن ألفريد والاس ارجع إلى الفصل الأول.

3- أن حجم المخ النسبي للإنسان يزيد على بقية الرئيسيات. فوزن ذكر الشمبانزى يبلغ 35-70 كجم بينما يبلغ حجم مخه 400 سم³ (حوالي 8 سم³/كجم) في حين يبلغ حجم مخ الإنسان البالغ (70 كجم) قرابة 1350 سم³ (حوالي 20 سم³/كجم).

4- يبلغ وزن مخ إنسان نياندرتال (الذي يقاربنا وزناً) 1520 سم³، مقارنة بحجم أمخاخنا البالغ 1350 سم³. أى أن حجم مخ الإنسان الحديث يقل بمقدار 170 سم³، بالرغم من تفوقنا في القدرات العقلية، وهذا دليل آخر على أن حجم المخ ليس كل القضية.

مع القشرة المخية والفص الجبهي

لا يمكن الحديث عن أهمية حجم المخ بالنسبة للقدرات العقلية دون الحديث عن القشرة المخية. ويتفق جميع المتخصصين على أن هذه القشرة تتميز في الرئيسيات بزيادة الحجم. فهي تبلغ في القنفذ 16% من حجم المخ، وتبلغ في قرد الجالاجو الصغير 46% وفي الشمبانزى 76% وفي الإنسان 85%. تطرح هذه الإحصائيات سؤالاً مهماً؛ إذا كان حجم القشرة المخية النسبي في الإنسان والرئيسيات متقارباً، فإلى أي أجزاء المخ يرجع التفوق العقلي للإنسان؟

تُرجع الكثير من الدراسات الحديثة تفوق الإنسان العقلي إلى تغير في «بنية القشرة المخية» في الجزء الأمامي من الفص الجبهي Pre-Frontal Cortex. فهذه القشرة تتكون في الثدييات (السابقة للرئيسيات) من منطقتين مسئولتين عن الجانب الانفعالي للكائن⁽¹⁾، بينما تزيد في الرئيسيات بمنطقة ثالثة تُعرف بالمنطقة العاشرة⁽²⁾. ولهذه المنطقة دور هام في اتخاذ القرار، وتثبيط الاستجابات اللاإرادية تجاه بعض المواقف. وتبلغ المساحة النسبية لهذه المنطقة في مخ الإنسان ضعف مساحتها في مخ الشمبانزى.

كذلك تتميز هذه المنطقة الأمامية في مخ الإنسان عن باقي أجزاء الفص الجبهي بوجود طبقة إضافية من الخلايا العصبية، تعرف باسم الطبقة الحبيبية الداخلية الرابعة Internal Granular Layer IV، وينسب المتخصصون إلى هذه الطبقة العديد من قدرات الإنسان العقلية.

(1) The Orbital Prefrontal Region: مسؤولة عن الاستجابة للمثيرات الخارجية.

The Anterior Cingulate Cortex: مسؤولة عن الاستجابة للحالة الداخلية.

(2) Lateral Prefrontal Cortex

لماذا كبرت أمخاخ أسلافنا، بينما بقى مخ الشمبانزى على حجمه؟

قدم بروس لان Bruce Lahn وفريقه البحثى فى شيكاغو، مع بداية القرن الحادى والعشرين تفسيراً مقبولاً لهذا السؤال شديد الأهمية. فقد وجدوا أن نسبة الجينات المسؤولة عن تشكيل المخ فى الإنسان أعلى من الشمبانزى. ولاحظوا كذلك أن عدد «الجينات الفاعلة» فى مخ الإنسان يبلغ 3-4 أضعاف عددها فى مخ الشمبانزى، بينما يتساوى عدد تلك الجينات فى باقى أعضاء الجسم.

واستنتج الباحثون من ذلك، أن جينات تشكيل المخ فى الفرع التطورى الذى جمع الإنسان والشمبانزى قد حدث فيها طفرات أكثر فى بعض أفرادها، أدت إلى ظهور أشباه الإنسان، بينما حدثت فى أفراد آخرين طفرات أقل، أدت إلى ظهور الشمبانزى.

سبحان الله...

أبهذا القدر الضئيل من التعديلات الجينية اختلف الإنسان عن أقرب الثدييات الرئيسية إليه! فساد كوكب الأرض، بينما أوشكت بقية الرئيسيات على الانقراض.

لا... إن الأمر لا يقف عند الجينات، إنها النفخة الإلهية التى ميزت الإنسان حتى سجدت له الملائكة والكون كله.

القارئ الكريم ...

أظهر العديد من الدراسات التطورية أن الفرع الخاص بالإنسان قد انفصل عن بقية الرئيسيات فى أفريقيا فى فترة التغيرات البيئية الجذرية، التى أدت إلى تآكل الغابات واستبدال الكثير من مناطقها بأعشاب السافانا، التى كانت وسطاً مناسباً للانتقال من حياة الكائنات التى تقفز على الأشجار إلى الكائنات التى تسير على قدمين.

وقد عاشت أشباه الإنسان فى بيئة السافانا، على الصيد وأكل الأعشاب والثمار، وكانت فرائس سهلة لحيوانات السافانا المفترسة كالنمور والسباع، ومع ذلك حدثت المعجزة، واستطاعت أشباه الإنسان البقاء والتطور بدلاً من أن تنقرض؛ كيف؟

لقد أعان على ذلك أيضاً حدوث قفزة عقلية، أمدّت أشباه الإنسان بالكاء المطلوب لمواجهة تلك

التحديات. وقد استخدمت تلك الكائنات ذكاءها لتحقيق «ثورة معرفية تقنية» تمثلت في صناعة الأسلحة وعمل المصايد وغيرها من الابتكارات، كما عاش أفرادها في جماعات ليحتمي بعضهم ببعض. وقد أعان على ذلك ما ذكرناه من تعديلات جسدية أساسية أوصلتنا إلى بنيتنا النهائية.

وما كان لهذه التعديلات أن توثق ثمارها لولا أن تعلم الإنسان الحديث الترميز في التفكير والترميز في التعبير (ملكة الكلام). وقد تم الإعداد تشريحيًا لنشأة اللغة قبل أن يبدأ أسلافنا في الكلام بفترة طويلة. كما أُعطيَ الإنسان المقدرة الفطرية على تكوين الجمل الصحيحة وبنفس البنية اللغوية، وإن اختلفت اللغات. هذا، وقد مكن «الترميز» الإنسان من أن يصير مخلوقًا مفكرًا بانيًا للحضارة وناقلاً فكره للأجيال التالية.

والمدهش أن تحقيق كل هذه التعديلات الجسدية تم من خلال تعديلات بسيطة في شفرتنا الوراثية.

وينبغي أن نؤكد هنا أن ما ذكرناه من مفاهيم حول نشأة الإنسان قابل للتعديل في التفاصيل، بناء على ما يكتشفه المتخصصون من حفريات. لكن لا شك أن الخطوط العريضة التي يبنى عليها هذا السيناريو ستظل كما هي، كما أثبت علم البيولوجيا الجزيئية.

وأختم الفصل بقول (يفرض نفسه على إلحاح) لإيان تاتيرسل جاء في مقال (كيف صرنا بشرًا) الذي عرضناه، يقول تاتيرسل ما نصه:

«إن تعلم الإنسان الترميز في التفكير والتعبير (اللغة) يعني أنه قد أطلق على كل شيء اسمًا، يرمز به إليه».

ألا يدرك ذلك بأن الله عزَّ وجلَّ عندما أعدنا للخلافة في الأرض منحنا ملكة باهى بها ملائكته، فقال:

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١].

وسبحان القائل: ﴿ الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الْإِنْسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ④ ﴾

[الرحمن]

الباب الثاني

أنا...

في العلوم الإنسانية



الفصل السادس

أنا فى المرأة

- تأملات فلسفية

- حوارى مع الفيلسوف كارل بوبر - الفلسفة المادية والخلق

- تهاوى المادية
- بين الانبثاق والخلق خطوة
- انهيار الاختزال والحتمية
- الماديون يعارضون الانبثاق
- كيف تنتج المادة الحياة والعقل

- مع كارل بوبر، وتسلسل النظرة إلى الذات الإنسانية

- ثنائية الروح والجسم قبل التاريخ
- جولة حضارية وفلسفية

- الفلسفة اليونانية

- الروح/العقل موجود مادي
- التصور الأخلاقي للروح/العقل
- إضفاء الصبغة اللامادية على الروح/العقل

- الفلسفة الحديثة

- مبدأ التفاعل لديكارت
- منهج ديكارت لمعرفة الإنسان لذاته وللإله
- مذهب التوازى لسبينوزا
- المذهب المادي بعد الديكارتيين
- مذهب لينتز: التناسق سابق التقدير
- الداروينية

- الذات الإنسانية فى الفكر الشرقى القديم

- الديانة الهندوسية
- البوذية

- الإنسان المصرى القديم والذات الإنسانية

- ثنائية الوجود وثنائية الذات الإنسانية
- عالم الموتي، بين طبقية ومساواة
- الأخلاق الفاضلة، الطريق إلى الخلود

- القارئ الكريم

كيف نظر الإنسان إلى نفسه؟...

كيف نظر العقل إلى الإنسان؟...

كيف نظرت الفلسفة إلى الذات الإنسانية؟...

سؤال واحد، يطرح نفسه بأشكال مختلفة... ولا يتكامل حديث «أنا» عن «نفسها» دون الإجابة عنه.

منذ فجر التاريخ، ومنذ أن وعى الإنسان بنفسه، نشطت في عقله ملكة فطرية مِلْحَة تدفعه للبحث عن أصل كل شيء.. فبدأ بالتفكير في علة ما حوله؛ من أين تأتي الشمس في الصباح، وأين تذهب بعد غروبها؟ مصدر وسبب المطر، ثورة البراكين، برودة الطقس، اشتعال النار، نمو النبات... ثم انتقل الإنسان إلى التفكير في ذاته؛ ما الذى أصاب ريفي فخرَّ صريعاً دون أن يمسه مكروه؟ وهل تلاشى تمامًا أم رحل إلى مكان آخر؟ ما الفرق بين طفل وُلِدَ حيًّا وآخر وُلِدَ ميتًا؟ لماذا أحب هذا الشخص وأكره الآخر؟ كيف توصل أخى إلى حل تلك المعضلة في الوقت الذى عجزت فيه أنا؟...

للإجابة عن تلك التساؤلات حول الطبيعة، وحول الذات الإنسانية، صاغ الإنسان البدائي الأساطير، التى صارت تُعرف بـ «فلسفة ما قبل الفلسفة». وعندما تقدم الإنسان في المعرفة، وصار أكثر قدرة على التمييز بين المعقول واللامعقول وأكثر قدرة على التفكير المنهجي، بزغت الفلسفة، التى يمكن اعتبارها أعظم إنجازات العقل البشرى، ولمْ لا؟.. أليست هى «حب الحكمة»...

تأملات فلسفية

يقول الفيلسوف الكبير إيمانويل كانت⁽¹⁾ في كتابه الأشهر «نقد العقل الخالص»: إن

(1) إيمانويل كانت Immanuel Kant، ولد في ألمانيا (1724 - 1804)، من أكثر فلاسفة نظرية المعرفة تأثيراً في عصر التنوير، يتبع طريقاً وسطاً بين التجريبية والعقلانية. دعا إلى تصحيح المفاهيم الميتافيزيقية. =

شيئين يملآن عقله بالإعجاب والإجلال المتجددين والمتزايدين على الدوام: السموات المرصعة بالنجوم من فوقه، والقانون الأخلاقي في داخله. فالسما ترمز عنده إلى معرفتنا عن العالم الفيزيائي ومكاننا في هذا العالم. والأخلاق تتصل بالذات غير المرئية: بالشخصية الإنسانية خاصة حرية الاختيار. الشيء الأول يلغى أهمية الإنسان إذا نظرنا إليه كجزء من العالم الفيزيائي. والثاني يُعَلِّي قيمته إلى غير حد بوصفه كائنًا ذكيًا ومسئولًا.

قد يفهم البعض من نظرة « كانت » المترددة بين نجوم السماء وبين الذات الإنسانية، أن على الإنسان أن يتبنى إما النظرة المادية وإما النظرة الإنسانية. ولكنني في الحقيقة أرى بين النظرتين علاقة تبادلية، فنظرة الإنسان لـ « ذاته » تتوقف إلى حد بعيد على نظرته لـ « ما حوله ». فإذا كانت نظرة الإنسان للوجود - في مرحلة من مراحل الحضارة الإنسانية أو في مجتمع من مجتمعاتها - تتسم بالمادية، فستكون تلك أيضًا نظرتة لذاته. أما إذا كان يرى الوجود كجذع شجرة تمتد جذورها في عالم الغيب وتتفرع أغصانها وتورق وتُزهر في سماء الأبدية، فلا شك أنه سيرى نفسه كقطرة ماء تسري في عروق تلك الشجرة، في رحلة تمتد من الجذور، عبر الجذع، إلى الأغصان والأوراق والأزهار.

معنى ذلك، أن الإنسان عندما ينظر في المرآة فإنه يرى ذاته كجزء من صورة تتناسب مع الوجود المحيط به، فلا يمكن - مثلًا - أن ترى نفسك في المرآة كطائر يرفرف بجناحيه داخل تربة من الطين الأسود، فالطائر يرفرف في سماء مفتوحة. والعكس أيضًا صحيح، فديدان الأرض لا تستطيع أن تزحف في الفضاء.

وبينما أنا غارق في تأملاتي، بحثت عمن يمكن أن يستعرض لنا نظرة الإنسان إلى نفسه، من من الفلاسفة (فرسان هذا المضمار) الأقدر على ذلك؟ المشكلة، أن الفلسفة (كما أراها) أشبه ببستان للزهور، ألقى بعض مرتاديه حول أسواره شيئًا من النفايات. لذلك، كما يمكن أن تقع عينك على إحدى زهور البستان، فيمكن أيضًا أن تصطدم بأى من النفايات! نقلت حيرتي إلى أستاذتي الدكتورة يمى طريف الخولي⁽¹⁾ فدلنتني من فورها على أستاذها الفيلسوف الكبير كارل

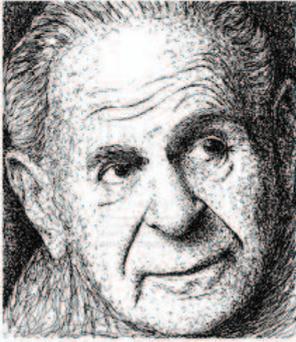
=وقد أثار كانت في مجرى الفكر البشرى كله، فكان معظم الفلاسفة المحترفين في أوروبا الغربية، وإنجلترا، وأمريكا - على مدى مائة سنة بعد وفاته - من تلاميذه.

(1) د. يمى طريف الخولي: أستاذة فلسفة العلوم، ورئيسة قسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة. لها العديد من المؤلفات والكتب المترجمة في هذا المجال.

بوبر، عملاق فلسفة العلوم في القرن العشرين، وقالت؛ هو من تبحت عنه، بل وأهدتني بعضاً من كتبه.



حواري مع الفيلسوف كارل بوبر الفلسفة المادية والخلق



(شكل - 1)

كارل بوبر Carl Popper
فيلسوف العلوم الأشهر
في القرن العشرين

قصدت إلى كارل بوبر Carl Popper⁽¹⁾ (شكل - 1)، وجلست بين يديه صامتاً مطرقاً رأسي، فأنا ممن يعرفون أقدار الرجال. قطع العملاق الصمت، وبدد بنظراته الدافئة ما بداخلي من رهبة وتردد انعكسا على وجهي، وسألني: ما الذي يشغلك ويحرك؟ أجبته، سيدي: إذا كان الشاغل الأكبر للفلسفة منذ أشرقت شمسها هو: الخالق والمخلوق، فأنا يشغلني هذه الأيام قضية: كيف نظر الإنسان إلى ذاته.

ابتسم كارل بوبر ابتسامة هادئة تجمع بين سكينه الواثقين واندھاش الفلاسفة العظماء وطفولتهم، وقال: يا عزيزي، إن قضيتك تلك تتغلغل في نسيج الفلسفة كله، فمن أين تريد أن تبدأ؟ قلت لبوبر: فلنجعل بدايتنا: مدى تأثير نظرة الإنسان إلى الوجود في نظره لذاته.

تهاوي المادية

قال بوبر: لا شك أن هناك تأثيراً قوياً متبادلاً بين نظرة الإنسان للوجود ونظرته لذاته، حتى إنك عندما تتابع الكتابات الفلسفية المادية قد لا تلاحظ أن الفيلسوف قد انتقل من الحديث

(1) كارل بوبر Carl Popper: ولد في فيينا عام 1902 ومات في لندن عام 1994. من أعظم فلاسفة العلوم في القرن العشرين. والداه يهوديان، ويصف نفسه بأنه لا أدري Agnostic. درس الرياضيات والتاريخ وعلم النفس والفيزياء والموسيقى. حصل عام 1965 على لقب سير، وعمل بين عامي 1949-1969 أستاذاً للمنطق والمناهج العلمية بجامعة لندن.

عن مادية الوجود إلى الحديث عن مادية الإنسان، والعكس أيضًا صحيح. ومع تبدل نظرة الإنسان الفلسفية والعلمية إلى المادة تبدلت نظره إلى ذاته الإنسانية، لذلك إذا أردنا أن ندرك تطور النظرة الثانية علينا أن نفهم تطور الأولى.

كان الفيلسوف الكبير بيرتراند رسل⁽¹⁾ يعتبر أن العلم والفلسفة وُلداً على يد اليونانيين القدماء،⁽²⁾ وأنه يمكن التأريخ لذلك الميلاد بالفيلسوف اليوناني طاليس في القرن السادس قبل الميلاد. ومنذ ذلك الحين... ولقرون عديدة... ظل العلم والفلسفة ينظران إلى «المادة» باعتبارها شيئاً ما يشغل مكاناً، وأنها جوهر substance (موجود حقيقي مستقل تُفسَّر به الأشياء) وأنها نهائية ultimate (لا يحتاج وجودها إلى تفسير)، وأنها ماهوية Essential (تحمل داخلها خواصها التي تميزها). إذاً، تنظر الفلسفة المادية التقليدية والفيزياء الكلاسيكية إلى «المادة» باعتبارها جسمًا جوهريًا، يشغل مكاناً، غير قابل (ولا يحتاج) لتفسير آخر، بل تُفسَّر به الأشياء. و«يتفاعل» هذا الجسم مع الأجسام الأخرى بـ «الدفع Push»، الذي هو فعلٌ بالتلامس. واعتبر الفلاسفة أن الدفع «علة» حركة الأجسام، ونظروا إلى «العالم» باعتباره آلة هائلة تتكون من مجموعة من الأجسام يدفع بعضها بعضًا كتروس الساعة.

ثم جاءت الفيزياء الحديثة لتبطل تدريجيًا هذا الرأي عن المادة، بعد أن طرحت نظريات تفسيرية لوجودها وخواصها⁽³⁾، ومن ثم لم تعد المادة جوهراً نهائياً. أي أن الفيزياء التي أقنعنا من قبل بمفهوم المادية هي التي قدمت أهم الأدلة ضد المادية الكلاسيكية.

لقد كان أول صدع في المادية الكلاسيكية هو تصور إسحق نيوتن عن الجاذبية، فهي قوة «جذب» وليست قوة «دفع»، وهي فعل عن بُعد (لا فعل بالتلامس). وقد تطلب الخروج من

(1) برتراند رسل Bertrand Russell، وُلد في ويلز بالمملكة المتحدة (1872 - 1970). فيلسوف ورجل منطوق عظيم، من علماء الرياضيات، ومن المناهضين للحروب وللتوسع الاستعماري، حصل على جائزة نوبل في الأدب عام 1950.

(2) تتبنى رأياً مخالفاً لذلك، طرحه فلاسفة آخرون، وهو أن حضارات أقدم كثيراً من الحضارة اليونانية حققت إنجازات فلسفية وعلمية كبيرة. بل إن الكثيرين من فلاسفة اليونان تعلموا سنوات عديدة في مصر، وأشهر هؤلاء أفلاطون وفيثاغورث.

(3) مثال ذلك تقديم التفسير لحالات المادة (الصلابة - السيولة - الغازية)، وللمرونة، والتماسك، وشغل المكان،...

هذا المأزق أن أضاف الفلاسفة «الشدة الجاذبي» - كما سبق أن أضافوا الدفع - كأحد صفات المادة الأساسية التي لا يلزمها تفسير آخر.

كذلك كان أحد أهم الأحداث في مسار تجاوز المادية لذاتها هو اكتشاف طومسون للإلكترون، والذي وصفه بأنه شظية دقيقة من الذرة. بذلك أصبحت الذرة مكونة من جسيمات وأصبحت قابلة للانقسام، على عكس التعريف المادي الكلاسيكي الذي يرى أنها وحدة مصمتة غير قابلة للانقسام.

كذلك فسرت النظرية الكهربائية للذرة (النواة موجبة الشحنة والإلكترونات سالبة الشحنة) صفتي الدفع والشدة بين الأجسام، بذلك لم تعد هاتان الصفتان خاصيتين جوهريتين للمادة لا تفسير لهما، بل أصبحتا قابلتين للتفسير.

كما أظهرت الفيزياء الحديثة إمكانية تحول المادة إلى طاقة (في الانفجارات الذرية) وتحول الطاقة إلى مادة، مما ينفي عن المادة صفة الثبات وعدم القابلية للتغير، أي أن المادة (طاقة معبأة) قابلة للتحويل وليست جوهراً لأنها غير ثابتة، بل يمكن أن تُدمَّر ويمكن أن تُخلَّق.

بذلك استُبدل الرأي القائل بأن الحيوانات والبشر آلات بالمعنى الميكانيكي (روبوتات) بتصوير الحيوانات والبشر كآلات كهروكيميائية.

لقد أصبحت الفيزياء الحديثة تهيب بنا أن نتخلى عن مفهوم الكيان المادي الدائم الثابت عبر الزمن، وأن نعتبر أن ليس هناك جوهر حامل لخصائص الشيء وصفاته. إن العالم اليوم لا يبدو كتجمع من الأشياء، بل كمجموعة متفاعلة من الأحداث Events أو العمليات Processes. وكما تتعامل الفيزياء مع الجسيمات، فقد صارت تتعامل أيضاً مع شتى صور النشاط الإشعاعي، بل وأيضاً مع طاقة الفراغ الهائلة غير المتميزة⁽¹⁾. معنى ذلك أن الفيزياء تحتم علينا عند تفسير بنية المادة أن نتخلى عن المادية.

(1) عبر عن ذلك ج. أ. هويلر (عام 1973) بقوله: إن فيزياء الجسيمات تحت الذرية ليست هي نقطة البداية الصحيحة للفيزياء، لكن نقطة البداية هي فيزياء الفراغ Vacuum Physics. وقد شرحنا طاقة الفراغ في الفصل الرابع على لسان عالم الفيزياء ويليام تيلر.

انهيار الاختزال والحتمية

قلت لكارل بوبر مستفسراً؛ من المناهج التي يستخدمها العلماء لدراسة الظواهر المختلفة، «المنهج الاختزالي - Reductionism»، الذي يقوم بتحليل أية ظاهرة أو قضية إلى عناصرها الأولية، ثم دراسة كل عنصر على حدة، واعتبار أن خواص الكل هي مجموع خواص عناصره. لذلك قام البيولوجيون عند دراسة «ظاهرة الحياة» بتحليل الكائن الحي إلى عناصره: أجهزة الجسم ثم الأنسجة ثم الخلايا ثم الجزيئات العضوية ثم الذرات ثم المكوّنات تحت الذرية (البروتونات - النيوترونات - الإلكترونات)، وقالوا لنا لير نعثر إلا على مادة، ليس هناك إلا المادة لتفسير الحياة. لقد فات هؤلاء أن ظاهرة الحياة التي يدرسونها بمنهجهم الاختزالي تكون قد اختلفت تمامًا عندما قاموا بعملية الاختزال والتحليل، وأنهم قد حولوا البيولوجيا إلى فيزياء.

أجابني بوبر: لا شك أن هذا المثال يبين خطأ ما يؤمن به أصحاب المنهج الاختزالي، من أن الأشياء (أو الأحداث أو الظواهر) في كل مستوى يمكن أن تُفسّر في ضوء ما يحدث في المستوى الأدنى، أي أن المستوى الأدنى يمكنه أن يُفسّر المستوى الأعلى، وهو الفهم الذي أطلقوا عليه اصطلاح «العِلِّيَّة الصاعدة»⁽¹⁾ upward causation. ففي المثال السابق، لا شك أن المستوى الأدنى (خصائص جزيئات المادة وذراتها) لا تفسر ظاهرة الحياة. ومن الأمثلة الأخرى لـ (تَعْطُّل العِلِّيَّة الصاعدة) أن الحيوان قد يبقى حيّاً بعد موت الكثير من خلاياه أو بتر طرف من أطرافه.

وفي مقابل العِلِّيَّة الصاعدة، يمكن للمستويات الأعلى أن تؤثر (في بعض الحالات) في المستويات الأدنى، ونطلق على هذا التأثير اصطلاح «العِلِّيَّة الهابطة Downward Causation»، ومثالها تلك الآلات التي نصممها بحيث إذا زادت السرعة (المستوى الأعلى) يتم تقليل الوقود (المستوى الأدنى) حتى تعود السرعة لمعدلها السابق. وتمارس العِلِّيَّة الهابطة دوراً هاماً في الوظائف المختلفة في جسم الإنسان: فإذا زاد معدل السكر في الدم مثلاً (المستوى الأعلى) أدى ذلك إلى انخفاض إفراز هورمون الإنسولين (المستوى الأدنى) حتى يعود السكر إلى مستواه الطبيعي، وتسمى هذه العملية بالتغذية المرتجعة feed back.

(1) اصطلاح «العِلِّيَّة» مشتق عن «علة»، وعلة الشيء بمعنى سببه.

إن تعطل مفهومى العلية الصاعدة والعلية الهابطة (في كثير من الأحيان) يدعم رفضى لاعتبار أن عالمنا الفيزيائى عالم حتمى يسير فى اتجاه واحد تفرضه البنية الذرية. بل إن الفيزياء الحديثة (فيزياء الكم) أثبتت من خلال مفهوم الاحتمية أن هناك (على المستوى تحت الذرى) احتمالات مختلفة لوقوع الحدث الفيزيائى الواحد، مما قضى على مفهوم الحتمية المادية تماماً⁽¹⁾.

كيف تُنتج المادةُ الحياةَ والعقل

أعجبني كثيراً طرح كارل بوبر لتطور النظرة إلى المادة، وسألته: كيف فسّر الماديون ظهور الحياة والوعى والعقل من المادة بصفاتهما، سواء الصفات الكلاسيكية أو الصفات التى انكشفت للفيزياء الحديثة؟

أجابنى بوبر: ترى المدرسة المادية (بدءاً من الفلسفة اليونانية القديمة⁽²⁾ حتى الماديين المعاصرين⁽³⁾) أنه لا توجد إلا ذرات تتحرك فى فضاء فارغ، وأن التغيرات الوحيدة الممكنة هى حركة الذرات واصطدامها ببعضها واتحادها، بما فى ذلك الذرات بالغة الدقة التى تُكوّن أرواحنا، ومن ثم فإن التغيير الحقيقى مستحيل ووهم. معنى ذلك أنه لا يوجد إلا كيانات مادية، وأن ليس هناك أحداث أو خبرات عقلية لا مادية، أى أنه لا جديد تحت الشمس.

وكمحاولة لتفسير ظاهرتى الحياة والعقل فى إطار منظور تفاعل الذرات المادى، طرح بعض الفلاسفة الماديين منظوراً شديداً الغرابة، لا يفسر المشكلة، بل يزيد لها غموضاً، أطلقوا عليه اسم «مذهب شمول النفس Panpsychism». ويرى هذا المنظور أن المادة متأصل فى بنيتها خاصة تشبه الحياة والعقل، وأن هذه الخاصية تظل كامنة فى المادة غير الحية، ثم تُفعل لتصبح حياةً فى الكائنات الحية ثم وعياً وعقلاً مع تطور الحيوانات العليا. لقد أراح هذا المنظور الماديين، إذ فسر لهم انبثاق القدرات العقلية فى المادة دون الاحتياج لتدخل من خارجها، وهو

(1) ذكرنا فى الفصل الرابع أن هناك شواهد فيزيائية تشير إلى أن مفهوم الاحتمية - الخاص بالجسيمات تحت الذرية - يوجد أيضاً على مستوى الذرات والجزيئات! ومن ثم لم تعد هناك حاجة لتوعين من الفيزياء، بل إن فيزياء الكم تحكم العالم الكبير كما تحكم العالم تحت الذرى!

(2) يمثل الفلسفة اليونانية المادية الفيلسوف العظيم بارمنيدس، منذ 2500 سنة، واقطفى أثره مؤسساً النظرية الذرية ليوسيبوس وديمقريطس.

(3) مثل الفيلسوف كواين.

ما عبر عنه الماديون بأن «كوننا مغلق»، مكتفٍ بذاته، ليس في حاجة لتدخلات خارجية، أي أنه ليس كونًا مفتوحًا للتدخلات الإلهية والميتافيزيقية.

قلت لبوبر: ألا ترى - سيدي - أن الماديين الذين قالوا بشمول النفس، ليؤكدوا أن عالمنا مغلق مكتفٍ بما فيه، فإنهم قد أضفوا على المادة صفات عاقلة واعية حساسة فوق ما يحلم به المتدينون؟ أجبني بوبر: نعم، لذلك أرى أن مذهب شمول النفس ليس مذهبًا ماديًا، بل هو أقرب إلى المذهب الروحي الراض للمادية.

بين الانبثاق والخلق خطوة

قلت لبوبر: إنني (كبيولوجي) أرى أن الحياة والوعي والعقل ظواهر جديدة تمامًا على الكون المادي (أي خطأ مفهوم أن لا جديد تحت الشمس)، وأن المادية تعجز عن تفسير تلك الظواهر، وأرى أنها تحتاج إلى إيجاد جديد تمامًا، وهو ما يسميه المتدينون «الخلق» من قبل خالق يتمتع بهذه الصفات، ولا يكون هذا الموجد إلا إلهًا. أي أن كوننا ليس كونًا ماديًا مغلقًا، بل هو «كون مفتوح للتدخلات الإلهية». فكيف يرى الفلاسفة هذا الطرح العلمي الديني؟

ابتسم كارل بوبر وقال: يمكننا أن نحلل تلك القضية إلى مستويين، المستوى الأول هو: هل تُعتبر ظواهر الحياة والوعي والعقل إيجادًا جديدًا تمامًا، أم أنها بعض النواتج التي كان يمكن التنبؤ بها من دراسة خواص المادة (العلية الصاعدة)؟ وإذا أقررنا أن هذه الظواهر جديدة، عندها يأتي السؤال التالي: كيف جَدَّت هذه الظواهر؟

واستطرد محدثي الكبير محيياً على تساؤليه بثقة كبيرة: أشهدك أنني أذهب إلى أن الحياة، والخبرات الواعية للحيوانات، ثم العقل والوعي الإنساني بالذات وبالوجود، وما ترتب على ذلك من إبداع، هي ظواهر جديدة كل الجدة، وهو ما أضفه بأن تطور العالم كان «تطورًا انبثاقياً Emergent»، بل إنني استخدم أيضًا اصطلاح المتدينين بأنه - كان «تطورًا خالقًا Creative».

أخرج كارل بوبر من أحد أدراج مكتبته نسخة من كتابه (الذات ودماغها)⁽¹⁾ وفتح أحد

(1) كتاب The Self and its Brain تأليف كارل بوبر وسير جون إكلز عالِم بيولوجيا الأعصاب الكبير والحائز على جائزة نوبل. وترجم الكتاب إلى اللغة العربية د. عادل مصطفى تحت اسم «الذات ودماغها»، وقامت بنشره دار رؤية - عام 2012. وعن هذا الكتاب أخذنا ما نطرح هنا من أفكار على لسان كارل بوبر.

صفحاته وأشار إلى مخطط بها، وقال: إنني أنظر إلى العالم باعتباره متكون من ثلاثة مستويات، تمثل مراحل تطور الكون.

العالم - 3	(6) الأعمال الفنية والعلمية (شاملة التكنولوجيا)
(عالم منتجات العقل الإنساني)	(5) اللغة البشرية، نظريات النفس والموت
العالم - 2	(4) الوعي الإنساني بالذات وبالموت
(عالم الخبرات الذاتية)	(3) الإحساس (الوعي الحيواني)
العالم - 1	(2) الكائنات العضوية الحية
(عالم الأشياء الفيزيائية)	(1) العناصر الأثقل، السوائل والبلورات (صفر) الهيدروجين والهيليوم

في هذا المخطط أرمز إلى عالم الأشياء الفيزيائية (العالم المادي) بـ «العالم - 1»، وأرمز إلى عالم الخبرات الذاتية (عالم النفس) بـ «العالم - 2»، كما أرمز إلى عالم منتجات العقل الإنساني بـ «العالم - 3». ويشمل هذا العالم الأخير الشعر والفن والموسيقى والتكنولوجيا والنظريات العلمية والأساطير وحكايا الأشباح... إنني أرى أن العالم - 3 إبداع جديد تمامًا، إنه انبثاق أو خلق.

وينبغي ملاحظة أن الكثير من موضوعات (العالم - 3) كالأفكار، تتجسد في (العالم - 1) كلوحات فنية وسيارات وطائرات. كما أن بعضها يوجد بشكل مُشَفَّر، مثل التسجيلات وكل ما يُكتب باللغات المختلفة (التي هي شفرات). والبعض الآخر من موضوعات (العالم - 3) قد يوجد كموضوعات للعالم - 2، ومثال ذلك ما يرتبط بإبداعاتنا الفكرية من مشاعر وأحاسيس. كذلك يمكن أن يحوى العالم - 3 موضوعات افتراضية لا يمكن تجسيدها ولا تشفيرها، مثال ذلك ما يُعرف بالأرقام الافتراضية التي ليس لها وجود حقيقي مثل $\sqrt{-4}$ ⁽¹⁾!

طلبت من الفيلسوف الكبير أن يزيدني إيضاحًا لفكرة التطور الخالق أو التطور الانبثاقى. فقال: لا أنكر غموض الفكرة، لكنني سأحاول إلقاء المزيد من الضوء عليها.

في بداية التكوين، لم يكن في الوجود إلا عنصرى الهيدروجين والهيليوم. في ذلك الوقت لم

(1) الجذر التربيعي للرقم (4) هو (2)، أما الرقم (-4) فليس له جذر تربيعي حقيقي.

يكن بمقدور عالمٍ مُلمٍ بقوانين الطبيعة السارية آنذاك (لو افترضنا وجوده) أن يتنبأ بخصائص العناصر الأثقل التي لم تظهر بعد، ولا مجرد أن يتنبأ بظهورها، كما لم يكن بمقدوره التنبؤ بخصائص أو حتى بظهور أبسط الجزيئات المركبة كالماء.

بعد ذلك ظهرت في الكون بشكل متتالٍ مركبات وظواهر جديدة تمامًا، منها تكوّن المركبات العضوية البسيطة من العناصر الكيميائية، ثم تكوّن مركبات الحياة (جزيئات البروتين والـ RNA والـ DNA وأيضًا السكريات والدهون)، ثم ظهرت الكائنات وحيدة الخلية، ثم الكائنات عديدة الخلايا، ثم حدث الانتقال من التكاثر اللاجنسي إلى التكاثر الجنسي، ثم الترقى في سلم التطور البيولوجي ونشأة الأصناف الأكثر تعقيدًا من الكائنات النباتية والحيوانية، ثم ظهور الوعي البدائي في الحيوانات العليا، وأخيرًا نشأة الإنسان الحديث بما يتمتع به من وعي خاص وقدرات عقلية متميزة. إنى أرى أن ظهور كل هذه المركبات والظواهر كان أمرًا غير متوقع على الإطلاق، ويستحيل التنبؤ به من خلال معرفة تركيب وتفاعل جسيمات المادة، لقد كانت كل خطوة انبثاقًا جديدًا Emergent phenomenon، بالمقارنة بالخطوة السابقة لها.

سألت كارل بوبر: ما هو المقياس الذي تحتكم إليه لتعتبر أن وجودًا ما عمل إبداعى انبثاقى؟

أجابني بوبر: عندما أقول إن للعالم قدرة إبداعية فإن الدليل على ذلك أننا «كنا غير قابلين للتنبؤ بنا قبل ظهورنا»، بل كان يتعذر التنبؤ بانبثاق الحياة على الأرض من إدراك خصائص مكونات المادة الحية. ومن ثم فإن (عدم القابلية للتنبؤ) هو المقياس الذي نحكم به على الانبثاق والإبداع الجديد:

سألت كارل بوبر: أنت تتفق مع المتدينين في أنه لا يمكن التنبؤ بظواهر الحياة والوعي والعقل من خلال معرفة بنية العالم المادى، واعتبرتها ظواهر جديدة تمامًا، وبالتالي طرحت فكرة «التطور الخالق أو التطور الانبثاقى» وهي مجرد وصف لما حدث دون تفسير كيفية حدوثه، فلماذا لا تقبل التفسير البسيط والمباشر الذى يؤمن به المتدينون، وهو أن الإله قد خلق هذه العوالم الجديدة تمامًا على عالم المادة؟

ابتسم كارل بوبر لملاحظتى وقال: إن الفلسفة عندما تسعى لتفسير الظواهر فقد ألزمت

نفسها أن يكون ذلك في إطار ما تحت أيدينا من أسباب، وألا تلجأ إلى الأسباب الميتافيزيقية إلا إذا أعجزها تمامًا العثور على تفسيرات من عوالمنا الملموسة، أي أن الفلسفة تجتهد في أن تظل نظرتها إلى الكون باعتباره كونًا مغلقًا، وليس كونًا مفتوحًا للتدخلات الخارجة عنه، كما ذكرنا من قبل. بالطبع لم يقنعني هذا التبرير لكارل بوبر، فأساطين الفلسفة اليونانية الثلاثة (سقراط - أفلاطون - أرسطو)، وكذلك الديكارتيون كانوا من المؤمنين بوجود الإله وبدوره في عملية الخلق.

الماديون يعارضون الانبثاق

سألت كارل بوبر: إن فكرة الانبثاق قريبة جدًا من فكرة الخلق الإلهي، فهل تقبلها الماديون أم عارضوها؟ فأجابني قائلاً: لقد واجهت الفكرة اعتراضات كثيرة من قبل الماديين.

إن فكرة التطور «الخالق Creative» أو «الانبثاقى Emergent» بسيطة للغاية، وإن تكن آلياتها غامضة. إنها تعني أن في مسار نشأة الكون وتطوره تتكون أشياء أو تقع أحداث جديدة، غير قابلة للتنبؤ، وذات خواص غير متوقعة. وقد ركز المعارضون على رفض فكرة (استحالة التنبؤ)، وينتمى هؤلاء لثلاث مدارس رئيسية:

الأولى: المدرسة الحتمية، وقد جسّد لابلاس⁽¹⁾ رأيها بقوله: «ينبغي أن نعتبر الحالة الحاضرة للعالم نتيجة لحالته السابقة، وسبب لحالته التالية. فإذا افترضنا إمكانية معرفة جميع القوى التي تُسبب الطبيعة، وحالة جميع العناصر المكوّنة لها في لحظة معينة، فبالنسبة لعقولنا لن يكون هناك أي شيء غير معلوم علم اليقين، وسيكون المستقبل، كالماضي، حاضرًا أمام عيوننا».

وأنا أرى أن لابلاس لا يستطيع أن يقدم أي دليل علمي على افتراضه هذا.

الثانية: المذهب الذري، الذي يرى أن الاختلاف بين الموجودات يرجع إلى الاختلاف في تنظيم الذرات وتفاعلها، ومن ثم يمكن التنبؤ بمولد وخصائص أي منظومة محتمة من خلال معرفة خصائص الذرات. وقد بينا (في مثال الحياة) خطأ هذا المذهب، ويمكن إدراك هذا الخطأ

(1) لابلاس Pierre Simon Laplace: 1749 - 1827م، الرياضيات والفلسفة الفرنسي - كان معاصرًا لنايليون بونابرت.

أيضاً من تأمل الاختلافات الجوهرية بين أفكار وسلوك شخص وآخر، بالرغم من تطابق البنية والوظائف الذرية للدماغ.

الثالثة: مذهب شمول النفس، الذي طرحناه منذ قليل، وطرحنا اعتراضاتنا عليه.

وأضاف بوبر قائلاً؛ إن ما ذكرنا منذ قليل من تهاوى المادية وانهيار مفهومي الاختزال والاحتمية، يُفوّض نقد الماديين لفكرة التطور الانبثاقى، وبذلك يثبت أن ظواهر عديدة أهمها الحياة والوعى والعقل الإنسانى، وكذلك اللغة الإنسانية، ظواهر انبثاقية جديدة تماماً على عالم المادة.

هزرت رأسى وابتسمت معجباً بطرح كارل بوبر الذى اتسم بالوضوح والتبسيط لقضايا فلسفية وفيزيائية شديدة التعقيد، وهذا دائماً شأن الكبار الذين يلمون جيداً بأبعاد تخصصاتهم. ثم انتقلنا إلى المرحلة التالية من الحوار:

مع كارل بوبر

وتسلسل النظرة إلى الذات الإنسانية

قلت لكارل بوبر: سيدي، لقد أكدت ارتباط نظرة العقل للذات الإنسانية بنظرته للمادة، ثم أثبتت تهاوى النظرة المادية الجذرية للوجود وللإنسان. لقد آن الأوان لمناقشة تطور نظرة العقل البشرى للذات الإنسانية.

ثنائية الروح والجسم قبل التاريخ

قال بوبر: لتكن بدايتنا موغلة في القدم بقدر ما يسمح العلم؛ نستطيع أن نرصد إدراك إنسان نياندرتال⁽¹⁾، الذى ظهر منذ قرابة 200.000 سنة، لثنائية الروح - الجسم. فعادات الدفن التى مارسها هؤلاء تؤكد أنهم كانوا يعتقدون فى البعث بعد الموت، إذ كانوا يدفنون مع موتاهم

(1) إنسان نياندرتال Homo - neandertalis، آخر أنواع الجنس البشرى ظهوراً قبل الإنسان العاقل الحديث، وقد عاصره أسلافنا لفترة 30.000 سنة قبل أن ينقرض منذ قرابة 35.000 سنة.

عطايا يرونها مفيدة في الرحلة إلى عالم آخر. فقد عُثِرَ في كهف شانيدار في شمال العراق على مقبرة دُفِنَ فيها أحدهم على فراش من أغصان مزين بالزهور، كما عُثِرَ على هيكلين عظيمين لإنسانين مُعَوَّقَيْن، يظهر من رقدتهما أن جماعتهما كانت تُحتملها وتساعدهما في هذه الحياة وتعدهما للحياة الأخرى.

كما تظهر ثنائية الروح والجسم المادى وتفاعلهما في الديانات البدائية والأساطير والمعتقدات السحرية. ففي الشامانية⁽¹⁾ نجد أن روح الشامان يمكن أن تترك الجسم وتذهب في رحلة، وعند الأسكيمو تذهب الروح إلى القمر بينما يبقى الجسم في نوم عميق أو غيبوبة حياً دون طعام.

وأضاف بوبر: وفي أقدم مصادرنا الأدبية وبخاصة عند هوميروس⁽²⁾، نجد ثنائية الجسم والعقل واضحة. فنجد الكثير من الألفاظ التي تشير إلى الروح/العقل/الوعي، كالشعور والإدراك والتفكير. وهناك أوصاف للروح بأنها طيف أو شبح ذو شكل مماثل للجسم، ولكنها أرق منه وأقل مادية، فهي كالبخار أو النفس⁽³⁾، أي أنها أشبه بالهواء.

ويمكن أن نعتبر أن الأساطير والملاحم والمعتقدات الدينية البدائية هي محاولات لتفسير العالم الذي نعيش فيه، ولتفسير تفاعلنا مع هذا العالم. ومنها ندرك أن الإنسان البدائي قد وَعَى ثنائية الروح/العقل - الجسم عندما نظر إلى نفسه، وأنه اعتبر أن الروح هي محرك الجسم وسر حياته.

(1) الشامانية Shamanism: ظاهرة دينية نشأت في التبت، وموجودة في أنقى أشكالها في سيبيريا وآسيا الوسطى وعند السكان الأصليين بالأمريكتين. والشامان سحرة دينيون يقولون إن لديهم القدرة على السيطرة على الأرواح ومعالجة المرضى والتواصل مع الموقى، ويؤمنون بوجود عالمٍ محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف.

(2) هوميروس Homer: شاعر ملحمى إغريقي، يُعتقد أنه مؤلف ملحمتي الإلياذة والأوديسة اللتين تدوران حول حروب طروادة - ربما عاش عام 850 ق. م. تقريباً.

(3) جاء ذكر الروح/العقل عند هوميروس بثلاثة ألفاظ: تايموس Thymos: قوام الروح - الروح البخارى - المادة النشطة الفعالة الشاعرة المفكرة المرتبطة بالدم، وهي تتركنا حين يُعمى علينا أو مع النفس الأخير قبل الموت.

سايك Psyche: وهي البقية التعسة التي تبقى عندما نموت، أو الشبح غير المفكر الذي يبقى بعد الموت.
نوس nous - nous: وهي تقابل العقل mind أو الفهم understanding

جولة حضارية وفلسفية

قلت لكارل بوبر، أراك - سيدي - في حديثك عن نظرة العقل للذات الإنسانية، قد انتقلت من الحديث عن الحضارات البدائية إلى الحديث عن هوميروس، وأغفلت مفاهيم حضارات راسخة سادت قبل هوميروس وقبل الفلسفة اليونانية، كالحضارة المصرية القديمة، وحضارات بين النهرين، وحضارات الهند والصين وأمريكا الجنوبية، فلماذا؟

أجابني بوبر: تُعتبر نظرة الإنسان لذاته في الحضارات التي ذكرتها مزيج من نظرة العقل والفكر الديني، أما أكمل محاولات النظر العقلي إلى الذات الإنسانية بمعزل عن البيانات فنراها في الفلسفة اليونانية، التي يمكن الرجوع بميلادها إلى القرن السادس قبل الميلاد على يدى طاليس⁽¹⁾ اليوناني. فهذه الفلسفة هي الأولى في التاريخ التي تفرغ فيها أصحاب العقول الحكيمة للتأمل في الوجود وفي النفس البشرية، حيث تركت طبقة المجتمع لفئات أخرى المهام العسكرية والحرفية والخدمية.

ويمكن التأريخ لنهاية الفلسفة اليونانية بشيوع الفكر المسيحي في القرن السادس الميلادي، فمنذ ذلك الحين اصطبغت الفلسفة بالفكر الديني ولم تعد عملاً عقلياً مجرداً، وظلت على هذا الحال حتى نهاية العصور الوسطى في أوروبا، قبل أن تعود - مرة أخرى - عملاً وعقلياً مجرداً في ظل الفلسفة الحديثة على يدى رينيه ديكارت.

ولا شك أنك تعلم أن الفلسفة الإسلامية لم تكن عملاً عقلياً رائداً، كما لم تكن طرحاً للقضايا الوجودية بالمنظور الإسلامي الصحيح، لكنها كانت محاولة للتوفيق بين الفلسفة اليونانية - خاصة مفاهيم أرسطو وأفلوطين⁽²⁾ - وبين المنظور الإسلامي، ويرجع ذلك إلى تأثير

(1) طاليس Thales (624 - 546 ق. م.).

(2) فيلسوف الإسكندرية أفلوطين (204 - 269 م)، يُعرف منهجه بالأفلاطونية الحديثة التي مزج فيها بين فلسفة أفلاطون اليوناني وبين الفكر المسيحي.

وعندما تصدى أفلوطين لكيفية الخلق، تردى في هوة من الأوهام حين رأى أن الله لا يمكن أن يخلق العالم مباشرة، لأنه لو خلقه مباشرة لاضطر للاتصال به، وهو منزه عن ذلك، كما أن الواحد لا يصدر عنه العالم المتعدد! وللخروج من هذا المأزق طرح نظرية الفيض وتعدد الوسائط؛ فهو يرى أن تفكير الله في نفسه فاض عنه (العقل)، ومن العقل انبثقت (نفس العالم)، ومنها انبثقت (النفس البشرية) كما انبثقت

- بل انبهار - الفلاسفة المسلمين بهاتين القمتين. أما الفلسفة الإسلامية الخالصة فتجدها في علم الكلام ورسائل إخوان الصفا.

وأضاف بوبر: لذلك فسأكتفى في طرحي لنظرة العقل (الفلسفة) للذات الإنسانية على اجتهادات الفلاسفة اليونانيين ثم الفلاسفة المعاصرين، وذلك لقصر الطرح على إنجاز العقل البشري المجرد في هذا المجال. ولا شك أن الإحاطة بهاتين المرحلتين أمر مستحيل، لذلك سيقصر طرحي على بعض النماذج التي تمثل محطات هامة في مسار الفكر الإنساني.

وافقت كارل بوبر على رؤيته لمسار الفلسفة، وقلت له: فلنبدأ بالفلسفة اليونانية التي تعتبرها الرائدة في النظر العقلي الصِّرف للذات الإنسانية.

الفلسفة اليونانية⁽¹⁾

بدأ كارل بوبر عرضه لنظرة الفلسفة اليونانية للذات الإنسانية بقوله: لقد تميزت نظرة الإنسان لذاته في معظم مراحل الفلسفة اليونانية بإدراك ثنائية الروح/العقل - الجسم، وإن كانت هذه الثنائية قد مرت - في تفاصيلها - بثلاث مراحل:

(الطبيعة). بذلك تصبح نفس العالم وسيط بين العقل وبين العالم المحسوس. لقد أخذ كبار الفلاسفة الإسلاميين الكثير عن أفلوطين، فتجد فلسفاتهم مليئة بهذه الترهات (الفيض - الانبثاق - العقول - النفوس -...) التي ليس لها أي أصل إسلامي. ويطلق الفلاسفة الإسلاميين على الأفلاطونية الحديثة اسم مذهب (الإسكندرانيين) ويسمون أفلوطين (الشيخ اليوناني).

(1) الفلسفة اليونانية: يؤرخ المؤرخون لبداية الفلسفة اليونانية بالفيلسوف طاليس في القرن السادس قبل الميلاد، ويحددون نهايتها بالقرن السادس ميلادياً حين انتشرت المسيحية. ويمكن تقسيم هذه الفترة إلى أربع مراحل.

المرحلة الأولى: ما قبل سقراط. وكانت الفلسفة فيها تعنى بدراسة الكون الطبيعي الملموس. المرحلة الثانية: عصر السوفسطائيين وسقراط. وفيه بدأ السوفسطائيون تعليم الناس التغلب على الخصم بالحق وبالباطل. وكانوا يُحَقِّرون العقل ويعتمدون على براهين الحواس، ثم وصل بهم الأمر إلى إنكار المحسوسات ثم إنكار الإنسان لنفسه! وقام سقراط بمحاربة هذه المدرسة والقضاء عليها وإعادة الاحترام للعقل.

المرحلة الثالثة: مرحلة أفلاطون وأرسطو. نشط فيها الاهتمام بالغيبيات والإلهيات وعالم ما وراء الطبيعة.

المرحلة الأولى: الروح / العقل موجود مادي

بالرغم من أن فلاسفة هذه المرحلة نظروا إلى الروح نظرة مادية، إلا أنهم وضعوها في منزلة استثنائية داخل العالم المادي. فهذا أنكسيمينيس⁽¹⁾ يرى أن الروح نَفَس بخاري، وأنها هواء يدخل من «الكل» إلى داخل الحيوانات عندما يتنفسون، وكلمة «الكل» تعني أن العالم مشرب بخامة روحية واحدة. وقد اختارت هذه المدرسة أن تكون الروح جزءاً من الهواء؛ لأنه الأرهف والأخف بين الأشكال المعروفة للمادة.

المرحلة الرابعة: مرحلة ما بعد أرسطو. وفيها انتقلت الفلسفة من البحث في الغيبات إلى البحث العملي في الإنسان (أخلاقه - سعادته - سلوكه). ونشطت في هذه المرحلة مدرستان: الرواقيون، وكانوا من الشكاكين في مسائل الألوهية، والشكاكين في قدرة العقل على التمييز بين الحق والباطل. والأيقوريون، الذين أعادوا الاهتمام إلى الإدراك الحسي، واعتبروا السعادة هي الحصول على اللذة الحسية. ويُنظر إلى المرحلة الرابعة كمرحلة تدهور واضمحلال.

ويمثل أرسطو وأفلاطون وسقراط الثالث الفيلسوف الأعظم في الفلسفة اليونانية القديمة، وكان الثلاثة من الفلاسفة المؤهبة، وكان أرسطو تلميذاً لأفلاطون، الذي كان تلميذاً لسقراط.

أرسطو (384: Aristotle؛ م. - 322 ق. م). من أعظم الفلاسفة عبر العصور، يلقب بالمعلم الأول، وكان أستاذاً للإسكندر الأكبر. إبداعاته في المجالات العلمية (الفيزياء - الفلك - البيولوجيا) تنافس إبداعاته في العلوم الإنسانية (الفلسفة - السياسة - الأخلاق - المسرح - الموسيقى - الإلهيات). وهو واضع أسس القياس في علم المنطق؛ لذلك عُرف بالقياس الأرسطي. وقد تبنت الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى الأفكار العلمية لأرسطو، ووضعتها في منزلة مقدسة لا يجوز للعلماء الخروج عنها، وكان ذلك سبب ما واجه جانليو وغيره من العلماء من اضطهاد كَنَسِي.

أفلاطون Plato؛ (248 ق. م - 347 ق. م). فيلسوف اليونان العظيم المهتم بالأخلاق والمثل العليا، وقد عبر عما ينبغي أن تكون عليه حياة الناس في المدينة الفاضلة في كتابه «الجمهورية». وهو مؤسس أكاديمية أثينا، التي تُعتبر أول مدرسة للدراسات العليا في الغرب القديم. وله اهتمام بالرياضيات. كما دَوَّن محاوراته مع أستاذه سقراط بأسلوب نقل إلينا أفكارهما، ولولا هذه المحاورات ما نقل التاريخ لنا شيئاً عن سقراط.

سقراط Socrates؛ (470 ق. م - 399 ق. م). صاحب إضافة عظيمة للفلسفة، فبعد أن كانت تقتصر على دراسة الأصل المادي للكون والحياة (التراب - الماء - الهواء - النار)، أضاف إليها الاهتمام بالأخلاق والقيم العليا. وأعاد الاحترام للعقل. وله اهتمام كبير بالمنطق وأصول المعرفة. سجل له التاريخ موقفه الشهير عندما حكمت عليه محكمة أثينا بالإعدام عن طريق تجرع السم، بتهمة إفساد عقول الشباب! فرفض الهرب من السجن بالرغم من الفرصة المتاحة، حتى يعطى الشباب القدوة في الامتثال لنظام الدولة، التي قيل أن يحيا تحت قانونها، ولأنه يؤمن بأن الفيلسوف لا ينبغي أن يخاف من الموت الذي يمرر الروح من سجن الجسد.

(1) أنكسيمينيس Anaximenes؛ (585 - 528 ق. م).

وكان أنكساجوراس⁽¹⁾ يميز تمييزًا حادًا بين العقل وبين جميع الجواهر المادية الأخرى. فهو يرى أن العقل هو أكثر الأشياء تخلخلًا وأكثرها نقاءً، وأن لديه المعرفة المتصلة بكل شيء، بل هو المتحكم في كل ذى حياة.

وقد فسر هيراقليطس⁽²⁾ (أبعد الماديين عن النظرة الميكانيكية) الجواهر المادية جميعًا (وبخاصة الروح) باعتبارها «عمليات مادية (Material processes)»؛ فجميع الأشياء المادية في تدفق دائم يحكمه القانون (Logos). وقد نظر إلى الروح باعتبارها نازًا، فالنار هي الأفضل والأقوى والأنقى والأرهم.

وتمسكت مدرسة المفكرين الطبيعيين بمادية وثنائية الروح/العقل-الجسد. ويُعتبر الكميون⁽³⁾ أول مفكر إغريقي يحدد موضع الإحساس والفكر (الذين يميز بينهما تمييزًا حادًا) في الدماغ⁽⁴⁾. كما تحدث عن مسارات تؤدي من أعضاء الحس إلى الدماغ.

وتُعتبر رسالة أبقراط الطبية⁽⁵⁾ بعنوان «عن المرض المقدس» On the Sacred disease هي الأهم في هذا الشأن، ففيها يؤكد أن الدماغ تخبر الأعضاء كيف تعمل، وأن الدماغ هو الرسول إلى الوعي⁽⁶⁾، وأن الهواء (الروح) هو الذي يمنح الدماغ الذكاء.

النظرية الذرية

ولا يمكن دراسة النظرية المادية لثنائية الروح/العقل-الجسد دون الاستماع لكلمة ديمقريطس⁽⁷⁾

(1) أنكساجوراس Anaxagoras: (500 - 428 ق. م.).

(2) هيراقليطس Heraclitus: (535 - 475 ق. م.).

(3) الكميون من كروتون Alcmaeon of croton: فيلسوف وطبيب يوناني (510 - ؟ ق. م.).

(4) تمسكت بهذا المفهوم مدرستي أبقراط وأفلاطون، أما أرسطو فقد تمسك بمفهوم أقدم، فاعتبر أن القلب هو جهاز الحس العام، وبالتالي هو مركز الوعي، واعتبر أن دور الدماغ هو تبريد الدم باستخدام الهواء (مثل رادياتور السيارة).

(5) أبقراط Hippocrates: الطبيب اليوناني العظيم (460 - 370 ق. م.). يلقب بأبي الأطباء لتأسيسه علوم الطب على المنهج العلمي. ووضع قسم أبقراط الذي يؤديه الأطباء حتى الآن عند ممارستهم للمهنة، مؤكداً التزامهم الأخلاقي تجاه المرضى وزملائهم ومهنتهم.

(6) الكلمة المقابلة للوعي هي sunesis، وتُترجم نفس الكلمة أيضًا إلى الذكاء والحكمة والفهم.

(7) ديمقريطس Democritus: فيلسوف يوناني (460 - 370 ق. م.).

صاحب النظرية الذرية، فهو الأعظم والأكثر اتساقاً بين المفكرين الماديين. وقد فسر جميع العمليات الطبيعية والجسدية والعقلية والنفسية تفسيراً ميكانيكياً يعتمد على حركة الذرات واصطدامها، وعلى اتحادها (تركيبها) وانفصالها (تفكيكها). ويرفض ديمقريطس تمييز الروح بأصل مختلف عن الجسم كالهواء أو النار، ويرى (من خلال فيزيائه الذرية) أن الروح تتكون من أصغر الذرات المادية، وهي مستديرة وقادرة على الانسياب خلال أى شىء، وقادرة على تحريك الذرات الأخرى عن طريق اصطدامها بها.

ويرى ديمقريطس أن ذرات الروح تتوزع في كل أجزاء الجسم، وأن للروح جزأين؛ الأول هو العاقل وموقعه القلب، بينما يتفرق الجزء الآخر في باقى الجسم.

سألت بوبر: ذكرت في بداية حديثك عن الفلسفة اليونانية أن فلاسفتها يؤمنون بثنائية الروح/العقل - الجسم، ألا ترى في النظرية الذرية لديمقريطس نوعاً من الواحدية؟

ابتسم بوبر وقال: صحيح أن ديمقريطس كان مادياً ذرياً أحادياً، لكنه في نفس الوقت كان يتبنى نوعاً من الثنائية! انظر إليه وهو يخص العقل/القلب بجزء معين من الروح، كما يطالب بأن يهتم البشر بوضع قانون (أو تصور أو نظرية) عن الروح أكثر من اهتمامهم بقوانين الجسد، ذلك لأن كمال الروح يُصلح خلل الجسد، ولكن القوة الجسدية بدون تعقل لا تُصلح الروح. وكان يقول: مَنْ اختار خيرات الروح فقد اختار ما هو الأكثر ألوهية، ومن اختار خيرات الجسد فقد اختار الأكثر بشرية، وكان يُعلم تلاميذه أن مَنْ ارتكب ظلماً هو أكثر تعاسة ممن يقع عليه الظلم.

المرحلة الثانية: إضفاء الصبغة اللامادية على الروح/العقل

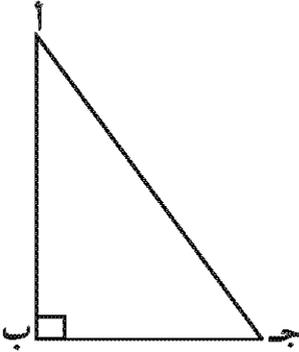
إذا كانت المذاهب السابقة ترى أن ماهية⁽¹⁾ الروح هي جوهر مادي، فقد نظرت مذاهب لاحقة إلى الروح باعتبارها لاجسدية. وربما كانت أكثر الماهيات بُعداً عن الجسمية هي ما تطرحه «النظرية الفيثاغورية»⁽²⁾.

(1) «ماهية» الشيء Essence هي طبيعة الشىء. أى ما يتعين أن يكون عليه الشىء ليكون هو، أو ليكون من النوع الذى هو منه.

(2) تُنسب إلى الفيلسوف والرياضى اليونانى الكبير فيثاغورس Pythagorus (580 - 497 ق.م)، وقد درس في مصر سنوات عديدة.

ففي هذه النظرية، تأخذ الأعداد والعلاقات بينها (كالنسب Ratios والتآلفات Harmonies) مكان الأصول الجوهرية في المدارس المادية (كالهواء والنار)، وهذا تغير جذري.

ولتبسيط هذا المعنى نشير إلى النظرية الفيثاغورثية الرياضية الخاصة بالمثلث قائم الزاوية، فهي تنص على أن مجموع مربعي ضلعي المثلث يساوي مربع الوتر: $(أب)^2 + (بج)^2 = (أج)^2$.



فعلى سبيل المثال $2(5)^2 = 2(3)^2 + 2(4)^2$

$$25 = 9 + 16$$

إن هذه العلاقة الرياضية هي «الحقيقة الجوهرية» وراء المثلث قائم الزاوية، وبدونها ما كان لهذا المثلث وجود. ونفس الشيء يقال عن الأنغام الموسيقية التي تحددها تخانات وأطوال الأوتار، وكذلك الأوزان الشعرية.

لذلك يرى الفيثاغورثيون أن الحقيقة بصفة عامة هي العدد، وأن النسب والعلاقات الرياضية بين الأعداد هي مصدر الظواهر والأشياء الطبيعية. أي أن الموجودات الطبيعية مجرد محاكاة للأعداد الحقيقية. وبعبارة أخرى: تُصَبّ الموجودات الطبيعية في قوالب رياضية تشكل ماهيتها. وعلى ذلك فإن المبادئ الرياضية هي القوانين التي تنظم الطبيعة وتتحكم فيها. ومن ثم لا يمكننا تفسير الطبيعة المادية للوجود إلا من خلال الرموز الرياضية.

وعند تطبيق هذا المفهوم على الروح، تقابلنا نظريتان اندرجتا تحت اسم الفيثاغورثية الأولى، ترى أن الروح الخالدة للإنسان هي تآلف أو تناغم لأعداد مجردة، وأن هذه الأعداد وعلاقتها سابقة على الجسد وباقية من بعده⁽¹⁾. وترى النظرية الثانية أن الروح هي تآلف أو تناغم للجسد مثل تآلف أو تناغم أوتار القيثارة⁽²⁾.

ويمكن النظر إلى هاتين النظريتين باعتبارهما متكاملتين وتصفان نوعين من الروح؛ الأولى تصف روحًا خالدة أعلى، والأخرى روحًا أدنى يرتبط بالجسد.

(1) تنسب هذه النظرية لفيثاغورث نفسه، أو لـ فيلولاوس الفيثاغورثي المعاصر لديمقريطس وسقراط.

(2) تنسب هذه النظرية إلى سيمياس من تلامذة فيلولاوس.

وتبعًا لمفهوم الفيثاغورثيين، يمكن تصور أن الجسد يتم تشكيله بناء على صورة مسبقة تحددها الروح (تألف ونسب الأعداد).

ويشارك الفيثاغورثيين النظر إلى الروح/العقل، باعتبارها ماهية لاجسمية، كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو وأفلوطين والقدیس أوغسطين وغيرهم من المفكرين الدينين والديكارتيين.

بين أفلاطون وأرسطو

وأضاف بوبر: وإذا كانت الروح عند الفيثاغورثيين هي العلاقات بين الأعداد، فإن الروح عند أفلاطون هي الماهية التي يتشكل تبعًا لهيتها وقوانينها الجسد، وتعرف هذه الماهية عند أفلاطون بالصورة أو الأفكار أو المثل. ونظرية أرسطو للروح قريبة من ذلك، فهو يصف الروح بأنه كمال أول للجسم الحي، والكمال الأول هو تقريبًا صورته أو ماهيته. والفرق الرئيسي بين النظريتين أن الروح عند أرسطو يكده تجاه غاية وهدف يسعى نحو الكمال. أما الروح عند أفلاطون فقد خلقه الله على أفضل ما يكون، ومن ثم لا يسعى نحو شيء أفضل، أي أنه روح محافظ⁽¹⁾.

أما عن علاقة الروح/العقل - الجسم فينظر إليها أفلاطون من زاوية أخلاقية وليست ميكانيكية. فهو يعتبر أن الجسم بمثابة سجن للروح، وفي نفس الوقت ينبغي أن تكون الروح/العقل حاكمًا على الجسم وشهوته، وفي النهاية يصف أفلاطون الروح بأنه ربان الجسم.

وفي علاقة الروح/العقل - الجسم يستلهم أرسطو البيولوجيا وليس الأخلاق، فهو يرى وجود التفاعل بين وعينا الذاتي وبين أحاسيسنا الجسمية، وكذلك بين الغرائز (الأجزاء الدنيا غير العاقلة من الروح) وبين العقل (الأجزاء العليا من الروح).

والمدهش، أن أفكار أرسطو تستيق - في بعض النواح - التطور البيولوجي. فهو يحدد ثلاث مستويات للروح؛ الروح الغذائية الموجودة في كل الكائنات ابتداء من النباتات، والروح

(1) يجمع التصور الإسلامي بين النظريتين. فالروح التي تسعى نحو الكمال عند أرسطو تقابلها (النفس)، أما روح أفلاطون الذي خلقه الله على أفضل ما يكون فتقابلها (الروح) التي هي نفخة إلهية.

الحاسة التي هي مصدر الحركة والموجودة في كل الحيوانات، والروح العاقلة التي لا توجد إلا في الإنسان، وهذه الأخيرة واعية بذاتها وخالدة. أي أنه يقول بروح تتطور مع تعقّد الكائنات.

ثالثاً: التصور الأخلاقي للروح / العقل

في تطور النظرة إلى الروح والعقل والنفس يلعب تطور النظرة الأخلاقية دوراً عظيماً. فعند هوميروس، تقابلنا مشكلة. فالروح الخالدة للأفراد العاديين تحيا في وضع فظيع محبط، إنها تُعاقب من غير جرم، وتعاني لا لشيء، إلا لأن المعاناة جزء من كونها ميتة.

وقد أدت الديانة الأورفية⁽¹⁾ إلى تغيير هذا الاعتقاد، فصار هناك وعد بعالم أفضل لمن آمن بالدين الحق ومارس الطقوس الصحيحة. ومع سقراط وديمقريطس تتأكد الفكرة وتتسامى النظرة، حيث يؤقّى الفعل الأخلاقي من أجل ذاته فحسب، فهو ليس ثمناً يُدفع من أجل مقابل موعود في حياة قادمة. وقد أدرك سقراط بوضوح أن المادية لا تتعارض مع التعاليم الأخلاقية والإنسانية المستنيرة، وقد أثبت ذلك حين آثر أن يموت بشرب السم كما حكم عليه قضاة أثينا على أن يفر من السجن ويولى الأدبار.

وقد انعكس هذا الموقف الأخلاقي على أفكار الفيثاغورثيين، فهم يؤمنون ببقاء الروح وتناسخها أو مسخها. فالروح تُكافأ أو تُعاقب على فعلها تبعاً لسلوكها الحياتي. أما عند أرسطو، فيتلخص البعد الأخلاقي للعلاقة بين الروح / العقل - الجسم في قوله: أيماً تغيّر يعترى حالة النفس فإنه يفضى إلى تغيير في شكل الجسد، والعكس صحيح.

وختم بوبر حديثه عن الفلسفة اليونانية قائلاً: إذا أردنا أن نُلخص نظرة الفلسفة اليونانية للذات الإنسانية، وجدنا معظم الفلاسفة يعتبرونها بنية ثنائية من روح / عقل وجسم. وإذا كان لا اختلاف في نظرهم إلى الجسد باعتباره مكوناً مادياً، فقد تراوحت نظرهم للروح ما بين المادية واللامادية. كما يوجد بين هذين المكونين تأثير متبادل وعلاقة تفاعلية غير ميكانيكية، باستثناء الفلاسفة الذين اعتبروا هذا التفاعل تفاعلاً ميكانيكياً.

(1) الديانة الأورفية Orphism: مجموعة من المعتقدات الدينية اليونانية القديمة، ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد. وقد صاغ الشاعر أورفيس هذه المعتقدات في قصائده، فنسبت إلى اسمه.

الفلسفة الحديثة Modern philosophy (1)

قلت لكارل بوبر؛ ذكرت أنك بعد الحديث عن الفلسفة اليونانية، ستحدثنا عن بعض النماذج التي اهتمت بقضيتنا في الفلسفة الحديثة، فأياها ستختار؟

قال بوبر: من السمات البارزة للفلسفة الحديثة شدة تباين اجتهادات فلاسفتها، فتراوحت ما بين مادي مُعرق في المادية، وروحاني مغرق في الروحانية، وهناك مَنْ لم يكتف بإنكار وجود الروح/ العقل بل شطح إلى إنكار وجود نفسه بالكلية. لذلك سأحدثك عن شخصيات قدّمت إسهامات مهمة باقية في مجال الذات الإنسانية.

مبدأ التفاعل لديكارت R. Descartes

وأضاف بوبر؛ إن الدارس للفلسفة الغربية الحديثة لا بد أن يكون مدخله عبر مؤسسها وبوابتها الرئيسية، وأبي الفلسفة العقلانية، الفيلسوف الأشهر رينيه ديكارت⁽²⁾.

وإذا بدأنا عرضنا بكوزمولوجيا ديكارت (نظرتة إلى الكون) نجد أنه ينظر إلى العالم بوصفه آلة ميكانيكية أوتوماتيكية ضخمة ذات ترس، وأن جميع النباتات والحيوانات جزء من هذه الآلية الميكانيكية.

ويرى ديكارت أن الجسد الإنساني يتميز على هذه الآلية بأن له حركة إرادية، وينظر إلى العقل الإنساني باعتباره الاستثناء الوحيد في العالم كموجود لا مادي قادر على التحكم في حركات الجسم المادية، وقادر أيضًا على إدراك القوى الفيزيائية المادية

(1) ظهرت الفلسفة الحديثة في أوروبا الغربية في القرن السابع عشر، ويعتبر رينيه ديكارت هو مؤسسها، وتنتهي في بدايات القرن العشرين، حين استُبدلت بفلسفة ما بعد الحداثة Post-Modernism، التي أسسها الفيلسوف الألماني لودويج ودجنشتين Ludwig Wittgenstein. وتشمل الفلسفة الحديثة عددًا من المدارس، منها المادية الجذرية، والعقلانية، والمثالية، والتجريبية، والوجودية،...

(2) رينيه ديكارت Rene Descartes: الفيلسوف الفرنسي الكاثوليكي (1596-1650). يتبنى (مع سينيوزا وليبتنز) الفلسفة العقلانية (المنطقية) Ratisnalism. وإسهاماته في الرياضيات لا تقل عن إسهاماته في الفلسفة، ويُعد أبا الفلسفة الحديثة، حتى إن كل فيلسوف جاء بعده - وحتى الآن - تأثر به إيجابًا أو سلبيًا، وكلهم يرددون مفاهيم ديكارتيّة مؤيدين أو معترضين. وقد اشتهر عنه قوله (أنا أفكر - إذًا أنا موجود).

(الضوء والصوت والملموسات..)، لذلك يعتبر ديكارت أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتمتع بحياة حقيقية.

أما بخصوص مشكلة التفاعل بين الروح/العقل والجسم، وكيف يتسنى لوجود غير مادي أن يؤثر في عالم مادي يعمل بآليات عمل الساعة ويعتمد على الدفع الميكانيكي، يطرح ديكارت ما يُعرف بـ «مبدأ التفاعل». يبدأ ديكارت طرحه بأن يُعرّف الجسم (المادة) بأنه شيء ممتد في المكان ثلاثي الأبعاد، أما العقل غير المادي فهو غير ممتد لكنه متموضع في المكان. ومن ثم فالنفس - عند ديكارت - جوهر مفكر يتموضع في الغدة الصنوبرية، وتتحكم في الروح الحيواني (الذي هو جزء من الجهاز الجسمي الميكانيكي). وهذه الروح عبارة عن سواثل من صنف نادر جداً يقوم في الحيوانات والإنسان بالكثير من العمل الآلي للدماغ، وينتقل في الأعصاب ليربط الدماغ بأعضاء الحس والعضلات والأطراف. ويمكن النظر لهذا التصور كاستباق من ديكارت لمفهوم الإشارات العصبية الكهربائية.

وفي نفس الوقت يعترف ديكارت بأننا لا نستطيع أن نعرف كيف يتم هذا التواصل بين الروح والمادة، وبالتالي يؤكد أنه آية من آيات الخلاق الحكيم القادر.

قلت لبوبر: لا شك أن معظم الفلاسفة قد تلقوا مبدأ التفاعل لديكارت بالقبول، أولاً لوجهته العقلية، وثانياً لمنزلة ديكارت عندهم. لكن هل ثمَّ معترض؟

أجابني بوبر: كان هناك من رأى استحالة التفاعل بين الروح (كجوهر لا مادي) والجسم (كجوهر مادي). وقد رد ديكارت هذا الاعتراض بأن استحالة التفاعل بين جوهرين مختلفين افتراض زائف لا يمكن إثباته بأية وسيلة كانت. كما تصدى بعض الديكارتيين لهذا الاعتراض بأن الله يتدخل بشكل مباشر في بعض المواقف (المناسبات) لإنجاز بعض المهام، ومنها هذا الموقف. ويُطلق على هذا التفسير «مبدأ المناسبة occasionalism»⁽¹⁾ والفيزياء الحديثة في جانب رأى ديكارت، إذ أثبتت أن الأجسام تؤثر في بعضها من خلال وسيط هو مجالات الطاقة (حقول Fields)، فالجسم يُعدّل في المجالات المحيطة، عندئذ يؤثر المجال المُعدّل على جسم آخر، وهكذا. أي أنه ليس ضرورياً أن يقتصر التأثير على المتشابهات، كما اعتقد منتقدو ديكارت.

(1) من الفلاسفة القائلين بذلك: جلوبرج كورديموي - دي لافورج - مالبراناش.

قلت للفيلسوف الكبير؛ أرى جوانب شبه كثيرة في نظرتي ديكارت وسلفه العظيم أرسطو تجاه الكون والإنسان، فهل توافقني على ذلك؟

أجابني بوبر: لا شك أن كلا الفيلسوفين الكبيرين يتفقان في جوانب ويختلفان في جوانب، فهما يتفقان في قولهما بمذهب لا مادية الروح ومذهب التفاعل المتبادل بين الروح / العقل والجسم، وأيضاً في أخذهما بفكرة التفسير الماهوي⁽¹⁾. أما بالنسبة لجوانب الاختلاف، فإن عالم ديكارت عالم ميكانيكي لا حياة فيه (حتى النباتات والحيوانات)، والاستثناء الوحيد هو الإنسان الذي يتمتع بحياة حقيقية. أما عالم أرسطو فيسعى كله (الجمادات - النباتات - الحيوانات - الإنسان) نحو أهداف وغايات.

منهج ديكارت لمعرفة الإنسان لذاته وللإله

قلت لبوبر، نسمع كثيراً قولاً يُنسب لديكارت، وهو (أنا أفكر - إذاً أنا موجود)، فما مدى حجية هذا البرهان وكيف توصل إليه؟

أجابني بوبر: عندما نظر ديكارت إلى وسائل المعرفة، رأى أنها عبارة عن الحواس الخمس التي تُدرك المحسوسات، وكذلك العقل الذي تُدرك به المعقولات. ووجد أن الحواس والعقل كثيراً ما يخطآن، ومن ثم لم يبق لنا وسائل نشق بها ونعتمد عليها في معرفة الحقيقة. بعد هذا الشك في وسائل المعرفة، عاد ديكارت وجعل من البرهان على الشك برهاناً على اليقين، وعبر عن ذلك ببيان ساحر وحجة بالغة حين قال: مهما شككت في حواسي وعقلي، وشككت في وجود العالم فإنه ستبقى لي حقيقة واحدة لا يمكن الشك فيها، بل إنها تزداد يقيناً كلما ازدادت شكاً، وهذه الحقيقة هي «أنتي أشك»، والشك تفكير، إذاً أنا أفكر. والتفكير لا يكون إلا من ذات مفكرة، التي هي أنا، وحتى لو حاولت أن أشك في أني أفكر، فهذا الشك نفسه دليل على أني أفكر. ولما كان التفكير يحتاج إلى وجود ذات مفكرة، إذاً فإدراك العقل بآني موجود إدراك صادق، مثلما أن إحساسي بآني موجود إحساس صادق.

(1) التفسير الماهوي: نسبة إلى ماهية الشيء، وهي طبيعته. والمقصود منه أن الشيء يحمل الصفات التي تحدد طبيعته.

من هذه القاعدة (أنا أفكر - إذا أنا موجود) ⁽¹⁾ أثبت ديكارت صدق الحواس وصدق العقل، ومن ثم أثبت وجود الذات الإنسانية.

ويضيف ديكارت دليلاً آخر على وجود الذات الإنسانية من خلال تقسيمه للأفكار إلى ثلاثة أقسام: أفكار مباشرة تتجمع لدينا بشكل مباشر من المدركات الخارجية للحواس، بدون أعمال الذهن. وأفكار صُنعية تشكلها عقولنا مما نتلقاه. وأفكار فطرية ⁽²⁾ راکزة في عقولنا. ويرى ديكارت أن القسمين الأولين عرضة للخطأ، أما الأفكار الفطرية (في حالة سلامة العقل) فسالمة من الخطأ لأنها جزء أساسي من تكوين عقولنا، واعتماداً عليها نبني أحكامنا اليقينية كلها. ومن أهم هذه الأحكام، اليقين الفطري بأننا موجودون.

ولإثبات الوجود الإلهي، ينطلق ديكارت من قاعدتين فطريتين بديهيتين يقينيتين، وهما أن «الشيء لا يصدر من لا شيء»، وأن «الشيء لا يمكن أن يكون أكبر من مسببه»، ويطرق ديكارت من هاتين البديهيتين إلى الاستدلال على وجود الله بـ «دليل الحدوث» و«دليل الوجوب»، فيقول: أنا موجود حادث، وأنا لمرأ خلق نفسي، إذا لا بد لي من خالق. وهذا الخالق لا بد أن يكون واجب الوجود (غير محتاج إلى من يوجد له أو يحفظ له وجوده)، وهذا الخالق لا يمكن أن يكون إلا إله باري لكل شيء وأكبر من كل ما برأ.

أعجبتني الحجة والبساطة والوضوح في استدلال ديكارت على وجود الذات الإنسانية ووجود الذات الإلهية، ووجدت أن أدلة الربوبية عنده تتماشى تماماً مع «علم الكلام» الإسلامي، بل إن ديكارت - في أكثر من موضع - يعلن أنه أخذ عن علم الكلام.

مذهب التوازي لسبينوزا Spinoza ⁽³⁾

ثم أضاف بوبر، وكبديل لمذهب التفاعل، طرح الفيلسوف الديكارتي سبينوزا «مذهب التوازي» Paralleism، الذي يرى أن ليس ثمة تفاعل بين العقل والجسم، بل هناك توازي يوهم

(1) (Je pense donc Je suis).

(I Think - Therefore I am).

(2) من أمثلة الأفكار الفطرية البديهية أن الجزء أصغر من الكل، وأن لكل شيء حادث سبباً.

(3) سبينوزا B. spinoza: الفيلسوف والرياضي الألماني اليهودي (1632 - 1677) لُقّب بأمير الفلاسفة. من المدرسة العقلانية مثل ديكارت.

بالتفاعل. فعندما يود عقل الإنسان (الإرادة) أن يحرك ذراعَه - مثلاً - فإن الطرف يتحرك دون أن تكون هناك علاقة سببية، والعكس بالعكس؛ فإذا تحرك عضو يظن العقل أنه صاحب القرار. بينما في الحقيقة هناك توازن بين الإرادة والفعل، دون علاقة سببية، ويؤمن سبينوزا أن ذلك كله يتم بتدخل الرب. ويعتبر المتدينون أن هذه المعجزات المتكررة. التي تحدث في أتفه المناسبات تُجرد المعجزات الدينية الحقيقية من طابعها الإعجازي ودورها الإيماني، ومن ثم فقد رفضها المسيحيون المخلصون كما رفضها الشكَّاك والملاحدة.

ثم قدم سبينوزا طرحًا يحافظ على مفهوم التوازي دون الاحتياج للمعجزات المتكررة، ويعتمد هذا الطرح على تعريف ديكارت لـ «الجوهر» بأنه الشيء الذي لا يعتمد وجوده على أي شيء آخر، ومن ثم فالجوهر الوحيد (عند ديكارت وسبينوزا) هو الرب وليس الجسم ولا العقل. وقد اعتبر سبينوزا أن العقل/ الوعي/ الفكر، وكذلك الامتداد/ المادة/ الجسمية صفتين متوازيتين (وجهين) لهذا الجوهر الوحيد، ومن ثمَّ لا لزوم إلى اللجوء لتفسير المعجزات المتكررة.

ويشرح سبينوزا علاقة المادة/ الجسم والعقل (في ظل مفهوم التوازي) بأنهما يميضان متوازيين مثل الوجهين الداخلي والخارجي لقشرة البيضة. وفي المادة غير الحية، لا يكون الوجه الداخلي للقشرة واعيًا، ومع اندماج الذرات في جزيئات عملاقة مكونة المادة الحية تنبثق من الوجه الداخلي للقشرة ذاكرة الجزيئات، وفي الحيوانات العليا تنبثق ذاكرة الوعي. وهذا المذهب يحقق للماديين - في أسلوب بسيط - الراحة الفكرية، فهو يتبني أن لا جديد تحت الشمس، وأن كل شيء كامن في المادة.

وختم بوبر كلامه عن سبينوزا قائلاً: لعلك لاحظت مما ذكرتُ أن سبينوزا من القائلين بوحدة الوجود Panthiesm⁽¹⁾، أي أن كل ما في الوجود هو الله، إذ إن الوجود المادى والوجود غير المادى وجهان لجوهر واحد هو الإله.

منهـب لـيبنتز⁽²⁾ Leibniz: التناسق سابق التقدير

وأضاف كارل بوبر: وهناك طرح آخر للمدرسة الدينية في الفلسفة الحديثة بخصوص بنية

(1) لنا عودة في هذا الفصل لمفهوم وحدة الوجود عند الحديث عن الهندوسية.

(2) لـيبنتز G. Leibniz: الفيلسوف والرياضى الألماني الشهير (1646 - 1716). يمثل مع ديكارت وسبينوزا أعمدة الفلسفة العقلانية، صاحب إنتاج غزير لم يتم جمعه كله حتى الآن.

الذات الإنسانية. فقد كان الفيلسوف ليبنتز ديكارتيًا في نظرتة للروح / العقل والجسم، لكنه خالف الديكارتيين في كيفية التلاقى بينهما. فرفض تدخل الرب لإحداث التفاعل بين العقل والجسم (مذهب المناسبة)، كما رفض مذهب التوازي ومفهوم وحدة الوجود كما طرحها سبينوزا. وكبديل، قال ليبنتز بتعدد الجواهر (الإله - الروح - المادة...) مع تميز واختلاف جوهر الإله، فهو الذى خلق بقية الجواهر على صورته ووهبها درجات مختلفة من المعرفة والقوة. وبناء على هذا الفهم، أنشأ ليبنتز مذهبه المعروف بـ «التناسق سابق التقدير pre-established harmony» الذى يقول بأن الله قَدَّرَ مُسَبِّقًا أن تشعر عقولنا بما تفعل أجسامنا وأن تقوم أجسامنا بفعل ما تنواه عقولنا، وبالتالي لا يقتضى الأمر تدخلًا خاصًا من الرب فى كل مناسبة.

ويشرح ليبنتز مذهبه بقوله: إن كل خلجة عقلية تصاحبها حركة من الجسد كأن بينهما علاقة واتصال، وهما فى الحقيقة غير متصلين ولا متفاعلين، ولكن ما يظهر لنا من توافق وعلاقة سببية هو أثر للتناسق سابق التقدير الذى أسسه الإله. وأضاف كارل بوبر معلقًا: لا شك أن هذه النظرة تنتهى إلى إلزام للبشر وجبرية لا تتناسب مع حكمة الله عَزَّوَجَلَّ وكمالته.

المذهب المادى بعد الديكارتيين

سألت بوبر: إلى ماذا آل حال الفلسفة المادية بعد المدرسة العقلانية ذات التوجه الإلهى، والتي مثلها ديكارت ثم سبينوزا وليبنتز؟ فأجابنى: اعتبر الديكارتيون أن الإنسان ليس مجرد آلة؛ لأنه يتكون من جسد وروح، وهم بذلك يُوسِّعون الهوة بين الإنسان والحيوان. كان بوسع الماديين الذين يريدون دائمًا تضييق الهوة بين الإنسان وغيره من الكائنات؛ إما القول بأن الحيوانات أكثر من مجرد آلات، إذ إنها على درجة من الوعى، أو القول بأن الإنسان آلة ما دام يُصنَّف كحيوان. لمر يتوقع أحد من قوم يُسَلِّمون بتفوق الإنسان على جميع الكائنات أن يُرَوِّجوا للرايين معًا، فيقولون إن الحيوانات أرقى من الآلات، وإن الإنسان آلة؛ أى أدنى من الحيوان⁽¹⁾، لقد أصابتهم المادية بلوثة.

(1) هذا القول ل: بيير بايل وجوليان أوفرى دى لامترى، مؤلفا كتاب «الإنسان آلة» عام 1747، وكتاب «الحيوانات أكثر من آلات» عام 1749.

وكانت نتيجة مثل هذه النظرة شطحات مُغرقة في المادية، فقد عمّم توماس هوبز⁽¹⁾ النظرة الآلية المادية على جميع الموجودات، شاملة النفس البشرية، التي طعننا أيضًا في منظومتها الأخلاقية؛ إذ اعتبر أن الخير هو ما يَسُرُّ الإنسان، وأن الشر هو ما يُحزّنه، أي أن الأخلاق نسبية ذاتية لا علاقة للإله (المتوهم) بها. أما ديفيد هيوم⁽²⁾ فقد كان ينكر وجود قوانين الطبيعة التي تحكم النظرة الآلية! وينظر إلى الأمر كله بعشوائية مطلقة، ويرى أن قوانين الطبيعة ما هي إلا تريبطات بين الظواهر يقوم بها العقل البشري. وإذا كان هيوم قد بدأ بإنكار الوجود، فقد انتهى إلى إنكار نفسه!

وكرّد فعل، صد كانت⁽³⁾ هجمات المذهب المادى الجذرى المتلاحقة التي قادها أكبر أنصاره؛ ديفيد هيوم. فـ « كانت » يؤكد أن العقل لا يستطيع أن يحيط بكنه الأشياء، وأنه مهياً بطبيعته لإدراك الجزئيات والظواهر فقط، في حين أنه عاجز عن إدراك الماهيات المجردة مثل الوجود الإلهي. وإنما عرفنا الإله بالضمير وليس بالعقل، فشوقنا إلى العدل هو دليلنا على وجود العادل، كما أن ظمئنا للمياه هو دليلنا على وجود الماء.

وربما كان أهم ما خلفه كانت القول بوجود عالمين: عالم الزمان والمكان، وهو عالم الظواهر الطبيعية التي يدرسها العلم ويكشف قوانينها. ثم عالم اللازمان: عالم الأزل الذي لا يستطيع العلم أو العقل البشري أن يصل إليه، وإنما تدركه الروح عن طريق الحدس والشعور والنظرة الصوفية. ويرى كانط أنه ليس هناك تناقض في أن يعيش الإنسان في عالمين مختلفين في وقت واحد، عالم الزمان والمكان وعالم الروح اللامتناهى. وهذا ما ينبغي أن يتبناه إنسان العصر الحديث.

الداروينية

قلت لبوبر: عند الحديث عن نظرة العقل للذات الإنسانية، لا يمكن أن نتجاهل «نظرية دارون لتطور الكائنات الحية». فالكثيرون يعتقدون أن الداروينية قد قدمت الدليل العلمى

(1) توماس هوبز Thomas Hobbes: عالم رياضيات وفيلسوف إنجليزي (1588 - 1679)، كان له اهتمام بالأخلاق والتاريخ.

(2) ديفيد هيوم David Hume: فيلسوف واقتصادي ومؤرخ أسكتلندي، (1711 - 1776)، من كبار الفلاسفة العدميين.

(3) إيمانويل كانت: قمنا بالتعريف به في أول الفصل.

على خطأ مفهوم ثنائية الروح/ العقل - الجسم، ويرون أن دارون قد أكد على مادية الإنسان حين أعلن أن الفوارق العقلية بينه وبين غيره من الكائنات فوارق كميّة وليست كيفية، وأنها ترجع إلى زيادة حجم وتعقيد المخ البشري عن أسلافه من الرئيسيات. فما رأيك؟

أجابني كارل بوبر: إن الحديث حول الداروينية لا ينتهي، فما من نظرية شغلت الفكر البشري كما شغلته، حتى صار اصطلاح ومفهوم الداروينية يتردد في كل العلوم تقريباً؛ الداروينية السياسية، الداروينية الاقتصادية، الداروينية الاجتماعية، الداروينية في الأدب.... بعد أن انقلبت من نظرية علمية إلى مفهوم أيديولوجي. لكن صحة النظريات لا تتوقف على شيوعها أو على ما تسببه من جدلية. أما رأي الذي لا أحمده فهو أن نظرية تتصدى لنشأة الإنسان وتغفل تميّز العقل البشري بأن تتبنى تشكله من أسلاف حيوانية عن طريق التطور العشوائي شديد البطء، تُعتبر نظرية مهترءة وغير جديرة بالاحترام.

قلت لكارل بوبر، ربما لا يعرف الكثيرون أن نظرية تطور الكائنات الحية ينبغي أن تُنسب إلى عبقرين من عباقرة البيولوجيا، وهما تشارلس دارون، وألفريد والاس⁽¹⁾، اللذين توصلا إلى النظرية منفصلين في وقت واحد⁽²⁾. وإذا كانا قد اتفقا على أن الجسد الإنساني قد نشأ بالتطور عن أسلاف أدنى منه، فقد اختلفا في نشأة العقل البشري.

فدارون يُرجع الذكاء البشري والقدرة على الإبداع والعبقرية إلى آلية الانتخاب الطبيعي من بين طفرات عشوائية، و فقط. بينما يرى والاس أن الانتخاب الطبيعي يمكن أن يفسر ظهور القدرات التي يحتاجها الكائن في حياته وقت تطوره، ويكون ذلك استجابة لما يُعرف بالضغط الانتخابية، لكن الانتخاب الطبيعي لا يفسر نشأة ذكاء يظل كامناً حتى يحتاجه الإنسان بعد عشرات الآلاف من السنين، إذ إن التطور ليس له رؤية مستقبلية. ما الذي يدفع جيئاً ما أو مركزاً عصبياً ما - دون الاحتياج إليهما - ليتخصصا في المهارات الرياضية أو الموسيقية الرفيعة، ثم يتم تورثهما للأجيال المتتالية، حين يتم الاحتياج إليهما.

(1) ألفريد والاس Alfred Wallace: (1823 - 1912) عالم الطبيعيات البريطاني الكبير. تخصص في البيولوجيا والجغرافيا والأنثروبولوجيا.

(2) المدهش أن كلاً منهما لم ينكر فضل الآخر، حتى إن والاس كتب كتاباً عن النظرية وأسماه «الداروينية» وما أن علم دارون بذلك حتى كتب له قائلاً: ما كان يجب أن تسميه «الداروينية» فهي أيضاً «والاسية».

لقد صار هذا يعرف بـ «تناقض والاس Wallace's Paradox»، الذي يدور حول: «كيف يؤدي الانتخاب الطبيعي إلى ظهور وتوريث والمحافظة على ملكات لا تُستخدم في حينها، بينما ينقرض الأفراد الذين لا يملكون هذه الملكات، بالرغم من أنها لا تفيدهم في البقاء. يجيب والاس بأن المخرج الوحيد من هذا التضاد هو القول بأن الذكاء الإنساني ليس مُنتج تطوري بل منحة من «الذكاء الإلهي».

ابتسم كارل بوبر وهز رأسه مُؤمناً على إضافتي العلمية، وملمحاً - في نفس الوقت - إلى قرب انتهاء حوارنا الثرى، وقال:

من المثير للدهشة أن المذهب المادى القائل بأن البشر آلات كان خليقاً بأن يقوض أى علم أخلاق إنسانى، ومع ذلك فإن كبار الفلاسفة الماديين كانوا دعاة أخلاق إنسانية، وكانوا منافحين عن الحرية والتنوير. من ثمَّ فإننى أعتبر أن هناك خللاً ما في هذا المبدأ المادى، أو قل إنه مبدأ متناقض، يُرَوِّج لشيء ويتبنى عكسه!!

وافترقنا... وقد زادنى الحوار مع هذا العملاق إيماناً بمقولة حول الفلسفة، قرأتها للشيخ نديم الجسر⁽¹⁾ في كتابه المتميز «قصة الإيمان»، انظر إلى قوله:

«إن الفلسفة بحر، على خلاف البحور، يجدر راكمه الخطر والزيغ في سواحله وشطآنه، والأمان والإيمان في لججه وأعماقه».

الذات الإنسانية في الفكر الشرقى القديم⁽²⁾

منذ آلاف السنين، كان حكماء الهند يتأملون طبيعة الذات الإنسانية وطبيعة الواقع المحسوس وطبيعة الغيب، وقد اعتقد فلاسفتهم أن هذه الثلاثية - على المستوى الأعلى - ليست

(1) الشيخ حسين الجسر: مفتى طرابلس ولبنان الشمالى الأسبق.

(2) المراجع: الفكر الشرقى القديم - تأليف: جون كولر، ترجمة: كامل يوسف حسين، الناشر عالم المعرفة.

Buddhism, by Peter Harvey

أديان الهند الكبرى: الهندوسية، الجينية، البوذية - دكتور أحمد شلبى، أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة - الطبعة الحادية عشرة (2000).

إلا وجود واحد. وقد نشأ عن ذلك التصور تساؤلان رئيسيان؛ أحدهما نظري، وهو كيفية ربط هذه الثلاثية في كل واحد. والتساؤل الثاني عملي، وهو كيف ندرك ذاتنا الحقيقية ونصل بها إلى أقصى درجات سموها.

وإذا كانت المشكلة الرئيسية التي تواجه الفكر الإنساني هي مشكلة «معاناة» الإنسان في هذه الحياة، فقد أرجعها الفكر الشرقي القديم إلى «الهُوَّة» بين ما يكونه المرء وما يملكه بالفعل، وبين ما يريد أن يكونه وأن يملكه، لذلك كانت «المعاناة» حتمية. فالفقر الذي يتعلق بالثروة يعانى، والإنسان المَيِّت⁽¹⁾ الذي يتعلق بالخلود يعانى، والضرير الذي يتعلق بالإبصار يعانى،....

ولما كان الأمر كذلك، فإن الحل للتخلص من المشكلة - المعاناة - واضح، وهو أن يتطابق ما هو كائن وما هو مرغوب فيه. وليس لذلك من سبيل إلا أحد طريقتين، إما السعى لتحصيل ما يتطلع إليه المرء، كالاتجاه لتحصيل الثروة إذا كان الإنسان فقيراً، ولكن ستظل هناك رغبات يستحيل تحقيقها، كالخلود للمَيِّت والإبصار الأعمى. كذلك ستظل المعاناة في تزايد حتى وإن وصل المرء إلى ما يريد؛ نتيجة للخوف من ضياع ما حَصَلَه، أو للانشغال به وبالمحافظة عليه، أو للرغبة في المزيد. ولذلك برز الطريق الثاني، ويتركز في القضاء على الرغبات التي تجلب على الإنسان المعاناة والضيق والألم والشقاء، وقد تبنت الفلسفات الشرقية بصفة أساسية المنظور الثاني.

لذلك تدور الحكمة الشرقية حول مفهوم «اللاتعلق»، الذى يرى أن السيطرة على الذات - لإشباع الرغبات - هو الطريق الأساسى للقضاء على المعاناة، ولا يمكن تحقيق هذه السيطرة دون «معرفة الذات». ومن هنا جاءت أهمية الممارسة الفعلية لهذه الفلسفات، وتُعرف تلك الممارسة بأنها «فن العيش في إطار سيطرة المرء الكاملة على ذاته» من أجل الوصول إلى الحياة الخيرة. من ذلك يتضح أن الفلسفات الشرقية - على خلاف معظم الفلسفات الأخرى - لا تكتفى بالنظر والتحليل لمعرفة الذات ولإدراك سبيل الحياة الخيرة، ولكنها تتبنى «الممارسة العملية» كمنهج أساسى لإدراك الحقيقة، أى أنه ليس هناك خط فاصل بين المعرفة والتطبيق، ومن هنا فإن الفلسفة والدين في مفهوم الشرق الأقصى لا يُعتبران نشاطان منفصلان، بل يمثلان عنصراً واحداً متكاملًا.

(1) المَيِّت: هو الذى مصيره إلى الموت، أما المَيِّت فهو الذى مات بالفعل.

الديانة الهندوسية⁽¹⁾

العقائد الهندوسية

لا تُعتبر الهندوسية دينًا بالمعنى المعروف، بل هي أشمل من الدين، فهي مزيج من شعائر الهنود الأصلاء والقبائل الآرية التي أغارت على البلاد قبل الميلاد بعدة قرون. لذلك فهي تعكس ملامح المجتمع الهندي، وتمثل خليطاً يُعبّر عن الأمور المقدسة والأمور الدنيوية جميعاً، ويشمل الاتجاهات الروحية والخُلُقِيَّة والقانونية، وكذلك المبادئ والقيود والعادات التي توجه الحياة الهندية وتسيطر عليها.

ويعتقد الهندوسية حوالى مليار إنسان، يعيش معظمهم في شبه القارة الهندية. والهندوسية مجموعات مختلفة، تشترك في أربع عقائد أساسية:

(1) الكارما Karma، وهي قانون الجزاء

فالكون نظام إلهى قائم على العدل الصارم، وفيه يتم إحصاء كل ما يفعل الإنسان لينال عليه الجزاء، إما في هذه الحياة، وإما بعد الموت عن طريق التناسخ. وبالتالي فالأرض هي دار الابتلاء كما أنها دار الجزاء.

(1) يمكن تقسيم تاريخ الفكر الهندي إلى العصور التالية:

أولاً: العصر الفيدي الأول: (فييدا Veda كلمة سنسكريتية معناها الحكمة والمعرفة)، ويشمل ثلاث مراحل:

أ- مرحلة انتشار الأفكار البدائية وعبادة قوى الطبيعة: بدأت منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد.
ب- مرحلة تدوين الفييدا وتأويلها: تبدأ من القرن الثامن قبل الميلاد. وعندما قام البراهمة بهذا التأويل جعلوا من أنفسهم كهنة للدين وحافظوا على امتيازاتهم الطبقيَّة المقدسة. وهذه المرحلة تبدأ الهندوسية الموجودة الآن.

ج- مرحلة تليخيص الفييدا في أسفار مقدسة تُسمى الأوبانيشادات، وتبدأ من القرن السادس قبل الميلاد، وتستمر إلى ما بعد الميلاد بقرون.

ثانياً: عصر الإلهاد (في رأى البراهمة أتباع الفييدا): وفيه ظهرت الديانة الجينية والفكر البوذي، ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد، كثورة على نفوذ البراهمة.

ثالثاً: العصر الفيدي الثاني: وهو عصر انتصار الفييدا على الجينية والبوذية. وفيه وضعت قوانين منو (كشروح للفييدا) في القرن الثالث قبل الميلاد. وهذه الشروح استقرت معالم الفييدا الحالية.

(2) عقيدة التناسخ The Doctrine of Re-Incarnation

يقضى الموت على الجسد المادى، أما الروح فتلحق بدورة التناسخ. فإذا كانت الروح لإنسان خَيْرٍ تقمصت جسد إنسان من طبقة أعلى (كنوع من الثواب)، وإذا كانت لإنسان شرير لحقت بجسد إنسان من طبقة أدنى أو جسد حيوان (كنوع من العقاب). وفي كل الأحوال لا يدري الإنسان شيئاً عن حياته السابقة (أى لا يعرف إن كان قد أثيب أو عُوقب).

(3) الانطلاق Freedom

بتكرار دورات التناسخ، يتم تطهير الروح من الشهوات واستيفاء ما عليها من ذنوب. وعندما لا ترغب الروح فى شيء وتتنحى من الأهواء وتطمئن، فإنها لا تُعاد إلى الحواس المادية، بل تنجو من تكرار المولد، وتمتزج بالآله (براهما) كما تعود قطرة الماء إلى المحيط العظيم، وهذا هو هدف الحياة الأسمى.

وأفضل سبيل للانطلاق هو الزهد والسلبية، فصالح الأعمال وأرزلها تُدخل الروح فى دورات جديدة من التناسخ، وقد أدى ذلك إلى أن أصبحت السلبية أفضل من صالح الأعمال.

(4) وحدة الوجود Panthiesm

انبثق الكون عن الله، وكذلك روح الإنسان، فهى أزلية أبدية غير مخلوقة، وهى من الإله مثل أن شرارة النار نار. ومن ثم فالكون كله ليس إلا ظهور للإله، كما أن الروح الإنسانية جزء من الروح العليا.

وعقيدة التثليث ظاهرة فى الهندوسية. فلإله الواحد ثلاث صفات، فهو براهما (من حيث إنه خالق)، وهو فشنو (من حيث إنه حافظ) وهو سيفا (من حيث إنه مُهلك). وهذه الصفات الثلاث كامنة فى الإنسان.

ويقصد الهندوس الحيوانات، خاصة الأبقار، وذلك لعدة أسباب: فالبقرة رمز للإيتار لما تعطيه للبشر (اللبن، الروث، الجلد، اللحم)، كما أنها رمز للأخوة بين الإنسان والحيوان، بل قد تحمل الأبقار أرواح بشر تناسخت فى هذه الحيوانات. لذلك كله ينظر الهندوس إلى البقرة باعتبارها أم الإنسان الحقيقية.

وتوجد بعض عقائد الهندوسية عند بعض معتققي الديانات السماوية، فنجد مفهوم وحدة الوجود في التصوف الإسلامي الفلسفي، كما نجد عقيدة التثليث في المسيحية.

الذات الإنسانية في الفكر الهندوسي

ترى العلوم الباطنة الهندوسية أن الجسم المادي للإنسان، ذا الذبذبات الكثيفة، هو جزء من كل إنساني، يشتمل على عناصر أخرى ذبذبية التكوين، وهي:

- الجسم الأثيري، ومنه تمتد خارج الجسم المادي «الهالة» التي تتوقف على الحالة الصحية.
- الجسم النجمي، وهو جسم المشاعر والعواطف.
- الجسم العقلي؛ جسم الفكر والذكاء.
- المبدأ الإشراقي، ومقره القلب، وهو محل المعرفة والإشراق الروحي.
- وأخيراً، الروح.

وتخبرنا الفيدا بأن للإنسان الواحد ثلاثة أنواع من الذات: «الذات المطلقة» التي لا تختلف من شخص لآخر، بل تتفق في الكل، والذات الثانية متعلقة بفرديّة الشخص، أما الذات الثالثة فهي الجسد الذي هو ذاتٌ مرحلية.

كذلك فإن الكون والإنسان مكونان من خمسة عناصر هي: التراب - الماء - الهواء - النار - والأثير. ويُفَرَّق «الفضاء» بين المخلوقات؛ كما يفرق بين أجسام الناس، ويفصل الفرد عن بقية موجودات الكون المادية.

والإنسان «كون صغير»، يشبه في بنيته الكون المحيط والذرة⁽¹⁾. فأعضاء الجسم تُكوّن

(1) ترى الحكمة الهندوسية أن الوجود كان في البدء ذبذبات تكثفت، وتشكلت، وتجمست، وتلك الذبذبات الأصلية هي مصدر الكون بكل ما فيه. وأصغر هذه التشكلات هي الذرة، المؤلفة من نواة مركزية وفراغ وشذرات تحت ذرية، تتنظمها حقول من الطاقة، وتتحوّل جزئياً إلى طاقة لدى تفككها، وكل ذلك يتحرك ويتراقص في الفراغ (ويتفق هذا التصور مع ما توصلت إليه الفيزياء الحديثة!). ويتكرر نموذج الذرة (بنواتها المركزية وشذراتها المحيطة بها) في معظم أشكال الوجود؛ سواء الخلية الحية، أو المجموعة الشمسية، أو بنية المجتمع الذي نواته الحاكم.

شبكة واحدة كثيرة الأجزاء نواتها القلب، الذي يقابل الشمس، مصدر الحياة وقلب وجودنا النابض. وينبض القلب البشري بإيقاع قلب الشمس ذاته، وهو على اتصال بالقلب الباطني للكرة الأرضية الموجود في مكان ما من جبال الهيمالايا. كذلك يقابل الجهاز العصبي طاقة الكون الكهرومغناطيسية، والجسم على اتصال دائم بالطاقة الكونية (برانا Prana) وهو يستمد لها من النَّفس ومن يخضور النباتات (الكلوروفيل)، لكنها ليست الهواء ولا الماء ولا اليخضور.

وتتصل الذاكرة البشرية بالذاكرة الكونية، التي تحوى تاريخ الكون والأرض والإنسان منذ البدء الأول⁽¹⁾، لذلك فإن المعرفة الكونية كاملة في وعى الإنسان. كما تتصل الذاكرة البشرية بعناصر الإنسان الخمس، وبما أنها ذبذبية القوام فهي مسئولة عن الاحتفاظ بالإنسان واعياً. كذلك تحتوى الفسيولوجيا البشرية (التي هى تنظيم عمل أعضاء جسم الإنسان) على كل القدرة التنظيمية غير المحدودة للطبيعة. كما أن جوهر الكتب الهندوسية المقدسة موجود داخل تركيبية دماغ الإنسان.

وتَحَسَّبُ أَنَّكَ جُرْمٌ صَغِيرٌ وفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ⁽²⁾

الإنسان، إذن، كون صغير، خلية من خلايا الكون الكبير بكل ما فيه، ويملك كل صفاته. إنه جزء من كل، وتربط «المحبة» أجزاء الإنسان بعضها ببعض، مثلما تربطه بالوجود بأسره. لكن هذا الكون الصغير يعانى؛ لأنه لا يدرك وحدته مع الوجود، ولا يعى حقيقة مصدره، ولا يعى المعرفة الكامنة في داخله. وبما أن الإنسان في سفر دائم داخل نظام كوني يتفاعل معه، فإنه يتمتع بكل إيجابياته طالما كان في تناغم مع النظام، أما إذا أفسد الإنسان النظام نتيجة لفكر أو قول أو فعل، مهما كان بسيطاً، فعليه أن يدفع الثمن.

الذات المطلقة

جاء في الكتاب السابع من الأوبانيشاد: «إن الذات المتحررة من الشر ومن الخوف ومن الجوع والظلم، ومن الشيخوخة ومن الموت، والتي تتبنى دائماً الحق، تلك الذات ينبغي أن يسعى

(1) يعتبر الشيخ محيي الدين بن عربي (قطب التصوف الإسلامى الفيلسوفى) هذه الذاكرة الشاملة المحيطة هى (اللوحة المحفوظ).

(2) بيت شعر للإمام على بن أبى طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

إليها من يرغب في إدراك الحقيقة وفهمها، ومن يعثر على هذه الذات ويتفهمها يظفر بكل العوالم».

لذلك طرق بشدة أذهان الفلاسفة الهندوس سؤال: ما هي تلك الذات العجيبة الغامضة؟ والسؤال بأسلوب آخر: ماذا عساي أن أكون في أعماق وجود لي؟

لقد قام الحكماء في غمار محاولتهم الإجابة عن هذين السؤالين بتأمل الجوانب والوظائف المختلفة للإنسان. وتوصلوا إلى أن الذات لا يمكن أن تكون هي الجسد؛ لأن الجسد مجرد طعام مهضوم، بينما الذات لها من الخصائص ما يفوق الجسد/ الطعام بكثير، فهي ترى وتسمع وتحس وتتحرك وتعقل. ومن ثم تساءلوا: هل ننظر إلى الذات باعتبارها التعقل أو الوعي أو الإدراك؟ فتوصلوا إلى أنه لا بد أن يكون هناك من يمنح الوجود والفاعلية لتلك الملكات.

ومن ثم توصل حكماء الأوبانيشاد إلى أنه لا ينبغي البحث عن حقيقة الذات في أي من الصور الدنيا الملموسة للشخص. بل ينبغي أن يكون الموجه النهائي للنشاط الإنساني متميزاً ومفترقاً عنه. لكن ما هو ذلك الموجه؟

إن الموجه والفاعل المطلق هو «الذات المطلقة»؛ إنها حيث لا تعمل العين، ولا يعمل الكلام ولا الذهن، وبالتالي لا يمكن أن تكون موضوعاً للمعرفة قط. إنها وجود مجهول، إنها عماء. ويمكن أن نسميها (الوعي الذاتي الكلي) أو (الواقع الداخلي المطلق) ويسميها حكماء الهند (أتمان Atman).

لماذا خلقنا؟ - وحدة الوجود

قبل التكوين... لم يكن هناك وجود... لم يكن ثمة فرق بين مدرك ومدرك... لم يكن الخلق عملية تصنيع مادة جديدة... بل كان الخلق امتداداً خارجياً لمطلق غير قابل للانقسام... النتيجة كانت من صلب السبب... كانت عملية الخلق حالة خاصة من الوعي حصلت داخل المسبب... بذلك نشأت الكثرة عن الواحد... وصاحب ذلك أن اعترى الكثرة «شبق» للعودة إلى الأصل.

إن الغاية من الخلق هي الامتداد والنماء. أراد الخالق لذاته الامتداد، فكان هذا الوجود. فالله (البرهمن) هو الأساس الأول للخلق، وما الخليفة سوى تعبير أكثف عنه، كالماء الذي

هو التعبير الأكتف عن البخار. إذاً كل ما يُدرك هو الله، كل أزواج الأضداد في الله؛ النهار والليل، الخير والشر... كلها تعبيرات عن الوعي الواحد الأحد اللاتناهي. إن الله (البرهمن) هو الكل الذي نبثق منه الكائنات، وبه تبقى بعد أن تنبثق، وفيه تتوارى في النهاية⁽¹⁾.

ولما كان المطلق لا يمكن إلا أن يكون واحداً، توصل حكماء الأوبانيشاد إلى أن الواقع الخارجي المطلق (برهمن) هو الواقع الداخلي المطلق (أتمان). ومن ثم ليس هناك سوى واقع مطلق واحد يمكن إدراكه، سواء بالنظر إلى خارج ذات المرء أو بالنظر في أعماق ذاته. إنها شئ واحد، وكل الأشياء هي موجودة في داخل أتمان. وتعدّ وحدة «أتمان» و«برهمن» أعظم إبداعات حكماء الأوبانيشاد الفلسفية، إنها وحدة الوجود التي يتمسكون بها ويحافظون عليها بحرص شديد.

إن السفر في الحياة، إذاً، انطلاق من الذات الكبرى، ثم العودة إلى نقطة الانطلاق. ومن بين كل المخلوقات، وحده الجنس البشري هو الحائز على ملكة العقل والقدرة على التمييز، وهو المؤهل للعودة إلى المصدر عن سابق وعي وتصميم. وطريق العودة - طريق الارتقاء نحو الهدف الأسمى - هو الخلاص من شوائب الحياة الجسدية.

فالنفس تحصد عواقب أعمالها سلباً أو إيجاباً تبعاً لقانون الخلاص.

(1) غير فيلسوف وحدة الوجود قطب التصوف الإسلامي الفيلسوف الشيخ عبد الكريم الجيلي (767 - 826هـ) عن هذا المعنى في أبيات رائعة في قصيدته «النادرات العينية»:

وَمَا الخَلْقُ فِي التَّمثَالِ إِلَّا كَتَلَجَةٍ	وَأَنْتَ بِهَا المَاءُ الَّذِي هُوَ تَابِعُ
فَمَا التَّلَجُ فِي تَحْقِيقِنَا غَيْرَ مَائِهِ	وَعَرِيَانٌ فِي حُكْمِ دَعْوَتِهَا الشَّرَائِعُ
وَلَكِنْ بِذَوْبِ التَّلَجِ يُرْفَعُ حُكْمُهُ	وَيُوضَعُ حُكْمُ المَاءِ وَالْأَمْرُ وَاقِعُ
تَجَمَّعَتِ الأَضْدَادُ فِي وَاحِدِ النَّهْيِ	وَفِيهِ تَلَافَتْ فَهَوَ عَنْهُنَّ سَاطِعُ

في هذه الأبيات يُشَبَّه الجيلي المخلوقات كلها بـ «التلج»، الذي هو في حقيقته «ماء» يشير به الشاعر إلى الإله الخالق عَزَّوَجَلَّ. وتتضح الحقيقة إذا ذاب التلج، أي تلاشى الوجود، فلن يظهر إلا الماء (الإله عَزَّوَجَلَّ)، فهما وجهان لشيء واحد. وفي هذا الواحد تجمعت أزواج الأضداد. وبالرغم من إقرارى بروعة الصور البلاغية والإبداع الشعري في قصيدة النادرَات العينية، فإنني أرفض تماماً مفهوم وحدة الوجود، فالإسلام يؤكد بوضوح على إثنية الخالق والمخلوق.

البوذية

اشتهر سخط الهنود ضد استبداد البراهمة، حتى جاء القرن السادس قبل الميلاد⁽¹⁾ فإذا بالإحساس يصبح واقعاً، فتهب ثورتان كبيرتان في وجه الهندوسية، يقود ماهاويرا إحدى هاتين الثورتين (تؤدي إلى نشأة الديانة الجينية)⁽²⁾ ويقود بوذا ثانيتهما.

في كتاب «أديان الإنسان» The Religions of Man، يتدوئ هيوستن سميث فصله عن الديانة البوذية بعنوان: «الرجل الذي استيقظ»! في وصف لطبيعة البوذا، هذه الكلمة التي تعني «الشخص المستيقظ» أو «الشخص المستنير». يلمح هذا المصطلح إلى أن الغالبية العظمى من البشر لا يزالون نائمين روحياً، وأنهم قادرون على الاستيقاظ الروحاني من الغفوة التي هم فيها، والتي يسببها خداع النفس الذي تعارفنا عليه باسم «الوعي بالذات».

إن الرجل الذي اشتهر باسم بوذا هو في الأصل «سدارتا غوتاما» (563 - 483 ق. م). ولد سيدارتا وعاش في فترة عامرة بالجدل الديني والفلسفي حول طبيعة الحياة الإنسانية ومشكلاتها. جاء دخول سيدارتا غوتاما إلى المشهد الديني في عصره بعد أن هجر حياة الرخاء والرفاهية كابن لحاكم أرسقراطى، ففي العشرينيات من عمره أدرك أنه في عيشته المهانئة الرغيدة ليس محصناً من المرض والشيخوخة والموت. ومن ثم فقد قرر أن يجيأ كناسك زاهد سعيّاً وراء الشعور بالراحة والنعيم المحضين من التغير والمعاناة، كحالة أبدية لا تنقطع ولا تنتهي.

(1) يعتبر البعض أن القرن السادس قبل الميلاد من أجدر عصور التاريخ بالتأمل، ففي كل مكان كانت عقول الناس تُظهر جراءة جديدة، ويستيقظون مما ران عليهم من تقاليد الأباطرة والكهان ويسألون أشد الأسئلة تعمقاً، وكان الجنس البشري قد بلغ مرحلة الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة. ففي هذا القرن ظهر بالهند ماهاويرا معلم الجينية، وظهر بوذا مؤسس البوذية، وظهر بالصين كونفوشيوس المرابي العظيم، وفي إيران ظهر زرادشت، وفي بني إسرائيل بُعث النبي إشعياء، وارتفع صوت فيثاغورس في بلاد الإغريق، وفي مدينة أفسس تجلّى هيراقليطس بتأملاته وأبحاثه الفكرية في طبيعة الأشياء، وهكذا هبت موجة فكرية تجاوزت أصدائها في كل أنحاء البسيطة.

ونحن لا نوافق على هذا الرأي، فالحضارة المصرية القديمة بلغت قدراً كبيراً من النضج العقلي والفكري تجاه الأسئلة الوجودية المحورية قبل ذلك بعدة قرون، حتى قيل إن أفلاطون قد عثر على الحكمة حين جاء إلى مصر، حيث تعلم هو وفيثاغورس في مصر لأكثر من عشرين عاماً.

(2) الديانة الجينية: مزيج من عقائد الهندوسية والبوذية، يعتنقها قرابة المليون من الهنود الأغنياء، تهتم بالفنون والآداب.

أمضى غوتاما ست سنوات كناسك متجول يقوم ببعض الممارسات الدينية الموجودة في عصره، كاليوجا والتأمل، لكنها لم تحقق ما يصبو إليه. فمارس بعدها التقشف الشديد، فوجده يهدد سلامة الذهن والبصيرة. ومن ثمَّ سعى لإيجاد طريقه الروحي الخاص، فمارس التأمل مع التركيز على التنفس البطيء لطرده أي مشتتات ذهنية. وتدرجياً وجد ذهنه يصفو كأنه في غيبوبة، مع الحفاظ على وعيه وعلى سكونه الداخلي. ثم انتقل بعدها إلى مرحلة أعلى من الوضوح والسكون، تضاءلت معها سعادته السابقة، وفيها أحس أن العقل آلة قوية مدركة لمعارف الوجود كلها، مع تلاشي ما كان يكتنف عوالم الغيب من غموض، وهي حالة أطلق عليها اسم «الاستنارة».

مفهوم «المعاناة» في الفكر البوذي

يحتل مفهوم «المعاناة» في الفكر البوذي مكانة محورية، ويُعرف بـ «الدوخا Dukka»، وهي كلمة تُعبر عن جميع أشكال معاناة الإنسان. ومع الأخذ في الاعتبار أن الوجود الفاني يتسم كله بالمعاناة، فإن هدف البوذية النهائي هو القضاء تماماً على الدوخا.

ويرى الفكر البوذي أن الشيخوخة والموت يتبعان الميلاد، كما يتبع الليل النهار، وبغير الميلاد لن توجد معاناة الشيخوخة والموت. لكن ليس معنى ذلك أن اللاوجود هو السبيل إلى اللامعاناة، ولكن السبيل إلى «اللامعاناة» - في البوذية - هو «العدم»! عدم ماذا؟ وهل هناك فرق بين «العدم» و«اللاوجود»؟ من أجل الإجابة عن هذين التساؤلين علينا أن نفهم كيف تنظر البوذية إلى الذات الإنسانية.

وَهُم الذات الإنسانية

عندما نتأمل خصائصنا الجسمية والعقلية والنفسية، وما نقوم به من مهام وعمليات (حركية - حسية - عقلية - شعورية)، ننتهي إلى أن هناك «ذاتاً» أو «أنا» تُنسب إليها هذه الخصائص ويُنظر إليها باعتبارها القائمة بتلك الأنشطة، لذلك فإننا نقول: أنا فعلت كذا، وأنا سأقوم بكذا، هذا ملكي، هذا ابني. كذلك تُنسب المعاناة إلى هذه «الأنا»، فنقول: أنا أتألم، وأنا حزين، وأنا مريض بمرض خطير.

لكن، هل حقًا يوجد كيان حقيقي يمكن أن نطلق عليه «ذات» أو «أنا»؟

يرى بوذا أنه ليس في الإنسان شيء زائد على خصائص الإنسان ونشاطاته، يمكن أن يُشار إليه باعتباره الذات أو النفس، ومن ثم فإن الإنسان ليس إلا مجموعة الخصائص والنشاطات التي يقوم بها، وليس هناك شيء آخر.

إن تبني هذا الفهم يؤدي إلى تلاشي التعلق بـ «الأنا» المتوهمة، وهو ما يُعرف في البوذية بمذهب الأنااتا Anatta (اللاذات أو اللانفس)، ولا شك أن ذلك يؤدي تلقائيًا إلى القضاء جذريًا على المعاناة بالرغم من استمرار النشاطات. وفي غياب الذات لن تكون هناك نفس تُولد ولا نفس تمرض وتشبخ وتموت، سيكون هناك فقط ميلاد، ومرض، وشيخوخة، وموت، دون الربط بين هذه النشاطات وبين ذات إنسانية تجري عليها هذه الأحداث! وبالتالي لن تكون هناك معاناة، فالتعلق بالنشاطات (هذا ملكي - أنا أتألم - أنا سأموت - زوجتي وأولادي) هو الذي يجلب المعاناة.

الاستنارة والطريق إلى اللاذات

وصل بوذا بمجاهداته إلى «الاستنارة». في هذه الحالة وصل إلى ما صار يُعرف بـ (المعرفة الثلاثية): لقد أدرك أن التناسخ حقيقة، وأن مفهوم الجزاء (الكارما) حقيقة، كما توصل إلى مفهوم (الحقائق النبيلة الأربع) التي صارت لاحقًا حجر الزاوية في تعاليم بوذا، والتي تركز التخلص من «المعاناة».

في خطابه الأول الذي ألقاه بوذا على رفاقه عقب تلقي الاستنارة، قال لهم: إن المولد ألم، الهرم ألم، المرض ألم، الموت ألم، الاجتماع بغير المألوف ألم، الافتراق عن المألوف ألم، عدم ظُفر الرجل بما يهوى ألم. ثم بيّن بوذا أن أصل الألم هما الشهوة والهوى، فإذا وُجد وُجد التحديد والتخصيص (الشعور بـ «الأنا»)، ويؤدي هذا الانخداع إلى الحزن والألم والمعاناة. لذلك فالطريق إلى إعدام الألم هو إعدام الشهوة والهوى إعدامًا تامًا. في هذا الخطاب، وضع بوذا ما يسميه البوذيون «الحقائق الأربعة»: الألم موجود - الألم له سبب - سبب الألم قابل للزوال - لإبطال الألم ينبغي اتباع الطريق ذي الثماني سُعب، وهي:

الاعتقاد الصحيح - العزم الصحيح - القول الصحيح - العمل الصحيح
العيش الصحيح - الجهد الصحيح - الفكر الصحيح - التأمل الصحيح.

ويُعتبر الإيمان بـ «الحقائق الأربع النبيلة»، واتباع «الطريق ذي الشعب الثمانية» طريق النجاة عند البوذية. فبهذا الإيمان وهذا الطريق تمكن بوذا من تخليص ذاته من المعاناة، ومن التناسخ، وتمكن من الوصول إلى النيرفانا (اللذة القصوى) وهو حي، وصار بذلك «مستنيراً»، وهو المعنى الحرفي لكلمة بوذا.

النيرفانا

إن أسمى ما يتطلع إليه المهنود (باختلاف دياناتهم) هو تحقيق السعادة القصوى. ويكون ذلك في الهندوسية عن طريق التخلص من تكرار المولد (التخلص من التناسخ) وهو ما يُعرف بـ «الانطلاق». أما في البوذية فتعرف تلك السعادة بـ «النيرفانا»، ويتم الوصول إليها عن طريق «القضاء على الجهل» الذي «يوهمنا بوجود الأنا»، وهذا هو مفهوم الأنا (اللاذات - اللانفس). عند ذلك تتلاشى الرغبات المادية وتفنى الأغراض الشخصية الباطلة، التي تجعل الحياة دينئة وذليلة ومروعة، وبتعبير بوذا: كل من شاء أن ينقذ حياته عليه أن يخسرها. بذلك تتطهر النفس ويصل الفرد إلى أعلى درجات الصفاء الروحي. وبهذا الأسلوب يصل الإنسان إلى النيرفانا وهو حي.

وكما في الهندوسية، يمكن في البوذية أن يصل الإنسان إلى النيرفانا بعد الموت، إذا تخلص من تكرار المولد (دورات التناسخ)، وذلك بالقضاء على الرغبات والتوقف عن عمل الخير والشر. وقد رفض بوذا أن يصف النيرفانا، فهي لا توصف وإنما تُدّاق. وبعد أن كان - في أول الأمر - يرى أنها تعني الاندماج في الله والفناء فيه، فقد تغيرت أفكاره وتوقف عن الربط بينها وبين الإله، بعد أن تخلى عن القول بأن هناك إلهًا، واعتبر أن السؤال عن الغيب لا يُجدي نفعًا. لذلك قال لأحد تلاميذه: «ما قلت لك جثني أعلمك عن الذات وعن الكون، أيها المریدون لا تفكروا كما يفكر الناس، بل فكروا هكذا: هذا أمر - هذا مصدر الأمر - هذا إعدام الأمر». ومع ذلك كان بوذا يطلب من مريديه أن يدعوا ما بعد الحياة إلى اليد التي تولتها من البداية.

وأخيراً نقول، إن اتجاهات البوذية الخلقية واللاعقائدية سببت سرعة انتشار البوذية في الهند لسهولة هذه الاتجاهات وعدم تعارضها مع آلهة الهندوس، لذلك فإن كثيراً من الهندوس يتبعون البوذية في أخلاقها ويظلون على ولائهم لآلهة الهندوس، وبالعكس بدأ البوذيون يعترفون بالآلهة الهندوكية ويتقربون إليها، وبمرور الوقت صار لبوذا تماثلاً مقدساً ذاب بين الآلهة الكثيرة كما ذاب أتباع البوذية بين الهندوس.

ومن أكثر الأمور التي استرعت انتباهي وأدهشتني، أن بوذا الذي طالما أعلن أنه ليس هناك إلهاً، وأنه ليس نبياً، وأن قضية الألوهية فوق مستوى العقل البشري، قد صيَّره أتباعه إلهاً يعبدونه! واعتقد أن ذلك يرجع إلى غلبة فطرة الإنسان الباحثة عن إله، فلم يجد البوذيون أنسب منه إلهاً⁽¹⁾!!

الإنسان المصري القديم والذات الإنسانية

يختلف الشعب المصري القديم عن غيره من الشعوب في العناية التي كان يوجهها إلى حياة الإنسان بعد الموت. ففي الوقت الذي كان اليهود والإغريق يتحرَّجون من الحديث عن موتاهم، كان المصريون لا يدخرون وسعاً في المحافظة عليهم والعناية بهم والاهتمام بسعادتهم، كما كانوا يحرصون على ألا تنفني ذكراهم.

وبالرغم من أن قبور المصريين - في المراحل الحضارية الأولى - لم تكن أكثر من حفر بسيطة، فقد كانوا يودعون فيها ما يحتاج إليه موتاهم من طعام، وما يُدخل على قلوبهم البهجة والسرور. ثم أخذت هذه العناية تزداد بازدهار الحضارة المصرية بشكل لا مثيل له، فلن تجد في جميع حضارات العالم مقابر تماثل الأهرامات العظيمة، أو المقابر المزينة بالرسوم والمحفورة في الصخر في طيبة، كما لم تُودع في مقابر الموتى في أي مكان آخر ودائع وافرة قيِّمة مثل ما أُودع في مقابر المصريين.

(1) نجد في البوذية المعاصرة مذهبين: مذهب ماهايانا الشمالي، الذي يقُدس بوذا كابن للإله، ومذهب هنيانا الجنوبي، الذي ينكر الألوهية ويعتبر بوذا معلماً عظيماً.

ولم يكن الشعب المصرى ليبذل مثل هذه الجهود طوال خمسة آلاف سنة لولا إيمان المصرى القديم بثنائية الذات الإنسانية، والتي انعكست على تصويره عن العالم الآخر وعن حياة الموتى، وهى تصورات يمكن ترسّمها فى الأدب الجنائزى القديم الذى تخلّف لنا بكثرة لا تكاد تحصى، ومعظمه عبارة عن أوراّد تُتلى عند إعداد الجثة ودفنها، وعند إطعام الميت وتقديم العطايا إليه، وعندما يراد حمايته من كل سوء⁽¹⁾.

ثنائية الوجود وثنائية الذات الإنسانية

كان المصرى القديم يتبنى النظرة الثنائية للوجود؛ إله خالق وكون مخلوق، ويمكن رصد مرحلة وسطى بين هذين العنصرين، تتجلى فى الملوك الفراعنة، أبناء الإله الأعظم، الذين يجمعون بين الألوهية والبشرية.

وقد انعكست هذه الثنائية على نظرة الإنسان لذاته، فرأها تتكون أيضًا من عنصرين، جسد مادى وروح لا مادية حاول تجسيدها فى هيئات محسوسة. وإذا كانت معظم الحضارات الإنسانية القديمة قد اهتمت بالروح واعتبرتها جوهر الإنسان الأوحد، ولم تول الجسد أى اهتمام⁽²⁾، فإن المصرى القديم اهتم بالجسد بشكل لا مثيل له، فحافظ عليه بعد الموت، بالتجفيف ثم بالتحنيط. ويجسد تصور المصرى القديم لطبيعة الروح وعلاقتها بالجسد، الآلية المعقدة للانتقال من الحياة إلى الموت، ثم طبيعة الحياة الأخرى فى القبر وبعد البعث. فقد كان المصرى القديم يؤمن بأن للإنسان روحًا واحدة لها تسعة مظاهر⁽³⁾.

كان المصرى القديم يأتى إلى الحياة عندما يستقبل جسده الـ «Ka Ka» عند مولده بأمر من

(1) يمكن تقسيم هذه الأوراد إلى ثلاث مجموعات كبيرة، تبعًا لعهد كل منها وأسلوب كتابتها، وهى «متون الأهرام» التى ظهرت فى مقابر ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة، و«متون التوابيت»، وكانت تُكتب فى الدولة الوسطى على الجدران الداخلية لكثير من التوابيت، و«كتاب الموتى»، وهو أوراّد كانت تُكتب على قرطاس من البردى وتوضع إلى جانب الميت منذ الدولة الحديثة.

(2) تقوم الكثير من الحضارات - كالهندوس - بحرق أجساد موتاهم وذر رمادها فى الأنهار والبحار. أما المجوس فكانوا لا يحرقون أجساد موتاهم حتى لا تلوث النار المقدسة، وكانوا يتركونها فوق الجبال لتأكلها الطيور الجارحة، وتحف العظام وتتفتت ثم تحملها مياه الأمطار إلى البحر.

(3) هذا الرأى أكثر وجاهة - كما سنرى - من قول البعض بإيمان المصرى القديم بأن للإنسان تسع أرواح!

الإله رع، ومن ثم فـ«الكا» هي شخصية الإنسان المسئولة عن وجوده الانفعالي وأيضًا عن حركته وتنقله، والمعتقد أنها تشبه صاحبها تمامًا. وما دامت الكا مع الإنسان فهو حي يُرزق، وإذا مات هجرته، لكنها تظل معنية بالجسد الذي سكنته أمداً طويلاً، فتكون إلى جانب الميت من وقت إلى آخر، وتبادر إلى مساعدته إذا دعاها⁽¹⁾. لذلك كان القبر يُنعت بأنه «دار الكا». وبوصفها قريباً مادياً للمتوفى، كانت الأطعمة تُقدم إلى «كا» الميت⁽²⁾.

وإلى جانب الكا، اعتقد المصريون في هيئة أخرى للروح، وكانوا يسمونها «با Ba»، وهي المقابل الروحي الخالد للإنسان، وتعتبر أقدم وصف للروح في الحضارات القديمة. وقد تصوروا المصري القديم في مختلف الأشكال، فهي إذ تترك الجسد عند الموت وعند النوم، فقد تخيلوها كأنها طائر برأس إنسان. وربما تمثلوها بين الطيور التي تستقر على الأشجار التي غرسها الميت بنفسه من قبل⁽³⁾. وتمثل الـ«با» حلقة الوصل بين أرض الأحياء والحياة الأخرى، ففي الليل تمكث مع المومياء في مقبرتها المظلمة تحت الأرض، وفي النهار تغادرها كي تقضى يومها في أشعة الشمس.

أما المظهر الثالث من الروح فتمثله «آخ Akh»، الروح المباركة المجيدة التي نجت من الموت، وكانت عنصرًا مضيئاً يمنح البركة والمجد للمتوفى، وصُورت الـ«آخ» بوصفها الشخص نفسه، وكان يُعتقد أنها تختلط بالآلهة حين ترقى إلى المجد.

وبالإضافة لهذه المظاهر الثلاثة الرئيسية للروح، هناك الـ«خو Khu» وهو الروح المسئولة عن الحياة والوعي، وتسكن الدم. وهناك الـ«آب Ab» ويسكن في القلب، وهو محل

(1) جاء في كتابة متأخرة: «إنك تعيش سعيداً أبداً وبجانبك الكا التي لك، إنها لن تهجرك أبداً». وقد تطورت كثيرًا الفكرة الغامضة عن الكا، فكانت تُعتبر تارة كأنها كائن إلهي، وتارة كأنها الملاك الحارس، الذي يهتم بالإنسان، ويعنى بأمره، وتارة كانت الكا هي التي تلد الابن. وفي أحيان أخرى كانت «الكاوات الحية» تعبيراً رشيماً يوصف به الناس؛ وتارة أخرى كانت الكاوات تعبر عن قوى الحياة، أي عن الأطعمة، أو كانت سائر النعم التي يتصرف فيها إله الشمس. وفضلاً عن ذلك فقد كان لفظ الكا يُحشر بكثرة في مختلف التراكيب والجمل.

(2) كانت أكثر النقوش الجنائزية شيوعاً تطلب لـ«كا» المتوفى «ألقاً من الخبز، وألقاً من البيرة، وثيران وطيور».

(3) وتخيلها آخرون كزهرة اللوتس التي تتفتح أكامها وهي تطفو فوق سطح البحيرة في أثناء الليل، وفكر فريق آخر في الثعبان الذي يندفع من حجره في غموض كأنه «ابن الأرض»، أو في التمساح الذي يزحف من الماء إلى الأرض كأنه ينتمي حقاً إلى عالم الأرض.

الحكمة والمعرفة والفهم، وعندما يكون «آب» واعياً يكون الإنسان حَيِّراً، وإذا غاب آب عن وعيه يصبح الإنسان شريراً، أى أنه يقابل الضمير في مفهومنا المعاصر.

وهناك أيضاً الـ «خيبوت Khaibut»، إنها كظل الإنسان يمكن أن توجد خارجه. ويستخدمه من يمارسون السحر الأسود ليوجهوا إلى الإنسان سيظرتهم وأذاهم، ويجسدونها في العرائس التي تُغرَز فيها الإبر لإنزال الشر بالإنسان. وما زلنا نجد في المجتمعات القبلية - التي لا تعرف التصوير الفوتوغرافي - من يرفضون تصويرهم ويعتقدون أن ذلك يؤدي إلى الموت، ففيه تقييد وحبس للخيبوت.

أما الـ «خات Khat» فمسئولة عن النشاطات العضوية للجسد، كالتنفس وضربات القلب. وهناك الـ «سيخام Sekham» المسئولة عن القوى الحيوية للإنسان وعن تجسده.

وأخيراً الـ «رن Ren»، وهو الاسم الذي يُطلق على الإنسان عند الميلاد، وهو مقدس وله قدرات عالية. وعادة لا يعلن الوالدان هذا الاسم حتى يصل صغيرهما سن البلوغ، فانتشار الاسم يؤثر في مصير الفرد في الحياة الأخرى. وإذا عرف شخص الاسم الحقيقي للإله ونطقه بطريقة صحيحة كانت له السيطرة على الإله.

ولا تتعجب قارئى الكريم من تعدد مظاهر الروح عند المصرى القديم، فهذا أمر طبيعى في هذه القضية. فقد اختلف المفسرون في العلاقة بين الروح والنفس كما جاء في القرآن الكريم، كما جاء فيه لفظا الروح والنفس بمعان متعددة. كما يعتقد المسيحيون في تعدد مظاهر الإله الواحد، فقالوا بالأقانيم الثلاثة: الأب والابن والروح القدس. والحال نفسه في الهندوسية كما رأينا منذ قليل.

ولكى يعيش المصرى القديم مرة أخرى بعد الموت، كان عليه استيفاء عدة متطلبات. فلا بد أولاً من حفظ جسده؛ لأنه الموطن والملاذ للروح لذلك عمد المصريون لممارسة التحنيط كوسيلة للاحتفاظ بالجسد المادى. علاوة على ذلك، يجب أن يحتفظ الجسد بمعالمة حتى تتمكن الـ «با» من التعرف عليه والعودة إليه كل ليلة، لذلك كان يتم التأكيد على هوية الجسد بوسائل عديدة، مثل وضع نموذج بالجص للملامح المومياء، وحفظه في تابوت شبيه بالإنسان، وتزويده برأس إضافية أو قدمين مصنوعتين من الورق المقوى، ولمزيد من الحرص، كان يتم وضع تماثيل في المقبرة على هيئة المتوفى.

ولتزويد «كا» المتوفى بالطعام والشراب ولوازمه التي كان يستعملها في أثناء حياته، فقد أصبحت المقابر مستودعات، مجهزة بكل شيء يحتاج إليه المتوفى في الحياة الآخرة. وكان المصريون يعتقدون أن الصور بإمكانها أن تحل محل الشيء الفعلي، لذلك كانت حوائط المقابر تُزِين بِمَشَاهِدٍ لِحَامِلِي الْقَرَابِينِ وإعداد الطعام، وأيضًا بمشاهد للحياة العائلية والنشاطات التي كان المتوفى يستمتع بها، أو يأمل أن يستمتع بها في الحياة الآخرة. كذلك كان الكثير من المقابر يُزود بتمائيل العمال ونماذج لورش كاملة ستقوم بإمداد المتوفى بما يحتاج إليه كي يحيا الخلود في راحة وترف، دون الحاجة للتضحية بالناس ليصاحبوا سيدهم في الحياة الأخرى، كما هو الحال في بعض الحضارات الأخرى.

الأخلاق الفاضلة، الطريق إلى الخلود

تتوقف عودة الحياة إلى الميت على أن يكون إنسانًا فاضلاً وقت حياته. فقد كان المصريون يعتقدون أن روح المتوفى تمثل أمام محكمة الآلهة في «قاعة الحقيقتين». وكان قلب المتوفى، الذي يُعتقد أنه مقر الروح والعقل، يوزن في ميزان مقابل الريشة التي ترمز إلى «ماعت» أو الحقيقة، ثم يتلو المتوفى بعدئذ التعاويذ من «كتاب الموتى»، ضمن طقس ديني للبرهنة على براءته من الآثام، على النحو التالي:

أنا أعطيت خبزًا للجائع، وبيرة للعطشان، وملابس للعريان، وقاربًا لمن لا قارب له... أنا لم أحرم اليتيم من ممتلكاته؛ أنا لم أقتل؛ ولم أمر بالقتل. لقد قَرَّبْتُ الْقَرَابِينَ إِلَى الْآلِهَةِ، وقدمت قرابين التوسل إلى الأرواح... أنا طاهر اليدين واللسان... لقد فعلت الصواب من أجل مالك الحقيقة... أنا طاهر من أمامي، ومن خلفي.

والتأمل لقائمة الذنوب في المصادر المختلفة، يجدها تشمل اثنين وأربعين إثماً بعدد الآلهة قضية المحكمة، الذين يُمثّلون مقاطعات مصر الاثنتين والأربعين.

ولو كان الاعتراف صادقًا، يتوازن قلب المتوفى مع ريشة ماعت، ويُسمح للميت (أو للميتة) بالمرور إلى الحياة الأخرى. ومن ذلك الوقت، يُقَرَّن اسم الشخص المتوفى بأوزيريس، إله الحياة الآخرة، لينال مجد آخ الأعلى، ويصبح أحد الموتى المقدسين الذين سيقضون حياة خالدة هانئة.

عالم الموتى، بين طبقية ومساواة

لكن أين يوجد عالم الموتى هذا؟ لقد كان المصري يرى الشمس كل مساء تغيب في الغرب لتبدو من جديد في الشرق عند الصباح، فلا بد أنها قد جابت في الليل عالماً سفلياً. وعلى نحو ما تصنع الشمس، ذهب الظن إلى أن الموتى يهبطون في الغرب ويعيشون في عالم مظلم، يتألق فيه النور عندما تمر من فوقهم الشمس في رحلتها بالليل. لذلك سُمِّيَ عالم الموتى باسم «الغرب»، وسُمِّيَ الموتى «بأهل الغرب»، وقد نُصِّبَ أحد آلهة الموتى حاكماً على الغرب.

ولا بد أن هناك مَقَرًّا مُمَيَّزًا للأرواح الممتازة، خاصة للملوك أنصاف الآلهة. لقد كان هذا المَقَرُّ في السماء، حيث تصور المصريون عالماً ثانياً للموتى، أطلقوا عليه اسم «دوات». أليس هؤلاء الممتازون هم هذه النجوم اللامتناهية التي لا اسم لها؟ لا شك أن هذه النجوم ليست إلا موتى أو أرواح سعيدة وجدت طريقها إلى السماء؛ حيث ظلت في سناء دائم إلى جانب الإله العظيم، سيد السماء الإله رع، إله الشمس، ومع غيره من الآلهة النجوم المشهورة، كالشعري اليمانية والجبار ونجمة الصباح.

أليس من الطبيعي ألا يُلقَى الفرعون ابن رع على الأرض، بل ينبغي أن يبقى في السماء، وأن تُرسل الرسل إلى أهلها ليخبروهم بأنه قد صار لهم ملك جديد.

ودون منزلة الملوك، هناك من يحيون في «مقر الأبرار»، الذي تصوّره المصري كمجموعة من الجزر تحيط بها المياه، وربما أوحى بهذا التصور شكل المجرة باهت اللون، التي تحيط شعابها مساحات قائمة. وتمد إلهات السماء أئدائها إلى فم المتوفى المتميز ترضعانه لبناً طاهراً ولا تفتطمانه أبداً. أما المتوفى الأدنى منزلة، والذي لا يستطيع التخلي عن عادات عالم الأرض، فيتلقى نصيبه من الطعام من شونة الإله العظيم، كما سيرتدى من الثياب ما لا يفنى.

وفي نصوص أخرى، نجد قدرًا أكبر من المساواة. ففي عقيدة الإله المتوفى أوزيريس - الذي غدا ملكاً للموتى أجمعين ومثالاً يحتذونه - نجد أن الرجل الذي يُفصم عنوة عن الحياة ويخلف وراءه زوجته وأولاده ويُدفن في الأرض، حَرِيًّا بأن يلقى ما لاقاه الإله⁽¹⁾. إنه سيُبعث

(1) جاء في المتون «فكما أن أوزيريس حي حقاً، فسيحيا هو كذلك، وكما أن أوزيريس لم يُمَحَق فهو أيضًا لن يُمَحَق».

في هيئة أوزوريس ثان إلى حياة جديدة سعيدة، لا على شكل شبح خيالي، وإنما في بعث مجسد حقيقي، وسيشب ابنه كحورس ثان، وسينتصر على العدو الذي أتلّف حياة أبيه كما انتصر حورس على عمه ست الشرير، وسيحمى بيته ويصون شرف اسمه.

أما الموتى الذين يخفقون في الامتحان في مملكة أوزوريس، فإنهم يظلون في مقابرهم يضيئهم الجوع والعطش، ولا يشاهدون الشمس بنهار أو ليل. كما أن القضاة (الذين تدل أسماؤهم على عقوبات مروعة) يحملون سيوفاً لمعاينة المذنب، والحيوان المخيف الواقف أمام أوزوريس سيلتهم الميت ويمزقه. وفيما عدا ذلك لا نعرف شيئاً كثيراً عن مآل هذا البائس، إذ لم يكن ذلك موضوعاً يميل خيال الشعب إلى استقصائه.

وكان من أخوف ما يخشاه الميت أن يفسد جسده، فينقطع تواصله مع الآلهة، فلا يكون له فم يتحدث به إليهم، أو أن يُسلب منه قلبه، وأن تُقَطَّع رأسه، أو أن تعضه الثعابين، أو أن يضل طريقه فيقع على مذبح الإله قرباناً تعيساً، أو أن يعوزه الطعام والشراب. وقد وجد المصري القديم في تعازيم السحر وفي الأوراد النجاة من كل ذلك.

إن ما عالجنه من ثنائية الذات الإنسانية ومآلها بعد الموت عند المصري القديم، إنما يتعلق بالغيب الذي وراء الحس، ولا يجوز أن نأخذ ما جاء فيها بدقة تامة، والأرجح عندي أن لها أصولاً دينية سماوية⁽¹⁾، وعندما خبت تلك الأصول، احتفظ الوجدان المصري بالأفكار الجوهرية منها، وعَبَّرَ عنها الخيال الأصيل في صور حية، يجد فيها الإنسان من الغموض والإبهام سحراً خاصاً يجسد بصدق الكثير مما نؤمن به نحن معتنقو الديانات السماوية.

القارئ الكريم

استعرضنا في هذا الفصل أربعة أنماط من الفكر البشري، وتأملنا نظرتها للذات الإنسانية. كانت بدايتنا مع «الفلسفة الغربية» (الفلسفة اليونانية القديمة والفلسفة الحديثة)، ولا شك أنها أكثر الأنماط تجرداً كعمل عقلي بعيد عن الروافد الدينية. وقد لاحظنا أن معظم فلاسفة هذه المدرسة أدركوا في الإنسان ثنائية الروح/العقل - الجسم، وإن كانوا قد انقسموا إلى فريقين رئيسيين؛ الفريق الأول، يرى أن الروح موجود مادي يتكون من نفس ذرات المادة في

(1) قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أُمَّةٍ إِخْلَافِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24].

أدق صورها (كالهواء والنار)، وهؤلاء هم الفلاسفة الذريون في مرحلة ما قبل سقراط. ويرى الفريق الثاني أن الروح/العقل جوهر لا مادي، ويختلف بذلك عن الوجود كله. وأشهر هؤلاء هم الفيثاغورثيون وأرسطو ثم الديكارتيون في الفلسفة الحديثة.

ثم انتقلنا إلى «الفكر الشرقي القديم»، فقابلتنا «الهندوسية»، كمزيج متباين من الفكر الديني والعمل العقلي والنظرات الفلكلورية، وفيها وجدنا ثنائية الروح/العقل-الجسد ظاهرة تمامًا في حياة الإنسان الحالية. وبعد أن تنتهي دورات التناسخ وتتحلر الروح وتفتنى الجسدية، ترتد الثنائية إلى واحدة، ليست للكائن الإنساني وحسب، لكنها وحدة وجود مطلقة ليس فيها فرق بين الموجد والموجود ولا بين السبب والنتيجة.

ثم وقفنا مع «البوذية» - كمحاولة للتحرر من سطوة رجال الدين الهندوس - فوجدناها تحاول التحرر من الدين ككل. فبوذا - انطلاقًا من تجاربه الذاتية - أنكر الوجود الإلهي، كما أنكر وجود الذات الإنسانية! بعد أن اعتبر أن كل ما يقع للإنسان هو مجرد خصائص ونشاطات لا ترجع إلى ذات فاعلة. وبالرغم من ذلك نجد البوذيين اليوم يقصدسون بوذا ويضعون تماثيله ضمن تماثيل آلهة الهندوسية! ولا أرى ذلك إلا استجابة لفطرة عارمة داخل الإنسان تدفعه للبحث عن الإله الخالق.

وأخيرًا كانت وقفنا مع «الفكر المصري القديم»، ولا شك عندي في أصوله الدينية السماوية. وأرى أن دور العقل قد اقتصر على صياغة التفاصيل، التي إذا جردت يتبقى تصور عقائدي واضح لا يختلف كثيرًا عن معتقداتنا الدينية. فالمصري القديم يؤمن بثنائية الإله الخالق والإنسان المخلوق، كما يؤمن بثنائية الروح-الجسد، سواء في الحياة الدنيا أو في الحياة الآخرة. وقد انعكست هذه النظرة على حياة المصري القديم، سواء في سلوكه، أو عاداته وتقاليده، أو في هندسته ومعماره.

عسى أن أكون - قارئ الكريم - قد وُفقت في هذا الفصل لأن أنقل إليك بعضًا من جهود العقل الإنساني في النظر إلى الذات الإنسانية، إلى «أنا». وإذا كان «لكل جواد كبوة» فلعلك تشاركني الرأي بأن العقل الإنساني قد أصاب أحيانًا وكبًا أحيانًا أخرى في سعيه لفهم الإنسان. ولعل العقبة الكوؤد التي أعاقته عن الوصول إلى كمال الحقيقة هي القاعدة البديهية بأن إدراك الشيء على حقيقته يحتاج إلى مُدرك أعلى، لذلك فإن النظرة في المرأة لا تعكس إلا الصورة الظاهرة، ولكن ألا يكفي العقل الإنساني - ويكفيينا - شرف المحاولة؟

الفصل السابع

أنا ... ذات عاقلة

- كائن متميز متفرد
 - العقل والجسد والآخرين
 - مؤسسة الأسرة
 - مع الأرقام
- المدحمة...
 - أسلاف الصيادون وجامعو الثمار
 - حياة الرفاهية والسكينة
 - التكيف الفسيولوجي
 - إنتاج الغذاء
 - الإعداد لإنتاج الغذاء
 - آثار إنتاج الغذاء
 - الفلاحون الدائمون
 - سمات مجتمع الفلاحين
 - الثورة المدنية
 - مقدمات الثورة ومسارها
 - نشأة وتطور الكتابة
 - آثار الثورة المدنية
- التحديث
 - معايير التحديث
 - خدعة تحديثية تكنولوجية.
 - آثار التحديث
- مع الحضارتين، المصرية القديمة والعربية الإسلامية.
 - حضارة أجداد المصريين القدماء
 - فجر الضمير
 - فجر جنة الخلد
 - فجر الحضارة في مصر
 - الحضارة العربية الإسلامية - هويتي
- القارئ الكريم

بين أصدقائي أسرة متميزة متفردة، جمعت بين الثراء المادى وتقدّم الزوج والزوجة في ميدان الفكر والعلم، وفي الأسرة ابنان تمتعا بما قدمه لهما والداهما من مميزات وتيسيرات. لم يأخذ أحد الابنين حياته مأخذ الجد، بل أضاعها في اللهو والبحث عن المتعة، ولم يبذل جهداً من أجل بناء مستقبله، فأصبح مثلاً للشباب الفاسد الفاشل المتخلف. أما الابن الآخر فقد أحسن استغلال ما أتاحت له أسرته من إمكانيات، فبذل الجهد والعرق، وبني لنفسه حياة راقية هو جدير بها. لكنه - مثل الكثير من رجال الأعمال الناجحين - انشغل حتى أذنيه في بناء إمبراطوريته الاقتصادية الكبيرة، وفي سبيل تحقيق ذلك لم يبالي الشاب بالقيم الإنسانية والدينية التى تربي عليها، كما شغل عن والديه وكان عاقاً لهما، بل وسبب لهما، متاعب ومشكلات كثيرة.

تشير هذه القصة الرمزية إلى البشرية وقصتها مع الحضارة. فقد أتيحت للإنسان كل الموارد المادية، كما زوّد بالملكات والقدرات الفطرية التى تمكنه من بناء الحضارة. تكاسلت جماعات من الجنس البشرى عن استغلال طاقاتها ومواردها فكان مآلها الفشل والتخلف، بل أصاب بعضها الفناء (الابن الأول). بينما أحسنت جماعات أخرى استغلال تلك الطاقات والموارد (كالابن الثانى)، فبنت حضارات شامخة، لكن آخرها وأقواها ضلت الطريق، وجرفها شلال المادة، وألقى بها بعيداً عن الهدف.

ولعلك قارئى الكريم أدركت أن الأمم - فى قصتنا - ترمز إلى الفطرة السوية والمنظومة الأخلاقية اللتين أفسدهما الإنسان المعاصر، بينما يرمز الأب إلى موارد الطبيعة والبيئة التى أتلفها الإنسان وكاد أن يستنزفها ويدمرها، فى أثناء بحثه الحثيث عن الثراء المادى واللذة اللامتناهية.

وإليك قصة أسلافى وصراعهم من أجل بناء الحضارة:

كائن مُتميز مُتفرد

إن المتابع لأسلافنا الأوائل وهم يفرون خائفين وسط حشائش السافانا في أفريقيا هرباً من حيوان مفترس، ما كان يتصور أنهم في يوم من الأيام سيسودون كوكب الأرض، بل وينجحون في الخروج منه إلى الكواكب المحيطة!!

كيف استطاع هذا الكائن الضعيف الدفاع عن نفسه بشكل فعّال، وليس له ناب ولا مخلب، ولا جلد مدرع، وليس سريع الحركة كالحیوانات المفترسة؟ إن كل هذه المميزات تُعتبر ضئيلة إذا ما قورنت بتكنولوجيا الحماية التي توصل إليها العقل البشري، حتى إن عصا مصنوعة من غصن سميك متين في يد إنسان كانت أفضل كثيراً من ناب قاطع أو مخلب حاد.

لقد أصبح الجنس البشري الذي قضى طفولته فاراً من مفترسات السافانا الأفريقية هو أكثر الكائنات انتشاراً وأكثرها قدرة على العيش في جميع البيئات على شدة تباينها. فبني الإنسان يسكنون في بيئات يتراوح مداها بين مئات الأقدام تحت سطح البحر وقرى جبلية على ارتفاع يتجاوز الـ 16.000 قدم فوق سطح البحر، كما يسكنون غابات المطر الاستوائية التي لا تصل إليها أشعة الشمس والصحراء القاحلة التي تشوى رمالها الشمس الحارقة، وأيضاً القطب الشمالي الذي تُجمد برودته ماء الشرب⁽¹⁾. بل لقد طور البشر أساليب تمكنهم من حمل بيئتهم معهم إلى أعماق البحر وإلى الفضاء الخارجي.

العقل والجسد والآخرين

إن ما مَنَّكَ الإنسان من البقاء ثم الانتشار وبناء الحضارات هو مزيج مُحكَّم التوازن من عناصر ثلاثة: العقل - والبنية الجسدية - والسلوك الاجتماعي الفطري. وقد تحدثنا في الفصل الأول عن الملكات التي تميز العقل الإنساني، وتجعل الجنس البشري متفرداً، وإن كنا ما زلنا نجهل الطريقة التي يحول بها الدماغ طاقة كهربائية لا تزيد على 10 واط مع بعض الكيماويات إلى ذكريات وتجارب سابقة وأفكار جديدة وعمليات فكرية خلاقة، وإلى

(1) يشارك الإنسان في هذا الانتشار البيئي الواسع كائنات قليلة جداً، منها الكلب والقوارض والقمل.

شعور وعواطف وأحلام، وباختصار إلى وعى كامل بأنفسنا وبيئتنا. ولا شك أن أعظم إبداع حضارى للعقل البشرى كان اللغة الإنسانية، التى أعانت الإنسان على التفكير والاحتفاظ بالمعلومات والتواصل مع الآخرين وتوارث المعرفة عبر الأجيال، مما مَكَّن كل جيل أن يبدأ من حيث انتهى السابقون.

كذلك تناولنا فى الفصل الخامس تعديلات البنية الجسدية للإنسان، والتى تركزت حول القدمانية (السير منتصب القامة) وتعديل بنية ووظيفة اليد، مما جعلها مؤهلة للقيام بوظائف ثلاث؛ فهى عضو حس اللمس الرئيسى، حتى إنها تستطيع أن تمارس وظيفتها هذه فى الظلام ومن خلف السواتر. وهى عضو للإشارة، إذ تستطيع توجيه الانتباه إلى الأشياء وإصدار التعليمات ونقل الأفكار والتواصل مع الآخرين فى لغة غير منطوقة. وفى نفس الوقت، احتفظت الذراعين بدور مهم فى الحركة، فالإنسان الماشى على قدمين ما زال فى حاجة لأن يؤرجح ذراعيه فى الهواء فى أثناء سيره (خاصة الرجال) ليحافظ على توازنه، عوضاً عن المشى على أربع.

وقد أعانت هاتان اليدان الماهرتان العقل على التفوق فى ميدان التكنولوجيا، فأصبح الإنسان وحده هو الذى يصنع الأدوات بقدر كبير من الإتقان والتعقيد والابتكار، مما حدا بالفيلسوف الكبير إيمانويل كانت للاعتقاد بأن «اليد هى مخ الإنسان الخارجى». إن الإنسان يقوم بهذه الإنجازات بالرغم من أنه لا يمتلك برامج عقلية فطرية لإنتاج تلك الأدوات واستعمالها. ولكن ذلك لا ينفى أنه يتمتع بملكة فطرية (لا توجد فى أى كائن آخر) على الإبداع أعانته على الابتكار.

ويبقى العنصر الثالث الذى أعان أسلافنا على البقاء ثم الانتشار وبناء الحضارات، وهو السلوك الاجتماعى الفطرى. ويتجلى هذا السلوك فى ثلاثة مستويات؛ أولها هو علاقة الرجل والمرأة، والتى لا تقف عند إشباع كل منهما للآخر جنسياً، ولكن تمتد إلى توزيع المهام، سواء فى تدبير الغذاء (يقوم الرجل بالصيد والمرأة بجمع الثمار) أو الواجبات تجاه الأسرة (تقوم المرأة بإنجاب الأطفال وإرضاعهم ورعايتهم، ويقوم الرجل بالدفاع عن الأسرة وبما تحتاج إليه من أعمال شاقة كبناء البيوت). والمستوى الثانى هو العلاقة بين الوالدين والأبناء؛ فإذا كانت صغار القردة تنفصل عن الأسرة مبكراً، حتى إن أمهات القردة لا تُشرك صغارها بعد الفطام فى الغذاء، فإن فترة الحضانة والرعاية الأسرية تمتد إلى أكثر من عشرين عاماً عند البشر. ويظهر المستوى الثالث من السلوك الاجتماعى فى معيشة عدة عائلات إنسانية معاً، إذ يحقق لهم ذلك

الحصول على غذاء أكثر، والمحافظة على حياتهم بشكل أفضل، مما أتاح لهم أن يُنتجوا نسلاً أكثر عددًا.

وقد أدرك الإنسان حتمية العيش في جماعات، حتى إننا نجد من يقيمون في صحراء كالاهاري الشاسعة قليلة السكان يعيشون متكديسين في مخيمات تُعتبر من أكثر مناطق العالم ازدحامًا!

مؤسسة الأسرة

لا شك أن مؤسسة الأسرة كانت أكبر وأرسخ ابتكارات الإنسان منذ بداية بنائه لحضارته وحتى الآن، حتى يمكننا القول إنه لولا استقرار الأسرة عبر التاريخ لأصاب الإنسان الانقراض كما حدث لكائنات أخرى.

وإذا كان قطع الحبل السرى عند الولادة يفصل الوليد عن أمه، فإن الصلة تعود في إطار جديد، حميمة كما كانت، ولكن بحبل سرى رمزي هو الأسرة، التي تكفل للطفل الحماية والتغذية وإمداده بالآراء والأشياء التي ستؤهله لأن يصبح عضوًا كاملًا في المجتمع. ويظل هذا الحبل السرى باقياً ما بقى الإنسان حيًا، بالرغم من استقلاله المادي عن أسرته، إذ تظل تمده بالإشباع النفسي. لذلك صرنا نتحدث (عن جدارة) عن شجرة العائلة، التي يحافظ كل فرع فيها على علاقته بالأصل.

والأسرة اختراع يتفرد به بنو الإنسان، إذ يحقق لكل منهم عددًا من المتطلبات الأساسية التي لا غنى عنها؛ وهي إشباع الغريزة الجنسية، وإشباع غريزة الأمومة والأبوة، وتوفير البيئة المناسبة لرعاية الأطفال لفترة طويلة، والحصول على الغذاء وبقية المتطلبات المادية، وقبل كل ذلك إشباع الحاجة النفسية للمشاركة والصحة. ويتم ذلك كله من خلال تحديد الحقوق والواجبات المتبادلة بين طرفي الزواج. وما كان ذلك ممكنًا في غياب صفة إنسانية فريدة، وهي سيطرة العقل الواعي على شهوة الإنسان الجنسية وميوله الأنانية ونزعتة العدوانية.

وفي كل المجتمعات، تُعتبر مراسم وطقوس الزواج بمثابة إعلان لقبول الشخصين (بشكل أبدي) الالتزام بقيم مجتمعهم والعمل على تأصيل ثقافته وتوارثها من جيل إلى جيل، وفي المقابل يعلن المجتمع رضاه عن هذه العلاقة، ويعتبر أن الأطفال الذين ينجمون عنها شرعيون يتمتعون بجميع حقوق أفراد المجتمع.

وفي عام 1933، شكّل الرئيس الأمريكي لجنة خاصة لتحديد ما الذي تفعله الأسرة للفرد وللمجتمع ككل. جاء في تقرير اللجنة أن نشاطات الأسرة تشمل المناحى التالية: الإنجاب واستمرار النوع - الاقتصاد - التربية والتعليم - الحماية - تلقين المفاهيم الدينية - إضفاء المركز الاجتماعى - الترفيه - توفير الصحبة. واليوم، وبعد أكثر من ثلاثة أرباع قرن، لم تعد الأسرة تؤلّى بعض هذه النشاطات الاهتمام بعد أن تكيّفت مع المجتمع المتغير. فعلى سبيل المثال، لم تعد الأسرة وحدة منتجة مستهلكة، بل أصبحت مستهلكة فقط بعد أن أوكل أمر الإنتاج إلى المصانع، كذلك قل دور الأسرة في المشاركة والصحبة مع شيوع وسائل الترفيه الحديثة.

وقد قدم الأنثروبولوجيون العديد من التفسيرات لنشأة الأسرة، نرى وجهة في تفسيرين منها؛ الأول: أن الأسرة بدأت برباط بين الأم وأولادها، ويستشهد مناصرو هذا الرأى بالمجتمعات الأُمّية، التى تنسب الأبناء إلى أمهاتهم وتعترف بالقرابة والإرث من جهة الأم فقط، وفيها يسكن العروسان عند أم العروس. والتفسير الثانى يرفض التفسير الأول، انطلاقاً من أن المجتمعات الأُمّية لم تُعمر طويلاً، ويطرحون بدلاً منه أن الأسرة نشأت نتيجة للانجذاب الجنسى والنفسى بين كل من الذكر والأنثى فى بداية تاريخ الإنسان، ويتخذون من قصة آدم وحواء دليلاً على ذلك.

مما مضى، نرى أن الأسرة - كطرح إلهى/إنسانى حيوى حاسم - لا يمكن أن يقوم بدونها مجتمع، ولا يمكن أن تختفى دون أن يختفى أيضاً أسلوب الحياة الإنسانية كما نعرفه، لذلك فشلت كل المحاولات التى جرت لإلغاء مؤسسة الأسرة⁽¹⁾.

(1) إذا أردنا تصور وضعاً بديلاً لمؤسسة الأسرة، قابلنا عدداً من الأطروحات التى قُدمت بحيث تلغى هذه المؤسسة وتحافظ على المجتمع موجوداً. وإليك إحدى هذه الأطروحات التى تتمتع بقدر من الفكاهة وخفة الظل، والتى يعرضها بيتر فارب فى كتابه (بنو الإنسان):
تصور مجتمعاً أراد أن يلغى مؤسسة الأسرة بعد أن سيطر عليه مجموعة من التقدميين! فأوكل إلى زعيمة عظيمة هذه المهمة، فأصدرت مرسوماً يفرض إخصاب الإناث اللاتي يردن أطفالاً صناعياً بحيوانات منوية تؤخذ من ذكور حسنى الصفات الوراثية، وأن يُربى الأطفال فى حضانات ثم مدارس داخلية تلقنهم قيم المجتمع. وفى هذا المجتمع تكون العلاقات الجنسية مشاعاً بين الجميع وتكون بقصد المتعة فقط، وإذا حدث حمل نتيجة ذلك أعتبر الجنين غير شرعى وأجهض. أما المشاركة الاقتصادية فلا حاجة لها، فكل فرد يدبر نفقات معيشته لنفسه فقط، فلا أسرة هناك. وأخيراً - وليس بأخر - تقوم أجهزة حكومية بالإشراف على الملكية الفردية والإنتاج والتوزيع وكل شئ!!!

مع الأرقام

وفي نظرة سريعة لتاريخ أسلافنا منذ أن خلق الله تعالى الإنسان وحتى الآن، نجد أنه قد عاش على سطح الأرض حوالي 100 بليون نسمة (100.000 مليون). وقبل اثني عشر ألف عام (تمثل حوالي 500 جيل إنسانى فقط) بلغ عدد سكان الأرض حوالي عشرة ملايين نسمة جميعهم يعيشون حياة الصيد وجمع الثمار، وفي هذا التوقيت تقريباً بدأ الإنسان في بضعة أماكن في زرع النبات وتدجين الحيوان واستعمال مصادر للطاقة غير عضلاته.

وعند ميلاد المسيح، كان نصف البشر يفلحون الأرض، ونصفهم صيادين وجامعى ثمار. وبعد ذلك بقرابة 1500 عام، كان حوالي 1% من سكان الأرض فقط يمارسون الصيد والجمع، بينما انشغل الآخرون بالزراعة والصناعة والتجارة والحرف والمهن وكل ما تحتاجه الحضارة الحديثة من أعمال. واليوم (2013م) تضاءلت أعداد الصيادين وجامعى الثمار حتى بلغت 3-4 أفراد من كل 100 ألف نسمة من مجموع 6.8 مليار نسمة يعمرن الأرض حالياً.



الملحمة...

قدمنا ملحمة سريعة لتمييز الجنس البشرى الذى يمكنه من بناء الحضارة. أما كيف استغل أسلافنا ملكاتهم لتحقيق هذه المهمة، فرحلة شديدة القسوة، خطها أسلافنا بالعرق والدموع تارة، وبالدماء تارة. رحلة كانت تدفعهم فيها ملكاتهم ومثابرتهم خطوات لأعلى، ثم تهوى بهم أطباع بعضهم، ليعاودوا التقدم مرة أخرى، وهكذا.

إن تفاصيل رحلة أسلافنا لبناء الحضارة، ملحمة تفوق في معاناتها كل ما حُط في ألف ليلة وليلة والإلياذة والأوديسا⁽¹⁾. ولشغفى بتلك الملحمة، ولإدراكى بأن حديث الذات الإنسانية عن نفسها لا يكتمل دون عرضها، لجأت إلى خبيرها، أحاوره لأستزيد مما سأعرضه عليك.

(1) الإلياذة والأوديسا: تُعتبران أشهر ملحمتين في التاريخ، وتدوران حول حروب طروادة، وتنسبان إلى الشاعر اليونانى العظيم هوميروس، من القرن الثامن قبل الميلاد.

وقع اختياري للمحاورة على **عالم الأثروبولوجيا الأمريكي الكبير بيتر فارب** Peter Farb⁽¹⁾، مؤلف عشرات الكتب في الأثروبولوجيا ومختلف مجالات العلم، وعضو عدة جمعيات لعلم الأجناس وعلم الآثار، وزميل الاتحاد الأمريكي لتقدم العلوم وزميل جمعية المؤرخين الأمريكيين، ومن أهم كتبه وأشهرها **«بنو الإنسان»**⁽²⁾ Humam kind.

أسلاف الصيادون وجامعو الثمار



(شكل- 1)

بيتر فارب Peter Farb
عالم الأثروبولوجيا

أردت أن أناقش ملحمة بناء الحضارة من بدايتها، منذ أن كان أسلافنا يجمعون في تجمعات صغيرة على الصيد وجمع الثمار. قلت لبيتر فارب (شكل- 1): يعتقد البعض أن أسلافنا من الصيادين وجامعي الثمار كانوا يجمعون عيشة الكفاف أو دونه، وأنهم كان يصبحون من نومهم كل يوم لا يدرون إذا ما كانوا سيأكلون أم لا، ومن ثم فإنهم كانوا يتأرجحون على حافة هاوية الفناء، بل يصفهم الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز بقوله: «لر يكن عندهم فنون ولا كتابة ولا مجتمع، والأسوأ من ذلك أنهم كانوا في خوف دائم من ميتة مفاجئة، والرجل منهم كان يعيش عمره القصير وحيداً فقيراً قذراً متوحشاً»⁽³⁾، فما رأيك؟

حياة الرفاهية، والسكينة

ابتسم فارب وقال لي: إن الحقيقة غير ذلك؛ فقد كان أسلافنا يجمعون «حياة مجتمع الرفاهية الحقيقية»، حتى إن الأب بيارد سَجَل (في كتاب العلاقات اليسوعية، عام 1616) دهشته من السهولة التي يحصل بها الهنود الحمر من قبائل الميكماك، في نيويورك وبك بكندا، على كميات

(1) ولد عام 1929 وتوفي بمرض سرطان الدم (لوكيميا) عام 1980.

(2) الكتاب ترجمة الأستاذ زهير الكرّمى، نشرته سلسلة عالم المعرفة الكويتية - عدد 67 - سنة 1983.

ومعلومات الحوار التالي ملخصة بتصريف عن هذا الكتاب.

(3) توماس هوبز Thomas Hobbes (1588 - 1679) - الفيلسوف الإنجليزي، من دعاة الحكم الملكي المطلق.

شاركه في رأيه عن الصيادين وجامعي الثمار كثيرون، منهم الفيلسوف الروماني لوكرتيوس والكاتب الأمريكي مارك توين، وعدد من مخرجي أفلام هوليوود!

وافرة من الغذاء. انظر إلى قوله عنهم: «لم يكن قصر سليمان قط منظماً ومزوداً بالغذاء مثلهم، ولم يكونوا أبداً في عجلة من أمرهم، بخلاف حالنا نحن الذين لا نستطيع عمل شيء إطلاقاً بدون عجلة وقلق».

وقد أظهرت الدراسات الميدانية الكثير عن أسلوب حياة أسلافنا هؤلاء⁽¹⁾. ولا شك أن أول ما يلفت النظر هو تقسيم المهام بين الرجل والمرأة، فكانت المرأة مسئولة عن جمع الفواكه والثمار الصلبة والجذور وغيرها، وكان الرجل يعزز هذا الغذاء بلحم الصيد الغني بالبروتين. وهكذا كان أسلافنا يستمتعون بغذاء متنوع إلى أقصى الحدود، فقد كانوا يعرفون بدقة متى تنضج ثمار أنواع النباتات المختلفة، ويستدلون من رؤية قطعة من ورقة نبات جافة على وجود درنة صالحة للأكل تحت سطح التربة، كما يعلمون بدقة متى يرد كل نوع من أنواع حيوانات الصيد الماء للشرب.

لقد حدث تقسيم العمل تلقائياً منذ فجر التاريخ بناء على عوامل بيولوجية فطرية، فقد كان طبيعياً أن يقوم الرجال بالصيد، فهم الأقوى عضلياً والأسرع ركضاً والأكثر خشونة ورغبة في المخاطرة. كما أنه لم يكن من الحكمة على الإطلاق تعريض حياة الإناث للخطر، فهن القادرات على إنجاب الأطفال وإرضاعهم.

وقد كان لتقسيم العمل عدة فوائد، أولها تنوع الغذاء وتوازنه بين حيواني ونباتي، وثانيها ما حققه ذلك من زيادة كفاءة كل جنس فيما تخصص فيه من عمل، وثالثها، ما يحققه ذلك من التعاون والتكافل، فصار كل من الذكر والأنثى محتاجاً للآخر، ويعمل على الالتقاء به مساءً لأكل الغذاء المشترك في مكان اتفقا على الالتقاء فيه.

وقد كان اعتماد أسلافنا هؤلاء على الطعام النباتي أكثر من اعتمادهم على الطعام الحيواني. فالنبات يُكوّن ما بين 50% - 80% من طعامهم حسب الموسم⁽²⁾. وكان الرجل يُعتبر محظوظاً

(1) أهم هذه الدراسات، تلك التي أُجريت على الأقزام في أفريقيا وبيادى تانزانيا وصحراء كالاهاري وسكان أستراليا الأصليين. ذلك بالإضافة بالطبع إلى دراسات علماء الأجناس والآثار على ما تبقى من آثار هذه العصور القديمة.

(2) يعتمد سكان صحراء كالاهاري اليوم كغذاء رئيسي على جوز المونجونجو، وهو يوازي في قيمته الغذائية أفخر ما يُقدم على موائدنا الحديثة، كشرائح اللحم وفسول الصويا. كما يعتمدون على جوز المارولا؛ وهو أغنى من جوز المونجونجو في البروتينات (31%) والأملاح. ثم تأتي ثمار نبات الصنوبر في المرتبة الثالثة.

جدًا إذا اصطاد ستة حيوانات كبيرة في السنة، وكان كثيرون منهم يفشلون في صيد حيوان كبير واحد طوال حياتهم، وعند وجود عجز كان يتم الاستعاضة بالحيوانات الصغيرة كالأرانب، وعند اللزوم يسدون احتياجهم للبروتين الحيواني بصيد السحالي والأفاعى. ولما كان هذا الإنسان لا يملك وسيلة لحفظ اللحوم فقد كان يشارك بقية الأسر في صيده، وهذه هي أفضل وسيلة لحفظ الطعام، إذ إن الأسر الأخرى كانت تشرکه في صيدها القادم.

لقد كان هذا النمط الغذائي مثالي، يوفر للإنسان جميع احتياجاته، من البروتينات (الحيوانية والنباتية) والكربوهيدرات والدهون والفيتامينات والأملاح. كذلك كان انتقالمهم وهجرتهم يستهلكان الكثير من السعرات الحرارية، فكان من النادر أن نجد بينهم من يُصاب بأمراض قلة الحركة؛ كالسمنة وتصلب الشرايين وأمراض القلب والأمراض النفسية، وهي المشكلات الصحية التي ظهرت بعد اختراع الزراعة ثم سادت في المجتمعات الصناعية.

التكيف الفسيولوجي

قلت لبيتر فارب، إن ما تقول يعنى أن الجسد الإنسانى متكيف بشكل أكبر مع نمط حياة الصيادين وجامعى الثمار، وأن حياة الدعة فى المجتمعات الحديثة لا تتوافق مع تركيبه. وأنا أضيف - من دراستى لعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) - أن الجسم الإنسانى قد رُوِّدَ بردود أفعال Reflexes تتناسب مع حالات الطوارئ التى كانت تواجه الصيادين وجامعى الثمار، كزيادة سعة الرئتين للهواء وسرعة خفقان القلب عند مواجهة الأزمات. ولكن هذه الميزة تتحول فى أجواء المدن العصرية إلى مَضْرَّة، نتيجة دخول الهواء الملوث إلى الرئتين. كذلك فإن ما يُفَرَزُ فى الجسم من هورمون الأدرينالين الذى يزيد من كمية الدهون فى الدم لتكون وقودًا للعضلات فى حالة الطوارئ لا يتم حرقه فى الإنسان الحديث، بل يؤدى إلى السمنة، ويتحول بعضه إلى كولستيرول قد يؤدى إلى إصابته بتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم وأمراض القلب. كذلك فإن زيادة التوتر الذى يعين الصياد على أداء مهمته يمثل مشكلة كبيرة للإنسان العصرى، عليه أن يبحث لها عن علاج لدى الأطباء النفسانيين.

حياتهم الاجتماعية

رفع فارب حاجبيه وهز رأسه مؤمنا على ما أقول، فقلت له: لنقطع هذا الاستطراد الطبى

ونعود إلى نمط حياة أسلافنا وقيمهم الاجتماعية. استطرد فارب قائلاً؛ في الأرجح كان أسلافنا يعملون ما بين 12 - 20 ساعة في الأسبوع، وهو قدر تحسدهم عليه الحركات العمالية المعاصرة التي تفاخر بأن عمالها يعملون لمدة 40 ساعة أسبوعياً فقط! وقد وفر لهم هذا وقتاً كافياً كانوا ينفقونه في التزاور والحوار والرسم وصناعة الملابس والحلي والموسيقى والرقص.

ولا يعرف هؤلاء الأسلاف مفهوم اختزان الطعام لأوقات الحاجة في المستقبل! ولماذا يخزنون والأرض معطاءة بسخاء، حتى إن مفاهيم الحرص والادخار لم تكن معروفة لديهم؛ لذلك نجد المعاصرين منهم يضحكون ويسخرون من النصائح التي يوجهها لهم بعض المبشرين بأن يمسكوا أيادهم قليلاً وأن يكونوا أقل بذخاً وإسرافاً. كذلك كان مفهوم الملكية الفردية الخاصة عندهم ضعيفاً، ومن ثم لا يسبغون مركزاً اجتماعياً راقياً على من يمتلك ثروة (لو امتلكها)⁽¹⁾.

ولعل أسلافنا هؤلاء كانوا من أكثر الناس كلاماً وجدلاً. وإذا زادت حدة الجدل وتوترت الأعصاب - حتى لتخال أنهم سيقنتلون - سرعان ما يهدأ الموقف، ويبدأ المتخاصمون في الضحك وتُنسى الخلافات. أما إذا تجاوز الاختلاف حده، تدخل الآخرون لإصلاح ذات البين، وإذا فشلوا في ذلك - وحتى لا يضطر المتخاصمان للاقتتال - يحزم أحدهما متاعه و«يهاجر» ناقلاً ولاءه إلى جماعة أخرى. ومن الواضح أنهم يكرهون العنف الذي يمكن أن يدمر جماعة قليلة العدد. لذلك لا يوجد في ثقافتهم أية قصص تمتدح القتال، بل إن كلمة «حرب» غير موجودة ضمن مفرداتهم في أغلب الجماعات، كما أنهم لا يعرفون ولا يمارسون أية ألعاب رياضية تنافسية.

ومن السمات المثيرة في حياة الصيادين وجامعي الثمار أن الكوارث الطبيعية كالجفاف والفيضانات التي يمكن أن تسبب الهلاك لملايين الفلاحين، لا تؤثر في حياتهم إلا قليلاً! ذلك أن بوسعهم إذا حلت بهم مثل هذه الكوارث أن يحزموا أمتعتهم القليلة وينتقلوا إلى مناطق أخرى.

(1) تروى كتب الأنثروبولوجيا قصة تعود لعام 1971، إذ اكتشفت في القلبين جماعة من الصيادين وجامعي الثمار يسكنون الكهوف، وحاول الفلبينيون اكتساب ودهم، فوضعوا عدداً من السكاكين اللامعة على باب الكهف، وأخذوا يخبئون الرجال على أخذها، فأخذ كل رجل سكيناً وتبقت سكين واحدة على الأرض، رفضوا جميعاً أن يأخذوها، فهم لا يتصورون أن يأخذ أحدهم سكينتين بينما لكل رجل آخر سكين واحدة!

لذلك فإن هؤلاء كان يحكمهم «قانون تناقص المردود»، ومعناه أن نقص الموارد الطبيعية - نتيجة للاستهلاك - يتطلب في البداية جهداً أكبر للحصول على الطعام، ثم يصير هذا الجهد غير مُجدِّ، فيضطرون إلى الهجرة إلى مكان آخر، حيث تتكرر - بعد فترة - نفس المشكلة. لذلك كان عليهم دائماً أن يستخدموا متاعاً خفيف الوزن، لا يزيد على 12 كجم للشخص الواحد. كما أن مساكنهم الجديدة سهلة البناء، لا يحتاج الرجل لبنائها لأكثر من يوم واحد.

لماذا لم نعد نراهم؟

سألت بيتر فارب؛ إذا كان نمط حياة أسلافنا الصيادين وجامعي الثمار أسلوب حياة متكامل، وقرّر للإنسان احتياجاته الاجتماعية والجنسية والنفسية والغذائية، فما بالنا نجد أن هذا النمط قد انقرض، أو كاد؟

هز فارب رأسه وقال: هذا سؤال شديد الأهمية، واجه علماء الأنثروبولوجيا، وبدلوا الجهود للإجابة عنه. يكمن سر التضائل السريع في أعداد الصيادين وجامعي الثمار في أن المزارعين - وهم أقوى من أولئك - ومن بعدهم سكان المجتمعات الصناعية - وهم أقوى كثيراً من الاثنين - استولوا على الأراضي التي كان يعيش عليها الصيادون وجامعو الثمار. وخلال عملية الاستيلاء قُضي على أعداد هائلة منهم، إما مباشرة نتيجة قصور شديد في الأسلحة وعدم حبهم للقتال، وعندما اضطروا إلى ذلك كان الوقت قد فات. وإما بشكل غير مباشر نتيجة استغلال أراضيهم بحيث لم يعد هناك حيوانات تُصطاد ولا نباتات برية تُجمع ثمارها. كما ساعد في ذلك أيضاً تعرُّض الصيادين وجامعي الثمار لأمراض جديدة عليهم، نقلها إليهم المستوطن الأوروبي (كالزهرى والسيلان والدرن) ففتكت بهم دون أن يكون لديهم مناعة ضدها. وساعد في إفنائهم كذلك تعرضهم لضغوط نفسية وعضوية مختلفة لم يعهدوها من قبل.

لذلك نجد اليوم أن بقايا الصيادين وجامعي الثمار قد أكرهوا على التحول إلى الحياة الزراعية الفردية أو حياة العمال في المدن. والقلة القليلة منهم انحسرت - كما لو كانوا معتقلين - في مناطق هامشية لا تصلح للزراعة، مثل صحراء كالاهاري في أفريقيا والصحراء الوسطى الكبرى في أستراليا، والغابات الاستوائية في الكونجو وجنوب أمريكا، والمناطق القطبية في سيبيريا وشمال أمريكا.

إنتاج الغذاء

قلت لبيتر فارب؛ ذكرت أن نمط الحياة الذي يقوم على «الصيد وجمع الثمار» قد أدخل المسرح - مجبراً - لنمط حياة يعتمد على «إنتاج الغذاء». ولا شك أن ذلك قد أحدث تغييراً كبيراً في جميع مجالات الحياة، ولا شك أن إنتاج الغذاء يُعد أحد الخطوط الفاصلة العظيمة في تاريخ الإنسان، التي تحدد انتقاله من حالة إلى أخرى، فكيف تم هذا الانتقال؟

أجاني فارب: لقد ظهر إنتاج الغذاء بشكل مستقل في مناطق متفرقة من الكرة الأرضية، بالرغم من اختلاف الظروف الطبيعية بين هذه المناطق اختلافاً بيئياً، والتي انعكست على نوع النباتات التي قام الإنسان بإكثارها في كل منطقة⁽¹⁾.

وفي معظم أنحاء العالم لم يتطور إنتاج الغذاء إلى أكثر من مستوى الكفاف إلا مع بداية الثورة الصناعية. وحتى في العالم الصناعي المعاصر، ما زال أكثر من نصف بني الإنسان ينتجون غذاءهم الضروري باتباع أساليب زراعية بدائية بسيطة لا تسد احتياجاتهم.

وقد اعتمد إنتاج الغذاء على عملية التدجين، التي هي عملية تبادل منفعة بين بني الإنسان (المدجّنين) وعدد من النباتات والحيوانات المفضلة (المدجّنين). وفي هذه العلاقة، يحصل الإنسان على كميات أكبر من الطعام (نباتات وحيوانات) وعلى بعض المواد الخام (كالقطن والصوف)، عن طريق استحداث صفات جديدة مفيدة. فمثلاً لم يكن للأغنام صوف غزير قبل تدجينها، وكان الدجاج البري لا يبيض إلا في موسم معين، كما كانت الأبقار والجواميس البرية تدر اللبن الحليب عندما تُرضع صغارها فقط. وفي المقابل، أفادت النباتات والحيوانات المدجّنة من عملية التدجين، فزادت أعدادها زيادة كبيرة واتسعت الرقعة الجغرافية التي تعيش فيها⁽²⁾.

(1) في أريحا بفلسطين، حيث الطقس الدافئ الجاف بدأ الإنسان بزراعة القمح ثم الشعير، وفي شمال الصين البارد بدأ بزراعة الذرة البيضاء، وفي تاييلاند الاستوائية ابتدأ بزراعة الأرز، وُرُعت الذرة الصفراء في هضبة المكسيك الباردة الجافة، كما بُدئ بزراعة البطاطا في جبال بيرو العالية. أما في أمريكا الشمالية وسهول المكسيك فقد تركزت الزراعة حول الثلاثي الغذائي عالي القيمة: الذرة والفاصوليا والكوسة.

(2) لعل تدجين الهنود الحمر للذرة يُعتبر أعظم تغيير في أي محصول في العالم. فقد كانت الذرة البرية الأولى نبتة عشبية صغيرة تحمل كوزاً لا يزيد على حجم إصبع. واليوم يُنتج الإنسان حوالي 150 صنفاً من الذرة تنمو في مدى واسع من المناطق مختلفة المناخ على طول العالم وعرضه. والذرة المدجّنة اليوم عاجزة عن =

الإعداد لإنتاج الغذاء

وأضاف بيتر فارب؛ وقد سبقت عملية إنتاج الغذاء مرحلة انتقالية شهدت تغيرات هامة في نمط حياة الإنسان، كما فرضت عليه استحداث عدد من التقنيات، التي مهدت إلى انتقال الإنسان - بشكل تلقائي - إلى مرحلة إنتاج الغذاء⁽¹⁾.

وقد بدأت هذه التكييفات في الظهور منذ قرابة عشرين ألف سنة، ومن أمثلة ذلك ما حدث حين وجد أسلافنا في بعض الأماكن وفرة في القمح البري، فتجمعوا بجوارها في مخيمات صغيرة، سرعان ما تطورت إلى قرى يسكنها مئات من الناس. أي أن الاستقرار قد حدث قبل انتقال الإنسان إلى الزراعة، ويعني ذلك أن أسلافنا قد تدجنوا (استقروا) قبل أن يبدأوا في تدجين النبات والحيوان.

ومن الناحية التقنية، طور الصيادون وجامعو الثمار عددًا من الأدوات التي أعانتهم في حياتهم المستقرة الجديدة؛ مثل المناجل البدائية المصنوعة من حجر الصوان ليحصدوا بها القمح البري، والمهاون الحجرى ومدقته لطحن الثمار الجوزية، وكذلك الأوعية الفخارية لتخزين الأغذية البرية. كل هذه الأدوات استخدمها الإنسان البدائي في حصاد وطحن وتخزين الحبوب عندما اتجه إلى الزراعة.

= التكاثر (فتموت وتقرض) بدون مساعدة الإنسان في نثر بذورها، ذلك أن الكوز صار مُعلَقًا بعدة أغلفة (مثلها في ذلك الموز والنخيل) كما صارت البذور ثابتة في الكوز بشكل لا يسمح لها بالانتشار الذاتي. وتُعتبر هذه خسارة تحملتها تلك النباتات مقابل ما حصلت عليه من منافع.

وبالنسبة للحيوان، نجد أن الإنسان في قارات العالم القديم نجح في تدجين العديد من الحيوانات الثديية الكبيرة، كالأبقار والحمير والجمال والماعز والأغنام والحمير والأحصنة وغيرها. بينما في مناطق جنوب غرب الولايات المتحدة والمكسيك وأمريكا الوسطى كان الحيوان الوحيد الذى تم تدجينه هو الديك الرومى، بينما أوشكت الحيوانات البرية الكبيرة (كثور البافالو والأيائل والغزلان والماعز والأغنام) على الانقراض. وقد نجح الهنود الحمر في تدجين الكلب واستخدموه في أغراض مختلفة منها الأكل أحيانًا، ونتيجة لعجزهم من تدجين ثدييات كبيرة تأخر ابتكار المحراث لحرث الأراضي البكر لزراعتها.

وقد نجحت حضارات جبال الإنديز في أمريكا الجنوبية في تدجين ثلاثة من الحيوانات الثديية، اللاما لحمل الأثقال وأكل لحومها (كالجمال في الشرق)، ولاما الصوف لصوفه، وخنزير غينيا للحمه، والأخير حيوان قارض سريع التكاثر سهل التدجين (كالأرنب).

(1) يُعتبر ذلك نوعًا من «التكيف المُسبق»؛ والذى يعنى تطور طراز سلوكى وتِقْنِيّ فى وقت ما بحيث يصبح ذا فائدة واضحة فى المستقبل بعد تغير الظروف السائدة.

والأرجح أن تدجين النبات والحيوان كانا جزأين من عملية تكيف واحدة، وأنها استمرتا يتطوران معاً. بل لقد ساعد تدجين الحيوان على حل مشكلة الغذاء الفائض الناتج عن تدجين النبات، فقد كان بالوسع إطعام هذا الفائض للحيوانات المدجنة، التي أصبحت بذلك مخزناً حياً للحم واللبن والصوف.

ومنذ حوالي سبعة آلاف سنة، عندما صار إنتاج الغذاء منتشرًا في العديد من بقاع الأرض، ازدادت القرى الزراعية عددًا واتساعًا، وقُطعت أشجار الغابات أو أُحرقت، وزُرعت الصحارى بالماء الذى جلب إليها بقنوات الري، كما رعت الحيوانات المدجنة الأعشاب فصارت الحيوانات البرية لا تجد ما تأكله فتركت المنطقة. لقد أصبح الفلاحون يعتبرون أن النباتات والحيوانات التي يتغذى عليها الصيادون وجامعو الثمار أعشابًا ضارة وحيوانات تسرق منهم مزرعاتهم، وبالتالي يجب القضاء عليها. وهكذا تغيرت البيئة حتى صار من المستحيل على أسلافنا العودة إلى حياة الصيد وجمع الثمار حتى لو أرادوا ذلك.

قلت لبيتر فارب، هنا سؤال يطرح نفسه؛ لماذا لم تنشأ عملية إنتاج الغذاء في وقت مبكر من تاريخ البشرية؟ فأجابني، لقد حَيَّرَ هذا السؤال الكثيرين، ويرجع تفسير ذلك جزئيًا إلى ما ذكرناه من أن عناصر الإعداد لم تكن قد اكتملت بعد. ولكن الحافز الحقيقي لنشوء عملية إنتاج الغذاء يرجع إلى ازدياد عدد السكان نتيجة لاستقرار الصيادين وجامعي الثمار في مخيمات حول المناطق الغنية بالقمح والذرة البرية، إذ أدى ذلك إلى زيادة معدل التبويض في الإناث نتيجة لقلّة بذل المجهود وقصر فترة إرضاع الأمهات للصغار بعد توافر الغذاء⁽¹⁾. فكانت النتيجة أن زادت أعداد بنى الإنسان في الشرق الأدنى في الفترة من 10.000 سنة إلى 4000 سنة مضت من حوالي 100 ألف نسمة إلى أكثر من ثلاثة ملايين نسمة.

آثار إنتاج الغذاء

سألت بيتر فارب؛ وهل اقتصر انتقال الإنسان من حياة الصيد وجمع الثمار إلى حياة إنتاج الغذاء على الحصول على كميات أوفر من الطعام، أم صحب ذلك تغيرات في نمط المعيشة؟

(1) ثبت بالفعل أن المرأة في مجتمع الترحال تلد 4 - 5 أطفال فقط في حياتها، تزيد إلى 5 - 6 أطفال في المجتمعات المستقرة.

فأجابني: لقد حدثت تغيرات جذرية في أسلوب حياة الإنسان في الفترة ما بين 10.000 سنة و5.000 سنة مضت تفوق عدداً وأهمية التغيرات التي حدثت في أسلوب حياته منذ أن خلقه الله إلى ما قبل 10.000 سنة. فلقد حولت الزراعة الإنسان من نوع محدود العدد إلى نوع تكاد الأرض تضيق بعدده. ويرجع ذلك إلى ازدياد التبويض في الإناث (كما ذكرنا من قبل)، بالإضافة إلى أن الصغير في جماعة الصيد وجمع الثمار كان قليل الفائدة للجماعة في جلب الطعام، بينما الصغار في المجتمع الزراعي يقومون بمهام تعين الكبار، مما كان حافزاً لكثرة الإنجاب.

ونتيجة لازدياد أعداد البشر وتزاحمهم في المستوطنات ثم في القرى (وبعد ذلك المدن) نشأت مخاطر صحية جديدة. فقد أصبحت الميكروبات والطفيليات تنتقل بسهولة من إنسان لآخر، وأصبحت الحقول بيئة مفضلة للجرذان والبراغيث والبعوض (وكلها تنقل الأمراض)، بل إن الطيور والحيوانات المدجنة شاركت في نقل الأمراض، وربما كان أكثرها شيوعاً السل الذي انتقل إلى الإنسان من الماشية عن طريق لحمها وحبليها. كما جلب غذاء الفلاحين الغني بالكربوهيدرات والفقير بالبروتين أمراضاً مزعجة، كالكوأشيوركور⁽¹⁾ والسمنة الزائدة وتسوس الأسنان، بالإضافة إلى إصابتهم بأمراض نقص الثيامينات كالبري بري والبلاجرا والكساح.

كذلك صاحب إنتاج الغذاء تغيرات ضخمة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بعد أن جلب هذا التكيف معه نظرة جديدة إلى الأشياء المادية. فإذا كان الصيادون وجامعو الثمار يجعلون الغذاء والمواد الخام والأراضى والأدوات مشاعاً بينهم، فقد اختلف الأمر مع نشوء الزراعة. لقد أصر باذر الحب أن يكون هو الذي يحصده، واقتصرت المشاركة والشروع على أفراد العائلة الواحدة، وأصبحت الملكية الفردية من أهم ما يعنى الفرد والمجتمع. نتيجة لذلك، نشأت أنماط من السلوك لم تكن معروفة من قبل، مثل تملك الفرد شيئاً لاستعماله الخاص، وحماية الممتلكات والدفاع عنها وتوارثها.

ونظراً لأن بعض العائلات امتلكت أرضاً أكثر من غيرها، اختلف مجتمع المساواة الذي كان سائداً بين الصيادين وجامعي الثمار، ليحل محله مجتمع فيه تباين كبير في الثراء والقوة والمركز الاجتماعي. كما أصبحت الثروة والنفوذ والمركز أشياء متوارثة، ربما أعطت بعض الناس في

(1) Kwashiorkor: مرض يصيب الأطفال نتيجة لنقص البروتينات في الغذاء.

المجتمع سلطة سياسية وميزات اجتماعية لا علاقة لها بقدراتهم. ولأول مرة في تاريخ الإنسان انقسمت المجتمعات إلى أغنياء وفقراء وسادة ومُسودين.

وعلى النقيض من تعدد المهارات التي كان كل صياد وجامع ثمار يمتلكها، فرض تكيف إنتاج الغذاء حدوث تخصص في المهارات وتخصص في العمل. وقد أدى ذلك إلى التعاون (بأجر وبدون أجر) بين أفراد المجتمع، وقلل مما كانت تتمتع به أسر مجتمعات الصيد وجمع الثمار من استقلال، ولا شك أن بدون هذا التخصص ما كان للإنجازات التكنولوجية أن تحدث وتتطور. كما ابتكر الإنسان أساليب غير الخصائص الداخلية للمواد الطبيعية، فقد أمكن تعديل خصائص الطين والمواد الخام المعادن لإنتاج الفخار والصيني والمعادن.

إن نظرة عابرة إلى الإنجازات التكنولوجية المعاصرة تبين مدى ما يدين به العالم الحديث لمنشئ إنتاج الغذاء. فمن هندسة بناء (كالمعابد والأهرامات والقصور وسدود الري وقنواته وأبنية المزارع ومرابض الخيل والطرق والتحصينات)، وتخطيط القرى (ثم المدن)، إلى صنع المحاريث وغيرها من الآلات والأدوات الزراعية، إلى العديد من النشاطات الصناعية مثل الغزل والنسيج وصنع الفخار والتعدين والعربات ذات العجلات، وابتكار الأوزان والمقاييس والسجلات....

الفصام ومشكلاته

وأضاف فارب؛ وإذا كان الحال قد آل بعالمنا المعاصر إلى العديد من المشكلات المستعصية؛ كالانفجار السكاني وتضاؤل المصادر الطبيعية وتلويث البيئة واستغلال مجموعات إنسانية لمجموعات أخرى، والموت جوعاً، والحروب وغيرها، فإن جذور هذه المشكلات تنبثق من الانتقال من حياة جمع الغذاء إلى إنتاجه. والعامل الرئيسي الذي يعوقنا عن إيجاد حلول لمشكلات عالم اليوم هو التناقض الذي يعاني منه العقل الإنساني. ذلك أن بيولوجيتنا وأحماخنا وعقولنا قد تطورت خلال التكيف للصيد وجمع الثمار، بينما تبلورت أقوى معتقداتنا الخلقية والفلسفية خلال التكيف لإنتاج الغذاء، هذا التكيف الذي سمح لقدرات الإنسان بالتطور بحرية. أي أن بيولوجيتنا قد تشكلت في ظروف مغايرة لتبلور معتقداتنا ولتطور إمكانياتنا. أليس هذا نوع من الفصام؟!

الفلاحون الدائمون

سمات مجتمع الفلاحين

قلت لبيتر فارب: إذا كان قطار التطور قد وصل بالإنسان إلى إنتاج غذائه وإلى السكنى في القرى، وكان أن حل الفلاحون مكان الصيادين وجامعى الثمار، فإن قطار التطور لم يغادر هذه المحطة بعد، وما زال أكثر من نصف سكان الأرض (خاصة في آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا اللاتينية) يعيشون حياة زراعية. ثم سألته: هل يشترك هؤلاء الفلاحون المنتشرون في كل بقاع الأرض في نمط حياتي واحد، أم تتنوع أنماط حياتهم - كما تتنوع مزرعاتهم - تبعًا للظروف البيئية والاجتماعية؟

أجابني فارب: لا شك أن الفلاحين في طول الكرة الأرضية وعرضها يتشاركون في خصائص وصفات أساسية معينة، وفي الوقت نفسه هناك تنوع ملفت للانتباه في تفاصيل حياتهم، نتيجة لاختلاف الظروف البيئية والسمات الحضارية والحوادث التاريخية التى تعرضوا لها، مثل الحروب والثورات والمجاعات والأوبئة، وأيضًا اعتناق دين جديد.

وللأسف، فإن معظم أسلافنا (وإخواننا) الفلاحين قد تعرضوا للظلم بين. فمع نشوء الدول فى العالم القديم، قام الحكام ببسط حمايتهم على القرى الزراعية المجاورة مقابل حصة مجزية من ناتج الأرض والبضائع المصنوعة، بالإضافة للعمل الإجبارى فى المشروعات العامة. غير أن شهية الأقوياء عادة لا تشبع، فسرعان ما صادروا الأراضى، وأنشأوا طبقة الإقطاعيين، وأخذ الفلاحون عبيدًا. وعلى ركام هذا الفقر والمعاناة قامت إمبراطوريات السومريين والبابليين والمصريين القدماء واليونان والرومان وغيرهم.

لقد صار لزامًا على الفلاحين إطاعة كل أمر يصدره الحكام، وقبول الإجراءات التعسفية التى تؤثر بشدة فى حياتهم. ففى معظم دول العالم فى القرون الوسطى، كان محظورًا على الفلاحين تغيير أماكن سكناهم، وكانت هناك قيود على أنواع الأسلحة التى يُسمح بحملها، وأنواع الثياب التى يلبسونها وحتى الأطعمة التى يتناولونها. ولم يكن يُسمح لهم بطحن حبوبهم التى أنتجوها أو بيع حيواناتهم التى ربوها أو تزويج بناتهم، إلا بعد الحصول على إذن من السيد الإقطاعى.

ونتيجة لشدة الفقر، كان متوسط ما يحصل عليه الفرد من الفلاحين الحقيقيين من السرعات الحرارية لا يتجاوز 1600 سعر حرارى في اليوم، أى نصف احتياجاته اليومية، مع نقص شديد في البروتينات والعناصر الغذائية المختلفة، فلم يكونوا يأكلون اللحوم إلا لماماً. لذلك فالفلاحون - بشكل عام - صغار البنية، وقد شارك في ذلك شيوع الأمراض الطفيلية المعوية نتيجة قلة العناية الصحية والطبية.

وقد أكسبت هذه الظروف الحياتية للفلاحين نمطاً سلوكياً يكاد يكون متشابهاً عبر العالم، فتجدهم محافظين وفرديين وغيورين وشكاكين ومتطيرين، وفي الوقت نفسه فهم يهتمون بالصدقة الحقة وبصورة رجولتهم. وإذا كانت عائلة الفلاح تعيش كأنها وحدة مكتفية بذاتها، فهي تحرص على توسيع دائرة علاقاتها عن طريق النسب. كما يعمل العديد من الفلاحين في مهن إضافية في غير أوقات البذر والحصاد، حتى يزيدوا من دخولهم، سواء في قراهم أو في أماكن بعيدة. وينجب الفلاحون كثيراً، بأمل أن يساعدهم أولادهم على أعمال الفلاحة، خاصة أن تكلفة تنشئة الأطفال ضئيلة للغاية، وأن معدل وفياتهم مرتفع لقلة ما يلقونه من رعاية صحية.

وينجذب الفلاحون اليوم نحو الحضارة الحديثة، وبالرغم من أن بعض علماء الاجتماع يتنبأون باختفاء نمط حياة الفلاحة كلياً في العصر التكنولوجى، إلا أن ذلك لا يبدو وشيكاً. فما زال - مثلاً - يتم الحصول على تسعة أعشار المحصول الزراعى في دول الاتحاد السوفيتى السابق بالأساليب اليدوية البدائية. كذلك سيظل ميزان الإنتاج والاستهلاك مختلفاً لفترة طويلة. فبالرغم من التناقص الحقيقى في موارد الطبيعة، فإن 80% من إنتاج البشرية يستهلكه 30% من البشر هم سكان المجتمعات الصناعية، وليس من المتوقع اعتدال هذا الميزان في القريب؛ إذ إن الدول النامية لا تستطيع تقليد ما أنجزته الدول المتقدمة من تحويل الفلاحة البدائية البسيطة إلى عمليات تكنولوجية ذات كفاءة عالية، إذ حققت الدول المتقدمة ذلك عن طريق السياسة الاستعمارية التى سمحت بتراكم رؤوس أموال كبيرة وتوفير مواد خام صناعية، وإيجاد أسواق شاسعة لتصريف المنتجات، وهذا ما لا تستطيعه الدول النامية.

الثورة المدنية

مقدمات الثورة ومسارها

قلت لبيتر فارب: نأتى الآن إلى المحطة التالية في رحلة الإنسان الحضارية. فبعد أن انتقل الإنسان من الحياة الحرة الطليقة التي ميّزت نمط معيشة الصيادين وجامعى الثمار، إلى الحياة المستقرة المتحفظة للمزارعين، فإنه قد انتقل إلى الحياة في المدن، ونصّف هذا النمط من الحياة بـ«التمدن». فكيف تمت هذه النقلة الهائلة؟

أجابني فارب:

كما حدث في نشأة الزراعة، فقد نشأت الحضارة المدنية بشكل مستقل في عدة مناطق من العالم. ويعتقد معظم الأنثروبولوجيين أن الزراعة قد نشأت أولاً، ثم نشأت القرى الزراعية، ثم تطورت إلى البلدة، وأخيراً المدينة، وذلك يعنى أن المدن كانت طفيليات تطفلت على الزراعة. إلا أن بعض المدن القديمة نشأت ونمت بعيداً عن المناطق التي تطورت فيها الزراعة بمئات الأميال، كما حدث في حضارات ما بين النهرين العظيمة قرب مصب نهري دجلة والفرات، فقد نشأت - مثلاً - مدينة (شانيدار) في العراق قبل حوالي 11.000 سنة على «صناعة» زينات معدنية دقيقة.

وقد كانت «التجارة» من أهم العوامل التي أدت إلى نشأة الحياة المدنية. فقد استقرت مجموعات كثيفة من السكان قرب مصادر المواد الخام، وأخذ الناس يدافعون عن حقهم في تلك المواد، ويقومون بتصنيعها إلى أدوات يمكن الاتجار بها في مقابل منتجات زراعية. وقد كانت أريحا (في فلسطين) بلدة من هذا النوع، قامت منذ حوالي عشرة آلاف سنة، على تجارة الملح والقار والكبريت المستخلصة من البحر الميت. بهذا الأسلوب نشأ النظام التجارى في العالم القديم، وعبر طرق التجارة انتشرت الاختراعات والمهارات والمعتقدات.

وقد تضمنت التجارة في ثناياها إمكان النهب والسلب، لذلك زوّدت المدن التجارية الهامة بتحصينات دفاعية، مثل أسوار أريحا التي بُنيت منذ 10.000 سنة. وقبل 6300 سنة حدث تغير رئيسى في الشرق الأدنى، فبدأ بناء ثكنات للجنود بالإضافة للقلاع والتحصينات، مما يشير إلى

نشوء طبقة متخصصة من الجنود تبين أن الحرب والرغبة في السيطرة صارت جزءاً من صميم الحياة المدنية القديمة.

وقد كانت الكلفة الاقتصادية للإبقاء على جيش على أهبة الاستعداد (وما زالت) باهظة جداً، فألقى على كاهل الفلاحين عبء هائل من أجل توفير الغذاء والسلاح وتغذية الجيش بالأبناء. وقد اشتبكت المدن القديمة فيما بينها في سلسلة من الحروب المتتالية، فالمنتصر الذي نهب اقتصاد المهزوم أصبح هدفاً يطمع فيه الآخرون، لذلك ذكر أفلاطون في كتابه «القوانين» أن كل مدينة في حالة حرب طبيعية مع كل مدينة أخرى، وبذلك أصبحت الحروب ومتطلباتها هي المتحكم في تشكيل بنية المدينة المادية، كما أدت في نهاية المطاف إلى اندثار الحضارات القديمة الواحدة تلو الأخرى.

ولأول مرة في التاريخ الإنساني تمكنت أقلية صغيرة جداً (الطبقة الحاكمة) من السيطرة على الأغلبية التي كانت تعيش داخل أسوار المدينة، وأيضاً على أولئك الذين كانوا يعيشون في الأقاليم التابعة للمدينة مهما امتدت رقعتها. كما صار التاريخ يحتفل بالأقلية الصغيرة المتحكمة ويسجل أسماء أفرادها، فصارت الفتوحات تُنسب إلى الإسكندر الأكبر وقمبيز، وبناء الأهرامات يُنسب إلى زوسر وخوفو وخفرع ومنقرع. بينما لا يذكر التاريخ أسماء الذين حققوا إنجازات محورية في تاريخ البشرية، كإكتشاف النار واختراع العجلة واستخدام النحاس والحديد. ويرجع ذلك أيضاً إلى أن الذين كتبوا التاريخ هم أناس عاشوا في المدن وكتبوا عن الحياة التي عرفوها، حياة الطبقات الحاكمة في المدن الكبرى، وليس حياة الفلاحين المجهولين الذين يكفون في الحقول والمحاجر وفي تشييد المعابد والقصور، ويُقتلون في الحروب.

نشأة وتطور الكتابة

قلت لبيتر فارب، من الملاحظ في عصرنا الحديث ارتباط الإمام بالقراءة والكتابة بحياة المدينة أكثر من حياة القرية، فهل كان للثورة المدنية علاقة بظهور الكتابة؟ فأجابني:

لقد دفعت الحياة المدنية نشأة الكتابة وتطورها وانتشارها خطوات واسعة للأمام، فقد كانت ضرورية لتسجيل المعاملات المالية وكذلك لإعطاء القوانين والقرارات الإدارية صفة الديمومة والذبوع.

وقد نشأت الكتابة (منذ قرابة 7-8 آلاف سنة) في منطقة واسعة تمتد من بلاد ما بين النهرين شمالاً إلى الشرق الأدنى شرقاً إلى مصر جنوباً. وكانت الكتابة في البداية عبارة عن (رسوم للأشياء)، كأن يرسم بيت ويكون ذلك بمثابة كتابة لكلمة (بيت). وبعد فترة تطورت الكتابة إلى (رسم الأفكار)، أي الترميز للفكرة والمعاني المجردة باستخدام رسوم تخطيطية. فدائرة الشمس في نظام رسوم الأشياء تُعبر عن الشمس، أما في نظام رسم الأفكار فيصبح رسم الدائرة رمزاً للحرارة أو الضوء أو إله الشمس أو النهار. ثم قام المصريون القدماء والصينيون بتطوير كتابتهم بالنظامين السابقين لتشمل بعض رموز الأصوات، مما وسَّع من مجال استخدام هاتين اللغتين.

ومنذ حوالي 3500 سنة طُوِّرت الشعوب السامية (ومنهم العرب والفينيقيون) نظاماً مختلفاً للكتابة، عبارة عن أبجدية تعتمد على الحروف وأصواتها، بدلاً من صور الكلمات ورسومها، كما أدخلت كتابة حروف العلة بعد أن كانت مفهومة ضمناً. وبعد جهد كبير نجح الرومان في تحويل الأبجدية اليونانية (وريثة الفينيقية) ليكتبوا بها لغتهم اللاتينية. ثم تبنت معظم شعوب أوروبا وكثير من شعوب العالم الأبجدية اللاتينية لكتابة لغاتها.

لقد كان اختراع الكتابة وتطويرها نقطة تحول كبرى في التاريخ الإنساني، إذ سمح بالمحافظة على المعارف الإنسانية وتوارثها وتراكمها، كما سمح بتواصل أفضل بين الناس.

آثار الثورة المدنية

قلت لبيتر فارب؛ لقد استعرضت مقدمات الثورة المدنية ومسارها، وكذلك العلاقة المتبادلة بينها وبين نشأة الكتابة، ولا شك أنه كان لهذه الثورة تأثير عميق في مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، فهلا حدثتني عن تلك التأثيرات.

قال بيتر فارب، لقد خلقت المجتمعات المدنية وحدات اجتماعية، ذات حجم وتعقيد ما كان يمكن لمنتجى الغذاء تصورهما. فقد انقسم المجتمع إلى حاكم ومحكوم، وقوى وضعيف، وغنى وفقير... كما حدث تغير ملحوظ في مركز الإناث، فبعد أن كانت الأنثى جامعة الثمار أو المشاركة في إنتاج الغذاء على قدم المساواة مع الرجل، أصبح دورها الرئيسي في الحضارة المدنية هو إنتاج المزيد من النسل، لتعويض الجنود الذين يُقتلون والعمال الذين يمرضون نتيجة لظروف المعيشة غير الصحية.

كذلك خلق نشوء المدن نوعاً جديداً من العلاقات الشخصية، ليسمح بتعايش أفراد المجموعات السكانية الكثيفة. ففي مجتمعات الصيد وجمع الثمار، إذا اشتد النزاع هجر الفرد المجموعة وانضم لمجموعة أخرى، لكن ذلك ليس ممكناً في المدن. لذلك وجب على الناس الذين حُشروا في رقعة ضعيفة أن يلتزموا بالمزيد من التأدب والتهذيب والتلطف، كما قُنن السلوك ووصف بقوانين فُرِضت من الأعلى، بعد أن أصبحت الأعراف والتقاليد وحدها غير كافية لتنظيم الحياة. وعادة ما تكون هذه العلاقات ذات غاية نفعية، لذلك ينظر ساكن المدينة إلى الناس لا من زاوية شخصياتهم بل من زاوية الأدوار التي يقومون بها في المجتمع والحياة.

وإذا كان اهتمام الصيادين وجامعي الثمار، ومن بعدهم منتجي الغذاء، متوجهاً في المقام الأول إلى البيئته، فقد أبرزت الحضارة المدنية اهتمام الإنسان بالإنسان، أي صارت العلاقات علاقات اجتماعية وليست علاقات بيئية طبيعية أو حتى تكنولوجية. وعلى النقيض شاعت في الحياة المدنية المعاصرة ظاهرة شديدة السلبية تُعرف بظاهرة (لامبالاة المشاهد) والتي تعكس قدرًا هائلًا من الأنانية وعدم المبالاة بالآخر في محنته⁽¹⁾.

وفي الحياة المدنية، يشغل كل فرد مركزاً محددًا بدقة، كأن يعمل خادماً أو صانعاً أو تاجرًا أو جندياً أو موظفًا أو عضواً في المؤسسة الدينية... ونتيجة لهذا التخصص صار كل فرد يتقن عمله بشكل ممتاز، فازداد الإنتاج عدة أضعاف، واتسم بالابتكار والتجديد. وقد أدى ذلك إلى ظهور أحياء في المدينة تُمارس فيها صناعات وتجارات معينة؛ كالصاغة والوراقين والحدادين وغيرها.

وأضاف فارب، أما بالنسبة لبنية المدينة وتنظيمها، فقد استمر الناس لآلاف السنين بينون مدنهم بتصميم هندسي متشابه إلى حد كبير، رغم أنهم عاشوا في ظل أنظمة سياسية مختلفة

(1) ومثال هذه الظاهرة حادثة وقعت عام 1964 بإحدى مدن الولايات المتحدة واشتهرت كثيراً، وراحت ضحيتها فتاة في ريعان الشباب، بعد أن هاجمها شخص أمام منزلها، فراحت الفتاة تصرخ وتستغيث. وبالرغم من أن ما لا يقل عن 38 شخصاً من جيرانها قد سمعوا صراخها واستغاثتها، فإنهم وقفوا يطلون من نوافذ منازلهم يراقبون الحادث، ولا يتدخلون لإنقاذها أو حتى لاستدعاء الشرطة. وقد برر هؤلاء سلبيتهم بأسباب متعددة، منها: فقدان شعور التعاطف مع الآخرين، والخوف، واللامبالاة وخشية إضاعة وقت كثير... ولا شك أن كلها أسباب حقيقية، نضيف إليها أن كل مُشاهد كان يفترض أن شخصاً آخر سيتدخل، وكانت النتيجة عدم تدخل أحد!

ومذاهب شتى، ويشمل هذا التشابه تصميم الأبنية وتخطيط المدن، وكذلك النشاطات التي تمارس داخل أسوارها. وقد كانت مدن الشرق الأدنى الأقدم أفضل في كل مناحيها من مدن أوروبا الأحدث منها. فقد كانت شوارع الأولى أفضل رصفاً، وأنظمة المجارى أكثر كفاءة، وموارد المياه أغزر، والأحياء أحسن تخطيطاً، والبنيات أكبر وأفخم. حتى إننا نجد أن مدينة موهنجو-دارو، التي بنيت قبل 5500 سنة على ضفاف نهر الأندوس كانت أفضل في كل تفاصيلها من مدينة باريس في عهد لويس الرابع عشر (1643 - 1715).

وحتى زمن قريب، ظلت المدينة على ما كانت عليه منذ آلاف السنين، أي مجموعة قرى صغيرة، بها حدائق صغيرة وحيوانات مدجنة ومشاعل لإضاءة الشوارع وأسواق؛ بالإضافة إلى منازل مهلهلة مكدسة بالفقراء وبجوارها منازل فخمة للأغنياء. وكان الناس في نفس الحى يعرف بعضهم بعضاً ويرتبطون معاً اقتصادياً، ويشربون من نفس بئر الماء، وغالباً ما كانوا يُدفنون متجاورين في نفس المقبرة.

وقبل قرنين من الزمان حدث تغير جذري في بنية حياة المدينة تحت ضغط التصنيع. فنشأت مدن المصانع (مثل مانشستر وبرمنجهام في بريطانيا) شيئاً مختلفاً تماماً، إذ زالت عنها سمات المدينة القرية، فتزايدت الهوة بين طبقات المجتمع، بعد أن لم يعد هناك أية صلة بين أصحاب المصانع وعمالها. لذلك نشأت الضواحي نقية الهواء التي يسكنها الأثرياء، وبقي الفقراء يعيشون في بؤس وقذارة بالقرب من الأحياء الصناعية الملوثة، أو يسكنون في مناطق خربة متداعية تمثل الأحياء القديمة في وسط المدينة والتي هجرها منذ زمن من أنعم الله عليهم.

أما الآثار البيولوجية لنشأة الحياة المدنية (علي خطورتها) فهي أقل شيوعاً من التغيرات الاجتماعية. وأهم هذه الآثار انتشار الأمراض المعدية واستفحالها (مثل الكوليرا والجدرى والحصبة وشلل الأطفال وجديرى الماء)، ويرجع ذلك إلى سهولة العدوى في المدن المزدحمة، بالإضافة إلى تجمع النفايات والفضلات التي توفر ظروفاً مثالية لانتشار العدوى. لذلك كانت الأمراض تحدث على هيئة أوبئة تقتل آلاف البشر⁽¹⁾.

(1) لعل أفضح وباء أصاب سكان المدين كان «الطاعون». فقد بدأ في مصر عام 540م. ووصل إلى بيزنطة (إستنبول) عام 542م، فأدى إلى 10.000 حالة وفاة في اليوم الواحد. وكانت النتيجة أن قُتل نصف سكان الإمبراطورية البيزنطية خلال 25 عام.

ولما كانت الأمراض والمجاعة سبباً في ارتفاع معدل الوفيات في المدن، فقد كان السبيل الوحيد لتعويض ذلك الهجرة من الريف إلى المدينة. وقد وُلد ذلك ضغطاً على النظام الاجتماعي برمته، سواء لأهل المدينة الأصليين أو للمهاجرين؛ لاختلاف عادات وأنماط سلوك كل منهم. فكانت النتيجة أن أصبح العالم أكثر تمدناً، وفي الوقت نفسه فقد إنسان المدينة الكثير من إنسانيته.

هل من إيجابيات للثورة المدنية؟!

قلت لبيتر فارب؛ إن استعراضك لتوابع الثورة المدنية بين أنها قد أفرزت عددًا من السمات، منها: التركيز الكثيف لعدد السكان، وإنتاج فائض من الغذاء، ووجود سلطة سياسية مركزية، وعدم المساواة بين الناس اجتماعياً، وانتشار الأمراض، مع تقدم الهندسة المعمارية والتجارة وتطور الكتابة. ومع ذلك لمست من عرضك أن نظام المدينة مليء بالسلبيات، أما من إيجابيات؟!

أجابني فارب: بالرغم من العديد من سلبيات المدينة، فلا يمكننا إهمال ما حققته حياة المدينة من فوائد، ومنها أن الإنسان قد تمكن لأول مرة في تاريخه من التحكم (جزئياً) في بيئته الطبيعية، فحُميت المدن من أخطار الفيضانات، وحُزنت المياه لمواجهة ندرتها فيما بعد، وأحالت مصابيح الشوارع الليل نهاراً...

كذلك نسجت الحضارة المدنية مجتمعاً يحكمه القانون والعدالة، فعاشت أعداد كبيرة من الناس معاً في وئام نسبي. كما وجّهت المدينة الطاقات الإنسانية العشوائية وجهات محددة، فتكونت ثقافات مختلفة ومؤسسات اجتماعية مختلفة الأنشطة.

وقد وسّعت المدينة مدى نشاطات الإنسان، وتمكنت من اختزان المعرفة بشكل متزايد ونقلها إلى الأجيال القادمة، من خلال تطوير المكتبات والسجلات والمتاحف. كما حققت شبكات الطرق ووسائل المواصلات للإنسان انتقالاً سريعاً، صاحبه انتقال الأفكار والابتكارات.

وأضاف فارب قائلاً: ولا شك أن هذه الإيجابيات والسلبيات للحياة المدنية تتفاوت من حضارة لأخرى، وتستطيع أن ترصد هذه السمات في مدينتكم القاهرة إحدى أشد مدن العالم ازدحاماً.

= والأشد فتكاً من طاعون بيزنطة كان الطاعون الذي لُقّب بالموت الأسود، والذي بدأ عام 1346 وانتهى عام 1361، بعد أن انتشر في جميع أنحاء أوروبا وامتد إلى أفريقيا والصين. وقد قتل قرابة عُشر سكان المناطق البريطانية المزدحمة، أما مدينة أفينيون الفرنسية فلم ينجو من الموت غير ربع سكانها فقط.

محصلة التمدن محزنة

سألت بيتر فارب، إذا وازناً سلبيات التمدن وإيجابياته، فما محصلة تلك الموازنة؟

أجابني فارب قائلاً: أرى أن طراز حياة المدينة لا يقدم للجنس الإنساني ميزات تشجعه على الاحتفاظ بها بالمدينة. ومن ثم لم يعد من وسيلة للتخلص من مشكلات التمدن إلا التخلص من هذه الفكرة التي عفى عليها الزمن، وهي فكرة المدينة نفسها!!

قلت لفارب: مالى أراك تسيء الظن بـ «التمدن» إلى أقصى حد؟

أجابني: لقد أخطأ الإنسان خطأً كبيراً حين قصر مفهوم التمدن على الحياة في المدن، بما يصحب ذلك من سلبيات وإيجابيات. إن التمدن (في نظري) هو أن يصبح الإنسان أكثر انسجاماً مع فطرته.

وقد عبّر توماس جيفرسون⁽¹⁾ عن ذلك في أحد رسائله لصديق عام 1787، قائلاً: «أعتقد أن حضارتنا ستبقى فاضلة لقرون عديدة مادامت زراعية بشكل رئيسي». وفي القرن العشرين نجد فرانك لويد رايت⁽²⁾ يكتب عن الإنسان المدني قائلاً: «إذا كان ما وصل إليه الإنسان هو التمدن، فإنه يكون قد أضاع الهدف الحقيقي للوجود الإنساني الطبيعي. وهو بذلك لم يقبل بوسائل بديلة لتحقيق وجوده فحسب، بل قبل بأهداف وغايات بديلة أيضاً». أى أنه قد ضل الطريق. ذكرني ما قاله بيتر فارب بالأسرة التي أعرفها والتي بدأت بحكايتها هذا الفصل.

التحديث

خلال القرن الأخير، تغيرت الحياة الإنسانية في كل مناحيها بسرعة أكبر وبشكل أشمل مما حدث خلال العشرة آلاف سنة السابقة، لذلك كان العالم المألوف للشباب يصبح غريباً عندما

(1) توماس جيفرسون Thomas Jefferson (1743 - 1826) من مؤسسي الولايات المتحدة الأمريكية، والواضع الأساسى لإعلان الدستور الأمريكى، وثالث الرؤساء الأمريكين.

(2) فرانك لويد رايت Frank Lloyd wright (1867 - 1959): معمارى أمريكى كبير، صمم العديد من البنايات المهمة، من مدرسة التصميم المتناسق مع الطبيعة.

يصير شيخاً عجوزاً! ولعل عدم القدرة على التعامل مع مجتمع ديناميكي سريع التغير هو السبب الرئيسي في الفوضى والاغتراب وعدم الرضا السائدين حولنا.

نقلت هذه الأفكار والمهموم لبيتر فارب، وسأنته عن حقيقتها وخلفياتها وعلاجها؛ فأجابني: لقد كان معيار التقدم عبر التاريخ وحتى قرون قليلة مضت، هو مدى نجاح التكيف في تلبية احتياجات المجتمع، ثم ظهر في الفترة الأخيرة معيار جديد يُقرن التقدم بالتغيير السريع بغض النظر عن نتائجه!

وكثيراً ما تُوصف التغيرات الحديثة بنعوت «الأوروبية» و«الغربية» و«التصنيعية»؛ لأنها واكبت الثورة الصناعية في أوروبا الغربية. والحقيقة أن التغيرات المتسارعة الجديدة تشمل المجتمعات الأوروبية وغير الأوروبية.

وقد قامت (وتقوم) عملية التحديث Modernization على ثلاث مترابط: التوسع المستمر في المعرفة، وتطبيق هذه المعرفة في التكنولوجيا، واستعمال كميات متزايدة من الطاقة. ولعل التوصل إلى مصادر جديدة للطاقة واستعمالها بطرق مبتكرة هو ما يميز المجتمع الحديث عن أى مجتمع سابق.

معايير التحديث

أضاف بيتر فارب، يستخدم علماء الاجتماع عددًا من المقاييس للحكم على مدى التحديث، من أهمها عدد الأشخاص الذين يعرفهم الفرد بشكل مباشر. فمنذ قرن من الزمان كان عدد من يعرفهم الإنسان لا يتجاوز بضع مئات أو عشرات من أقاربه وجيرانه والتجار والأصدقاء في المجتمعات القريبة منه. ومنذ نصف قرن، صار الإنسان (عن طريق وسائل الاتصال المختلفة) يعرف وجه رئيس حكومة أجنبية أو لاعب كرة أو مطرب شهير أكثر مما يعرف وجوه بعض جيرانه. واليوم حدثت طفرة ثورية، فصار الفتى يصادق في كل دولة من دول العالم (عن طريق شبكة المعلومات) عددًا من الأفراد يزيد على كل من كان يعرفهم والده!. كذلك أتاحت وسائل الاتصال الفوري نقلًا آنيًا للآراء والأخبار.

ومن المقاييس المهمة الأخرى لمدى التحديث، مقدار ما يستخدمه الشخص من طاقة. ففي ظل عملية التحديث أستهلكت الطاقة بنسبة تفوق كثيرًا النمو السكاني، حتى ازداد استهلاك الفرد

منها بأكثر من خمسة أضعاف في النصف الثاني من القرن العشرين. وفي عام 1975، كان الفرد في الولايات المتحدة يستهلك قدرًا من الطاقة يعادل طاقة مائتي عبد يقومون بأعمال شاقة.

لقد كان الناس في حياة الصيد وجمع الثمار وكذلك المراحل المبكرة من الزراعة يستعملون قدراتهم العضلية، ويعتمدون على التغذية على النبات والحيوان لتوفير الطاقة لعضلاتهم. ثم استغلت الأنظمة الزراعية المتقدمة نسبيًا مصادر إضافية، كطاقة الحيوانات لجرح المحارث، وطاقة الماء لطحن الحبوب، وطاقة الهواء لتشغيل أدوات الري. أما المجتمع الحديث فيستخرج الطاقة من مصادر مختلفة تمامًا؛ كالفحم، ثم النفط والغاز الطبيعي والكهرباء، ثم الطاقة النووية التي زوّدت الولايات المتحدة عام 2000 بقدر من الطاقة يساوي ما أنتجته المصادر الأخرى مجتمعة في عام 1940.

خدعة تحديثية تكنولوجية

سألت بيتر فارب: وهل أدّت ميكنة الزراعة وما صاحبها من تطور في مصادر الطاقة إلى مردود زراعي أعلى؟ فأجابني: من المقاييس التي تُستخدم للحكم في هذه القضية هو مقارنة ما يُنفق من الطاقة بما ينتج من طاقة الغذاء، خاصة الحبوب. وقد تبين أن الزراعة الفلاحية التقليدية تُنتج حوالي 10 سُعرات (كالوري) من الطاقة مقابل كل سُعر يُستهلك فيها من طاقة الفلاح، بينما تُنتج الزراعة الآلية الحديثة قُرابة 6000 سُعر من الطاقة مقابل كل سُعر مبذول فيها من جهد الفلاحين.

لكن ما يبدو من كفاءة المزرعة الحديثة ليس إلا وهمًا! ويتضح ذلك إذا أضفنا الطاقة المُستهلكة من مصادر خارجية إلى ما يبذله المزارعون من طاقة. فالفدان الواحد في مزارع الولايات المتحدة الحديثة يستخدم 15 طنًا من الآلات الزراعية تستهلك 440 لترًا من البترول، ويحتاج 203 رطل من السماد. ويعادل ذلك ثلاثة ملايين سُعر حراري. وبحسبة بسيطة نجد أن علبه صغيرة من الذرة الصفراء التي تعطى 270 سُعرًا تستهلك 2790 سُعرًا، وأن شريحة من لحم البقر تنتج نفس الكمية من السُعرات (270 سُعرًا) تحتاج إلى 22.000 سُعرًا!!!

وإذا كان عدد من يعملون بشكل مباشر في الزراعة قد قل بقدر كبير، فإن هناك أشخاصًا آخرين يعملون في المصانع التي تنتج الآلات الزراعية والأسمدة الكيماوية، وفي سكك

الحديد وسيارات الشحن التي تنقل المنتجات من وإلى المزرعة، وفي مصافي البترول... إلخ، معنى ذلك أن إنجازات الزراعة الحديثة لم تتحقق عن طريق خفض الجهد الإنساني، بقدر ما تحققت نتيجة لنقل ذلك الجهد من المزرعة إلى مجالات أخرى من الاقتصاد القومي! وإذا كان الفلاح حتى قرن مضى يُعتبر قمة في الاكتفاء الذاتي، فإنه في المزارع الحديث يعتمد على النظام الاقتصادي العام كأى موظف مكتبي في أية مدينة كبرى!

وينبغي ألا ننسى أن الكثير من الأيدي العاملة التي تم توفيرها من الزراعة تتجه إلى المدن، لتمارس أعمالاً متدنية لقلّة خبراتهم، ويعيش الكثيرون منهم حالة على المعونات الاجتماعية وأحياناً يلجأون للسرقة. هذا ثمن لا ينبغي أن نغفل عنه لعملية تحديث الزراعة!!

آثار التحديث

سألت بيتر فارب: وهل حقق التحديث تغييرات في مجالات أخرى؟ فأجابني:

منذ أن طوّر جيمس واط الآلة البخارية وجعلها صالحة للاستعمال التجاري سنة 1775، حدثت ثورة لم يسبق لها مثيل على جميع المستويات. وإذا كانت الابتكارات التكنولوجية الباهرة هي أكثر الإنجازات لفتًا للانتباه، فإن النتائج البيولوجية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية للتحديث لا تقل أهمية عن تلك الابتكارات.

فمن حيث البعد البيولوجي، كانت أهم النتائج تضاعف متوسط عمر الإنسان المتوقع بمقدار ثلاث مرات خلال القرنين الماضيين، كما زادت أعداد بنى الإنسان إلى ستة أضعاف.

وكانت أهم نتيجة سياسية، اختفاء أسلوب الحكم الوراثي في معظم الدول، واستبداله بأنظمة ذات اتجاهات ديمقراطية. ومع الديمقراطية جاء التوسع في المسؤوليات الحكومية وفي تشكيل الجهاز الوظيفي.

ولعل التغيير الاجتماعى الرئيسى، هو تناقص ولاء الفرد لعائلته وبلدته وعشيرته ودينه وحتى لأمتة، لحساب ولاءه لزملائه في المهنة وللنظام الوظيفى الذى ينتمى إليه، حكومياً كان أم صناعياً أم دينياً. وكانت النتيجة أن نشأت ثقافة عالمية تشمل جميع الأمم الحديثة، وينعكس

ذلك في الشبه الذي تَبَدَّى في جميع أنحاء العالم في اللباس والموسيقى والفن واللغة، وحتى في المفاهيم والأعراف الشائعة.

سألت فارب: وهل انعكس ذلك على شخصية الإنسان؟ فأجابني: لم يكن ممكنًا حدوث هذه التغيرات دون أن يصاحبها تغيير أساسي في الشخصية الإنسانية. فقد كان لزامًا على الناس أن يخضعوا لتكسيفات نفسية ليتوافقوا مع التعاقب السريع للتغيرات غير المتوقعة وأحيانًا غير العقلانية. فمثلًا وجد بعض أفراد الجنس البشري أنفسهم مضطرين إلى التنقل - في إطار عملهم - بين أقطار العالم وربما يعيشون خلال حياتهم العملية في ستة أماكن مختلفة متفرقة في عدة قارات. ولا شك أن ذلك يُحمِّلهم أعباء نفسية واجتماعية هائلة، إذ يتطلب التعامل - كل بضع سنوات - مع رؤساء جدد ومهام جديدة وبيت جديد وصدقات جديدة ومدارس جديدة لأطفالهم، كما يقطع ذلك العديد من أواصر العلاقات العائلية خصوصًا مع الوالدين، وقد أدى ذلك إلى أن يوضع العجائز منهم في الملاجئ وبيوت كبار السن، وأن يُرسل الأطفال إلى مدارس داخلية.

لقد حدث تغيير هائل في العالم بسرعة لم يسبق لها مثيل، حتى صار كبار السن مذهولين مما يحدث حولهم، كما يجد الشباب صعوبة في ملاحقة تسارع الأحداث والتغيرات. وفي الوقت نفسه فإن الهدف الذي تسعى هذه التغيرات الحديثة لتحقيقه، وهو ارتفاع مستوى المعيشة، ما زال سرابًا لمئات الملايين من بنى الإنسان.

أوشك الحوار مع عالم الأنثروبولوجيا المهتم بنشأة الحضارة الإنسانية على الانتهاء. وما كنت لأسمح بذلك قبل أن أحصل منه على خلاصة الرحلة، قلت لبيتر فارب: بعد هذه الرحلة الحضارية الطويلة، هل تعتقد أن إنسان اليوم أسعد حالًا من أسلافنا الصيادين وجامعي الثمار؟

ابتسم فارب وأطرق قليلاً وقال: إن ذلك يتوقف على ما تقصده بالسعادة: أهى العمر الأطول؟ أم الاستهلاك الأعلى للطاقة؟ أم المستوى الأعلى من التكنولوجيا؟ أم المعرفة الأعمق؟ أم... أم... ما هو المقياس الذي تحتكم إليه؟

أجبت: إن المقياس الذي أرجع إليه دائماً لتقييم أى إنجاز حضارى، هو مدى تَمَشُّيه مع إنسانية الإنسان وفطرته، وقدرته على تحقيق الأمان النفسى له⁽¹⁾.

(1) مناقشة هذا المفهوم بالتفصيل في الفصل الثامن، بعنوان «جعلوني مسخًا مشوهًا».

نظر بيتر فارب إلى الأرض، وهز رأسه وقال: بهذا المقياس، أرى (للأسف) أن أسلافنا من الصيادين وجامعي الثمار كانوا أسعد حالاً منا... وافترقنا...



مع الحضارتين المصرية القديمة والعربية الإسلامية

باعتباري مصرياً حتى النخاع، ومن عشاق مصر الذين يتنفسون حبها... وباعتباري عربياً مسلماً، يحركني اليقين العقلي والقلبي بعظمة عروبتي وإسلامي... ما كان يمكن - في حديثي عن الذات الإنسانية - أن أنهى رحلتي مع ملحمة بناء الإنسان لحضارته، دون أن أشير إلى مساهمة هذين الرافدين العظمين في نهر الحضارة المتدفق.

حضارة أجدادي المصريين القدماء...

ليس العطاء الأكبر الذي قدمته الحضارة المصرية القديمة للبشرية هو الأهرامات الشاهقة والمعابد المنيفة والمقابر الخالدة، وما يحتاجه تشييدها من إتقان علوم الهندسة والفلك وغيرها، ولكن العطاء الأكبر يمكن تلخيصه في كلمة واحدة، هي «الضمير»، إنه مفاهيم الصواب والخطأ، ما ينبغى وما لا ينبغى، إنه مفاهيم الحرية والعدل والمساواة، وإنكار الذات، والاحترام المتبادل الذي يحكم العلاقات الاجتماعية، والسعى إلى التسامى الروحي، و... و..

اقرأ هذه المقولات الخالدة:

«ما أعظم فضل الرجل الذي يتخذ العدالة نبراساً له وينهج نهجها».

(من أقوال الوزير الأكبر «بتاح حتب»، في القرن السابع والعشرين ق.م)

«إن العدالة خالدة الذكرى، فهي تنزل مع من يقيمها إلى القبر... ولكن اسمه لا يُحى من الأرض بل يُذكر على مر السنين بسبب العدل».

(من قصة الفلاح القصيح الأهناسي، الذي عاش في القرن الثالث والعشرين ق.م)

«إن فضيلة الرجل المستقيم أحب (عند الله) من ثور الرجل الظالم»

(أي من قربان الرجل الظالم).

(من النصيحة الموجهة للأمير «مريكارع» من والده الفرعون، عاش في القرن الثالث والعشرين ق.م).

«إن فضيلة الرجل هي أثره، ولكن الرجل السيئ الذكر منسي».

(من شاهد قبر مصري عاش قرابة القرن الثاني والعشرين ق.م).

«قد يعمل ابنُ الإنسان على تخليد اسمه أبد الأبدين... إن العدالة هي الأبقى... ستعود إلى مكانها والظلم يُنقى من الأرض»

(من أقوال «نفر وهو»، وهو نبي مصري عاش حوالي عام 2000 ق.م).

«يا آمون أنت أيها الينبوع العذب الذي يروي الظمأ في الصحراء... إنه لينبوع موصد لمن يتكلم ومفتوح لمن يتذرع بالصمت، فإنه حينما يأتي الصمت، يكون التأمل، وهناك يجد الينبوع».

(عن حكيم مصري قديم عاش قرابة 1000 ق.م).

إن هذه المقولات أعظم عندي من كل ما تركه أجدادنا المصريين القدماء من أهرامات ومعابد ومقابر و...

فإذا كان للحضارة الإنسانية رافدها المادي ورافدها الأخلاقي، فلا شك أن البعد الأخلاقي هو الأهم. وقد أصاب «إمرسون»⁽¹⁾ حين قال:

«نحن نظن أن شمس حضارتنا قد قاربت غاية ارتفاعها، والحقيقة أننا ما زلنا منها إلى الآن في أوان أذان الديك ووقت مطلع نجم الصباح، ففي مجتمعنا الهمجي ما يزال نفوذ الأخلاق في طفولته».

لذلك لم أختَر موضوعًا حديثي ما قدمه أجدادي المصريون القدماء للبشرية في مجال العلوم التطبيقية (الرافد المادي) مع سبقهم فيه، لكنني اخترت أن أحدثك (قارئ الكريم) عن سبقهم - بل تأسيسهم - للرافد الأخلاقي. وقد اخترت أن يكون ذلك من فيض كتاب «فجر الضمير The Dawn of Conscience» لعاشق مصر والمصريات، عالم الآثار المصرية جيمس برستد J.H.Breasted، والكتاب من ترجمة رائد علم الآثار المصرية د. سليم حسن⁽²⁾:

(1) قس مقاطعة نيو إنجلاند.

(2) قامت بنشر الترجمة الهيئة العامة للكتاب - طبعة منقحة، 2012.

فجر الضمير

بينما كان الصياد في عصر ما قبل التاريخ يكافح بين الوحوش الهائلة التي كانت تحيط به، بدأ يسمع همساً من عالم جديد كان ينبثق فجره في باطنه، وكان هذا الهمس بمثابة بوق يختلف عن همس ألم الجوع أو الخوف الذي يشعر به الإنسان ويدفعه للمحافظة على كيانه. كان ذلك إشارة إلى بزوغ «فجر الضمير» الذي صار قوة تمخضت عن عصر الأخلاق، ذلك العصر الذي ما زلنا نقف عند أول مرفأ فيه.

فما هو المنبع الذي خرجت منه هذه الأصوات الباطنة، وكيف اكتسبت تلك القوة الأمرة في حياة الإنسان، وكيف أصبحت قوة راسخة مسيطرة في المجتمع الإنساني؟ لا شك أن هذه القفزة كانت تقدماً عظيماً وتغييراً أساسياً في مسيرة الحضارة.

إن المؤرخين يعلموننا أن التاريخ البشري ينقسم إلى عصور عظيمة، مثل عهد الملكية وعهد الإمبراطوريات وعهد الديمقراطيات... إلخ. ويعترف طراز آخر من المؤرخين بأهمية «عصر الآلات وما تبعه من انقلاب صناعي»، حتى إن المتحمسين يُعبّرون عن رقي الإنسان باصطلاحات تتعلق كلها باستخدام القوة. ومن وجهة أخرى، يُقسّم علماء الآثار تاريخ حياة الإنسان إلى عدة عصور: العصر الحجري، وعصر استعمال النحاس، وعصر استعمال البرونز، وعصر استعمال الحديد.... بينما يُعدد علم الأحافير الأطوار المتتالية لحياة الحيوان والنبات.

ومع أن هذه التقسيمات ملائمة وضرورية، فإنها من غير شك لا تزال - من بعض الوجوه - سطحية. أما التقسيم الأكثر فائدة والأعظم أهمية ويدل في الوقت نفسه على أطوار التقدم الإنساني، فينبغي أن يشتمل على عصرين؛ «عصر الضمير والأخلاق» (الذي بدأ منذ نحو خمسة آلاف سنة)، و«عصر العلوم» الذي بدأه «جاليليو» منذ أكثر من أربع مائة سنة. والواقع أن كتابة التاريخ - حتى الآن - لم تعط سوى القليل من العناية لهذين التطورين الإنسانيين الأساسيين.

مصر.. جنة الخلد

لقد صار الإنسان أول صانع للأشياء وللأسلحة بين مخلوقات الكون قبل حلول عصر الجليد منذ قرابة مليون سنة، ظل فيها الإنسان يُحسّن هذه الأدوات. ولكن من جهة أخرى، لم يمض

على الإنسان إلا قرابة خمسة آلاف سنة منذ أن بدأ يشعر بقوة الضمير الذي صار قوة اجتماعية فعالة. ومن أجل أن ندرك مقدمات ومراحل هذه الملحمة، دعنا نرتدى مُسَوِّحَ الجيولوجيين الذين يقيسون الزمن بعصوره الجيولوجية لا بالسنين. ستكون بدايتنا «عصر تكوين أودية الأنهار العظمى»، وسيلفتنا بلا شك تَكْوَنُ وادي النيل، بعد أن كانت دلتا النيل الحالية لا تزال خليجًا للبحر الأبيض المتوسط.

بعد هذا العصر، يأتي عصر «نضوب الماء». فبعد أن كان كل شمال أفريقيا إقليمًا ذا أمطار غزيرة ونباتات وفيرة، أي ميدان صيد نموذجي، بدأ انحسار المطر في منتصف العصر الحجري القديم، فَحَلَّ الجفاف العظيم الذي حَوَّلَ هذا الإقليم الخصب إلى تلك الببغاء الشاسعة التي نسميها الآن «الصحراء العظمى». أما في الركن الشمالي الشرقي من أفريقيا، فقد حافظت العوامل الجيولوجية على ممر خصب منخفض زاخر بالأعشاب النضرة وبالحيوانات، لقد كان ذلك على ضفتي النهر العظيم عند الجزء السفلي من وادي النيل⁽¹⁾. لقد أخذت «جنة الخلد» هذه، والتي نسميها الآن مصر، تجذب إليها صيادي العصر الحجري الذين كانوا يسكنون هضبة شمال إفريقيا، بعد أن اضطرتهم الجفاف إلى اقتفاء حيوانات الصيد في هذا الاتجاه، ومن ثم بدأوا يتخذون وادي النيل الضيق موطنًا مختارًا لهم. وقد أقام الجفاف حول جنة الصياد هذه حاجزًا منيعًا من الصحراء لا يمكن اختراقه من ثلاثة جوانب من حدود مصر - الشرق والغرب والجنوب - كما كان يحميها البحر المتوسط من الشمال.

لقد تحول وادي النيل الأسفل إلى معمل اجتماعي منعزل لا مثيل له في سائر بقاع العالم، فالنيل هو النهر الوحيد على كرتنا الأرضية الذي ينبع من المناطق الحارة وينساب نحو الشمال مخترقًا نحو 700 ميل في المنطقة المعتدلة بين خطي عرض 25، 45 شمالًا والتي قامت فيها كل الحضارات القديمة. كذلك كان وادي النيل في عصور ما قبل التاريخ يتمتع بمزية فريدة، إذ لم يكن معرضًا لشدائد عصر الجليد، بل كان منفصلًا عنها ومحميًا منها بمياه البحر الأبيض المتوسط المطلقة الواسعة الأرجاء.

وفي المقابل كانت حياة صيادي العصر الحجري في أوروبا وغرب آسيا تهددها باستمرار

(1) الجزء السفلي من النهر هو القريب من المصب، وهو مصر. والجزء العلوي من النهر هو المنبع الواقع في قلب أفريقيا.

الرياح القطبية واندفاع الثلوج التي لا تقاوم، وأيضاً الصراعات بين الجماعات البشرية على الغذاء القليل. لذلك كان التقدم البشرى نحو التطور الاجتماعى فى هذه المناطق لا يلبث أن يعثرُ وتزل به قدمه فيرجع إلى سيرته الأولى، فيحاول النهوض مرة أخرى، ويعانى العملية نفسها المرة بعد المرة، بهذه العوامل تناوبت القوى المُغيرة من طبيعية وإنسانية على وقف التطور الاجتماعى فى هذه المناطق.

فجر الحضارة فى مصر

ولما كانت جنة الخلد (مصر) محمية بالصحارى وبالبحر، عامرة بالماء والخضرة، كان التطور البشرى فيها سهلاً. وقد تكشف التربة المصرية على حدود الصحراء عن قبور أقدم الجبانات المعروفة فى العالم كله، ووجدنا فيها حَلف صيادى العصر الحجريّ فى وادى النيل عندما كانوا فى بداية الانتقال إلى عصر المعادن قبل قرابة 5000 سنة ق.م، وكانوا قد استأنسوا أهم الحيوانات المنزلية، وانتقلوا إلى طور حياة الفلاح. بذلك كَوَّنوا أقدم مجتمع عظيم على الأرض، استطاع أن يضمن لنفسه غذاء ثابتاً باستئناس الموارد البرية من نبات وحيوان، كما مكَّنهم تغلُّبهم على المعادن فيما بعد ثم اختراعهم لأقدم نظام كتابى من امتلاك طريق التقدم الطويل نحو الحضارة.

لقد كانت الأحوال المعيشية للجماعات المحلية التى سكنت البلاد حسنة جداً، مما جعلها تتوحد تدريجياً، حتى أصبحت أول مجتمع عظيم مؤلف من عدة ملايين يحكمهم ملك واحد وفى أيديهم كل الأسس الرئيسية اللازمة للحضارة. ففي القرون التى تقع بين 5000، 3500 ق.م قامت أول دولة متحضرة كبيرة ذات إنجازات غير مسبوقه، فى نظام الحكم ونواحي الاقتصاد والاجتماع والدين والعمارة والفن والأدب، لقد بدأ الإنسان المصرى ذلك كله من لا شيء. فى ذلك الوقت، كانت أوروبا ومعظم غربى آسيا لا تزال مسكونة بجماعات مشتتة من صيادى العصر الحجريّ.

أما الفترة من القرن الخامس والثلاثين إلى القرن الخامس والعشرين ق.م فكانت مرحلة «فريدة» فى حياة الإنسان على الأرض، فقد كان وادى النيل أول مسرح اجتماعى، يمكننا أن نلاحظ فيه الإنسانَ خارجاً منتصباً من كفاح طويل مع الطبيعة، وداخلاً مسرح العوامل الاجتماعية الجديدة، ليبدأ كفاحه الشاق بينه وبين نفسه، وهو كفاح ليريكديتخطى بدايته

حتى يومنا هذا. لقد قدم المصريون القدماء بذلك أول برهان على أن الإنسان أمكنه أن يخرج من الوحشية إلى المثل الاجتماعي الأعلى، وأن يُظهر الحياة الإنسانية بمظهر لم ير الكون كله - على ما نعلم - أرقى منه⁽¹⁾.

وأخيراً نقول، لم يكن لسكان وادي النيل في عصر ما قبل التاريخ أجداد متحضرون يرثون عنهم أية ثقافة، لقد أنشأوا الحضارة من «الصفرة». لقد امتلكوا ذلك السحر الذي حول هؤلاء الصيادين السُّدج ومساكنهم الصغيرة المصنوعة من الطين أو الخوص إلى مجتمع عظيم يسيطر عليه رجال ذوو سلطان وخيال واسع وأصحاب آمال ضخمة، أحرار لم تغل أياديهم التقاليد، فَعَمَّرت تلك البقاع التي كانت يوماً أحراراً ومستنقعات. ولم يكتف هؤلاء المبدعون بنشر هذه الآثار الشاهقة على طول ضفتي النهر، بل أدركوا كذلك المعنى السامي للقيم الاجتماعية والأخلاق البعيدة عن الأنانية، مما لم ينبثق فجره على العالم من قبل.

انتهى كلام «بريستد» الذي لخصته من كتابه «فجر الضمير». ألا تجد فيه الدرس للمصريين المعاصرين الذين يطمحون لأن يستعيدوا لهذه الأمة مجدها؟

من أجل ذلك كله، عندما زار الفيلسوف اليوناني الكبير أفلاطون مصر في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، عبَّر عن انبهاره بما شاهدته بقوله:

«نحن الإغريق نقف كالأقزام إذا ما قورنا بالحضارة المصرية».

وتحدث «جون ن» في كتابه «الطب المصري القديم» عن دور العنصر البشري في بناء حضارة المصريين بقوله:

(1) نشأت في نفس الوقت تقريباً في غرب آسيا (وبخاصة في بابل) حضارة تمتاز بتقدمها المُطرد في الشؤون العملية والتجارية والقضائية ودراسة الأجرام السماوية، غير أن الحضارة البابلية كانت تسودها روح الاقتصاد التجاري والكد في الحاجيات الأولية، مما حرم التطور الاجتماعي البابل من الأسس الأولية لمراعاة الغير، والعمل على نفعهم، حتى إن دستور قوانين «حمورابي» يقضي في العدالة حسب المركز الاجتماعي للمدعى والمدنَّب. أما الاندعام التام للفوارق الاجتماعية أمام القانون الذي هو من أرقى مظاهر الحضارة المصرية فلم يكن معروفاً في بابل، وكانت نتيجة ذلك أن المبادئ الأخلاقية في بابل لم تسهم إلا بالنزر اليسير - بل لم تسهم بشيء مطلقاً - في الإرث الأخلاقي الذي ورثه العالم الغربي. كذلك فإن الادعاء بأن الحضارة العبرانية هي صاحبة الفضل على أوروبا فيما تبنته من مفاهيم أخلاقية ادعاء ناقص، فالحضارة العبرانية إنما استمدت إرثها الأخلاقي عن الحضارة المصرية القديمة (بريستد).

«لقد امتلك المصريون أهم أسباب التقدم، وهو نظام الإدارة المُحكّم وموهبة الاختراع، بجانب مهاراتهم التقنية التطبيقية.. إن الشعب الذي استطاع أن يبني الأهرامات في الألفية الثالثة قبل الميلاد، جدير بأن تكون له الريادة في عالم الطب».

ونختم بتلخيص العالمِ الفذِّد. جمال حمدان لسر عبقرية الحضارة المصرية، كما جاء في كتابه «شخصية مصر»:

«إن نكاح الإنسان المصري وطبيعة مصر (أرضها ونيلها) هو الذي أنجب هذه الحضارة، التي تمثلت في العديد من الإنجازات (غير المسبوقة):

أولها... الضمير

وثانيها... الدين

وثالثها... الهندسة والفن

ورابعها... الطب والتحنيط

وخامسها... الفتوحات»

ألم يصف الرسول الكريم ﷺ رجال مصر بأنهم «خير أجناد الأرض».

الحضارة العربية الإسلامية - هويتي

إن كنتُ مصري الهوية والجذور، فأنا عربي مسلم الانتماء، وسأتناول - بشكل مختصر - دور الحضارة العربية الإسلامية في بناء الحضارة الإنسانية ورفعها من هوة التخلف ودفعها للأمام، وذلك من خلال عرض شهادات عدد من مفكرى الغرب الذين بذلوا الجهد والعمر حتى يصلوا إلى الحقيقة.⁽¹⁾

يقول المستشرق «سبنسر فاميرى»: «.. لا يسع فلكي واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن

(1) هناك العديد من الكتابات المنصقة في هذا المجال يمكن الرجوع إليها، ومن أشهرها كتاب المستشرق الألمانية «زيجريد هونكه» المُسمّى «شمس الله تسطع على الغرب». وكتاب «تاريخ ضائع» للمفكر الأمريكي

يلفظ اسمًا عربيًا، ولا يستطيع أى عالم طبيعي أن يُحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درسًا عربيًا، ولا يقدر أى قاضٍ أن يبت اليوم في خلاف دون أن يستدعى مبدأ أملتته العرب، ولا يسع أى طبيب أن يتأمل أحد الأمراض المعروفة منذ القدم إلا أن يهمس بآراء طبيب عربي، ولا يستطيع أى رحالة أن يدلف إلى أبعد زوايا آسيا وإفريقيا دون أن يعتمد على اللغة العربية».

ويقول الفيلسوف الفرنسي «جوستاف لوبون» في كتابه «حضارة العرب»:

«.. لقد عاشت الجامعات الأوروبية.. ومنها جامعة باريس.. لمدة ستمائة عام على ترجمات كتب العرب واتبعت أساليبهم في البحث، لقد كانت الحضارة الإسلامية من أعجب ما عرف التاريخ!». وتقول المستشرقة الألمانية «زيجريد هونكه Sigrid Hunke» (1913 - 1999) في كتابها «شمس الله تسطع على الغرب»: «.. إن أوروبا مدينة للعرب وللحضارة العربية، وإن الدين الذى فى عنق أوروبا وسائر القارات للعرب كبيرٌ جدًا. وكان يتعين على أوروبا أن تعترف بهذا الفضل منذ زمن بعيد، ولكن التعصب واختلاف العقيدة أعما عيوننا وتركا عليها غشاوة، حتى إننا لنقرأ ثمانية وتسعين كتابًا من كل مائة، فلانجد فيها إشارة إلى فضل العرب وما أسدوه إلينا من علم ومعرفة، اللهم إلا تلك الإشارة العابرة إلى أن فضل العرب لا يتخطى دور ساعى البريد الذى نقل إلينا التراث الإغريقى»، كما تقول فى الكتاب نفسه: «.. وفى مراكز العلم الأوروبية لم يكن هناك عالم واحد إلا مديده إلى الكنوز العربية يفترق منها، وينهل كما ينهل الظامى من الماء العذب.. ولم يكن هناك ثمة كتاب واحد من بين الكتب التى ظهرت فى أوروبا فى ذلك الوقت، إلا وقد ارتوت صفحاته بوفرة من نبع الحضارة العربية».

لعل هذه الكلمات الموجزة المنصفة تُغنى عن مئات الصفحات عن دور الحضارة العربية الإسلامية فى بناء الحضارة الإنسانية.

القارئ الكريم...

إنها حقًا ملحمة... بذل فيها الإنسان جهده ووقته وماله بل ودمه، من أجل أن يثبت أنه جدير بالخلافة فى الأرض (سواء دَرَى بذلك أم لم يَدِر).

إن المُشاهد لأسلافنا الأوائل وهم يفرون مذعورين من الوحوش الكاسرة داخل أعشاب السافانا الأفريقية، ما كان ليتخيل أن هؤلاء سيسودون الكوكب في يوم من الأيام، بل وسيخرجون منه إلى الكواكب المحيطة.

كان العقل - وما زال - هو أداة الإنسان الأولى، التي مكنته من البقاء، ثم تحقيق قفزات تكنولوجية ارتقت به سلم الحضارة. فمن ابتكار الأدوات، إلى اكتشاف النار، إلى اختراع العجلة، إلى الزراعة واستئناس الحيوان، إلى اختراع اللغة ثم الكتابة، إلى اكتشاف المصادر المتعددة للطاقة ابتداء من قوة الهواء والماء إلى الطاقة الذرية، إلى الآلات الميكانيكية، إلى الأجهزة الإلكترونية، إلى وسائل التواصل المتعددة ابتداء من إشارات الأيدي وإشعال النيران والتنقل بالدواب، إلى السيارات والنفاثات والشبكة العنكبوتية. إنها إنجازات عقلية تفوق قدرتنا على الحصر والسرود وأيضًا على التنبؤ بما يحمله المستقبل.

وإذا كان السياسيون يحدثوننا عن «سرقعة الثورة»، ويعنون بذلك أن يتم تحويل مسار الثورة حتى يجني ثمارها من لم يضحوا من أجلها ولم يبذلوا جهدًا لإنجاحها، فاسمح لي - قارئ الكريم - أن أصك اصطلاحًا جديدًا، وهو (سرقعة الحضارة)، وأعني بذلك أن يتم تحويل مسار الحضارة حتى تخدم أهدافًا غير التي قامت من أجلها. فإذا كان الإنسان قد قدم ما قدم من تضحيات من أجل أن يحقق حياة أكثر تلاءمًا مع طبيعته وفطرته وأكثر قدرة على تحقيق الأمان النفسي له (وهذا هو المفهوم الحقيقي للتحضر)، فإن جماعات من الانتهازيين الأيديولوجيين والرأسماليين قد سرقوا الحضارة وانحرفوا بها عن الهدف الحقيقي للوجود الإنساني، وبدلاً من أن يمدوا الإنسان بوسائل بديلة لتحقيق غاياته الحقيقية، فإنهم قد زينوا له أن يُقبل بأهداف وغايات بديلة أيضاً!

لقد باعوا لنا الفنكوش⁽¹⁾.



(1) إشارة إلى الترويج لسلعة لا يحتاج لها الإنسان، بل سلعة لا وجود لها، بعد إقناعه باحتياجه لها - كما جاء في أحد الأفلام الكوميديّة المصريّة.

الفصل الثامن

جَعَلُونِي مَسْخًا مَشَوَّهَا

- حقيقتى بين الكينونة والتملك

- التملك والكينونة فى نشاطاتنا الفكرية
- التعلم
- الحوار
- الإيمان
- اللغة
- التذكر
- القراءة
- الحب
- الوعد الكاذب
- الكارثة والنجاة

- حوارى مع د. عبد الوهاب المسيرى: أنا.. ألعوبة الحضارة المادية

- الإنسان والوجود فى عَيْنى الدكتور المسيرى
- الحضارة المادية إفراز للفكر المادى
- تفكيك الإنسان ثم إعادة تركيبه: الترشيح البرانى والترشيح الجوانى
- صار الإنسان برجماتياً
- تلاشى دور الأسرة
- فقدان المرجعية
- حضارة حَقَرَت قَبْرًا يكفى لدفن العالم
- الإمبريالية النفسية
- حضارة مهووسة بالجنس
- ما بعد الحداثة
- الوجه الآخر للتقدم
- نحو حداثة جديدة

- القارئ الكريم

تهتم الديانات السماوية والفلسفات الوضعية، وكذلك الأساطير والمفاهيم الفلكلورية بأن تجيب الإنسان عن أسئلته المعرفية العامة؛ من أين؟ إلى أين؟ لماذا؟...، ثم ترسم له منهجاً في الحياة يحقق به السعادة والوصول إلى غايات وجوده.

ثم كرّرت علينا الحضارة المادية الحديثة، بقدها وقديدها، وأوقعت الإنسان في براثن حيرة وضياح واغتراب، لم يُعانِ مثلها في أحلك فترات تاريخه. وقد عبر عن هذه الحالة شاعر المهجر، إيليا أبو ماضي، في أبيات تقطر بالضياح:

جئتُ، لا أعلمُ من أين... ولكني أتيتُ
ولقد أبصرتُ أمامي طريقاً فمشتُ
وسأبقي سائراً، شئت هذا أم أبيتُ
كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي؟
لستُ أدري

لماذا؟ وكيف وصل الإنسان إلى هذا الحال؟ وكيف النجاة؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا الفصل...

حقيقتي ... بين الكينونة والتملك

منذ صباي، وحتى اليوم، تتردد في خاطري، من حين لآخر، مقولة لسلطان العلماء في الدولة المملوكية بمصر، العز بن عبد السلام، يقول فيها «نحن معشر العلماء نعيش في سعادة لو ذاقها السلاطين والأمراء لجالدونا عليها بالسيوف». وأحياناً، يثور في نفسي تساؤل: ما هذه السعادة القصوى المحروم منها من امتلكوا الأموال والرياش والضياح، وفي نفس الوقت قد يُحصّلها من عزفوا عن هذا المتاع؟

لقد جُبلَ العقل البشرى على إدراك الموجودات (مادية ومعنوية) على هيئة ثنائية، تمثل قطبين متقابلين، فنجد الأبيض والأسود، والسالب والموجب، والشمال والجنوب، والقوى والضعيف، وغيرها من الثنائيات. ولا شك أن من أهم تلك الثنائيات التقابل التليد بين الخير والشر، والذي يتخذ عدة أشكال؛ أقدمها التقابل بين الوجود والعدم، وكذلك التقابل بين الملائكة والشياطين، وبين العلم والجهل، وبين الصحة والمرض وغيرها. ويحسد القرآن الكريم ثنائية الخير والشر وارتباطها بمهمة الإنسان في الوجود، في قول الحق عزَّجَلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۗ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۙ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۗ﴾ [الشمس].

مرَّت هذه الأفكار بخاطري وأنا أقرأ كتاباً بالغ الأهمية لعالم النفس الألماني الأمريكي إريك فروم Erich Fromm بعنوان To Have or To Be⁽¹⁾. ويدور الكتاب حول أن النفس البشرية يتجاذبها نمطان من التوجه؛ النمط الأول وهو المهيمن على المجتمع الصناعي الحديث (رأسمالياً كان أم شيوعياً)، وهو «نمط التملك» الذي يُنصب على الشعور بالذات من خلال التملك المادى والقوة، ويقوم على الجشع والحسد والعدوان. أما النمط الثانى فيتجه نحو «الكيونونة» وإثبات الذات من داخلنا، ويقوم على الحب وعلى سمو القيم الإنسانية فوق القيم المادية. إن الفرق الجوهرى بين الكيونونة والتملك هو الفرق بين التوجه نحو الإنسان والتوجه نحو الأشياء.

وإذا كان التملك أمراً بديهيّاً لحياة الإنسان فى هذه الدنيا، فإن ما يرفضه إريك فروم هو أن يصبح مقدار ما نملكه هو مقياس قيمة الإنسان، فننتحدث عن شخص يساوى مليون جنيه، ونعتبر أن من لا يملك قرشاً لا يساوى قرشاً، وأن الرجل لا يعيبه إلا جيبه. لذلك ينبغى النظر إلى كل من التملك والكيونونة باعتبارهما طريقتين أساسيتين لممارسة الحياة، وأن القوة النسبية لأى منهما هى التى تحدد الفوارق بين شخصيات الأفراد وسهات المجتمعات.

لذلك قامت الديانات السماوية بالحث على ألا يطغى نمط التملك على كيونونة الإنسان، وإلا خسر إنسانيته. فهناك رسول الله ﷺ يخبرنا بأن: «من أصبح منكم معافى فى جسده، آمنّا

(1) إريك فروم، ولد فى ألمانيا عام 1900، وهاجر هرباً من البطش النازى إلى الولايات المتحدة، وعمل كأستاذ لعلم النفس بجامعة نيو يورك. وانتقل فى آخر حياته إلى سويسرا، حيث توفى عام 1979. وله عدة مؤلفات مهمة منها هذا الكتاب الذى ترجمه سعد زهران وراجعته وقدم له لطفى فطيم، ونشرته سلسلة عالم المعرفة الكويتية فى أغسطس 1989، تحت عنوان «الإنسان بين الجوهر والمظهر». وقد نقلنا عن هذا الكتاب أفكار إريك فروم الواردة فى هذا الفصل.

في سر به، عنده قوت يومه فكأما حيزت له الدنيا»⁽¹⁾. و يعلن المسيح ش: ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله، وفقد نفسه أو خسرها⁽²⁾.

و يَنحَى أساتذة البشرية الكبار نفس المنحى؛ فهناك بوذا يُعَلِّم مريديه أن من أجل الوصول إلى أقصى درجات النضج الإنساني، يجب ألا تشتهي ملكية شيء. وبالرغم من اختلافنا مع الكثير مما تطرح الماركسية، فقد أصاب ماركس حين قال: إن الترف لا يقل رذيلة عن الفقر، وأن الهدف من الحياة هو المزيد من تحقيق كينونتنا وليس الاستزادة من ملكيتنا.

ولا شك أن الإنسان السوي يمارس قدرًا من نمط الحياة التملكي، تكون فيه علاقته بالعالم علاقة ملكية وحيازة، بما في ذلك ذاته نفسها، فتجده في حديثه يؤكد تلك الملكية؛ فتجديني أتحدث عن جسدي، صحتي، علمي، اسمي، ممتلكاتي، معارفي، مكائتي الاجتماعية، طيبي، مدربي، شيخي... وليس في كل ذلك بأس. أما ما نكره فهو أن يسيطر النمط التملكي على حياة الإنسان ويصبح مرجعيته، وليس هناك أشهر (ولا أسوأ) من قول فرعون مصر ﴿وَأَدَّي فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف]، لقد أوردت كلمتي «لي» و«تحتي» فرعون المهالك.

وهناك علاقة بدئية قوية ومباشرة بين التملك والاستهلاك، فقد صار الاستهلاك أهم مظاهر التملك في مجتمعات الوفرة الصناعية المعاصرة. وتدفع عملية الاستهلاك الإنسان إلى مزيد من الاستهلاك، إذ سرعان ما يفقد كل استهلاك سابق تأثيره الإشباعي. وهكذا تتلخص النزعة التملكية المعاصرة في الصيغة الآتية: «أنا موجود بقدر ما أملك وما أستهلك».

وإذا كان النمط التملكي في الحياة يُدْهِب بجوهر الإنسان وهو كينونته، فإن له سلبية كبيرة أخرى؛ فإذا كنت أنا هو ما أملك، ثم فقدت ما أملك، فماذا يتبقى لي من نفسي؟ لن يبقى سوى شاهد (كشواهد القبور) مهزوم متضائل مثير للشفقة، شاهد على أسلوب حياة خاطئ. ويجعلني ذلك أحميا في خوف وقلق دائمين؛ من اللصوص والثورات والتقلبات الاقتصادية، ومن الأمراض، ومن اتخاذ القرار، ومن المجهول. وهكذا أتحوّل إلى شخص مشغول بالدفاع عن نفسه، موسوس، وحيد، تملكني الحاجة لامتلاك المزيد من الأشياء، التي أنشد فيها مزيدًا

(1) سنن الترمذی.

(2) إنجيل لوقا 9: 25.

من الحماية. ويمتد الخوف ليصل إلى القلق من فقدان الحياة نفسها بالموت، ذلك الخوف الذي لا مهرب منه طالما نعيش وفق نمط التملك.

أما أسلوب الكينونة، فهو نقيض التملك، ويعنى الارتباط بالعالم بروابط حقيقية أصيلة، كما يعنى الاهتمام بالجواهر الصادق للشخص كنقيض للمظهر الخادع⁽¹⁾.

ويمكن تشبيه نمط الكينونة بسطح أزرق اللون، إذا ما سقط عليه الضوء امتص كل ألوان الطيف وعكس اللون الأزرق. أى أننا نصف السطح بالزرقة ليس لأنه يمتلك اللون الأزرق بل لأنه يعكسه. أى أن الشيء يُعرف بما يُعطى وليس بما يملك.

وفي أسلوب الكينونة لا يتعاضد الإحساس بالقلق وانعدام الأمان الناشئين من خطر فقدان الممتلكات. فإن كنت أنا من أكون ولست ما أملك، فلن يسلبني فقدان شيء أمني أو ينال من إحساسي بتكاملي وتماسك شخصيتي، ذلك أن مركزي موجود داخل نفسي، وأن قدرتي على الوجود جزء لا يتجزأ من ذاتي. وبينما يتناقض التملك بالاستخدام، فالكينونة تتعاضد بالممارسة. وإذا اكتملت نظرتي إلى حقيقة الحياة (المنظور الديني) تلاشى الخوف من الموت الذي لن يكون إلا طريق إلى حياة خالدة.

التملك والكينونة في نشاطاتنا الفكرية

يعيش إنسان العصر الحديث في مجتمع مكرس للامتلاك وتحقيق الربح، حتى اعتقد أغلب الناس أن التملك هو الأسلوب الوحيد الممكن للحياة، لذلك يندر أن نلاحظ شواهد لنمط الكينونة في حياتنا اليومية، بالرغم من أن نمط التملك والكينونة يتنافسان في جوانب عديدة من حياتنا الفكرية قد تظن أنها بعيدة عن هذه الثنائية، فلنتأمل هذه الأمثلة:

التعلم: في نمط التملك، ينصت الطلاب للمحاضرة ويسجلون كلماتها في مذكراتهم حتى يحفظوها ويصبحوا قادرين على استرجاعها ليجتازوا الامتحان بنجاح. أى يصبح كل طالب مالكاً لمجموعة من العبارات والصيغ (ولا أقول المفاهيم) التي توصل إليها شخص آخر، دون أن ينتج أو يبتكر شيئاً جديداً.

(1) كان الإنجاز الرئيسى لفرويد في علم النفس هو الكشف عن التعارض بين القناع Persona الذى تظهر به شخصية كل منا، وبين الحقيقة المخفية وراءه، وهذا التعارض من سمات متقابلة المظهر والجوهر.

أما في نمط الكينونة، فعادة ما يكون الطلاب قد أعملوا أفكارهم في الموضوعات التي ستعالجها المحاضرات قبل أن يحضروها، إذ عادة ما تشغل تلك الموضوعات بالهم وتثير اهتمامهم، ولا ينظرون إليها باعتبارها كلاماً أجوف. لذلك فهم يستقبلون المحاضرة ويتجاوزون معها بطريقة نشيطة ومثمرة، وتكون المحصلة أن يصبح كل طالب بعد المحاضرة على غير ما كان قبلها.

التذكر: يعتمد التذكر على ربط المعلومات بأسلوب يعين على استرجاعها. وفي نمط التملك، يتم ذلك من خلال روابط ميكانيكية؛ كالربط بين بنية أو جرس الكلمة والكلمة التالية لها، أو عن طريق صلة منطقية خالصة، كالتضاد أو التقارب. ومثال هذا التذكر حفظ الصغار لآيات القرآن الكريم.

أما التذكر في نمط الكينونة، فيعتمد على ربط ما نريد تذكره ببعض المفاهيم والملابسات الكثيرة المحيطة به، وبالتالي يصبح التذكر إحياء للكلمات والأفكار. ومثال هذا التذكر ما كنت أقوم به عند دراسة الأمراض في أحد فروع الطب. فكنت أضع لجميع الأمراض نظاماً عاماً أحفظها (و بالتالي أتذكرها) تبعاً له، فأحدد لكل مرض أسبابه - أعراضه - علاماته - فحوصاته - مضاعفاته - علاجه... وقد أربط كل مرض بشيء خاص به، كأن أستحضر عند دراسة مرض الشلل الرعاش هيئة الشحاذ الذي يربط أمام باب المسجد المجاور لبيتي.

الحوار: عندما يتحاور الشخص الذي يحيا بأسلوب التملك، فإنه لا يهتم إلا بإيجاد المزيد من الحجج للدفاع عن رأيه الذي يعتبره جزءاً من ذاته أو من ممتلكاته، ومن ثم يعتبر أن التخلى عنه يعني افتقاره أو انتقاصاً من ذاته.

وفي المقابل، يصف رئيس مجلس إدارة إحدى شركات البترول العالمية الحوار كما يدور (بأسلوب الكينونة) في أثناء اجتماعات مجلس الإدارة، قائلاً: في البداية، يطرح كل منا رأيه وكأنه يضعه على المنضدة المقابلة ويتخلص من نسبته إليه، ثم تدور المناقشات دون أي ذاتية أو حساسية، وبذلك يتم تعديل وترقية تلك الأفكار، وفي النهاية يتبنى كل منا الرأي الذي اقتنع به.

القراءة: يهتم القارئ بأسلوب التملك بالإلمام بأحداث الفترة التاريخية التي يقرأ عنها، أو بأحداث الرواية التي يتسلى بها، وربما يتعجل القفز إلى معرفة حل عقدة الرواية؛ هل يظل البطل على قيد الحياة؟ هل تقع البطلة في غرامه أم تقاوم؟ عندها يشعر القارئ بأنه قد امتلك

الرواية بالرغم من أنها لم تضيف إليه شيئاً حقيقياً، حتى وإن كانت من تأليف مفكر كبير كنجيب محفوظ أو توفيق الحكيم.

أما القراءة بمفهوم الكينونة، فهي حوار بين القارئ والكاتب، يسعى فيه القارئ لفهم الشخصيات التاريخية أو شخصيات الرواية، لينفذ إلى الدوافع الحقيقية وراء سلوك تلك الشخصيات بصفة خاصة، وإلى أعماق النفس البشرية بصفة عامة.

كما يُنقَّب القارئ عن الجديد الذي جاء به المؤلف، ويميزه عن المقولات المُعادة التي لا مناص من تكرارها. بل ربما يصل القارئ إلى أن كتاباً كَثُرَ إطرأؤه ليس إلا عملاً قليل القيمة، وربما لا قيمة له على الإطلاق. بذلك تضيف تلك القراءة مفاهيم حقيقية إلى معرفة الإنسان.

الإيمان: يختلف الإيمان (الديني - السياسي - الشخصي) اختلافاً تاماً في كل من نمطى التملك والكينونة. فالإيمان في إطار التملك، يعني أن يمتلك الشخص إجابات عن التساؤلات المطروحة دون أن يكون لديه دليل عقلافي عليها، وعادة ما تكون تلك الإجابات صياغات توصل إليها آخرون يخضع لهم أو يثق بهم. وبذلك يعتقد الشخص أنه يملك المعرفة النهائية الراسخة، ويصبح واحداً من المالكين السعداء لليقين، وهذا أمر يريح الإنسان من أحد أشق مهامنا العقلية؛ مهمة التفكير واتخاذ القرار. وهذا اليقين مقابل لا بأس به لإنسان لا يملك الجرأة أو القدرة على التمحيص العقلي، ولديه الاستعداد للتنازل عن استقلاليتته.

أما الإيمان في إطار الكينونة، فيُعتبر توجُّه داخلي للشخص، يرفض الخضوع لسلطة تُملِي عليه مفاهيم إيمانية جاهزة، بل يتوصل الإنسان إلى اليقين من خلال تجربته الذاتية وما تقدمه من أدلة. وتعتمد الدعوة إلى الإيمان في القرآن الكريم على حث الإنسان على التأمل في الآفاق وفي الأنفس، وعلى أعمال العقل في الأدلة المنطقية حتى يتوصل من خلالها إلى اليقين الحقيقي.

الحب: الحب لفظ تجريدي ليس له وجود مادي، يصف فعل المحبة، التي تعني (في حقيقتها) نشاطاً إيجابياً مثمراً، تكون فيه العلاقة بالمحبوب علاقة معرفة ورعاية وتجاوب وفرحة ومسرة ومتعة.

أما إذا زحف أسلوب التملك على الحب تحول إلى سيطرة واحتواء وسجن، وصار عملية خنق وإهلاك بدلاً من أن يكون عطاءً للحياة، ويجسد هذا المعنى السلبي للحب اصطلاحاً نستخدمه كثيراً لوصف هذه التجربة، وهو «الوقوع في الحب».

وإذا كان المحب في فترة الخطوبة يطلب ود محبوبه، ويجتهد كل من الطرفين ليظهر أفضل ما عنده محاولاً أن يكسب مشاعر من يحب، فكثيراً ما تتغير الأمور تماماً مع الزواج، بعد أن يصبح كل منهما مالكا للآخر. عندها يبحث كل طرف عما أصاب الآخر بعد أن يشعر أنه قد خُدع، والحق أنها لا يدركان أنها قد أصبحت شخصين مختلفين. وفي الأحوال المعتادة يتحول الزواج إلى نوع من الملكية المشتركة، شركة تودع فيها كل ذات نفسها للاستثمار في ذات مشتركة، هي مؤسسة الأسرة.

اللغة: تختلف اللغات في أسلوب بنائها للجمل، فنجد للجمل التي تصف القيام بفعل ما في اللغة العربية هيئة واحدة، فنقول مثلاً: أنا ضربته. بينما نجد في الإنجليزية هيتين، إحداهما هيئة بسيطة مثل I Killed Him، والأخرى تُعرف بالماضي التام مثل I Have Killed Him. وفي الهيئة الأخيرة، نلاحظ إضافة فعل التملك Have إلى الفعل الذي مارسه الشخص، ويحدث ذلك أيضاً في اللغة الفرنسية⁽¹⁾. وكذلك يتم استخدام فعل التملك لوصف العديد من أشكال النشاط الإنساني؛ مثل I Have an Idea، وليس لذلك نظير في اللغة العربية.

وقد لاحظ إريك فروم توسع اللغة الإنجليزية خلال القرنين الآخرين في استخدام الأسماء والأفعال مشفوعة بفعل التملك، عوضاً عن الاستخدام المباشر. ويضرب على ذلك مثلاً بالمريض الذي يذهب إلى طبيبه النفسي قائلاً له: يا دكتور، أنا «عندي» مشكلة، «عندي» أرق، بالرغم من أن «لدى» زواجاً سعيداً. وقبل قرنين كان المعتاد أن يقول المريض أنا أعاني أرقاً بالرغم من أن زواجى سعيد. كذلك لاحظ حجة اللغة نعوم تشومسكى تزايداً ملحوظاً في استخدام الأسماء (التي هي رموز للأشياء) على حساب التناقص في استخدام الأفعال (التي تعكس النشاط البشرى).

إن هذا الأسلوب من الكلام في العصر الحديث يعكس درجة عالية من الاغتراب، فقد تحولت مشاعر الإنسان إلى شيء يملكه، بل أصبحت المشكلة تتملكه، أى أصبح الشيء الذي من صنعه يتملكه.

نلاحظ مما سبق أن كلا الاتجاهين (التملك والكينونة) غريزة في النفس الإنسانية. ويدعم اتجاه

(1) Verbe Avoir.

التملك دافع بيولوجي قوى يتمثل في الرغبة في البقاء، أما اتجاه الكينونة فتدعمه حاجة الإنسان النفسية للتغلب على العزلة بالتعامل اللائق مع الآخرين. وعلى الإنسان أن يختار أى هذين الاتجاهين يرعاه وينميّه، هذا - طبعاً - دون إغفال أن قرارنا يؤثر فيه البناء الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع.

فالمجتمع المعاصر يفترض أن نمط التملك هو النمط الفطرى الأوحده فى النفس البشرية، وأنه يستحيل تغييره عملياً. ويرى هذا المنظور أن الناس بطبعهم كسالى وسلييون ولا يرغبون فى العمل إلا إذا كانوا مدفوعين بحافز الربح المادى أو تحت ضغط الجوع أو الخوف من العقاب. وإذا كان الحافز البيولوجى للبقاء يُبرز الجانب التملكى فىنا، فإن هذا لا يمنع أن داخلنا رغبة عميقة ومتأصلة لأن نؤكد كينونتنا، وأن نُعبّر عن ملكاتنا العقلية والروحية، وأن نكون نشيطين، وأن نهرب من سجن أنانيتنا، وأن ننتمى إلى المجموع.

وقد عبّر هب D.O.Hebb⁽¹⁾ عن لب المشكلة حين قال: إن المشكلة السلوكية الأساسية هي الكشف عن أسباب السلبية والخمول، وليس البحث عن أسباب النشاط، إذ إنه فطرى فىنا.

الوعد الكاذب

ابتداء من النصف الثانى للقرن العشرين حدثت بين الكثيرين من فلاسفة العالم الغربى صحوة فكرية، تستنكر أن المجتمع الصناعى الغربى حين دفع الناس إلى تبني النمط التملكى فى الحياة قد جعل شهوة تملك المال والشهرة والسلطة هي المحرك الأساسى للإنسان، مما أدى إلى أن مُسخت حاجيات الإنسان وتشوهت فطرته، حتى أصبح الإنسان العصرى عاجزاً عن تصور مجتمع لا يدور حول الملكية الجشعة.

ومن هؤلاء الفلاسفة العظام إريك فروم، الذى اهتم بدراسة هذه الظاهرة من خلال مقارنة نمطى التملك والكينونة فى كتابه⁽²⁾ To Have Or to Be، واعتبرها مقارنة بين مظهر الإنسان وجوهه. ويرى فروم أن الحضارة المادية المعاصرة قد أهملت بشكل كامل حاجات الإنسان النفسية الأساسية، وهى الحاجة إلى الانتماء، والحاجة إلى الهوية، والحاجة إلى الارتباط

(1) دونالد هب D.o.Hebb (1904 - 1985)، عالم النفس الكندى، الذى وُصف بأنه أبو علم النفس العصبى، لاهتمامه بكيفية قيام الخلايا العصبية بالمهام النفسية.

(2) عرّفنا إريك فروم وعرضنا طرحه لنمطى التملك والكينونة كما جاء فى كتابه هذا، فى الجزء السابق من الفصل.

بالجذور، والحاجة إلى التسامي، والحاجة إلى منظومة توجيهية يحيا الإنسان في إطارها. ولا شك أن هذه الحاجات الخمس متطلبات إنسانية موضوعية، لا توجد لدى الحيوان، ولم يخلقها المجتمع، وإنما هي جزء من طبيعة الإنسان وفطرته.

وبالرغم من فطرية هذه الحاجات، فإن المجتمعات المعاصرة فرضت على الإنسان مفاهيم تنافي طبيعته وتبطله وتقيد، وتجعله غريباً عن حقيقته الإنسانية، وتنكر عليه تحقيق الشروط النفسية الأساسية لوجوده. ومثال هذا الخلل الشنيع ما صار يُعرف بـ«الحلم الأمريكي»، وهو محاولة المجتمع الأمريكي صهر المهاجرين الجدد في بوتقة واحدة، متجاوزين جذورهم وانتباءاتهم، وفرض هوية جديدة عليهم، ودفعهم للحياة في إطار الواقع دون أي إطار توجيهي سوى مصلحة هذا الواقع. إنه حلم يتعارض على طول الخط مع حاجيات الإنسان النفسية الخمس. بذلك أصبح الإنسان في هذا النظام المادي (الرأسمالي والشيوعي) آلة وعبداً مأجوراً مجرداً من الهوية ويحيا في اغتراب وبأس. ويصف إريك فروم المجتمع الذي يسعى لمثل ذلك الحلم ويخفق في إشباع حاجات الإنسان الأساسية بأنه مجتمع مريض لا يُنتج إلا مسوخاً مشوّهة.

وبعد هذا التشخيص، يضع فروم يده على الأسباب وراء هذا المرض المجتمعي، فيقول: لقد ظهرت الحضارة الإنسانية منذ بدأ الجنس البشري سيطرته الفعالة على الطبيعة، وقد ظلت هذه السيطرة محدودة حتى جاء العصر الصناعي، الذي تم فيه إحلال الطاقة الميكانيكية ثم النووية محل طاقة الإنسان والحيوان، وكذلك إحلال الحاسبات الإلكترونية محل المخ البشري في العديد من النشاطات، عند ذلك شعر الإنسان بأنه قادر على كل شيء، كما أشعره التقدم العلمي بأنه عالم بكل شيء. لقد اعتقد البشر أنهم صاروا أشبه بالآلهة، أي كائنات عليا تستخدم العالم الطبيعي كأحجار بناء لعالم جديد من خلق الإنسان!

وقد مكن التقدم التكنولوجي الهائل الإنسان من الإنتاج والاستهلاك غير المحدودين، وقد شكل ذلك مع الحرية المطلقة - خصوصاً في تحصيل اللذة - ثالوثاً مثل نواة دين جديد اسمه «التقدم». فساد الاعتقاد بأن تحقيق الثروة والرفاهية سيحقق المتعة القصوى والسعادة غير المحدودة للجميع. ويرى فروم أن العصر الصناعي عجز عن تحقيق هذا الحلم، ومن ثم عجز عن الوفاء بوعدته العظيم للبشرية.

ويضع إريك فروم يده على «مظاهر» عجز العصر الصناعي عن الوفاء بوعدته، فيؤكد أن

إشباع كل ما يعن للناس من رغبات دون قيود لم يُوصَل للحياة الطيبة، ولم يكن سيلاً إلى المتعة والسعادة. كذلك فإن حلم البشر بأن يكونوا سادة أحراراً قد انتهى بعد أن أصبحنا جميعاً تروساً في الآلة البيروقراطية، وبعد أن أصبحت الصناعة والحكومات (عن طريق آلتها الإعلامية) هي التي تشكل مشاعرنا وأفكارنا وأذواقنا، تتلاعب بها كما تريد. وقد ظل التقدم الصناعي مقتصرًا على الأمم الغنية، بل إن الهوة بينها وبين الأمم الفقيرة تزداد يومًا بعد يوم. وأخيرًا وليس بآخر، فإن التقدم التكنولوجي قد خلق مخاطر إيكولوجية (أى تهدد البيئة الطبيعية) ومخاطر نووية، وكلاهما يمكن أن يكون سببًا في إنهاء كل أشكال الحضارة، وربما كل أشكال الحياة على ظهر الكوكب. وقد لخص ألبرت شفايتزر (1) Albert Schweitzer الموقف في كلمته التي ألقاها عام 1952 أثناء تسلمه جائزة نوبل للسلام، حين «تحدى العالم أن يجروا على مواجهة الموقف»، ويقصد بذلك أننا قد صرنا عبيدًا لتلك الحضارة الهدامة.

وكعالم للنفس، يُرجع إريك فروم إخفاق الوعد العظيم إلى «مقدمتين نفسييتين» أساسيتين تروج لهما الحضارة المعاصرة؛ الأولى، ادعاء أن الهدف من الحياة هو السعادة، التي تعنى تحقيق أقصى متعة، عن طريق إشباع أى رغبة أو حاجة ذاتية تعن للمرء (وهو ما يعرف بمذهب اللذة الراديكالي⁽²⁾)، والمقدمة الثانية هي الاعتقاد بأن الاكتفاء بتحقيق المصلحة الشخصية - حتى من خلال الأنانية والجشع - يمكن أن يفضى إلى الانسجام والسلام.

وإذا نظرنا إلى المقدمة الأولى؛ مذهب اللذة الراديكالي، وجدنا غالبية فلاسفة الغرب - ابتداء من القرن السابع عشر - يتبنون مفاهيم تؤكد أن حياة الإنسان من أجل نفسه فقط تعنى تعظيمًا لذاته وليس إنقاصًا لها. فهذا هو بن Hobbes يعتبر أن السعادة هي التقدم المطرد من شهوة لشهوة. ويصل لاميتري La Mettrie إلى حد تشجيع الحصول على وهم السعادة عن طريق تعاطى المخدرات. ثم هناك دى ساد De Sade الذي يعتبر إشباع الرغبة في ممارسة العنف والقسوة أمرًا مشروعًا يمكن أن يحقق النشوة للإنسان⁽³⁾.

(1) ألبرت شفايتزر (1875 - 1965)، الطبيب والفيلسوف الدينى الألماني، حصل على جائزة نوبل لفلسفته الإنسانية

ولتأسيسه لمستشفى ضخيم للجابون لرعاية الأفارقة المعدمين، وهو موسيقى بارع في عزف الأورج.

(2) الراديكالي Radical بمعنى جذرى أو أساسى.

(3) سَعُرِفَ بالشخصيات التي وردت أسماؤها بعد قليل.

وبانقضاء القرن الثامن عشر ظهرت نظريات مناهضة تمامًا لمذهب اللذة على أيدي فلاسفة كبار أمثال كانت وماركس وشفائترز. لكن، ها هو العصر الحالي، منذ الحرب العالمية الأولى، يشهد عودة إلى أفكار وممارسات مذهب اللذة الراديكالي، وأصبحت فلسفة المجتمعات الغربية تدور حول الجمع بين التفاني في العمل إلى الدرجة التي قد تدفع الناس إلى الجنون وبين التفرغ لتحقيق المتعة بعد ساعات العمل وفي أثناء العطلات.

وإذا نظرنا إلى المقدمة الثانية، وهي قبول تحقيق المصلحة الشخصية عن طريق الأنانية والجشع، وجدنا أن السلوك الاقتصادي في العصور الوسطى (خاصة في المجتمعات الشرقية) كان محكومًا بمبادئ أخلاقية، حتى إننا نقرأ في كتب التراث كيف كان التاجر يرفض البيع لزبون ويرسله لجاره التاجر الذي لم يسترزق اليوم بعد. ثم شهدت رأسمالية القرن الثامن عشر تغييرًا جذريًا أدى إلى أن أصبح السلوك الاقتصادي منفصلًا عن النظام الأخلاقي وعن القيم الإنسانية، حتى لقد أصبحت الآلة الاقتصادية كيانًا قائمًا بذاته، مستقلًا عن احتياجات الإنسان وإرادات البشر. وبدلاً من أن يكون النظام الاقتصادي (وغيره من الأنشطة) خاضعًا للإجابة عن السؤال: ما الذي يجب عمله لخير الإنسان؟ أصبح السؤال هو: ما الذي يجب عمله لخير النظام وتنميته؟

لذلك أصبحت المجتمعات المعاصرة تنظر إلى المجتمعات التي لا تخضع لمبدأ اللذة الراديكالي ولا تعرف الأنانية والجشع في تحقيق المصلحة الشخصية باعتبارها مجتمعات بدائية، رجالها ونساءها كالأطفال! لقد أصبح المجتمع الصناعي يحتقر الطبيعة ويحتقر كل ما ليس من صنع الآلة، ويحتقر الشعوب التي لا تتفوق في تصنيع الآلات.

الكارثة والنجاة

يؤكد شوماخر E.F.Schumacher⁽¹⁾ - وهو من كبار المفكرين الاقتصاديين البريطانيين، ومن دعاة المذهب الإنساني - أن نظامنا الاجتماعي الراهن يجعل منا كائنات مريضة، ويرى أننا مندفعون نحو كارثة اقتصادية وبيئية ما لم نغير نظامنا الاجتماعي تغييرًا جذريًا. ويضيف شوماخر: إن الحاجة لتغيير إنساني عميق لا تنبع من كونها مطلبًا أخلاقيًا ودينيًا وحسب، كما أنها ليست مجرد مطلب نفسي رافض للطبيعة الممرضة لنظامنا الاجتماعي، ولكنها قبل كل ذلك

(1) شوماخر: 1911 - 1977.

شرط لبقاء الجنس البشري. لم يعد الاحتياج لحياة خَيْرَة مجرد استجابة للمتطلبات الأخلاقية والدينية، بل لقد أصبح بقاء الجنس البشري - لأول مرة في التاريخ - يتوقف على إحداث تغيير جذري في وجدان الإنسان وقلبه وضميره.

ويرى إريك فروم أن السبيل لتفادي هذه الكارثة يكمن في إنشاء مجتمع «المدينة الفاضلة» الذي يرتبط فيها الإنسان بأخيه الإنسان برباط المحبة، وتتواصل فيه جذور الأخوة والتكاتف، ويتيح للإنسان التعامل مع الطبيعة بالخلق لا بالتدمير، ويكتسب فيه كل فرد شعورًا بذاته باعتبارها ذات قيمة وفاعلية. مجتمع يوجهه نظام يراعى الجانب الروحي للإنسان، فلا يحتاج إلى تحريف الواقع وعبادة الأصنام.

إن ما عرضته حتى الآن عن معاناة ذاتي الإنسانية في ظل المجتمعات المعاصرة ليس بجديد، بل إنه معروف ومنتشر على الملأ. غير أن الحقيقة التي يصعب تصديقها هي أن المسؤولين الموكلين بشئوننا العامة لا يفعلون شيئًا ذا بال لإنقاذ البشرية، كما أننا (الذين أوكلنا لهم شئونا) لا نفعل شيئًا أيضًا! ولكن كيف فقدت أقوى غرائزنا - وهي غريزة البقاء - القدرة على تحريكنا للمحافظة على وجودنا؟!!

يرجع إريك فروم ذلك إلى أن القادة والزعماء يتظاهرون بأنهم يعملون شيئًا فعالًا لإنقاذ البشرية (مؤتمرات - قرارات - مفاوضات لنزع السلاح...). إن كلاً من القادة والمقودين يتحدّرون ضمائرهم بالتظاهر بمعرفة الطريق السليم والسير فيه (أسمع ضجيجًا ولا أرى طحنا). كذلك أصبحت الأولوية لدى هؤلاء المسؤولين (كما شكلها نمط التملك) هي النجاح والمجد الشخصي، وليست المسؤولية الاجتماعية، ومن ثم تدور قراراتهم حول هذا الهدف.

كذلك من أسباب قتل غريزة البقاء فينا، أن التغيرات المطلوبة لإنقاذ الموقف أصبحت من العمق والجذرية بحيث تجعل الناس يفضلون وقوع الكارثة في وقت لاحق على قبول تقديم التضحيات المطلوبة منهم الآن. تمامًا كالتالب الذي يتكاسل عن بذل الجهد لمذاكرة الدروس، بالرغم من علمه أن ذلك سيؤدي إلى رسوبه في الاختبار بعد أسابيع قليلة.

ولا شك أن أحد أهم العوامل الرئيسية للتراخي في درأ الكارثة هو اعتقاد معظمنا أنه ليس أمامنا من بدائل سوى رأسمالية الشركات الكبرى، أو الاشتراكية الديمقراطية، أو الاشتراكية

السوفيتية، أو الفاشية التكنوقراطية ذات الوجه المبتسم، أو... إن أقل القليل من الجهد لم يُبدل لدراسة إمكانية قيام نماذج اجتماعية جديدة تماماً والتجريب عليها لإنقاذ البشرية.



حواري مع د. عبد الوهاب المسيري أنا... ألغوية الحضارة المادية

قد يرى البعض أنني قمت - في الجزء السابق من الفصل - بانتقاء آراء علماء ومفكرين يتحاملون على الحضارة المادية المعاصرة (بالرغم من أنهم من أبناء جلدتها!)، وقد يرون أن الأمر ليس بهذا السوء، ويدفعون بأن هذه الحضارة قد قدمت للإنسانية مستوى غير مسبق من التقدم والرفاهية وطول العمر، وأنها في الوقت نفسه لم ترغم أبنائها لأن يجيوا بعيداً عن القيم الإنسانية والدينية التي يختارونها، ومن ثم لا ينبغي أن نصفها بأنها «حضارة مُرضية» «شوهمت أبنائها وجعلتهم مسوخاً بشرية».



(شكل - 1)

الدكتور عبد الوهاب المسيري
عالم الاجتماع، والفيلسوف
الإسلامي، وأستاذ الأدب الإنجليزي

كعادتي في فصول هذا الكتاب، أردت أن أستوضح الأمر وأن أطرحه للنقاش، عن طريق الحوار المباشر مع مفكر ممن خبروا الموضوع وتخصصوا فيه. لم يتطلب الأمر مني عناءً كبيراً في البحث، فقد اعتدت أن أرجع في كل ما يخص الحضارة المادية إلى **أستاذي وصديقي الدكتور عبد الوهاب المسيري**⁽¹⁾ (شكل 1-)، فبالإضافة إلى أنه

(1) **الدكتور عبد الوهاب المسيري**: ولد بدمهور بمصر عام 1938 (توفي بالقاهرة عام 2008). تخرج في كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية - جامعة الإسكندرية عام 1955، ثم حصل على الماجستير من جامعة كولومبيا عام 1964 والدكتوراه من جامعة رنجرز عام 1969، حيث عمل بالتدريس عدة سنوات، كما عمل مستشاراً ثقافياً للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك قبل عودته عام 1979 للعمل كأستاذ للغة الإنجليزية بجامعة عين شمس وجامعات السعودية والكويت. أشهر مؤلفاته «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج معرفي جديد» صدرت في ثمانية مجلدات عام=

كان أستاذاً للأدب الإنجليزي وعالماً للاجتماع وأحد أعلم أهل الأرض باليهودية والصهيونية، فقد خَبَرَ الحضارة المادية (بشقيها الرأسمالي والشيوعي). فقد كان في شبابه - لفترة - عضواً في الحركة الشيوعية في مصر، كما عاش سنوات طويلة في الولايات المتحدة ودرّس ودرّس في جامعاتها، فاستطاع بعينه الناقد أن يحلل تلك الحضارة وأن يضع يده على إيجابياتها وسلبياتها، وناقش هذه وتلك في العديد من كتبه. ولإعجابي الشديد - وتأثري - بفكر الدكتور المسيري، كتبت عنه كتاباً بعنوان «رحلة عبد الوهاب المسيري الفكرية»، نشرته وزارة الثقافة في مصر (طبعين) عام 2008.

الإِنسان والوجود في عَيْنِي د. المسيري

بدأت حوارى مع أستاذى د. عبد الوهاب المسيري، وقلت له: قبل أن نتناقش حول الحضارة المادية الحديثة، هلا بينت لى نظرتك إلى الإنسان وإلى الوجود. أجب طلبى قائلاً:

أرى أن «الإنسان» هو أكرم المخلوقات في الكون، مختلف بشكل جوهرى عن بقية الكائنات، حتى وإن شاركها بعض صفاتها، فهو - مثلها - يعيش في الطبيعة لكنه منفصل عنها. وصفات «الطبيعة»، في الفكر المادى، هي ذاتها صفات «المادة»، لذلك كلما وردت كلمة «طبيعة» يجب أن نضع محلها كلمة «مادة»، ولهذا نكتبها «الطبيعة/المادة».

وأرى أن «الوجود» يتسم بثنائية أساسية، أسميها «الثنائية الفضاوية»: فهي ثنائية الخالق (خَلَقَ العالم)، والمخلوق (الإنسان والطبيعة والتاريخ).

وهي فضاوية: إذ إن الإله مفارق للعالم (فالعالم ليس جزءاً من الإله ولا متحد به)، إلا أنه لم يهجره ولم يتركه وشأنه.

وينتج عن هذه الثنائية الأساسية (الخالق والمخلوق) عدة ثنائيات، من أهمها ثنائية الإنسان والطبيعة التي ترى انفصال الإنسان عن الطبيعة واستحالة تفسير سماته في إطارها؛ لأن الإله

= 1999، وهى من أعمق المراجع العالمية في مجالها. وله العديد من الكتب حول سلبيات الحضارة المادية، مثل «نهاية التاريخ» و«إشكالية التحيز» و«العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة» و«الحداثة وما بعد الحداثة». بالإضافة إلى عدة كتب في النقد الأدبي وأدب الأطفال وديوان من الشعر.

خلقه وكرمه واستخلفه في الأرض. لذلك فالإنسان ليس مركز الكون، وإنما وُضع في مركزه، وليس مالكاً للطبيعة، بل خليفة فيها من قبل خالقها (خليفة من الله وليس خليفة عن الله).

والثنائية غير الإثنيية، ففي الثنائية ثمة عنصران يتفاعلان ويتدافعان وربما يتكاملان. أما في الإثنيية فهناك عنصران متضادان متعادلان (مثل إله الخير والنور وإله الشر والظلام في بعض العبادات الوثنية) ولذا يدخلان في صراع دائم.

والثنائية تقف على طرف النقيض من «الواحدية المادية» التي يؤمن بها الفكر المادي والتي تذهب إلى أن الوجود بأسره (الإنسان والطبيعة) جوهر مادي واحد.

وبدلاً من مفهوم (الإنسان الطبيعي) الذي يتحدث عنه الماديون، والذي تنطبق عليه نفس القوانين التي تنطبق على الطبيعة / المادة، أ طرح مفهوم الإنسان الإنسان (أو الإنسان الرباني)، كائن لا يعلمه في كُليته إلا الله، إذ إن هناك جزءاً منه قادر على التسامي وتجاوز عالم المادة. وهو كائن يعيش داخل (جسده) المادي، ويتحرك حسب القوانين والدوافع الفيزيائية والبيولوجية والغريزية، ولكن (روحه) تتجاوز عالم المادة إلى عالم المثل العليا والغيب، كائن أقدامه مغروسة في الوحل وعيونه شاخصة للنجوم، كثيراً ما يسقط ولكنه قادر دائماً على النهوض ثم التجاوز والتسامي.

ووجود الله عزَّجَلَّ هو الضمان الوحيد لوجود هذا الإنسان بجزأيه المادي وغير المادي، فالله هو الجوهر الذي يتطلع إليه الإنسان حتى ينطلق من طبيئته. ومن ثم، بغياب الله يتحول الإنسان إلى مادة طبيعية صماء، خاضعة لقوانين المادة، التي يمكن حصرها ودراستها والتحكم فيها، كما يتحول إلى كم مادي يمكن تفسيره في إطار مجموعة من المعادلات الرياضية الميتة التي يمكن معرفتها والتنبؤ بنتائجها (إذا تعرضت لموقف كذا، سيكون سلوكك كذا).

وأضاف د. المسيري؛ لذلك أنظر إلى «المكوّن الديني للإنسان» ليس باعتباره مجرد قشرة، وإنما هو من جذور الكيان والهوية، وأرى أن الدين ذو فعالية في الواقع المادي الذي نحياه وليس جزءاً مغلقاً من عالم الغيب. وهكذا تتسع الهوة التي تفصل «الإنسان الرباني» عن التصور المادي البسيط، ويتأكد دور عالم الروح في تفسير ظاهرة الإنسان، أي أن الدين في تصوري جزء من الكيان الإنساني وليس منفصلاً عنه.

الحضارة المادية إفراز للفكر المادى

أحسست بالنشوة عندما طرح عليّ د. المسيرى نظرتيه للإنسان وخالقه، وللدين الذى يمثل العلاقة بينهما. عند ذلك قلت له: أن الأوان لتقدم لى الحضارة الحديثة من وجهة نظرك، فقال:

الحضارة الحديثة - فى تصورى - هى حضارة عقلانية مادية (لا عقلانية وحسب). فإنجازاتها الضخمة (التكنولوجيا - العلم - السيطرة على العالم) هى نتاج رؤيتها المادية التى تطلبت استبعاد الكثير من العناصر الأخلاقية والإنسانية (العناصر غير المادية)، وذلك لتبسيط الواقع بهدف التحكم فيه (إذ لا يمكن التحكم إلا فيما هو بسيط).

أما إخفاقات الحضارة المادية الحديثة فلا تقل ضخامة عن إنجازاتها، ومن أهم تلك الإخفاقات: الأزمة البيئية - الحروب العالمية - فقدان الاتجاه (أى أن لا يعرف الإنسان أين هو ذاهب) - ظهور العبثية (أى أن يتصور الإنسان أن العالم لا معنى له وأن الصدفة العمياء تتحكم فيه) - تحول الوسائل إلى غايات...، وهذه الإخفاقات - مثل الإنجازات - من نتائج الرؤية المادية للحضارة الحديثة.

وتمثل الحضارة الحديثة «بناءً مادياً» ذى مستويين:

مستوى فلسفى (الأفكار المادية، التى هى نتاج العقل المادى).

ومستوى تطبيقي عملي، وهو المتمثل فى مظاهر الحضارة الحديثة، بإيجابياتها وسلبياتها.

والعقل المادى (الذى أنشأ هذه الحضارة) عقل محايد، لا علاقة له بالأخلاق أو بالأسئلة الكلية (الخاصة بمنشأ الإنسان ومآله، والغرض من وجوده فى الكون)، أو بالمقدس أو بما يتجاوز عالم الحواس الخمس المباشر. ويتعامل العقل المادى مع ما يصله من معلومات ومعطيات ولا يمكنه أن يتجاوزها. ولذا فهو يفرز ما يمكن تسميته «منطق الأمر الواقع» أو «أخلاق الصبرورة» أى أنه لا يعترف بوجود قيم أخلاقية أو إنسانية ثابتة مستقرة، ويرى أن كل شىء - بما فى ذلك تلك القيم - فى حالة تغير وتحول دائمين، ولذا يفرض على الإنسان أن يستمد قيمه من واقعه المتغير الذى يصير إليه.

والعقل المادى لا يهتم بالسمات الخاصة للظواهر أو بخصوصيات كل إنسان فرد، فهو يركز

على الجوانب العامة، ويمكن تشبيهه بأشعة إكس، التي يمكنها أن تعطينا صورة للهيكل العظمى للإنسان ولكن لا يمكنها أن تنقل لنا صورة الوجه الإنساني في أحزانه وأفراحه. وفي نفس الوقت قد يهتم هذا العقل بالتفاصيل بشكل مبالغ فيه! لذلك يمكن تشبيهه بالميكروسكوب الذي يُظهر أدق تفاصيل الخلية دون أن ينقل لنا الصورة الكلية لهذه الخلية.

ولما كان التاريخ بنية غير مادية، تتسم بالتركيب والإبهام، فلا يمكن للعقل المادى أن يتعامل معه بكفاءة، خاصة وأن التاريخ من صنع الإنسان ذى الجانبين (المادى والروحانى). لذلك فالعقل المادى يقدر الأمر الواقع على حساب الحق التاريخى (أدركت من خلال معرفتى بالدكتور المسيرى أنه يشير بذلك إلى الصراع العربى الإسرائيلي).

ثم أضاف د. المسيرى، نخلص من هذا إلى أن مهمة العقل المادى هى اختزال كل شىء - بما فى ذلك الإنسان - فى جانبه المادى فقط، بهدف الاستفادة منه. لذلك فهو يقوم بهدم الإنسان وتفكيكه إلى عناصر مادية أولية. لذلك يرى الفكر المادى أن العقل يفكر كما تهضم المعدة الطعام وكما تفرز الكبد الصفراء. وهذه الرؤية العقلانية المادية للإنسان تردده إلى طينته وتنزع عنه القداسة وتفقدته مركزيته فى الكون.

ولعل «هوبز»⁽¹⁾ هو أول مفكر ساير المفاهيم المظلمة للعقلانية المادية، حين أعلن أن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، وأن التعامل الاجتماعى بين البشر لا يتم بسبب فطرة خيرة فيهم، وإنما من فرط خوفهم، بدافع غريزة حب البقاء. وقد اتفق معه «ماكيافللى»⁽²⁾ حين أعلن أن الوسائل كلها مبررة من أجل تحقيق السلطان السياسى.

أما «إسبينوزا»⁽³⁾ و«نيوتن»⁽⁴⁾ فقد قدما عالماً آلياً تماماً، لا تُستثنى الذات الإنسانية من قوانينه المادية. وأكد هذا المعنى الفلكى «لابلاس»⁽⁵⁾ حين قال لنابليون: إن تصوره لبنية الكون لا يحتاج لافتراض وجود إله.

(1) Thomas Hobbes: (1679 - 1588)، من كبار الفلاسفة السياسيين البريطانيين.

(2) Niccolo Machiavelli: (1527 - 1469)، فيلسوف إيطالى، اشتهر عنه قوله بأن الغاية تبرر الوسيلة.

(3) Baruch Spinoza: (1677 - 1632)، الفيلسوف الألمانى اليهودى، من الدعاة لمفهوم وحدة الوجود.

(4) Isaac Newton: (1727 - 1642) عالم الفيزياء البريطانى الأشهر، صاحب قوانين الحركة والجاذبية.

(5) Marquis de leplace: (1749 - 1827) عالم فلك ورياضيات فرنسى.

وأكد «جون لوك»⁽¹⁾ أن العقل صفحة بيضاء تراكم عليها المعطيات المادية، وأن ليس هناك دور لفطرة خيرة توجهه. وبين الماركيز «دي صاد»⁽²⁾ و«فرويد»⁽³⁾ أن الإنسان يحوى الذئب داخله (دوافع) وخارجه (سلوك)، وأن ذاته المتحضرة ما هي إلا قشرة واهية تخبئ ظلمة تعوى داخل الإنسان ومن حوله. ويرى «داروين»⁽⁴⁾ ضرورة الصراع من أجل البقاء، وأن البقاء للأقوى. وقد أعلن «نيتشه»⁽⁵⁾ أن ما تفرضه الذات الإنسانية من مثل وهمية هي إحدى الحيل التي يحاول بها الضعفاء أن يخنقوا حقوق الأقوياء.

ويرى «ماركس»⁽⁶⁾ أن الذات الإنسانية المستقلة وهم ما بعده وهم، ف وراء المثل والقيم يوجد الصراع الطبقي ووسائل الإنتاج. ويصل هذا الاتجاه إلى قمته في فكر ما بعد الحداثة⁽⁷⁾، الذي يُعتبر دريدا⁽⁸⁾ أشهر فلاسفته، فلا وجود فيه لذات إنسانية تميز الإنسان بما تحمله من قيم ومثل عما حوله من الماديات، كما لا توجد فيه غاية عليا للوجود الإنساني.

أصابني هذا الطرح الرائع شديد الإيجاز للنظرة اللإنسانية للفكر المادي بالدوار، ثم استجمعت نفسي وقلت للدكتور المسيري، هذا بالنسبة للمستوى الفلسفي في البناء المادي للحضارة المعاصرة، فكيف انعكست هذه النظرة على بنية المجتمعات المادية، أي على المستوى التطبيقي العملي؟ فأجابني:

يمكن اعتبار أن القرن التاسع عشر قد شهد انتقالاً تدريجياً من الرؤية الآلية للإنسان إلى الرؤية العضوية. فإذا كان «نيوتن» قد جعل من الكون ساعة والإله هو صانع الساعات

(1) John Locke: (1632 - 1704) فيلسوف السياسة الإنجليزي.

(2) Marquis de sade: (1740 - 1814) النبيل والفيلسوف والكاتب الفرنسي.

(3) Sigmund Freud: (1856 - 1939) طبيب الأمراض العصبية النمساوي، مؤسس علم التحليل النفسي.

(4) Charles Darwin: (1809 - 1882)، عالم البيولوجيا البريطاني الأشهر، صاحب نظرية التطور.

(5) Friedrich Nietzsche: (1844 - 1900)، فيلسوف الإلحاد الألماني الأشهر، الذي بشر بالإنسان الأعلى

(السوبر مان).

(6) Karl Marx: (1818 - 1883)، الفيلسوف الاجتماعي الألماني الشهير، أشهر آثاره كتاب «رأس المال».

(7) يشرح لنا د. المسيري معنى «فكر ما بعد الحداثة» في جزء قادم من حوار.

(8) دريدا: Jacques Derrida (1930 - 2004م): الفيلسوف الفرنسي اليهودي، وُلد في الجزائر. اشتهر بمذهبه

في الفلسفة التحليلية الذي يُعرف باسم الفلسفة التفكيكية Deconstruction، التي لا تعترف إلا بالأصول المادية للأشياء والظواهر، وتتسكّر لكل ما هو غيبي. له أكثر من أربعين كتاباً.

الماهر (الرؤية الآلية)، فإن عالم «داروين» العضوي يختفى منه «الإله» تمامًا؛ فأصول الإنسان تعود لأسلاف القردة العليا ومن قبلها الزواحف. ثم يؤكد «فرويد» أن غابة القردة تقع داخل الإنسان على شكل «لاوعي» مظلم وغرائز متفجرة. وقد أجرى العالم الروسي «بافلوف»⁽¹⁾ تجاربه على الكلاب ثم طبق نتائجها على الإنسان، فقد كان يفترض أنه لا توجد فروق جوهرية بين كليهما. وأخيرًا يأتي «فوكوياما»⁽²⁾ (فليسوف ما بعد الحداثة) ليزيد الطينة بله، إذ يقارن الإنسانية ببعض الأشكال التي حُطت على الرمال، ثم تمحوها الأمواج! أي أننا أصبحنا لا شيء.

تفكيك الإنسان ثم إعادة تركيبه..

الترشيد البراني والترشيد الجواني

واستطرد د. المسيري قائلاً: وهكذا تم تفكيك الإنسان تمامًا (رده إلى ماديته)، ثم أُعيد تركيبه كمنتج ومستهلك خالي من المنظور الإنساني، وكان ذلك بإسباغ الرؤية الآلية عليه تارة ثم الرؤية العضوية تارة أخرى، وأخيرًا تحقق منظور ما بعد الحداثة في أن الإنسان لن يعبد شيئاً، وأنه سينزع القداسة عن كل شيء، حتى عن نفسه.

إن العمود الفقري لقوة الولايات المتحدة (قمة المجتمعات المادية) يكمن في أنها قد نجحت في ضبط سلوك مواطنيها وتوجيههم نحو هدف نهائي واحد: الاستمتاع والإنتاج والاستهلاك، وتم ذلك من خلال آليتين تكفلان الانضباط الكامل:

الترشيد البراني (الخارجي): وهو توجيه سلوك الإنسان نحو الاستمتاع والإنتاج والاستهلاك، وذلك من خلال النظم والقوانين.

الترشيد الجواني (الداخلي): وهو جعل الاستمتاع والاستهلاك غاية وحلم، يسعى الإنسان إلى تحقيقه.

(1) Ivan Pavlov: (1849 - 1936) عالم الفسيولوجيا الروسي الأشهر، مُنح جائزة نوبل في الفسيولوجيا والطب العام 1904.

(2) فوكوياما Y.F.Fukuyama: أستاذ العلوم السياسية والاقتصاد السياسي، أمريكي الجنسية، ولد عام 1952 - أشهر كتبه كتاب «نهاية التاريخ» الذي صدر عام 1992.

في الترشيد البراني، يجتهد العقل المادى في إتقان توظيف الوسائل للوصول إلى الغايات المادية دون النظر إلى صحة وعواقب هذه الغايات. أمر يفعل ذلك المجتمعان النازى والصهيونى؟! مجتمعان يستخدمان العلم والتكنولوجيا بكفاءة غير عادية في البطش والقتل للوصول إلى ما لا حق لهم فيه.

ولعل الولايات المتحدة هي البلد الذى تم فيه ترشيد جميع جوانب الحياة. فالإعلام ينجح تمامًا في عزل الإنسان الأمريكى عن الأحداث العالمية، لا أنسى يوم السادس من يونية سنة 1967 حين نشرت الصحيفة المحلية خبر اندلاع الحرب في ثلاثة سطور في الصفحة الثالثة. وفي أثناء انتخابات الرئاسة (عام 2000) لم أسمع تصريحًا واحدًا عن السياسة الخارجية؛ لأن القضية الأساسية التي شغلت الرأى العام الأمريكى آنذاك هي شخصية المرشح آل جور، وهل قبل زوجته في شفيتها أمام مؤتمر الحزب الديمقراطى بحرارة زائدة أم حرارة معقولة، وحين كانوا يتطرقون للسياسة كانوا يتحدثون فقط عن تكاليف الرعاية الطبية والضرائب. وينتج عن هذا كله تبسيط الوجدان السياسى للإنسان الأمريكى وإلغاء قدراته النقدية، بحيث يمكن للسلطة الحاكمة أن تملى عليه ما تريد من أفكار يعتنقها بتلقائية وحرية كاملتين! (الترشيد الخارجى آلية تُيسر الترشيد الداخلى).

ومن أهم وسائل الترشيد البرانى عدم تقديم أية ضمانات للعاملين أن يستمروا في وظائفهم، فيعيشون في قلق دائم، الأمر الذى يزيد من إنتاجيتهم (فالإنسان السعيد المترن مع نفسه تقل إنتاجيته بعض الشيء، إذ يتبنى أهدافًا إنسانية في الحياة). وحينما تقرر الشركة تحسين صورتها الإعلامية يقوم أحد المحاسبين بتحديد الميزانية المطلوبة (تبرع لمتحف - لمرضى السرطان - لمكتبة) ولكن عليه أيضًا أن يحسب الأرباح التى تحققها الشركة من جرّاء ذلك ومن الإعفاءات الضريبية... إلخ.

ويُعتبر التليفون المحمول (رمز الوجاهة وأداة الثثرة في بلدنا)، أحد أهم آليات الترشيد، إذ يمكن المؤسسات الأمريكية من أن تصل إلى كل العاملين في أى زمان ومكان، مما يعنى مزيدًا من تأكل رقعة الحياة الخاصة لحساب الإنجاز المادى.

وإذا نظرنا إلى صناعة تصميم الأزياء نجد أنها تقوم بضبط سلوك المرأة (ترشيده)، إذ تضع لها الخطوط الأساسية التى تتحرك داخلها (الفيستانت الطويل الأخضر هو الموضة هذا العام، أما

العام الذي يليه فإنه إما يكون كذا أو كذا، «ودوخيني يا لمونة!») وبذلك يمكن التنبؤ بسلوك المرأة واستيعاب أحلامها داخل خطوط الإنتاج.

وفي الترشيد الجواني، يصبح الاستمتاع والاستهلاك هما حلم الإنسان الذي يوجّه - من داخله - كل جوانب حياته. وبالإضافة إلى هذا الحلم، فإن للترشيد الجواني جانباً آخر؛ فالولايات المتحدة تضم شعوباً ذات أصول عرقية ودينية مختلفة، لأفرادها ولاءات متعددة وأحلامٌ مختلفة: فردية وعائلية وقومية ودينية. كل هذا يجعل عملية ضبط مثل هذه المجتمعات مهمة صعبة، ويتطلب هذا صهرهم في بوتقة واحدة عن طريق جمعهم حول أحلام محددة. وتلعب هوليوود دوراً أساسياً في عملية الترشيد هذه، فهي تعيد تشكيل صورة الإنسان وأحلامه.

إن «العولمة» هي الترشيد المادى على مستوى العالم، بحيث يصبح سوقاً ضخمة، ويصبح البشر في كل الدول كائنات ذات بُعد مادى فقط (إنتاج واستهلاك).

ويمكن القول إن المفهوم الكامن وراء معظم الأيديولوجيات العلمانية الشاملة (النازية - الماركسية - الليبرالية - الصهيونية) هو ما يُسمى بـ «التطور أحادى الخط» Unilinear، أى الإيمان بأن التقدم المادى للمجتمعات هو التطور الوحيد ذو البال. وتتصاعد عمليات الترشيد المادى إلى أن يتحقق حلم اليوتوبيا التكنولوجية، حين تتم برحمة كل شيء، والتحكم في كل شيء، وضمن ذلك الإنسان، ظاهره وباطنه.

والنتيجة، أن عملية إعادة تشكيل الإنسان وتتصاعد معدلات الترشيد في المجتمع أدت إلى اختفاء التميز الفردى واختفاء القيم الثقافية والروحية والعقل النقدى، حتى أصبح الإنسان كائنًا ذا بعد واحد يرتبط وجوده بالمتع والاستهلاك والسلع (فهو إنسان مستمتع متسلع متشيع)، عقله ينشغل بالوصف والرصد وإدراك الآليات، عاجز تمامًا عن إدراك الأغراض النهائية للوجود. وفي النهاية تمت الهيمنة الكاملة على الإنسان حتى وُصفت الحضارة الحديثة بأنها «القفص الحديدى».

وحينما سُئل «فاكيلاف هافل» (رئيس جمهورية التشيك السابق) عن الأسباب التى أدت إلى هذا الوضع، أجاب قائلاً: «هذا الوضع له علاقة بأننا نعيش في أول حضارة ملحدة في التاريخ البشرى. فلم يعد الناس يحترمون ما يدعى بالقيم الميتافيزيقية العليا، والتى تمثل شيئاً أعلى مرتبة من ماديتهم، شيئاً مفعماً بالأسرار. هذه القيم الأساسية كانت تمثل دعامة للناس،

وأفقا لهم، ولكنها فقدت الآن. وتكمن المفارقة في أنه حينما أعلنت الإنسانية أنها الحاكم الأعلى للعالم، في هذه اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بعده الإنساني».

ويضيف د. المسيري... بعد أن تأكدت هذه النظرة عن الحضارة المادية داخل، أصبحت أكثر قدرة على تفسير العديد من المواقف التي كانت تمر بي في أثناء وجودي بالولايات المتحدة. ثم سألتني؛ هل تريد أن أعطيك بعض الأمثلة؟ أجبت: بالطبع.

قال، كنت مرة أجلس مع ابني، وهو بعدُ طفل، نشاهد التلفزيون، وسمعنا من المذيع أن الغرب قد راكم من الأسلحة النووية ما يكفي لتدمير العالم أكثر من مائة مرة، ففوجئت بابني يضحك ملء شديقه ويخبرني بشيء بديهي فاتني، وهو أنه بعد تدمير العالم مرة واحدة، لن يمكن تدميره مرة ثانية، ساعتها ضحكت أنا الآخر، وتدعمت شكوكي بخصوص العقلانية العجيبة للعالم الغربي «المتقدم».

وفي حفلات الكوكتيل، كنت ألاحظ حرص العاملين على أن يشبوا الرؤسائهم أن حياتهم العائلية مستقرة، وأنها لن تعوق مسيرة العمل والإنتاج، أي أن الحياة الخاصة تُوظف في خدمة الحياة العامة؛ ولذا كانت زوجات المرءوسين يحرصن على الحديث مع الرئيس أو زوجته ليبرهنَّ على أن كل شيء تمام التمام!

وقد حدث العكس تمامًا حينما عدت من الولايات المتحدة عام 1969، إذ دعوت أنا وزوجتي بعض عضوات هيئة التدريس في كلية البنات وأزواجهن لطعام العشاء في منزلنا، ففوجئت بأنهن جميعًا تقريبًا حضرن مستقلات. وحينما تأملت الواقعة أدركت أن حياتهن الخاصة لها حرمتها وخصوصيتها وفرديتها، وأنه لا يجوز بأي حال جرّها جرًّا للحياة العامة.

صار الإنسان براجماتياً

واسترسل د. المسيري قائلاً: كنت أقابل الكثيرين من الأمريكيين الذين يغيرون ملبسهم ومأكلهم وسلوكهم حسب ما يميله الإعلام والكتالوجات، فأدركت أن ما يسود في الولايات المتحدة ليس الفردية وإنما البراجماتية. والإنسان البراجماتي لا يكثرث بالثوابت ولا يهتم بالقيم مثل الكرامة والشهامة، فهو إنسان مرن إلى أقصى حد، وعمل بشكل متطرف، يقبل أي شيء طالما أنه يحقق النجاح؛ ولذا ينتهي به الأمر إلى أن ذاته الجوانية تضمهر، ويأخذ في التكيف مع

ما حوله، ويستجيب بشكل مباشر لما يأتيه من إشارات ونداءات وإعلانات وبيانات سياسية، فيعيد صياغة نفسه بسهولة وسرعة حسب آخر الصيحات.

لقد أصابت الإنسان الغربي «عقدة عدم الثقة بالنفس» فأخذ يستمد نظرتة لنفسه من الإعلام الذي كان آخذًا في التوحش والتغول. وإذا تأملنا ظاهرة «موضة الملابس» واجهنا تناقضًا غريبًا، فالشخص الذي يقرر أن يرتدى رداء حسب «آخر موضة» هو إنسان متمركز حول ذاته يود إظهارها وتحقيقها بكل قوة، ولكن المفارقة أنه حين يفعل ذلك يكون قد تخلى عن فرديته تمامًا لأن عليه أن ينفذ أوامر مصمم الأزياء بحذافيرها لأن «الموضة كده السنة دي»!

ويمكن وصف المجتمعات الغربية المتقدمة بأنها مجتمعات يسود فيها نوع من «غياب الحرية في إطار ديمقراطي سلس معقول!» «smooth reasonable democratic unfreedom» كما يقول المفكر «هربرت ماركوز». أي أنها مجتمعات شمولية نجحت في أن تجعل الجماهير تتبنى الرؤية السائدة في المجتمع، وتسلك حسبها دون قمع بوليسي، بحيث يقتنع الإنسان أن الهدف من الحياة هو الاستمتاع وزيادة الإنتاج والاستهلاك.

وأعتقد أن هيمنة العقل المادى في الغرب هي المسؤولة عن الكره العميق الذى يشعر به الكثيرون تجاه العرب، وعن عدم فهم قضية حق العودة للفلسطينيين وأهمية القدس. فاللاجئون الفلسطينيون يعيشون في وضع مازى ومع هذا يرفض غالبيتهم التعويضات السخية التى يمكن أن تُدفع لهم، وهم لا يزالون يتذكرون بيوتهم في حيفا ويافا ويحتفظون بمفاتيحها، وهم مستمرون في مقاومة العدو عبر ما يزيد على مائة عام، ويصرون على أن مدينة القدس هي عاصمة دولتهم. كل هذا، من منظور العقلانية المادية، يبدو أمرًا متخلفًا لا عقلانيًا يثير الغيظ والحق، إذ كيف يمكن لهؤلاء الفقراء أن يتمسكوا بترائهم ومقدساتهم رغم كل الإغراءات المادية؟ إنهم غير واقعيين، ما الذى حدث لعقولهم؟!

تلاشى دور الأسرة

قلت للدكتور المسيرى، ألم يكن للأسرة دور في حماية الإنسان من هذا المسخ والتشويه؟
أجابنى: لقد كانت معظم المجتمعات الإنسانية في الماضى تحاول «إدخال الطمأنينة» على

قلب الإنسان، بحيث يحتفظ بتوازنه مع نفسه ومع الطبيعة. ولعل الأسرة هي أهم المؤسسات التي طورها الإنسان لتقوم بتلك المهمة. أما المجتمعات الحديثة (خصوصاً المجتمع الأمريكي) فقد جعلت الإنتاجية والحركية هدفها. ويبدو أن الفرد المطمئن المتوازن مع نفسه يقف على طرف النقيض من الفرد المنتج الحركي! فالقلق، يولد نزعة إمبريالية في الإنسان تجعله يود غزو العالم والهيمنة عليه ليثبت لنفسه تفوقه من أجل أن يحقق شيئاً من الاتزان والطمأنينة.

إن المجتمع الأمريكي هو مجتمع القلق، يتحدث عن الاعتماد على النفس ويقذف بأطفاله في سوق العبالة في مرحلة مبكرة للغاية، مما يتعارض مع حقوق الإنسان. وفي سن الثامنة عشرة لا بد من أن يترك الفرد أسرته ليعيش بمفرده وليكمل تعليمه. لقد جعل التآكل الكامل للأسرة الفرد يعيش منعزلاً ولا يشعر بأى اطمئنان، بل يُترك وحيداً أمام آلاف الاختيارات والإعلانات، حتى يلتهمه الإعلام الكُفء التهاماً. لقد أصبح الفرد لا يجد أى جهة مرجعية، تكون موضع ثقته ومصدر شرعيته وتضفي معنى على وجوده وتساعد على اتخاذ القرار. لقد «فقد الإنسان المرفأ في عالم بلا قلب» كما يقول عالم الاجتماع الأمريكي «كريستوفر لاش» في وصفه لتآكل نظام الأسرة.

قمت بعقد مقارنة، فوجدت أن عالم الإنسان المصري أكثر امتلاءً وأكثر صلابة من الإنسان الأمريكي، فهو قادر على الحب وعلى الكره، وعلى التعاون وعلى التآمر، وعلى أن يسترجع ذكرياته وأن يتحمس لوطنه وذاته. وهو لا يصدق كل ما يُقال له بسرعة، بل تجده يستمع إلى الإذاعات الأجنبية ليتحقق من صدق ما سمع في إذاعة مصر. أما الإنسان الأمريكي، فهو مؤمن تماماً بكل ما يُقال له، وما يُقال له هو كبسولات إعلامية تزيد تبعية خارجية وهشاشة داخلية.

فقدان المرجعية

سألت د. المسيري، أليس لكل إنسان في كل حضارة مرجعيته التي ينطلق منها وتعيّنه على تحديد الصواب والخطأ، فما هي مرجعية إنسان الحضارة المادية الحديثة التي يمكن أن توجهه بعد أن فقد مرجعية الأسرة؟

ابتسم د. المسيري وقال: من أهم سلبيات الحضارة المادية الحديثة «النسبية المعرفية والأخلاقية»، التي كان المتوقع أن «تحرر الإنسان» وتفسح له المجال لتأكيد فرديته. لقد أدت

هذه النسبية إلى العكس، فنزعت القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة)، وجعلت كل الأمور متساوية، فصار الظلم مثل العدل، والثورة ضد الظلم لا تختلف عن الاستسلام له. وأصبح من العسير للغاية، بل من المستحيل، على الإنسان الفرد أن يتخذ أية قرارات بشأن أى شيء، وأصبح من السهل اتخاذ القرارات بالنيابة عنه والهيمنة عليه سياسياً. لقد قوضت النسبية الإنسان من الداخل وجعلت منه شخصية هشّة غير قادرة على اتخاذ أى قرار، وإن كانت في الوقت ذاته قادرة على إقناعه بأى شيء، وكل شيء.

وبدلاً من أن تجعل النسبية من الإنسان شخصية ثورية تفعل ما تريد، جعلته شخصية رجعية متكيفة مع الأعم والأغلب الذي تحدده صفوة من الشخصيات النيتشوية⁽¹⁾ القوية المسيطرة من الاقتصاديين والسياسيين والمثقفين؛ لذلك فإن تأكل المعايير الأخلاقية والاجتماعية السائدة في المجتمعات تركت الإنسان بلا معيارية (أى بلا مقاييس يُحتكم إليها).

مواقف

ويمكن تشبيه ما حدث للإنسان الغربي الحديث في عالم النسبية بما حدث لي حينما ذهبت لسوبر ماركت حجمه في حجم مدينة دمنهور، لشراء مستلزمات المنزل. لقد كانت قائمة المشتريات تحوى نوعاً معيناً من الحبوب Cereal، ففوجئت بأن منه عدة أنواع: مخلّي بعسل النحل أو مضاف له فيتامين أو... وهذه مقسمة بدورها إلى صنف عادى، وصنف متميز محب للأطفال، وهذا الأخير ينقسم إلى عدة أشكال: حروف أبجدية أو على شكل ديناصورات... أمام هذه الاختيارات الكثيرة، وقعت في حيرة شديدة، ووجدت نفسى مضطراً إما للاستماع لصوت يصدر من داخلي (هو عادةً صوت آخر إعلان سمعته) أو أختار أى شيء بشكل عشوائى أو أهاتف زوجتى لتصدر لي الأوامر وتعفينى من مسئولية الاختيار.

وقد بينّ الطب النفسى أن كثرة الاختيارات المتاحة قد تؤدي إلى مشكلات نفسية. فحينما يواجه الإنسان بمثل هذا الموقف، عليه أن يجدد بدقة ما يريد وأن يختار بين سلع الفرق بينها طفيف، وهذا يتطلب جهداً نفسياً كبيراً، يشكل ضغطاً حقيقياً على الإنسان لا قبل لكثير من البشر به.

(1) نسبة إلى الفيلسوف الألماني نيتشه، الذى كان يحلم بالإنسان القوى القاهر (السوبر مان).

ومن المواقف الكوميديّة التي تبين مدى فقدان المرجعية تقويض النسبيّة للإنسان الغربي قصتي مع «ميس إيزو» Eizo. كنا نتجاذب أطراف الحديث عن أشكال القهر في العالم، فقالت الأنسة إيزو إنها تشعر بالاضطهاد لأنها لا يمكن أن تصبح بابا Pope (أى رئيسًا) للكنيسة الكاثوليكية في الفاتيكان لأنها أنثى، فقلت (مازحًا بطبيعة الحال) أنا الآخر أشعر بنفس الإحساس بالاضطهاد لأننى لا يمكن أن أعين بابا للكنيسة الكاثوليكية لأننى مسلم. وبدلاً من أن يضحك الحاضرون التزموا الصمت، وإذا بالآنسة إيزو تُعبر عن تعاطفها معى! ولم أدر ماذا أفعل! ولحسن حظى، تَرَكت الأنسة إيزو المكان، فتشجع بعض الحاضرين وتساءلوا: «ألم تتجاوز الأنسة إيزو حدها قليلاً؟» أى أنهم حتى أمام موقف في غاية الوضوح والتطرف، لا يتحمل أى إبهام، لم تواتهم الشجاعة الكافية ليعبروا عن رأيهم.

وكنت مرة أجلس أمام التليفزيون البريطانى، وشاهدت برنامجاً حوارياً. كان يجلس على المنصة رجل وزوجته وأطفالهما، مع إضافة بسيطة للغاية وهو عشيق الرجل! (نعم عشيقه لا عشيقته) الذى يعيش معهم تحت سقف نفس المنزل، بموافقة الزوجة والأطفال. وقد واجه الجمهور إشكالية حقيقية، فمن ناحية توجد الموافقة (وهى الشرط الأساسى والوحيد لأى علاقة جنسية في العالم الغربى)، ومن ناحية أخرى، يوجد الشذوذ الذى يسم هذا الوضع! ولكن لا توجد أرضية (دينية أو أخلاقية أو إنسانية) يؤمن بها الجميع ويمكن الاحتكام إليها. وكلما كان أحد الحاضرين يحتج على شىء، كان الزوج يرد بكل ثقة، بأن زوجته وأولاده موافقون وسعداء، وأن أى تدخل في شئونهم سيكون إهداراً لحرمتهم وحقهم في الاختيار، وعلى المعارض أن يتحلى بسعة الأفق broad-mindedness (وغنى عن القول أن سعة الأفق هذه تفتح الباب على مصراعيه لتقبّل كل شىء أو أى شىء، فليس هناك من يجب أن يوصف بأنه غليظ الطبع ضيق الأفق!). ظل النقاش دائراً دون تخرج، إلى أن اكتشف أحد الحاضرين أن الأطفال ليسوا في سن يسمح لهم بالاختيار. وتنفس الجمهور الصعداء، إذ وجدوا أرضية فلسفية تعطيهم الحق في الهجوم على الشذوذ دون الانتقاص من حرية الاختيار، فشنوا هجومهم بشجاعة بالغة، ولزم الرجل وعشيقة الصمت.

ويبدو أن القانون الأمريكى نفسه، بتقبله المفاهيم النسبية، يجعل إصدار الأحكام أمراً في غاية الصعوبة. لقد أخبرتنى إحدى الزميلات بأنها قررت أن تجلس على حجر صديقها، بينما

كان يقود سيارته، فأوقفهما ضابط الشرطة، الذي تبرّم من منظرهما، ولكن القانون لا يخول له أن يُجرّم مثل هذا الفعل، فسجّل مخالفة مرورية، على اعتبار أن زميلتي كانت تحجب الرؤية عن السائق!.

يا ويل الفطرة

ظهر علىّ الضيق الشديد، وسألت د. المسيرى: وهل تستقيم الحياة مع غياب الاحتكام إلى المفاهيم الإنسانية الفطرية؟ أجبني: لقد أدى الغلو في النسبية إلى أن أصبح الكثير من المفاهيم الإنسانية الفطرية والأساسية، مثل الإحساس بالسعادة أو البؤس، محل تساؤل، بسبب اختفاء المعايير وفقدان المقدرة على الحكم.

ويجسد ذلك المعنى، مقالاً نشرته مجلة تايم بعنوان «صحيح الجسم، وثري، وغير سعيد»، وردّ فيه أن أكثر الأوروبيين ثراءً وتقدمًا هم الألمان، وهم كذلك أكثرهم بؤسًا وتشاؤمًا، وأن أكثرهم فقرًا الأيرلنديين والبرتغاليين، وهم أكثرهم رضًا. ويضيف المقال: أن مقاييس التقدم الإنساني التي اعتمدها هيئة الأمم المتحدة غير كافية: فقد اعتبرت الدخل والتعليم ومتوسط العمر المقاييس الأساسية: إنه حسب هذا المعيار، فإن أمة غنية من المصابين بالأمراض النفسية، حصل كل أفرادها على شهادة الدكتوراه ومتوسط أعمارهم 90 عامًا ستحصل على الدرجات النهائية؛ لأن المرض النفسى ليس جزءًا من المعايير. وانتهت المقالة بأن وصفت الإنسان الغربي بأنه «خفاش يطير، ولكن بتوتر، ولا يعرف إلى أين».

وإذا تأملنا نمط حياة الإنسان في هذه المجتمعات «الثرية البائسة»، وجدنا: بيت يبعد عن محل عمله - علاقات أسرية مُفَتّنة - علاقة واهية بمحيطه الإنساني - إيقاع حياة رهيب لا يترك مجالاً لأي نشاط إنساني - ساعات عمل قاسية - نسبة طلاق عالية - برامج تليفزيونية باهتة، كل هذا يؤدي إلى الإحساس القاسى بالوحدة. وللإستدلال على بنية البؤس العميقة التي تحببها السعادة السطحية، تأمل عدد الساعات التي يقضيها المواطن الأمريكى مع المعالج النفسى، الذى أصبح جزءاً عادياً من الحياة اليومية في الولايات المتحدة (35% من شباب إحدى أكثر الدول تقدماً بالمنظور المادى مصابون بأمراض نفسية). وكذلك لاحظ الاستخدام المذهل للحبوب المهدئة والمنومة وأدوية الاكتئاب النفسى وانتشار المخدرات. كل هذا من أجل أن

يستعيد الإنسان الأمريكي بعض التوازن الذي فقده، فلا يمكن تخيل سعادة دون توازن. هذا في مجتمع جعل تحقيق السعادة الأرضية هدفه الأساسي والوحيد ويُفترض أنه نجح في تحقيق أهدافه.

ومما يجعل هذا البلاء غائبًا عن كثيرين ممن يعانونه، أن كلمات نحتاجها لوصف واقع هذه المجتمعات (مثل «ضياح» و«اغتراب» و«الطبيعة البشرية») غير متداولة وتقع خارج قاموس أنصار النسبية المطلقة، فهي كلمات وثيقة الصلة بعالم الروح والمعنويات!.

ثم أضاف د. المسيري؛ وقد صاحب انتشار النسبية المطلقة ما يُسمى بالخطاب «السياسي الصحيح» Politically correct، وهو خطاب متعجرف، يطالب المرء بالأقول شيئًا قد يسيء لأحد أعضاء الأقليات. وكل البشر - حسب تصور هذا الخطاب - أعضاء أقليات: البدينون - طوال القامة - السود - اليهود - المعوقون... كما يُعد هذا الخطاب الأشياء الصحيحة والمواقف الواجب تبنيها، ومن ضمنها: الاهتمام بالبيئة - الاهتمام بكل الأقليات - قبول الشذوذ الجنسي بحُسابه شكلاً طبيعياً من أشكال التعبير عن الهوية. وبعض هذه الأفكار خيرٌ ولا شك، ولكن البعض الآخر يعبر عن رؤية مغالية في النسبية.

وقد انتشر هذا الخطاب السياسي الصحيح في الجامعات الأمريكية، وأصبح شيئاً مخيفاً يهدد الجميع. فعلى سبيل المثال، قامت أستاذة علم اجتماع في جامعة كاليفورنيا بتدريب طالباتها على الاستمناة (حتى يمكنهن الاستغناء تماماً عن الرجال)، فاحتج أحد أولياء الأمور، فاتهم بأنه ضيق الأفق غير قادر على تقبل الجديد. فاضطر إلى اللجوء إلى القضاء، شاكياً من أنه يُضَيِّع ماله بحسابه من دافعي الضرائب، إذ لا يمكن لصاحبنا أن يشكو إلا على هذا الأساس. فالقانون الأمريكي قد فشل تماماً في تحديد موقف محدد من الإباحية أو العيب.

وهناك الجانب الكوميدي للخطاب السياسي الصحيح؛ فمثلاً يجب ألا يقول الإنسان المتحضر «رجل المرور» بل عليه أن يقول «الشخص المروري» حتى لا تتضمن عبارته تمييزاً للذكور على حساب الإناث!

لقد أصبح هذا الخطاب السياسي (الموصوف بالصحيح) سيقاً على رقاب الجميع، تتم الدعوة إليه بطريقة متعصبة إرهابية.

غياب المرجعية يَعِدِي الفن

سألت د. المسيري، وهل تنعكس هذه النسبية المطلقة على حياة الإنسان العامة والخاصة فقط، أم أنها تمتد إلى باقي نشاطات المجتمع؟ أجبني؛ لقد أثرت النسبية في كثير من مجالات الحياة، خصوصاً الفنون. فبدأت في الستينيات من القرن العشرين «عملية تحرير الفن» من القيود والحدود الأخلاقية والجمالية، حتى أصبحت تحرراً من أي قيود أو معايير، كما تزايدت معدلات الإباحية والعنف، حتى أصبحت تحرراً من الفن نفسه!

ففى منتصف الستينيات، كان الفنان «أندي وور هول» يُوقَّع على علب القمامة وعلب الحساء القديمة فتتحول بقدرة قادر إلى أعمال فنية تُباع بالآلاف الدولارات. وكان له فيلم يسمّى «النوم»، يستمر عرضه لمدة ثلاث ساعات، عبارة عن شخص نائم يتحرك كل ربع ساعة أو عشر دقائق. كما رأيت مسرحية بعنوان «أخت فيديل كاسترو»، وكانت مليئة بالإشارات الجنسية الطفولية مع عرض الأعضاء التناسلية، ولا تنقل المسرحية أنة رسالة، فهدفها الأساسي هو أن تصدم الجمهور، ولسبب لا أعرفه، كان الذكور يلعبون دور الإناث، وكانت الإناث تلعبن دور الذكور، ويتم كل هذا باسم الإبداع والنسبية والحرية. وما حيرني كثيراً هو أن جمهور المتفرجين عبّر عن إعجابه الشديد بهذه المسرحية، تماماً مثلما عبّر عن إعجابه بفيلم «النوم».

ظل هذا التيار يتطور إلى أن عبّر عن نفسه في أواخر القرن العشرين في أعمال ثلاثة فنانين دفعوا بالنسبية إلى أقصى مداها، إذ أصبحت تعني التحرر من الحدود الإنسانية ذاتها. أول هؤلاء هو «أندرية سيرانو» وتعود شهرته إلى لوحة بعنوان «فلتبول على المسيح Piss Christ»، حيث وضع الفنان صورة المسيح على الصليب في البول. وثانيهم هو «روبرت مابلثورب»، وهو مصور فوتوغرافي تخصص في تصوير نفسه في أوضاع جنسية شاذة تتسم بالعنف. وثالثهم وأشهرهم هو «جويل بيتر ويتكين» وهو مصور فوتوغرافي يستخدم أجساد الموتي في أعماله الفنية. ومن موضوعات ويتكين الأثيرة تصوير الموتي بعد أن يرتدوا بعض الملابس، وصورة رجل يضع مسامراً في قضيبيه (فهذه هي الطريقة الوحيدة التي يتواصل بها مع الآخرين كما يخبرنا الفنان)، وتُباع النسخة من صورته بـ 35 ألف دولار. وحياتاً ويتكين لا تقل وحشية (أو نسبية)، فهو يعيش مع زوجته وعشيقتها وينامون في نفس الفراش، كما يعترف بأنه يمارس الجنس أحياناً مع موضوعاته، أي جثث الموتي!

محاولة للإنقاذ

سألت د. المسيري: وكيف تأقلم المواطن في هذه المجتمعات مع غياب المقاييس الحاكمة؟ أجابني: لقد تم ذلك التأقلم عن طريق حيلة نفسية، وهي أن يتبنى الإنسان أكثر من نموذج. فعلى سبيل المثال يتغنى المجتمع الأمريكي بأغانٍ تدور في معظمها حول الحب الرومانسي، ولكن هذا المجتمع نفسه لا يكف عن الحديث عن الصراع من أجل البقاء كقيمة أساسية. وعادةً ما يتنازع الآباء تجمهان متناقضان في تنشئة أطفالهم: هل يحافظون على براءة أطفالهم وبالتالي رومانسياتهم، أم يعلمونهم فنون الصراع من أجل البقاء في عالم السوق والتعاقد؟ إن حافظوا على براءتهم أفقدوهم جزءًا كبيرًا من مقدرتهم على الصراع، وإن فعلوا العكس، أفقدوهم جزءًا كبيرًا من إنسانيتهم.

ويقوم الكثير من الأمريكيين (وكثير من البشر) بتبني نموذجين: أحدهما للحياة الخاصة والآخر للحياة العامة. ولذا قد تجد أستاذًا للفلسفة يدعو للإباحية في فلسفته، ولكنه في حياته الخاصة يتمسك بأهداب الفضيلة التي ليس لها أي أساس في رؤيته الفلسفية. ومرة كنت أحاور واحدًا من هؤلاء، فقال: أنا أؤمن بالنسبية المعرفية ومع ذلك لا يمكن القول بأنني منحل أخلاقيًا؟ فأجبت من غيظي قائلاً: «إذن ستذهب أنت إلى الجنة أما أفكارك فستذهب للجحيم».

حضارة حضرت قبرًا يكفى لدفن العالم

سألت د. المسيري: وهل ما يصاحب الحضارة المادية من الظواهر السلبية السياسية، مثل الإمبريالية والنازية والصهيونية والعنصرية، هو جزء لصيق ببنية الحضارة الغربية الحديثة، أم أن ظروفًا معينة جمعت بينها؟. أجابني د. المسيري قائلاً: أبدأ إجابتي بكلمات للمفكر الكبير روجيه جارودي، حيث يقول: «إن نمو الغرب كان وليد نهب ثروات العالم الثالث ونقلها إلى أوروبا وأمريكا الشمالية، ومن ثم فإن الغرب هو الذي جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفًا، وقد حدث ذلك من خلال مراحل عدة: إبادة هنود أمريكا بدءًا من القرن السادس عشر - نخاسية العبيد السود التي أصبحت ضرورية لتوفير اليد العاملة - السيطرة الاستعمارية على أفريقيا وعلى القسم الأكبر من آسيا لتأمين المواد الخام والاستثمارات ذات الربح الأعظم في الصناعة وفي التجارة، وذلك عن طريق فرض السعر الأدنى لليد العاملة والأسعار الأعلى

للمنتجات المستوردة فرضاً بالقوة...». وأخيراً ظهر استغلال العالم الثالث على نحو جديد بنشأة الشركات المتعددة الجنسيات وتوسعها». وقد أوجز جارودي إنجاز الحضارة الإمبريالية الغربية في صورة مجازية رائعة عندما وصفها بأنها «حفرت قبراً يكفى لدفن العالم».

بالإضافة إلى كل هذا لا بد أن نشير إلى عمليات نهب آثار إفريقيا وآسيا، وأخيراً متاحف العراق، ألا تلاحظ كيف تغص متاحف البلاد الغربية وميادينها بآثار تلك الحضارات.

لذلك أؤكد أن «التقدم الغربي» هو ثمرة نهب العالم الثالث، وأن الحداثة الغربية لا يمكن فصلها عن عملية النهب هذه، وأن نهضة الغرب تمت على حساب العالم بأسره. ومن ثم لا ينبغي أن نتحدث عن «التراكم الرأسمالي» كقوة وقفت وراء الحضارة الغربية وإنما عن «التراكم الإمبريالي».

ودائماً أسأل الغربيين - خاصة الصهيينة - الذين يؤكدون أن تخلف الشرق هو أحد مبررات الاستعمار وليس نتيجة له: هل لو تقدم الشرق سيفرح الغرب والصهاينة، أم أن تقدم الشرق سيصيبهم بالهم والغم؟ ألا يعني تقدم الشرق انكماش رقعة السوق بالنسبة للغرب، وعمالة غير رخيصة، ومواد خام مرتفعة الثمن، ودولة صهيونية محاصرة لا تؤدى أية خدمة للغرب؟

الإمبريالية النفسية

سألت د. المسيري: بعد أن زوّدت المنظومة الإمبريالية مجتمعاتها بإنتاج مهول (كمًّا وكيفًا)، كيف استطاعت هذه المجتمعات تصريف الفائض من هذا الإنتاج؟ وهل للترويج لعملية الإنتاج/ الاستهلاك تأثير على بنية الإنسان النفسية؟

أجابني د. المسيري: إن الرأسمالية قررت مؤخرًا توسيع رقعة السوق لمنتجاتها، لا عن طريق الانتشار الأفقي في الخارج بتكلفته العسكرية الباهظة (الغزو الخارجي = الإمبريالية العسكرية) وإنما عن طريق الانتشار الرأسى داخل النفس البشرية ذاتها (الغزو الداخلى = الإمبريالية النفسية). ويتم ذلك بأن تُلقى في روع الفرد أن ما تعرضه في السوق من السلع لا يحقق «منفعته» وحسب، بل و«سعادته» (أى لذته) أيضًا، فيتوحد الفرد بالسلعة تمامًا ويصبح إنسانًا ذا بُعد واحد، غارقًا لأذنيه في السلعة والمادة، وفي حالة غيبوبة إنسانية كاملة.

وتتعامل الإمبريالية النفسية مع الإنسان على أنه حيوان اقتصادي جسماني، لا يبحث إلا عن منفعة (الاقتصادية) ولذته (الجسدية)، فلا يهدف في حياته إلا إلى تحقيق المنفعة واللذة، وأن يرى أن خلاصه يكمن في ذلك. وإذا كانت «الحاجة أم الاختراع» في الماضي، ففي إطار الإمبريالية النفسية يصبح «الاختراع هو أبو الحاجة»، لذلك لا بد أن تظهر سلعة جديدة كل يوم. ومن هنا يدخل الإنسان دائرة الإنتاج الآخذة في الاتساع إلى ما لا نهاية.

وقد نجحت هذه الإمبريالية في تجنيد كل الطاقات في مختلف وسائل الإعلام، وخاصة قطاع الأفلام، الذي يروّج لصورة الإنسان الذي يعيش في اللحظة الآنية، يساعده قطاع الأزياء الذي يُعَيِّر «أذواق» الذكور والإناث والأطفال كل عام مرتين. ولعل أهم القطاعات الأخرى، قطاع الإعلانات التجارية التي لا يكف التليفزيون عن بثها.

وكلما نظرت من حولك في الولايات المتحدة، وجدت كلمة سيل sale «أوكازيون» تطاردك أينما ذهبت، في المحلات والشوارع والجرائد والمكاتب ومنزلك، تحاول أن تقنعك بأن أمامك فرصة ذهبية لأن «تخرب بيت» صاحب المحل المسكين، المضطر إلى تصفية بضاعته.

تأمل

ويضيف د. المسيري: حدث لي شخصياً موقف مع شركات الطيران أحب أن أرويّه لك. كنت أرتاح كثيراً للسفر بالدرجة السياحية، إلى أن رأيت إعلاناً لإحدى شركات الطيران يتحدث عن مدى اتساع كراسي الدرجة الأولى، ويُظهر صورة راكب ممدد على كرسيه الوثير، مقارنةً براكب الدرجة السياحية، الذي يتقلب من الألم في كرسيه، ويلكزه جاره عن غير قصد. منذ تلك اللحظة أصبح السفر بالدرجة السياحية بالنسبة لي مسألة مؤلمة. هذا هو حالي أنا المدرك لما حولي، الواعي به تمام الوعي، فما بالك بالمواطن الأمريكي التلقائي الطيب؟.

ويرسم صديقي عالم الاجتماع كافين رايلي صورة واقعية ومثيرة لهذه الهجمة الإمبريالية النفسية على الإنسان في كتابه «الغرب والعالم»، تستحق أن أرويها لقرائك، يقول د. رايلي:

«أرادت شركة الدخان الأمريكية عام 1929 زيادة مبيعاتها عن طريق حث النساء على الجهر بالتدخين، فقامت بناءً على مشورة محلل نفساني بالإعداد لموكب في عيد الفصح تسير فيه المدخنات في أحد شوارع نيويورك، وأرسلت سكرتيرة بالشركة تلغرافات لثلاثين من الفتيات من عليّة القوم في المدينة، هذا نصها:

(من أجل المساواة بين الجنسين، قررتُ مع غيرى من الشباب أن نوقد مشعلًا آخر للحرية، بتدخين السجائر في أثناء مسيرتنا بالشارع الخامس يوم عيد الفصح).

وقد أثار الحدث ضجة قومية في أرجاء البلاد واستجابت النساء ودخُنَّ جهازًا، وأدركت الشركة أن العادات القديمة المتأصلة يمكن القضاء عليها عن طريق إصدار نداء مثير، تنشره شبكة من وسائل الإعلام.

ولما كان المطلوب هو تدخين نوع معين من السجائر، وهو «لكي سترايك Lucky Strike» ذات الغلاف الأخضر، كان لا بد من إشعال «الثورة الخضراء»! فقام مشجع مجهول بإرسال مبلغ 25000 دولار لأهم منظم للحفلات الراقصة ليرتب حفلًا أخضر، وأقام أحد منتجي الحرير مأدبة لمحرري الموضة، كانت قائمة الطعام فيها خضراء وكل الطعام أخضر، وقام أحد علماء النفس فحدثهم عن اللون الأخضر. ثم حاضرهم رئيس قسم الفن بكلية هنتر عن «اللون الأخضر» في «أعمال مشاهير الفنانين».

وبشرت الصحف «بخريف أخضر» و«شتاء أخضر» ليكون اللون الأخضر هو سيد الألوان، في الملابس وفي الإكسسوارات، وحتى ديكورات المنازل والأثاث، وتم إغراء رئيس حفلة الموضة الخضراء بالسفر إلى فرنسا ليضمن تعاون صناعة الموضة الفرنسية والحكومة الفرنسية.

ولما اشتدت الحملة، ركب سائر المنتجين الموجه، فأعلن أحدهم عن طلاء أظافر جديد أخضر زمردي، وأدخل آخر الجوارب الخضراء. وأخيرًا انضم المنافسون إلى الحملة، فعرضت سجاير «كامل» Camel فتاة ترتدى زياً أخضر مقلماً بالأحمر - وهي نفس ألوان علبه سجائر لكي سترايك. وهكذا اعترف المنافسون ذاتهم بأن لكي سترايك هي قمة الموضة.

إن قدرة العلاقات العامة والإعلان على التلاعب بالآراء والتأثير في قرار الإنسان مع التظاهر بتوسيع فرصة الاختيار أمامه، هي قدرة هائلة (أي خداع وأي سرقة).

ثم أضاف د. المسيرى: إن الإعلانات - كما نعلم كلنا - كذب في كذب، ومع ذلك نتأثر بها ويتحدد سلوكنا من خلالها.

وضرب د. المسيرى مثلاً آخر لقدرة الإعلانات على الخداع: ماذا أفعل لو كنت فقيراً، وقد ملكت على السيارة التي في الإعلان عقلي وقلبي؟ لا داعي للقلق، فصديقك ذو الابتسامة العريضة في بنك نيو يورك للقروض سيساعدك، وكل ما عليك أن تفعله هو أن توقع على ورقة بيضاء صغيرة فتحصل على مفتاح العربة والسعادة. وإن دقت النظر في هذه الورقة اكتشفت أن عليك أن ترهن منزلك وأولادك وزوجتك وذاتك وعرضك وعربتك في مقابل هذا، كما أن

سعر الفائدة ليس 4 % كما تقول اللافته العريضة؛ لأنه بالحساب المركب تصل الفائدة إلى أضعاف أضعاف ذلك. فإن انتهيت من طوفان السيارات اكتسحك طوفان السلع الأخرى؛ معجون أسنان، صابون للأطباق، أنواع جذابة من المكرونة، والعطور والمياه الغازية، والملابس الداخلية والأحذية، والشيكولاتة والمنشطات الحيوية والمهدئات، وأدوات التجميل والتخسيس والأهداب والنهود الصناعية....

بلاش عُقد

ويُخصّص د. المسيري نظرتة للإمبريالية النفسية قائلاً: إن الحضارة المعاصرة هي حضارة السهل، بدلاً من المُركَّب والجميل. وتحت شعار «فلتكن بسيطاً» أو «لتكن طبيعياً» (يقابلها في حضارتنا الآن «بلاش عُقد») يتم إنتاج مجموعة من السلع البسيطة (مثل الهامبورجر والبنطلون الجينز) والترويج لها عالمياً. وقد أطلق على هذا النمط الإنتاجي / الاستهلاكي البسيط الذي أفرزته الإمبريالية النفسية اصطلاح «ضد الحضارة» anti-culture، فهو يهدد كل الأشكال الحضارية وكل الخصوصيات، بما في ذلك الحضارة والخصوصية الأمريكية التي أنتجته⁽¹⁾ وهذه السلع النمطية تحول الإنسان الفرد إلى كائن نمطي بلا أبعاد، يفقد خصوصيته وتراثه، ويمكن توجيهه بسهولة كما يمكن التنبؤ بسلوكه واحتياجاته؛ ولذا فهي حضارة معادية للحضارة وللإنسان.

كل هذا الركام يمكن أن يزول لو توقف الإنسان للحظة واحدة ليتساءل عن جدوى كل هذا، ولكنه بالطبع لا يفعل؛ لأنه إنسان ناجح يتعامل مع الواقع (كما أخبره الإعلان)، فالإمبريالية النفسية قبل أن تغزو الإنسان من الخارج فإنها تغزوه وتقمع إنسانيته من الداخل.

ويتمثل الغزو الداخلي والتحلل من العقد في مظاهر عديدة، أهمها الجنس. لذا نجد أن الإعلانات التليفزيونية - سواء في الولايات المتحدة أو في مصر - توظف الجنس بلا حياء في بيع السلع. انظر إلى هذا الإعلان: تسير السيارة ثم تخرج منها فتاة رائعة الحسن وتطلب منك ألا تتردد في شرائها: السيارة/الفتاة، وقد أصبحت إعلانات بنتون وكالفين كلاين (في ختام القرن العشرين) من أهم الرموز الجنسية في المجتمع الأمريكي. ولو وجد أصحاب هذه الإعلانات

(1) تعرف الحضارة الأمريكية تقاليد حضارية محلية ثرية، مختلفة تبعاً لاختلاف الهجرات: حضارة الكريول في لويزيانا - حضارة الساحل الشرقي - حضارة الوسط الغربي الأمريكي... إلخ.

أن بعض أسفار الإنجيل قد تساعدهم بشكل أكبر على البيع لما ترددوا في التخلي عن توظيف الجنس ولوظفوا الإنجيل بدلاً من ذلك.

وقد نجم عن هذا انتشار الإباحية، وهي إباحية علمية تستخدم الجنس في توجيه الإنسان. انظر مثلاً إلى كريم الشعر هذا، إن سحره لا يقاوم، إن استخدمته وقعت كل الفئات في شباكك. وأنت يا سيدتي إذا شربت هذا الدواء، فإنك سستمتعين بجاذبية جنسية كاسحة. وأنت أيها العجوز الكركوب لم لا ترتدي باروكة أو تصبغ شعرك أو تفرد جلدك أو تقصر بنظونك أو تطوله، اختر ما تشاء من الساع وكله في سبيل الحيوية والبعث من جديد، ولكنه بعث جنسي لا علاقة له بالحياة أو الحب أو الزواج أو الطلاق أو حتى إبليس، فهو بعث جنسي يدور في فراغ لا نهائي هدفه الاستهلاك.

حضارة مهووسة بالجنس

قلت للدكتور المسيري: حدثتني عن الباعث الجنسي المقطوع الصلة بكل شيء إلا الاستهلاك، أود أن أعقد مقارنة بين النظرة للجنس في الغرب وفي بلادنا. لقد كانت إحدى الصور التقليدية الشائعة في عقولنا أن الجنس طاقة مادية، إن فرغت يصبح الفرد عادياً وطبيعياً وسويًا، أما إن كُبت فإنها تصبح قوة مدمرة. لذا كان من المفهوم أن ينشغل الشرقيون بالجنس، فهم مكبوتون قُمت رغباتهم الجنسية في طفولتهم ومراهقتهم، مما أدّى إلى تشوهمهم النفسي الكامل، وتحولوا إلى مراهقين أزلين. كما تعلمنا أيضًا أن الأمور مختلفة تمامًا في الغرب، فهم يتصرفون بشكل طبيعي ويصرفون الطاقة الجنسية بلا قمع ولا كبت. فهل معنى ذلك أن موقف تلك المجتمعات من الجنس ينسجم بشكل أكبر مع طبيعة الإنسان من موقف مجتمعاتنا المحافظة؟

أجابني د. المسيري: حينما وصلت إلى الولايات المتحدة وجدت أن هذا التصور البسيط الذي ذكرته والذي آمنتُ به أنا أيضًا لا يُقَسَّرُ الأمور، إذ لاحظت إقبال الأمريكيين النهم وانشغالهم المتطرف (وأحيانًا المرَضِي) بالجنس، إلى درجة انتشار حوادث الاغتصاب رغم أن مجال الإشباع الجنسي متاح أمامهم بشكل ديمقراطي مذهل (وهو ما أسميته فيما بعد «ديمقراطية اللذة»)، الأمر الذي كان يحيرني كثيرًا في بادئ الأمر.

وتساءلت؛ كيف يمكن أن ننظر إلى هذا الهوس الجنسي بحُصانته تعبيرًا طبيعيًا عن رغبة

جنسية طبيعية؟ بل إن بعض الناس هناك يُمارس رغباته الجنسية كإنسان مدمن، لا للخمر وإنما للجنس sexaholic (على وزن alcoholic)، فيمارسه بشراهة ولكن دون متعة حقيقية، ومن المعروف أن بعض مدمني الجنس يودون التوقف ولكنهم لا يملكون من أمرهم شيئاً، شأنهم في هذا شأن مدمن الخمر الذي يمقت ما يتعاطاه ولا يملك منه فكاً.

ولتفسير هذا التناقض بدأت أتأمل وأتساءل: لعل الارتواء الجنسي عند الإنسان مرتبط بعناصر مادية وأيضاً غير مادية (بخلاف الحيوان)، ولعل هذه العناصر غير المادية ليست مجرد قشرة وإنما هي من صميم الإشباع الجنسي عند الإنسان. ولعل الجوع الذي أشاهده في الولايات المتحدة، والذي ليس له أي تفسير مباشر، يعود إلى «رؤيتهم» المادية، فهم ينظرون للجنس كما لو كان شيئاً طبيعياً مادياً: مسألة غدد وعضلات وحسب، لا تختلف عن أي عملية بيولوجية أخرى مثل تناول الطعام.

ولعل تطبيعهم للجنس يفسر رغبتهم العارمة في ممارسته في العلن، بلا أي إحساس بالحرج أو الخصوصية أو الفردية، وأن يصبح الجنس جزءاً من الحياة العامة. وقد يُفسر هذا الإصرار الشواذ جنسياً على علنية ممارساتهم وضرورة تطبيعها وتقنينها. وقد تُفسر هذه العلنية المرض الغريب الذي يُسمى «الخوف من الحميمة fear of intimacy»، فحينما يعتاد البعض ممارسة الجنس في إطار علني غير رومانسي (كأن يضاجع رفيقته على عجل في فندق بجوار محل عمله في أثناء الساعة المخصصة للغذاء أو في المقعد الخلفي للسيارة، أو في حديقة) تصبح هذه الظروف المضاغطة شرطاً لأدائه الجنسي، ويفاجأ هذا الشخص بأنه غير قادر على الأداء داخل المنزل مع زوجته تحت ظروف رومانسية مريحة؛ لأنه لا يستجيب جنسياً إلا تحت ظروف تدعو للسرعة والتوتر وفي رقعة الحياة العامة!

إن الصورة «المثالية» التي تُعبّر عن نظرة الغرب للجنس هي صورة چيمس بوند حين يذهب ليقبض على إحدى الجميلات، فيكتشف أنه وصل قبل موعده فيقرر أن يضاجعها لقضاء وقت الفراغ، وفي أثناء ذلك ينظر إلى ساعته ويكتشف أن الوقت قد حان، فيأخذ الكلبشات من جيبه ويضعها على يديها ويرحل بها. إن الأفلام ووسائل الإعلام الأمريكية تصور الإنسان كما لو كان كائناً جسمانياً، يعيش في جسده (المادى) وحسب، تماماً مثلما يصوره دعاة السوق الحرة إنساناً اقتصادياً تحركه الدوافع الاقتصادية (المادية) وحسب.

نزع الإنسانية عن الجنس

إن كثيراً من الأمريكيين لم يدركوا أن الجنس مسألة إنسانية مركبة، مرتبطة برؤية الإنسان للكون وهويته الفردية. وعدم إدراكهم لهذه الحقيقة هو أحد أسباب عدم الارتواء الجنسي، فهم يمارسون الجنس في إطار مادي نتيجة لتبسيط الإنسان واختزال دوافعه، ويترك ذلك كيانهم الإنساني بلا إشباع. ولعل بعضهم أدرك إنسانية الجنس على المستوى الفردي، ولكن مؤسسات الإعلام التي تبحث عن الربح تُشيع صورة الجنس السهل المباشر، الذي لا تسبقه مقدمات، ولا توجد بعده أى توابع: أطفال وعلاقات اجتماعية وتغير في الرؤية.

لا شك أن هناك علاقة عكسية بين: إنسانية الإنسان، وبين رغبته الجنسية. فكلما ضُمر شعوره بإنسانيته زاد سُعاره الجنسي، كمحاولة لتعويض الإنسان عن اختفاء عالم الأحلام، إذ إن عالم الجنس هو البديل المادي والمباشر للمدينة الفاضلة. إنه ممتافيزيقا من لا ممتافيزيقا له، أو ممتافيزيقا من لا يود أن يتحمل أى أعباء إنسانية أو أخلاقية.

وقد وجدت أيضاً أن عدم إحساس الإنسان الأمريكي بالطمأنينة يجعله يحاول دائماً أن يصل إلى بعض اليقين، ويحاول أن يأتنس بالغير كي يتغلب على اغترابه، كما يحاول أن يحقق ذاته. ولكنه في الوقت نفسه يخاف من الارتباط الدائم بالآخر، ففيه نوع من الثبات وهذا هو أخشى ما يخشاه، لذلك وجد ضالته في الجنس العابر، فمن خلاله يمكنه أن يصل إلى اليقين والائتناس المؤقتين (فالعلاقة الجنسية علاقة أكيدة يمكنه أن يدركها بحواسه الخمس فتُدخل شيئاً من الطمأنينة على قلبه) ولكنه لا يضطره في الوقت نفسه للارتباط بالآخر.

الهوس الجنسي ومؤسسة الأسرة

سألت الدكتور المسيري: هل لهذه النظرة إلى الجنس تأثير على مؤسسة الأسرة؟ فأجابني: إن المجتمعات المادية تفصل الجنس عن مضمونه الاجتماعي والإنساني المركب، ليصبح ترجمة عملية لمبدأ السعادة واللذة. بذلك يعزل الإنسان عن تراثه وماضييه، بل وعن وجوده الإنساني المركب، فيعيش في الجسد يبحث عن المتعة المباشرة التي لا علاقة لها بالخير أو بالشر. وبالنسبة لمثل هذا الإنسان المتمركز حول لذته تصبح الأسرة أمراً غير مهم بل تصبح عبئاً. فكلما فتحت التليفزيون الأمريكي تجد امرأة نصف عارية تبيع لك شيئاً ما. وهذا يُصعّد من توقعات الرجل

الأمريكي بالنسبة للجنس، فيطلب إلى زوجته أن تكون إحدى ملكات الإغراء، ويحاول هو جاهداً أن يصبح أحد ملوك الإغراء، مما يسبب الإحباط وعدم الاطمئنان لكليهما. وتسهم شركات التجميل في تصعيد هذا الجانب، فتزيد من توقعات الذكور الجنسية مما يضطر الإناث لاستهلاك المزيد من مستحضرات التجميل.

هذا إلى جانب أن الباحث عن اللذة هو إنسان مكثف بذاته، لا يطبق أى حدود أو قيود أو مسئولية، فهو يود تحقيق رغباته في التو (الآن وهنا)، خاصة وأن هذا الفرد يعيش في مجتمع نفعى مادي، لا يعرف القيم التي تساعد على تجاوز ذاته الضيقة. وفي تصوري أنه لا يمكن الحد من إشباع الرغبات إلا من خلال الإيمان بمثل أعلى أو بحلم يتجاوز حدود الفرد وحيزه (كالوعد بالجنة أو الدفاع عن الوطن).

إن مثل هذا الفرد المكثف بذاته لا يمكنه أن يقبل الانخراط في مؤسسة الأسرة، فهي مؤسسة تُلقى على كاهله (كأب وكأم) مسئوليات اجتماعية شتى؛ ولذا تضرُّ مؤسسة الأسرة تماماً. ولهذا يزداد العزوف عن الزواج والنسل مع ازدياد الإحساس بأن الأسرة عبء لا يُطاق، وأن مسئولية تنشئة الأطفال تفوق طاقة البشر.

الهوس الجنسي والشذوذ

عدت أسأل د. المسيري: وهل لهذه النظرة للجنس تأثير على شيوع الشذوذ في الولايات المتحدة؟ فأجابني: لعل البحث عن اللذة الجنسية الخالصة هو الذي يفسر انتشار الشذوذ الجنسي في المجتمعات الرأسمالية الغربية. فتنبعا لإحصاء عام 1972 يوجد في الولايات المتحدة ما يزيد على أربعة ملايين من الشواذ⁽¹⁾، وتوجد كنائس يديرها وعاظ شاذون جنسياً مثل كنيسة لوس أنجلوس، كما أنشئ معبد يهودي ومدرسة تلمودية لتخريج الشواذ.

وأعتقد أن الشذوذ هو النتيجة المنطقية لمبدأ اللذة النفعي، فالإنسان الشاذ يمكنه أن ينشئ علاقة مع شخص آخر من جنسه ليتغلب على اغترابه بشكل مؤقت دون أن يدخل في علاقات ذات آثار اجتماعية تضطره للدخول في علاقة حقيقية مع الآخرين (كالزواج).

(1) تنبعا لإحصائية William Institute، وصل عدد الشواذ في الولايات المتحدة في أبريل 2011 حوالي 11.7 مليون شخص.

وحيثما كنت في نيويورك لاحظت أن الشاذات من النساء أصبح لهن وجود وظهور ملحوظ، وهذا «التطور» أو «التقدم» يعود لحركة تحرير المرأة (التي أسميها حركة التمركز حول الأنثى) التي ينادى بعض زعمائها بأن المرأة الشاذة جنسياً والتي استغنت كلية عن الرجال هي أكثر النساء تحرراً، وهي المرأة التي حققت المساواة البيولوجية الكاملة مع الرجال، وحققت بذلك الاكتفاء الذاتي!

ويبدو أنه مع الإغراق في المادية أصبح الفرد غير قادر على الاستجابة التلقائية للدوافع الغريزية العادية، ولذا فهو يحتاج إلى مؤثرات عنيفة وأحياناً شاذة حتى يمكنه الاستجابة. وقد يفسر هذا تصاعد معدلات العنف في الحياة وفي الأفلام، كما يفسر أيضاً ارتباط الجنس بالعنف.

الثورة الجنسية

ونتيجة لهذه الإباحية الجنسية والشذوذ الجنسي ظهرت في الستينيات في الولايات المتحدة تغييرات جذرية أطلق عليها «الثورة الجنسية».

وتعد مسرحية هير Hair أي «شعر» الغنائية، التي شاهدها في نيويورك في منتصف الستينيات، علامة أساسية في تاريخ الثورة الجنسية، فهي تحتفي بانتصار إله الجنس وهيمنته الكاملة على الإنسان، إذ يصبح الجنس هو المحرك الأساسي للإنسان فيفقد حريته ومقدرته على الاختيار.

وقد حاولت «حركة الهيبى»⁽¹⁾ أن تجعل الثورة على المجتمع وعلى إنسانيته ثورة جنسية، وذلك بأن تجعل التحرر الحقيقي تحرراً جنسياً كاملاً. ولكن المفارقة الكبرى هي أن تحقق هذه الرؤية يعني أن الإنسان يصبح مسلوب الإرادة تسيطر عليه غرائزه.

ويُعتبر مايكل جاكسون (الذي لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى)، ممثل النسبية الكاملة وعدم الالتئام لأي شيء، إنه التجسيد الحق للتفكيكية (رد الإنسان لماديته).

(1) ظهرت حركة الهيبى Hippie movement كحركة شبابية متمردة على الحضارة المعاصرة في الولايات المتحدة في ستينيات القرن العشرين. وتدعو للحياة في جماعات بأسلوب بدائي يحافظ على الطبيعة، ويهتمون بالفنون خاصة الموسيقى، ويتعاطون المخدرات.

وبهذا نفهم الحديث المتكرر والممل عن الجندر Gender، أى النوع، وليس الجنس Sex، بحُساب أن الفروق الجسدية والتشريحية بين الرجال والنساء ليست مهمة، وأن دور كل منهما (ذكر أو أنثى) ليس مسألة مرتبطة من قريب أو بعيد بالخصائص الجسدية، وإنما هي مسألة اختيار شخصي، فأنت تستطيع أن تتصرف في المجتمع كذكر أو كأنثى تبعاً لاختيارك، بغض النظر عن جنسك. وهذه مفارقة تستحق التسجيل: في الحضارة التي يصل فيها الاهتمام بالجنس والتركيز على الأعضاء التناسلية حد الهوس، ثمة محاولة إلى تحييده تماماً و «إلغائه».

ولعل تحرر الجنس من الإطار الاجتماعي وتطبيعته يتضح في ظهور «أشكال بديلة من الأسرة» (حاول مؤتمر السكان في القاهرة إسباغ الشرعية عليها)، مثل أسرة تتكون من رجلين أو امرأتين ويحق لهما تبني الأطفال بل «إنجابها» عن طريق عمليات التلقيح الصناعي. ولعل هذه التطورات تدفع بعض المنادين بمثل هذه الحرية إلى التريث قليلاً في دعوتهم إلى الحرية، بل عليهم أن ينظروا إلى العواقب اللاحقة التي بدأت تظهر في مجتمعاتنا بالفعل (انظر إلى التليفزيون المصرى وإعلاناته الراقصة التي لا تنتهى، وتوظيف الجنس في بيع كل شيء ابتداءً من كريمات الجلد وانتهاؤاً بالمبيدات الحشرية. وانظر إلى الفيديو كليبات ومحطاتها المليون التي تعمل 48 ساعة كل يوم حتى يترسخ في أذهان الجميع أن الجسد هو المرجعية النهائية، وأنه هو الذى يسبغ معنى على حياتنا!).

ويرى البعض أن «قضية الإباحية» قضية فكرية وبالتالي لا ينبغى إخضاعها لأى رقابة، فهى إبداع فنى. ويمكن قبول هذا المنطق لو أثبت لنا كاتب الأدب الإباحي وكذلك مخرجه السينمائي أنه يمارس في حياته الخاصة فعلياً ما يدعو إليه نظرياً، لتأكد من إيمانه بما يقول، ولنعرف أن الهدف ليس الربح المادى.

ويمكن تلخيص الثورة الجنسية، بأن الرغبات الجنسية قد انفلتت من عقالها، وبدلاً من أن تحرر الإنسان، حَيّدته ثم استعبدته. فانتشرت الإباحية وتم «تطبيعها» بشكل لم يعرفه المجتمع الأمريكى من قبل. فكأن الهدف من الإباحية لم يكن إرضاء الشهوات، وإنما اختزال الإنسان إلى جسد، فالتعرية تبدأ بالجسد وتنتهى بتعرية الإنسان من تركيبته وإنسانيته. لكل هذا يُنظر للجنس بطريقة محايدة للغاية، وكأنه نشاط بيولوجي منفصل عن القيمة، لذلك يتم

الآن الإشارة إلى البغاء بحُسابه نشاطاً اقتصادياً محايداً، مجرد عمل عضلي لا يختلف عن غيره من الأعمال. ولذا تُسَمَّى البَغْيُ في بعض الأوساط «عاملة جنس» sex worker.

كنت أحاول أن أشرح هذه القضية لبعض الفقهاء ممن كانوا يتحدثون عن «الزنا» في الغرب، وكأن الغرب لا يزال يدور داخل إطار الحلال والحرام. فكنت أقول لهم: عندنا في مجتمعاتنا إن اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما. المشكلة في الغرب أن الشيطان لا يحضر؛ لأن المسألة أصبحت طبيعية ومحايدة بدون أي إحساس بالذنب، إلى درجة أنها أصبحت قضية إجرائية محضة: أين؟ متى؟ الخ. وكنت أخبرهم بأنني أرحب بحضور الشيطان، فهو على الأقل يذكرنا بالله، تماماً كما يذكرنا الشر بالخير، والحرام بالحلال.

ما بعد الحداثة

لم أملك نفسي من الضحك بصوت مرتفع على تعليق د. المسيرى الأخير على الثورة الجنسية، وقررت أن انتقل للحوار إلى جزئية أخرى. قلت للدكتور المسيرى: أقرأ كثيراً أن ما أصاب الإنسان الغربي والمجتمعات الغربية من تدهور إنساني قد دخل بالإنسان إلى عالم ما بعد الحداثة، أو النظام العالمي الجديد، فما معنى ذلك؟ أجبني د. المسيرى:

لقد استمر مفهوم النسبية في الاتساع حتى قَوَّضَ كل شيء، وقَوَّضَ الإحساس بأي قيم أو مركز، بل قَوَّضَ الإحساس بالوجود الحقيقي للعالم، لقد اكتسحت النسبية كل شيء في طريقها، ولم يعد هناك أي أساس لأي شيء، وصار كل شيء نسبياً.

وقد وُصِفَتْ «ما بعد الحداثة» بأنها تحطم كل اليقينيات والمسلّمات حتى سُمِّيت «ضد الأساس» antifoundationalism: لأنها تتعامل مع عالم بلا أساس ولا مركز ولا معيار يُحتَكَمُ إليه، عالم سائل لا قوام له. ومن ثم يمكن القول بأن «ما بعد الحداثة» هي أيديولوجية «النظام العالمي الجديد»، باعتبار أن ما بعد الحداثة تُنكر أية معيارية وأية قيم مطلقة يمكن تحكيمها. وهي ترفض أن تعطى للتاريخ أي معنى (عصر نهاية التاريخ) أو أن تُعطي للإنسان أية قيمة أو مركزية (عصر ما بعد الإنسان)، وتُسقط كل الأيديولوجيات (عصر ما بعد الأيديولوجيات)⁽¹⁾.

(1) سبق فيلسوفنا الكبير د. المسيرى بهذا الطرح عن «ما بعد الحداثة» الفيلسوف الأمريكي فوكوياما بسنوات.

ولتوضيح هذه الفكرة ذكرت في إحدى محاضراتي عن «ما بعد الحداثة» هذه النكتة المصرية الصميمة: «أراد أحد القضاة أن يوقف ضمير الحشاش الذي وقف أمامه في المحكمة عدة مرات، وسأله: لماذا بالله عليك تدخن الحشيش دائماً؟ فقال المتهم: حتى أنسى يا حضرة القاضي. فسأله: تنسى ماذا؟ فأجاب: والله مانا فاكر».

إن روح ما بعد الحداثة تُعبر عن روح عصر رأسمالية الشركات عابرة القارات ومتعددة الجنسيات، حيث قام رأس المال بإلغاء كل الخصوصيات (لا مانع من أن تتعاون دولتان اقتصادياً رغم أن بينهما اختلافات سياسية وعقائدية عميقة). كما حلت القيمة التبادلية العامة محل القيمة الأصلية للأشياء (لا مانع أن يُباع حذاء بألفى جنيه لأنه ماركة عالمية مشهورة بينما ثمنه الحقيقي لا يساوي عُشر هذا المبلغ). وهذه هي العولمة، التي يسميها البعض العولمة الرأسمالية أو العولمة المتوحشة.

نحن نذهب إلى أن العالم يحكمه الآن إيقاع ثلاثي: المصنع (حيث يُنتج الإنسان) - والسوق (حيث يشتري ويبيع) - وأما كن الترفيه (حيث يُفرغ ما فيه من طاقة وعُقد وقيم)، إنه إيقاع يستوعب كلاً من الإنسان الاقتصادي والإنسان الجسماني، ويُشبع جميع رغباتهما البسيطة الطبيعية أحادية البعد التي لا علاقة لها بأى تركيب إنساني.

ويمكن القول بأن «النظام العالمي الجديد» هو «عولمة» الإمبريالية النفسية (تعميمها لتشمل العالم أجمع)، وكذلك تعميم مفهوم الإنسان الاقتصادي/الجسماني الذي لا يكثرث بالوطن أو بالكرامة، ولا يهيمه سوى البيع والشراء والمنفعة واللذة.

وهذا السُّعار الاستهلاكي ليس مسألة انحطاط خُلقي شخصي وسلوك فردي واختيار حر، وإنما هو وضع اجتماعي شامل يهيمن على الإنسان من الخارج (ترشيد براني) ويتبناه المرء دون أن يشعر (ترشيد جواني). وإذا نجح المرء في مقاومة هذا الغزو فإن أفراد أسرته قد لا يكونون في مثل صموده. ولن يستطيع المرء أن يفلت من الضغوط الاجتماعية إلا برد فعل عنيف، كأن يتحول إلى هيبى زاهد في الدنيا، والهيبى يجسد رفض المواطن العادي لهذا النظام العالمي الجديد، رغم أنه واقع في شرك الاستهلاكية، التي تبناها منذ نعومة أظافره من خلال البرامج التليفزيونية والدُّمى المختلفة (تُعَدُّ العروس باربي وأصدقائها من أهم آليات إشاعة الأيديولوجية الاستهلاكية).

الوجه الآخر للتقدم

قلت للدكتور المسيري: قرأت لعالم النفس الألماني/الأمريكي إريك فروم أن الحضارة المادية المعاصرة بعد أن دخلت مرحلة ما بعد الحداثة، تدفعنا إلى كارثة محققة، بل إننا قد صرنا بالفعل في تحوم تلك الكارثة، فهل هذا صحيح، وكيف يستقيم أن يؤدي التقدم إلى كارثة؟

أجابني د. المسيري: كنت في بدايات شبابي أتحدث مع أحد العالمين بشئون الزراعة، فأخبرني بأنه لو تم إدخال ميكنة الزراعة في مصر لحدثت كارثة، إذ إن البطالة ستفشى بين الملايين. كان كلامه مفاجأة كاملة لي؛ لأن الصحف والمجلات كانت لا تكف في ذلك الوقت عن الحديث عن الميكنة بحُسابها الحل لكل المشكلات.

وحدث أن سألت روبرت أوبنهايمر Robert Oppenheimer، مخترع القنبلة الذرية: ماذا كان شعورك بعد نجاح مشروعك، ووقوع أول هجومين ذريين على اليابان؟ أجاب باقتضاب شديد: «لقد تقيأت»، أي أنه أدرك مدى وحشية ما توصل إليه، حتى إنه قضى بقية حياته يحارب ضد استخدام القنبلة الذرية. وقد ذكّرتني إجابته بما كتبه الفيلسوف الفرنسي فرانسوار ابليه، عندما قال: «إذا لم يقترن العلم بالضمير أدى إلى خراب النفس»، كما ذكّرتني بخطيب جامع الحبشي في دمنهور حين كان في نهاية خطبة الجمعة يستعيد بالله من علم لا ينفع. وقد دعت إجابة أوبنهايمر من إحساس بالاختلاف بين الإنساني والمادي، وبقصور العلم الطبيعي عن الإحاطة بالمفاهيم الإنسانية والجمالية، وبخطورة انفصال التجريب العلمي عن الأهداف والأغراض الإنسانية، وبضرورة النظر إلى الإنسان باعتباره الغاية النهائية وليس وسيلة من الوسائل.

ومن مقدمات الكارثة، أن أصبح عدم التحكم في منجزات العلم سمة أساسية في عصرنا، وكلما زادت ميكنة العالم وزاد تقدمه العلمي، قلّت إمكانية التحكم فيه! وكلما اكتشف الإنسان أو سيطر على شيء ظهرت له آلاف الأشياء الجديدة التي لا يعرفها ولا يمكنه السيطرة عليها، أي أنه كلما ازداد معرفة ازداد جهلاً. حتى شاع القول بأن العلم يزداد بمتواليه عددية، فيزداد الجهل بمتواليه هندسية⁽¹⁾

(1) في المتواليه العددية يضاف مقدار ثابت إلى الرقم السابق، مثل: 5 - 7 - 9 - 11.

وفي المتواليه الهندسية يُضاعف الرقم بمقدار ثابت، مثل: 5 × 2 = 10 × 2 = 20 × 2 = 40. لذلك فالزيادة في المتواليه الهندسية تكون أضعاف المتواليه العددية.

ومن أمثلة ذلك الموقف، تجربتنا مع الدّرة، التي حطمتها لتؤسس الفردوس الأرضي، وانتهى بنا الأمر إلى أننا صرنا نمسك بكرة اللهب، أي الأسلحة النووية التي يمكنها تدمير العالم عشرات المرات، وتطلق عادماً نووياً لا نعرف كيف نتخلص منه. وقد سُحِبَت من أحد أصدقائي العلماء في الولايات المتحدة ميزانية البحث بحجة توفير الاعتمادات، بعد أن اكتشف أن أفران الميكرويف تسبب أضراراً جسيمة للإنسان. وينطبق نفس القول على شاشات الكمبيوتر والتليفونات المحمولة التي لا نعرف حتى الآن أثرها على عيني الإنسان وأذنيه ودماغه.

انظر كذلك إلى الأغذية التي تحتوي على مكونات مُهندَسة أو مُعدّلة وراثياً تُضعف جهاز المناعة، ويطلقون عليها «أغذية فرانكشتاين»، وقد طُرِد أحد العلماء الإنجليز من مركز الأبحاث الذي يعمل به لأنه أكّد هذه المقولة.

إن كثيراً من العلماء الذين حققوا اكتشافات في حقل الهندسة الوراثية يقفون الآن ضد إجراء التجارب في هذا المجال خوفاً من عواقبها الوخيمة، وذلك بعد انفصال النزعة التجريبية عن النزعة العقلية والأخلاقية والإنسانية، لقد أصبح التجريب غاية في حد ذاته، بغض النظر عن نتائجه التي قد تودي بالإنسان!

إن الأخطاء في التجارب العلمية في الماضي كانت تتم داخل دورة الطبيعة ولا تحدى قوانينها، ولهذا كانت دورة الطبيعة قادرة على معالجة مثل هذا الخلل، حتى إن التلوث الإشعاعي - الذي يستمر لآلاف السنين - يظل داخل دورة الطبيعة التي تُصلحه. أما تجارب الهندسة الوراثية فتختلف عن التهجين القديم في أنها تتجاهل تماماً حدود البيولوجيا، إذ يمكن إضافة جينات من الفيروسات أو البكتريا أو الحيوانات إلى الشفرة الجينية لأنواع الحيوانات والنباتات التقليدية، فتأتي بمخلوقات لا يمكن لدورة الطبيعة أن تتعامل معها؛ فهي مخلوقات تقع خارج نطاق حلقة التطور الطبيعية. وقد ظهرت أخيراً مشكلة «التلوث الجيني genetic pollution»، وهو انتقال الجينات التي تم إدخالها على أحد النباتات (بقصد جعلها أكثر إنتاجية وأكثر مقاومة للمناخ) إلى نباتات أخرى (أعشاب ضارة على سبيل المثال)، مما يجعلها أشد فتكاً ويجعل القضاء عليها صعباً أو مستحيلاً.

مطلوب عمل «دراسة جدوى» للتقدم

قلت للدكتور المسيري؛ لا شك أن الإنسان قد حقق تقدماً هائلاً في ظل الحضارة المادية

الحديثة، وفي نفس الوقت خسر الكثير في العديد من الجوانب، أفر بأن الأوان لفتح الملفات، ومقارنة عائد التقدم بتكاليفه الباهظة؟ ... فقال:

إن جوهر الحضارة الغربية هو الإيمان بمفهوم «التقدم» السريع والدائم وبأى ثمن، حتى أصبح التقدم العلمي هدفاً في حد ذاته. ولكن يبدو أن مشكلة البيئة في المجتمعات الصناعية قد تفاقمت، فبدأ المفكرون، بل المواطنون العاديون، يتحدثون عن «تكاليف» التقدم.

إن النموذج الغربي في التنمية والاستهلاك مبني على غزو الطبيعة والسطو عليها (تبين الإحصائيات التقليدية أن 20% من سكان العالم من أهل الغرب يستهلكون 80% من مصادرها الطبيعية). والآن، ماذا بعد أن «تقدمت» الصين والمهند وأصبح هناك بليون سيارة جديدة تسير في الطرقات، يلوث عادمها جو الكرة الأرضية وتحرق الأكسجين، خاصة بعدما «تقدمت» البرازيل هي الأخرى، وبدأت في اجتثاث الغابات الاستوائية المطيرة التي تنتج ثلث الأكسجين في العالم، لتؤسس المصانع والطرقات وتحقق «التقدم المنشود» على الطريقة الغربية، فهذا حقها القومي.

وإذا كانت فكرة التقدم الغربية تستند إلى لا محدودية الموارد الطبيعية، فإن الممارسة أثبتت عكس ذلك، فهناك معادن آخذة في الاختفاء، وهناك أنواع من الحيوانات والنباتات تنقرض سنوياً، وهناك مشكلة النفايات الآخذة في التزايد بشكل مخيف، حتى إننا سنحتاج - لو استمر التقدم على معدله - في غضون عدة أعوام إلى ستة كواكب في حجم الكرة الأرضية كمصدر للمواد الخام وكوكبين آخرين للتخلص من نفايات الاستهلاك الوحشي المرتبط بالتقدم. وبطبيعة الحال، هناك النفايات النووية، التي لم نعرف طريقة جيدة للتخلص منها بعد. إن التقدم الذي كان من المفروض أن يحقق سعادة الإنسان الأرضية أصبح يهدد وجوده على هذا الكوكب. ومن المفارقات الساخرة أن الثورة العلمية التي نجحت في تطوير السلاح بشكل غير مسبوق في تاريخ البشرية، فشلت حتى الآن في حربها ضد الأنفلونزا.

ولننظر إلى جانب آخر، هل جهاز الإنسان العصبي قادر على استيعاب كل هذه الأحاسيس والأفكار والمعلومات وأخبار المجازر والكوارث التي تُرسل إليه يومياً من بيئته المحلية والعالمية؟ وهل من قبيل المصادفة أن الجلطة الدماغية على مستوى العالم العربي والعالم أجمع آخذة في التزايد في السنوات الأخيرة؟

وأتساءل، هل مجرد «إنتاج» سلعة ما يُعتبر «تقدم»، أم أن مقاييس التقدم والتخلف تقع خارج نطاق الأشياء والكم. وإذا كان الحديث عن تلوث البيئة (الطبيعة الخارجية) أصبح أمراً شائعاً في الغرب، فإن الحديث عن تلوث الإنسان (الطبيعة البشرية) أصبح هو الآخر أمراً مطروحاً بشدة. إن المجتمعات الاستهلاكية تظن أنها قادرة على إشباع جميع رغبات الإنسان مُسقطاً احتياجاته الروحية من الحُسبان، إذ تتجاهل ازدواجية الإنسان ومن ثم تسبب البؤس للبشر. ولذا أطلب الآن بفتح ملفات «ثمن التقدم» ومقارنة عائد التقدم بتكاليفه، وأن ننظر للتقدم المادى في إطار ما يُحدث من «تخلف إنسانى».

كل هذا جعلنى أتخفظ على مصطلحات يقبلها البعض بشكل مطلق، مثل «التقدم التكنولوجى» و«التجريب العلمى». وهذا لا يعنى أننى أرفض المعرفة العلمية رفضاً كاملاً (كما يفعل غلاة السلفيين) ولا أننى أقبلها قبولاً كاملاً بحُسبانها المعرفة الوحيدة الممكنة (كما يفعل غلاة العلمانيين)، كل ما فى الأمر أن قبولى لها أصبح مشروطاً وغير مطلق.

كيف تعاملوا مع الفطرة

سألت د. المسيرى؛ إذا كانت الحضارة المادية عوراء، لا تنظر إلا إلى الجانب المادى فى الإنسان، وفى نفس الوقت فإن للإنسان ميلاً غريزياً لعالم الغيب، وهذا الميل هو ما يجعل للإنسان ميلاً فطرياً للتدين، فكيف يتعامل الإنسان المادى مع هذا الميل؟ أجابنى د. المسيرى:

ثمة ظواهر غريبة انتشرت فى الولايات المتحدة، منها زيادة قارئى الطالع والكف (كان آل ريجان لهم قارئة الطالع الخاصة بهم فى البيت الأبيض). كما ظهرت العبادات القديمة الجديدة، مثل عبادة الشمس أو الإيمان بالقدرات الخارقة للهرم، وعبادة جايا (أى كوكب الأرض)، والإيمان بالأطباق الطائرة. ويرجع ذلك إلى أنه رغم تزايد معدلات النسبية وتفشى أخلاقيات السوق فإن الإنسان يظل بحاجة لإشباع الجانب الإنسانى فيه، لذلك لجأ إلى الإيمان بما أسَمَّيه «ميتافيزيقا دون أعباء»، فهذا يعطيه الشعور الميتافيزيقى الذى يبحث عنه، ولكنه فى الوقت ذاته لا يُحمِّله أية أعباء أخلاقية كما تفعل الديانات، مثل الكسب الحلال وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك وغيض البصر.

قلت للدكتور المسيرى، يدعى الغربيون أن الإنسان كلما تحضر (بالمفهوم المعاصر) كان

ضميره أكثر يقظة، حتى أقنعونا بأن الحضارة الغربية حضارة الانضباط عن طريق الإحساس (الجواني والفردي) «بالذنب» guilt، أما حضارتنا فهي حضارة الإحساس (البراني والجماعي) «بالخجل أو العار» shame. يريدون أن يشعرونا بأن الإنسان الغربي ينضبط من داخله، ولذا فهو أكثر تحضُّرًا، أما الذي يتم رده اجتماعيًا من الخارج بشكل دائم، فهو إنسان غير متحضر، فما رأيك في ذلك؟.

ابتسم د. المسيري وأجابني: لقد تبخرت أسطورة إحساس الإنسان الغربي بالذنب بغتة عام 1977، حين انقطع التيار الكهربائي عن نيو يورك بضع ساعات، وبدأ الناس يتحركون كالقطيع ويقومون بنهب كل ما تقع عليه أيديهم، بل اشتركت بعض السيدات البيض من الطبقات الثرية في كرنفال السرقة. أخبرت أصدقائي الأمريكيين كان ساعتها بأنني شاهدت الليلة السابقة تبحر إحدى الأساطير الحاكمة والمقولات المرجعية في حياتنا جمعياً، وعلينا ألا نتحدث عن «الضبط الفردي الجواني» وإنما عن «الضبط العلمي - وربما البوليسي - الكهربائي».

نحو حادثة جديدة

سألت د. المسيري: إذا كانت الحادثة قد أدت إلى ما بعد الحادثة، ذلك المنظور الذي أدى إلى نزع إنسانية الإنسان وجعله مسخًا مشوهًا، فهل معنى ذلك أن من الأفضل رفض التقدم؟
أجابني د. المسيري: إن ما أقول لا يعني رفض تطور المجتمعات، ولكن المطلوب هو حادثة جديدة؛

حادثة «تتبنى العلم والتكنولوجيا ولا تضرب بالقيم الإنسانية عرض الحائط».

«تنمى وجودنا المادي ولا تنكر الأبعاد الروحية لهذا الوجود».

«تحمي العقل ولا تميم القلب».

«تعيش الحاضر دون أن تنكر التراث».

وهي مسألة ولا شك صعبة، ولكنها ليست مستحيلة.

من أجل التقدم نحو هذه الحادثة البديلة ينبغي:

1- فصل الحداثة البديلة عن مفهوم الاستهلاك والتقدم المادى، وربطها بمفهوم الطبيعة الإنسانية والإنسانية المشتركة، بحيث يمكننا أن نحدد هدفًا للحداثة غير الإنتاج والاستهلاك.

2- توسيع مفهوم التقدم، بحيث يضم المعنوى والروحي بالإضافة إلى المادى والملموس.

3- أن نعيد تحديد معدلات الاستهلاك في إطار احتياجات البشر المادية والمعنوية، فلا تكون زيادة الاستهلاك هدفًا في حد ذاتها.

وبهذه الطريقة قد يمكننا أن نحقق مشروع الحداثة البديل، وأن نحقق التقدم دون أن نفقد إنسانيتنا واتزاننا، ودون أن ندمر الكوكب.

كان شعورى تجاه حوارى الشيق مع د. عبد الوهاب المسيرى مزيجًا من الشجن العميق وخفة الانتشاء. وقلت له وأنا أودعه: إن كتابي هذا يدور حول الذات الإنسانية، وسيكون بعنوان «أنا: تتحدث عن نفسها»، فهاً لخصت لى في كلمات ما استقر عليه وجدانك - حتى الآن - حول تعريف الذات الإنسانية. فقال: ختام كلماتي (التي أتمنى أن تنقلها عنى حيًا وميتًا) التي أعرف بها الإنسان هي أن:

«الإنسان كائن حر، يصنع التاريخ،

جزء من الطبيعة ومستقل عنها، ولا يمكن أن يُردَّ إليها

كائن له منتجاته الحضارية التي تمنحه خصوصيته القومية والإنسانية

إنه الإنسان الرباني (عكس الإنسان الطبيعي/المادى)».

القارئ الكريم

يرى إريك فروم (عالم النفس الكبير) أن السبيل إلى تفضي الكارثة التي تدفعنا إليها الحضارة المادية المعاصرة هي إنشاء مجتمع المدينة الفاضلة، مجتمع يوجهه نظام يراعى الجانب الروحي للإنسان، فلا يحتاج إلى تحريف الواقع وعبادة الأصنام. وكذلك يرى أستاذى الدكتور عبد الوهاب المسيرى أن النجاة تكمن في بعث الإنسان الرباني، الكائن الذى يعيش داخل

جسده المادى بينما تتجاوز روحه عالم المادة إلى عالم المثل العليا والغيب، كائن أقدمه مغروسة في الوحل وعيونه شاخصة للنجوم، كثيراً ما يسقط ولكنه قادر دائماً على النهوض ثم التجاوز والتسامي.

وباعتبارى مفكراً إسلامياً، يحمل على كتفية هموم البشرية، أرى في منهج الإسلام السبيل لبعث الإنسان الربانى، بثنائيته (الجسد والروح)، والسبيل أيضاً لتحقيق مجتمع «المدينة الفاضلة» على أرض الواقع، تلك المدينة التى لا تشكّلها مثاليات نظرية، بل تمثل مجتمعاً صالحاً للتطبيق فى كل زمان ومكان.

ومن أجل طرح هذه القضية، يبدأ القرآن الكريم بتأكيد أن نمط التملك منبوذ عند الله عَزَّجَلَّ، بل ويتوعد بالويل من يرى حقيقة الوجود فى التملك ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةً ۝١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣﴾ [الهمزة]. وفى الوقت نفسه، يحث القرآن الكريم على تبنى نمط الكينونة فى الحياة، فيؤكد أن نمط الحياة القائم على احترام إنسانية الإنسان وسماته البشرية هو النمط الوحيد الجدير بتقدير رب الكون ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧﴾ [الإسراء]. وبالرغم من وضوح وتكرار التحذير من نمط التملك والترغيب فى نمط الكينونة إلا أن ذلك لا يمنع الإنسان من المكابرة والمجادلة ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ [الكهف].

ويصل الإنسان إلى تحقيق ذلك عن طريق الالتزام بالحياة الفاضلة ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر]. ويحمل القرآن الكريم الإنسان مسؤولية استخدام عقله وحواسه وبصيرته من أجل الحفاظ على كينونته الإنسانية ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَفْقَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ۝٦﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ وَلسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد].

وصدق الله العظيم

الباب الثالث

أنا...

في القرآن الكريم



الفصل التاسع

الذات الإنسانية في القرآن الكريم

1- الجسد

- الجسد مُكوّن أساسي للذات الإنسانية
- الروح ليست مصدر حياة الجسد

2- العقل

- منزلة العقل
- العقل في القرآن الكريم
- الملكات العقلية
- موقف القرآن الكريم من العقل
- العقل بين القرآن واللغة

3- القلب

- وظائف القلب العاطفية والمنطقية
- هل القلب مجرد مضخة للدم؟
- أقسام القلوب

4- الروح

- وما أُوتيتم من العلم لإقليلا

5- النفس

- النفس والروح، ثنائية أم واحدة؟
- النفس محل التكليف والاختيار.
- علاقة النفس بعناصر الذات الإنسانية.
- صور من معاصي النفس.
- أثر الطاعات على النفس.
- سنة الله مع النفس البشرية.
- عوالم ومراتب النفس.

- القارئ الكريم

تحدثت في الفصول السابقة عن ذاتي، «الذات الإنسانية»، من منظور العلوم المختلفة، فتعرفنا عليها من خلال الرؤى المتخصصة لكل من علوم المخ والأعصاب، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا، والبيولوجيا، والتطور البيولوجي، وعلم الاجتماع، والفلسفة، والتاريخ، واللغة، وغيرها من العلوم.

ويمكن تشبيه استقلال نظرة كل من هذه العلوم إلى الذات الإنسانية بالقصة الرمزية المشهورة عن مجموعة العميان، الذين طُلب منهم أن يتحسسوا فيلاً ثم يصفوه، فاختلقت أوصافهم تبعاً للعضو الذي وضع كل منهم يده عليه. فمن تحسس نابي الفيل وصفه بأنه صلب أملس، ومن تحسس خرطومته اعتقد أن الفيل كائن طويل يتلوى كالثعبان، ومن تحسس جسده اعتقد أنه كالحائط الخشن المتعرج، ومن وضع يده على ساقه شبهه بالشجرة، أما من تحسس ذيله فقد أشفق على هذا الكائن الهزيل!!.

ألا توافقني أننا من أجل الوصول إلى صورة متكاملة للفيل (أقصد للذات الإنسانية) نحتاج إلى نظرة فاحصة محيطية من بصير، نظرة تحيط بالنفس من كل زواياها، وتتجاوز النظرة التفكيكية التجزئية. لاشك أن خير من يقدم لنا هذه النظرة هو خالق الإنسان الذي لا تتوقف صلته بالذات الإنسانية عند إنشائها، بل يتابعها في حياتها، ويكلفها، ويحاسبها، ويجازيها. لذلك، لا يكتمل حديث «أنا» عن نفسها إلا بطرح وصف الله عزَّجَل للذات الإنسانية في القرآن الكريم.

من المفاهيم السائدة عند الحديث عن الإنسان بالمنظور الديني أن الذات الإنسانية جوهر غيبي هو الروح، وأن الجسد ما هو إلا دابة الروح أو عبادة تسربل بها أثناء حياتها الدنيا. ولكن نظرة متأملة لنصوص القرآن الكريم وللعقيدة الإسلامية ترينا أن تلك الذات وجود مُركَّب من خمسة عناصر (الجسد - العقل - القلب - النفس - الروح) نتناولها الآن ببعض التفصيل⁽¹⁾:

(1) لاشك أن ما ورد في القرآن الكريم حول هذه المكونات الخمسة شديد الغزارة، وقد أعمل فيه علماء العقيدة والفلاسفة المسلمين عقولهم فخرجوا بمفاهيم وآراء تملأ بتفاصيلها واختلافاتها مئات المجلدات.

1- الجسد ...

الجسد مكون أساسي للذات الإنسانية

هناك نقطة خلاف جوهرية ينبغي أن نتأملها، إنها منزلة الجسد بالنسبة للإنسان، في منظور الإسلام. هل الجسد شيء مُدْنَسٌ مُتَقَصٌّ، لا يحقق الإنسان الترقى الروحي إلا بإذلاله أو تجاوزه، أم هو دابة الروح، أم هو أكثر من ذلك؟ هذه ثلاث مراتب للجسد ينبغي أن نختار من بينها.

لا شك أن كثيرًا من المتدينين يعتقدون في الفهم الأول أو الثاني، إن تلك النظرة تتطلب التصحيح والتعديل، إذ إن صريح القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة تعلق بالجسد فوق هاتين المنزلتين، وتعتبره مكونًا أساسيًا للذات الإنسانية. ونستشهد على ذلك ببعض النقاط:

1- كانت رحلة المعراج لرسول الله ﷺ بالجسد والروح (في الرأي الأرجح). وأرى أن المقصود بذلك ليس إظهار قدرة الله عَزَّوَجَلَّ ولا تعظيمه لمنزلة رسوله الكريم فقط، لكن في ذلك إشارة إلى أن حقيقة الإنسان هي الجسد والروح معًا، وأن الجسد يمكن أن يرقى إلى مراقى الروح، وأن ينفذ إلى عوالمها غير المادية.

2- لا ينبغي أن ندفع النقطة السابقة بأن هذه خصوصية لرسول الله ﷺ؛ إذ إن كل إنسان منا يحقق العروج الروحي عن طريق سجود الجسد في الصلاة التي هي معراج المؤمن ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: 19].

3- عندما أراد الله عَزَّوَجَلَّ أخذ ميثاق ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] من بني آدم، فقد خاطب الأرواح / الأنفس من خلال الأجساد، بعد أن أخرج البشرية جميعًا من ظهر آدم في أجساد دقيقة كالذر وأخذَ عليها الميثاق، ويمكن تفسير آية الميثاق على أن فطرة التوحيد

= وقد اخترت أن يكون عرضي لمفهوم الذات الإنسانية بمكوناتها الخمس محددًا معتمدًا على المفاهيم التي نستقيها بشكل مباشر من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، دون الدخول في التفاصيل ودقائق الاختلافات.

قد وُضِعَتْ في جينات نطف (الحيوانات المنوية والبويضات) كل إنسان في زمانه. إن كلا التفسيرين يعينان أن المخاطب بالميثاق ليس الروح / النفس فقط، ولكن أيضاً الجسد.

4- تأمل قول الله عزَّجَلَّ في سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل].

إن الإنسان يأتي إلى الدنيا لا يعلم شيئاً، ثم يبدأ في اكتساب العلوم والمعارف من خلال حواس الجسد، فتتعلم أموراً عن عالم الغيب ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُمِرَ السَّاعَةِ إِلَّا كَلِمَةَ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: 77] كما نتعلم أموراً عن عالم الشهادة ﴿الْمَرِيرُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 79].

ليس ذلك فقط، بل إن الله عزَّجَلَّ يحفز الإنسان ليتذكر الميثاق الذي أخذه على الإنسان ﴿الَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] من خلال مراكز الذاكرة في المخ. كما يزداد إيمان الإنسان بالله عزَّجَلَّ من خلال الحواس ﴿سُرِّيَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

5- في العبادات كلها (الصلاة والصوم والزكاة والحج) يقوم كل من الجسد والروح/ النفس بدوره. وتصح العبادة من الناحية الشرعية إذا أدبناها بالجسد وإن قَصَّرَت الروح/ النفس، أما العكس فغير صحيح!

6- لا شك أن المنفعة تبادلية بين الروح/ النفس والجسد. فالنفس ترقى بمجاهدات يشارك فيها الجسد، كقيام الليل والصيام. كذلك يحقق السمو النفسي فوائد جمّة للجسد، من خلال رفع مستوى المناعة، وخفض معدل النوبات القلبية والمخية، وتأخير الشيخوخة.

7- بعد موت الإنسان ومفارقة الروح/ النفس للجسد، ينبغي معاملة الجسد معاملة تكريم وإعداد للحياة الأخرى. فبتم تعسيله ليكون على طهارة، ويُلف في كفن أبيض نظيف، ويُصلى عليه، ويُدعى للمتوفى بالرحمة في حضور الجسد، ثم يُسجى مواجهاً للقبلة.

8- عند البعث، يُحشر الإنسان بروحه ونفسه وجسده، ليتم محاسبته على معاصي النفس ومعاصي الجوارح. ويجازى الإنسان ككائن متكامل، بالنعيم أو بالعذاب.

9- تأمل حديث رسول الله ﷺ الصحيح المتفق عليه (رواه النعمان بن بشير): (... ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب). ومن دلالات الحديث أن الصلاح والفساد مصدرها مضغة في الجسد، ويشملان الإنسان كله، وقد أشار إليه الرسول ﷺ بـ (الجسد كله). هل يصح بعد ذلك أن نقول إن الجسد لا اعتبار له ولا قيمة!

تؤكد هذه النقاط التسع، وغيرها كثير، الصلة الوثيقة بين الجسد والروح/النفس، حتى يمكننا القول: إن كل ما يعتمل في الروح/النفس يطفح على الجسد،

﴿... إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: 107].

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: 109].

سبحان ربي جل جلاله!

وينبغي أن نلاحظ أن القرآن الكريم يتحدث في مواضع مختلفة عن الجسد وعن الروح وعن النفس، بشكل منفصل:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: 71].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: 7].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: 85].

إلا أن الله عز وجل عندما يتحدث عنا أو يوجه إلينا الخطاب، يكون ذلك باعتبارنا كلاً متكاملًا (الإنسان)، منذ يوم «ألستُ بربكم»، وحتى تلقى الله ونحيا خالدين في الحياة الأخرى.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: 4].

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمَلَأْتِيهِ﴾ [الانشقاق: 6].

إن الفصل بين مكونات الإنسان، واعتبار أن بعضها جوهرى (الروح) وبعضها ثانوى (الجسد) وبعضها واسطة بين الاثنين (النفس)، هو مصدر الالتباس. لذلك ينبغي أن نعيد صياغة نظرتنا للإنسان باعتباره كلاً متكاملًا.

لا شك أن الإسلام يتفرد بهذه النظرة المتكاملة. فاليهودية والمسيحية، التي بين أيدينا، تنظر

إلى الجسد ورغباته باحتقار، وترى أن الخلاص في الحياة الأخرى لن يكتمل للروح إلا بعد أن يُبدّل الجسد المرتكب للمعاصي بجسد خالٍ من الرغبات المادية. كذلك ترى الهندوسية وديانات الشرق الأقصى أن حقيقة الإنسان هي الروح فقط، لذلك ترى السعادة الكبرى في تحرر الروح من الجسدية المندسة، والتحاقها بالروح الكلي، كما تعود قطرة الماء إلى البحر المحيط. وفي المقابل، يتنكر الفكر المادى لأى أصول غيبية للإنسان، ولا يرى فيه إلا المادة وقوانينها. ما أحوجنا إلى النظرة المتوازنة المتكاملة.

الروح ليست مصدر حياة الجسد

وترتبط بالجسد ظاهرة الحياة، وهي غنية عن التعريف، فكل منا كائن حي، كذلك يمكننا أن ندرك الحياة بشكل أعمق عند تأمل ظاهرة الموت، فبضدها تتميز الأشياء.

ومن المفاهيم الخاطئة واسعة الانتشار عن الروح والحياة أن الأولى مسئولة عن الثانية، وأن الموت يقع عند مفارقة الروح للجسد. وهذا الفهم موجود لدى المتخصصين في الطب وفي الدين على السواء، ومنتشر بلاشك بين العوام.

والصواب، أن الحياة ظاهرة بيولوجية توجد في جميع الكائنات الحية، النباتية والحيوانية، كما توجد في جنين الإنسان قبل نفخ الروح (الذي يحدث تبعاً للآراء الفقهية بعد الشهر الرابع من الحمل)، بل توجد أيضاً في الحيوان المنوى والبويضة. أما الروح، الذي هو نفخة نسبها الله عزَّجَلَّ إلى نفسه، فقد أختص بها الإنسان، فميزته بقدراته العقلية وملكاته الروحية، واستحق بها الخلافة من الله عزَّجَلَّ في الأرض⁽¹⁾.

2 - العقل . . .

منزلة العقل

العقل هو المكوّن الثاني للذات الإنسانية، ومن أفضل ما قيل عن مهام وشرف منزلة العقل، كلام لابن قيم الجوزية، يقول فيه:

(1) للاستدلال على ذلك، وأيضاً للعلاقة بين الحياة والروح وبين الموت والتوفى، انظر الفصل العاشر بعنوان «أنا... والموت».

«والعقل به عُرِفَ الله سبحانه وتعالى وأسماءه وصفات كماله ونعوت جلاله. وبه آمن المؤمنون بكتبه، ورسله، ولقائه، وملائكته. وبه عُرِفَت آيات ربوبيته، وأدلة وحدانيته، ومعجزات رسله. وبه امتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وبه حُثَّ الإنسان على الفضائل، ونُهِيَ عن الرذائل، فاستَجَلَبَ ما يزين، ونَفَى ما يشين»⁽¹⁾.

وحول منزلة العقل في الإسلام؛ يقول الأستاذ عباس محمود العقاد⁽²⁾: «فالدين الإسلامي دين لا يعرف الكهانة، ولا يتوسط فيه السدنة والأخبار بين المخلوق والخالق، ولا يفرض على الإنسان قرباناً يسعى به إلى المحراب بشفاعة من وليّ، أو صاحب قداسة مطاعة. ولن يتجه الخطاب إذن إلا إلى عقل الإنسان حراً طليقاً من سلطان الهياكل والمحارِب، ومن سلطان كهانها المتحكمين فيها بأمر الإله المعبود كما يدين أصحاب العبادات الأخرى... قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ...﴾ (البقرة)».

مما سبق يتضح أن العقل هو أصل الدين، فهو الأداة التي يُحَصِّلُ بها العلم الذي يسلك بالعبد طريقاً إلى الجنة، ويرفعه فيها درجات ﴿... يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة). وبالعقل يُفْهَمُ المقصود من الأمر، ويُحَصِّلُ الدليل على صحة الأعمال، وبه تتم الموازنة والترجيح بين طريق النجاة وطريق الهلاك ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (5) ﴿وَصَدَقَ بِالْحَقِّ﴾ (6) ﴿فَسَنِّيئِهِ لِلْيَسْرَى﴾ (7) ﴿وَأَمَّا مَنْ يَحِلْ وَاسْتَفْتَى﴾ (8) ﴿وَكَذَبَ بِالْحَقِّ﴾ (9) ﴿فَسَنِّيئِهِ لِلْعُسْرَى﴾ (10) ﴿[الليل].

العقل في القرآن الكريم ...

مما يلفت الانتباه، أن لفظ «العقل» في صيغته الاسمية، لم يرد في القرآن الكريم مطلقاً، لكن وردت مشتقاته في صيغته الفعلية، مثل عقلوا ويعقلون وتعقلون ونعقل ويعقل، قرابة خمسين مرة. أما الألفاظ التي تدل على النشاط العقلي بصفة عامة، مثل التفكير والتدبر والعلم والنظر والإدراك والتفكر والتبصر، فقد وردت مئات المرات⁽³⁾.

(1) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية 7-8.

(2) التفكير فريضة إسلامية - مجموعة أعمال العقاد - المجلد الخامس: 295 - 296.

(3) هذا المبحث، تلخيص (مع إضافات) عن كتاب «الصوفية والعقل» تأليف الدكتور محمد عبد الله الشراوى أستاذ الفلسفة الإسلامية ومقارنة الأديان بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة - دار الجيل.

وربما يرجع عزوف القرآن الكريم عن استخدام الصيغة الاسمية للعقل واللجوء إلى الصيغ الفعلية إلى اهتمامه بالأفعال ونتائجها أكثر من اهتمامه بالتفاصيل النظرية. كذلك فإن استخدام الصيغة الاسمية يتطلب وضع تعريف للعقل، بينما كثيراً ما تفشل التعريفات في تصوير الشيء المعرف تصويراً دقيقاً، لا سيما إذا اتصل هذا الشيء بحقائق روحية أو نفسية، حتى قالوا «يكمن الشيطان في التعريفات، كما يكمن في التفاصيل». كما يتطلب استخدام الصيغة الاسمية المعرفة تحديد الموضوع والعضو الذي يقوم بتلك المهمة شديدة التعقيد والتي لم يتوصل العلم إلى كلمة نهائية فيها حتى الآن.

الملكات العقلية

يحدد القرآن الكريم الملكات التي وهبها الله عزَّجَلَّ للعقل، لتعينه على القيام بمهامه، ويمكن من تأمل الآيات الكريمة وَضَعُ أَيْدِينَا عَلَى سَبْعِ مَلَكَاتٍ، الثلاث الأولى منها فطرية تنشأ مع الطفل الوليد، والأربعة الأخرى مكتسبة:

1- مَلَكَةُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد]، ولتنشئة التي تقوم بها الأسرة والمدرسة والمجتمع، دور في تدعيم معايير الحُسن والقبح تبعاً لمرجعية تلك الجهات. وهذه المعايير خمسة: الحلال والحرام - العرف - التجارب السابقة - المصلحة الشخصية - الهوى.

2- مَلَكَةُ مَعْرِفَةِ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ، ويسمى البعض العقل التجريبي، وهي أساس كل تقدم حضارى يحققه الإنسان، كما أنها لازمة وضرورية للنجاة يوم القيامة. لذلك يركز القرآن الكريم على تدبر أحوال الأمم السابقة، وما حاق بهم من سخط الله عندما انحرفوا عن السبيل القويم ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [غافر].

3- مَلَكَةُ الْإِدْرَاكِ وَالتَّحْكَمِ: وبها يلم الإنسان بكل ما يحتاج للإدراك، كالفرق بين المتقابلات (كالبعد والقرب) ومعاني الأشياء، وتكوين الجمل. كما أنها المسئولة عن التحكم، الذي هو أساس نظام العقل البشرى، فهو الذى يستقبل المدخلات العصبية، وبناء عليها يصدر الإشارات للجوارح لتنفيذ ما استقر عليه رأى العقل.

وتسمى الملكات الثلاث الفطرية الأساسية السابقة بالعقل الوهبي أو العقل المطبوع، وهي مطلوبة لأمانة الخلافة في الأرض. وبفقد أحد تلك الملكات لا يصير الإنسان عاقلاً، ويسقط عنه التكليف الشرعي.

أما الملكات الأربع التالية، فتعرف بالعقل الكسبي، فهي قابلة للتدريب والتنمية والارتقاء، بشرط توافر ملكات العقل الوهبي:

4- **مَلَكَةُ التَّأَمَلِ وَالتَّفَكُّرِ**: ترقى هذه الملكة بالتفكير في الآفاق والأنفس إلى مصاف العبادات ﴿سُنِّيهِمْ ءَابِتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران]، فمن أعمل فكره في آلاء الله عزَّوجلَّ وصل إلى تنزيهه، لذلك ورد في آيات كثيرة قانون إلهي مُحكم ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة]. كما أوضحت الآيات القرآنية أن التفكير هو المراد من ضرب الأمثال في القرآن الكريم ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِنَاسٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الحشر].

5- **مَلَكَةُ التَّدْبِيرِ**: والتدبر أسمى من التفكير؛ فالتفكير هو التأمل في الأشياء، فهو كالمقدمات، أما التدبر فهو استمرار التفكير في الأمر حتى ينتهي إلى ما تصير إليه عاقبته، إذًا فهو كالتناج، ويقول العرب: دُبِّر كل شيء عقبه ومؤخره - وعَرَف الأمر تدبراً، أي عرفه بآخره ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد].

6- **مَلَكَةُ الْحُكْمِ وَالحِكْمَةِ**: والحكم بداية تنتهي إلى حصول صاحبها على الحكمة، التي يعرف بها صاحبها أفضل الأوجه في أمر ما، لذلك يقال رجل حكيم. كما أن من أوجه الحكمة «العدل» وهو وضع الشيء في مكانه وفي موضعه، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٣١١﴾﴾ [البقرة]. لذلك فملكة الحكم ليست للجميع، لكنها عطاء يُحصَّله من أعمل ملكات عقله تفكيراً ثم تدبراً، حتى توصله إلى ملكة «الحكمة» الرفيعة.

7- ملكة الرشد: وهي الذروة من ملكات العقل. فالرشد فهو الهداية، ونقيضه الغي والضلال. والطريق الأرشد هو الأقصر الذي يسرع بك إلى هدفك ومرادك. والرشد من أسماء الله عز وجل، فهو الذي أرشد الخلق وهداهم ودلهم على ما يصلحهم. وفي ذلك يقول الرشيد عز وجل: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ [الحجرات] ﴿٧﴾ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة]، ومن هاتين الآيتين نرى أن الرشد أرقى من الحكمة، فقد يصل إلى الحكمة من ليس على دين الإسلام، أما الرشد فهو الوصول إلى أن «لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

وهذه الملكات الأربع الكسبية تسمو فوق العقل الوهبي، ولا يرقى إليها - أو إلى إحداها - كثير من الناس، وبقدر ما تستنير هذه الملكات تصبح سمة غالبية على العقل، فيقال لصاحبه رجل حكيم أو رجل رشيد.

موقف القرآن الكريم من العقل

ولكى نستخلص موقف القرآن الكريم من العقل، نعرض ثلاثة نماذج من الآيات تدعونا إلى استخدام العقل وإلى التأمل، نحسب أنها كافية لعرض تصورنا عن هذه القضية⁽¹⁾:

أ- في تأمل الظواهر الكونية، يقول تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة].

(1) إن المتأمل لموقف الدارسين من قضية «العقل في أحاديث الرسول ﷺ» يجد اتجاهين بارزين. الاتجاه الأول يرى أصحابه أن الأحاديث التي نُسبت إلى الرسول ﷺ في العقل كلها موضوعة، ومن هؤلاء الإمام ابن الجوزي وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وغيرهم. والاتجاه الثاني يرى صحة بعض ما ورد في أحاديث العقل، ووضعوا في ذلك المؤلفات، ومن هؤلاء ابن أبي الدنيا، وداد بن المحبر وميسرة والسجزي.

وللخروج من هذا الموقف، رأينا الاكتفاء في موضوع (نظرة الإسلام إلى العقل) بآيات القرآن الكريم ففيها من البيان والتفصيل ما يُنزل العقل منزلته.

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْأَرْضَ الْبَحْرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد].

ب- في تأمل الأنفس البشرية، يقول تعالى:

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الذاريات].

﴿ سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

ج- وفي تأمل الظواهر الاجتماعية، يقول تعالى:

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُنُونَ مِنَ الْكٰذِبِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الروم]

يمكن من تأمل الآيات الكريمة السابقة - وغيرها - أن نستخلص عدة مفاهيم حول موقف القرآن الكريم من العقل، أهمها:

أولاً: الثقة التي يوليها القرآن الكريم للحواس، بحيث تكون معطياتها هي منطلق التفكير والتدبر للاستدلال على الصانع المنعم. ويدل هذا على وثاقة الارتباط بين الحواس والعقل.

ثانياً: الوضوح والبساطة فيما تأمر به الآيات من عمليات التفكير والتدبر والتعقل، كأنها أمور لا تحتاج إلى تفكير عميق أو بحث غامض أو تحليل معقد (كمنهج الفلسفة والمنطق وعلم الكلام)، وإنما هي تدرك إدراكاً مباشراً أشبه ما يكون بالبداهات العقلية.

ثالثاً: يمثل العقل ميزة فريدة وضعها الله عزَّجَلَّ في الإنسان؛ به يعرف ثم يعمل، ومن هنا كانت مسؤولياته.

رابعاً: أن العقل الذي يتحدث عنه القرآن الكريم ليس عقلاً مجرداً، أو جوهرًا قائماً

بذاته (كما يعتقد الفلاسفة)، وإنما هو ظاهرة أو طاقة أو ملكة تمثل قدرة إلهية في الإنسان، ليستعملها في حدود رسمها له ونبيه إليها. لذلك فالعقل الإنساني عقل واع بطاعة الله عزَّجَلَّ، يلتزم طواعية بما يأمر به.

خامساً: إن العقل البشري لا يصلح أن يكون حكماً في كل شيء، ويتوجه هذا الحُجْر إلى ثلاثة أمور:

1- أمور لا يدركها العقل الإنساني، كالذات الإلهية، فليس مما يعرفه العقل شيء يماثلها، حتى يمكن أن يقيسها عليه.

2- أمور لا تدخل في حدود الطبيعة البشرية المحدودة، كحقيقة الروح.

3- أمور لا تلزم للنهوض بوظيفة الإنسان في الوجود؛ كالغيب المحجوب عن العلم البشري، ومثاله موعد يوم القيامة.

ويبين الحق سبحانه كيف ينبغي تلقى مثل هذه الأمور، التي هي فوق مدركات البشر:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ۗ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران].

وفيما عدا هذه الأمور، فالعقل البشري مدعو للتدبر والتفكير والاعتبار، والتطبيق في عالم الضمير وعالم الواقع في إطار منهج الإسلام. وما من دين - أو منهج وضعي - احتفل بإيقاظ الإدراك البشري، وإطلاقه من قيود الوهم والخرافة، وصيانته في الوقت ذاته من التبدد، كما فعل الإسلام.

سادساً: ينبغي أن يتحرك العقل من أجل ثلاث غايات متداخلة متلازمة: غاية إيمانية، وغاية معرفية، وغاية سلوكية حياتية. ومجال حركته ثلاثة جوانب متداخلة: الظواهر الكونية، والأنفس، والظواهر الاجتماعية.

إن المنهج الذي يرسمه القرآن للعقل للنظر والتدبر، هو الانتقال من الجزئيات إلى الكلّيات،

أو تحليل الكليات إلى جزئياتها ثم الانتقال إلى التركيب (الخروج بمفاهيم جديدة)، أو أي طريقة أخرى يكتشفها العقل لنفسه دونما قيد عليه أو حَجْر. معنى ذلك أن القرآن الكريم يحفز العقل البشري إلى النظر في الآفاق والأنفس والمجتمعات بأى منهج علمي، مهما تعددت المناهج ومهما تسمت العلوم بأسماء متشابهة أو متباينة.

سابعاً: يقرر القرآن الكريم أن من يعطل طاقة العقل الممنوحة له ينزل إلى مرتبة دون مرتبة الحيوان الأعجم.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال].

كما يقرر القرآن أن جزاء معطل العقل هو السعير.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [١٠] فَأَعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْحًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [١١]

[الملك]

ثامناً: لم يكتف القرآن الكريم بِحَثِّ العقل على العمل وترك التقليد والجمود، لكنه أثار أمامه عدداً من المسائل والقضايا الحيوية، وعالجها كمنادج لما ينبغي أن يكون عليه أداء العقل. وأهم هذه القضايا الاستدلال على خالق الكون دون وقوع في المحذور؛ الذي هو البحث في كنه الله وفيما اختص به نفسه. ومن هذه القضايا أيضاً الخلافات الجوهرية مع أرباب الملل والنحل الأخرى، كدعوى ألوهية عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

تاسعاً: ربما كانت أقرب الإشارات لموضع عملية التعقل هي قول الحق عزَّجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج]، فالآية تشير إلى أن للقلب (الذي في الصدر) دوراً في عملية التعقل. وتتفق الآية مع معارفنا العلمية، إذ إن الشواهد العلمية الحديثة تتجمع منذ قرابة ثلاثة عقود على أن لهذا القلب دوراً في المنظومة المعرفية والشعورية والإيمانية للإنسان⁽¹⁾.

وبعد هذا العرض لموقف القرآن الكريم من العقل، أتساءل: أمن سوء الفهم أم من سوء القصد أن يُرمَى القرآن الكريم بأنه معوق للفكر مقيد لحرية، أو القول بأن الدعوة للنظر

(1) راجع الجديد حول هذا الموضوع في كتاب «رحلة عقل»، للمؤلف - الفصل السادس. الناشر: نيويورك للنشر والتوزيع، 2017.

العقلي عند فلاسفة العرب كانت محاولة لتكميل القرآن في الجانب الذي قَصَرَ فيه!؟ لاشك أن تلك دعاوى باطلة.

العقل بين القرآن واللغة

لجأ اللغويون إلى القرآن الكريم ليجمعوا من آياته المعاني المقصودة بالعقل، وكذلك المرادفات اللغوية التي تشير إليه وتتفرع منه:

يُطلق «التعقل» في القرآن الكريم واللغة ويراد به معان كثيرة، منها: **الثبت في الأمر، والإمساك والاستمساك، والامتناع.** يقال: عَقَلْتُ الناقة، إذا منعتها من السير. ومن هذه المعاني **الشد،** يقال عَقَلَ الرجل، إذا كف نفسه وشدّها عن المعاصي. وكل ما ذُكر من معان أخرى يندرج تحت ما سبق ولا يزيد عليه، ومن هذه المعاني:

الحِجْر: ورد مرة واحدة، وقيل للعقل حِجْر لك ون الإنسان في مَنَعَة به مما تدعو إليه نفسه ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ٥﴾ [الفجر].

التهية: وردت مرتين بصيغة الجمع (التهى)، وهو العقل الناهى عن القبائح ﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ٥﴾ [طه].

الأحلام: يقال فيها ما قيل في الحِجْر والتهى ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَعْلَمُهُمْ بِهَذَا... ٣٢﴾ [الطور].

اللب: ورد بصيغة الجمع (أولو الألباب)، وهو العقل الخالص من الشوائب. واللب نوع راق من العقل البشري، يمتاز بالرفعة والخصوصية ﴿... فَأَتَقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا... ١٠﴾ [الطلاق]

الفؤاد والقلب: قد يراد بـ «الفؤاد» و «القلب» العقل والإدراك والتفهم والاعتبار، وقد يراد بكل منهما معنى خاص به. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج] - ﴿... إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ٣٦﴾ [الإسراء]. وقد ورد القلب في القرآن الكريم أكثر من مائة وثلاثين مرة، وورد كل من الفؤاد واللب ست عشرة مرة.

وبالنظر في الآيات الواردة فيها ما سبق من الاصطلاحات، يمكن أن نقول، إن العقل يطلق

في اللغة العربية ويراد به جانبان؛ جانب سلوكي أخلاقي، وهو الجانب العملي، وهذا الجانب يطلق عليه «الحجر» و«التهية» و«الحلم». وجانب إدراكي نظري، وهو ما يراد بـ«اللب» و«القلب» و«الفؤاد».

ونفهم من سياق الآيات أيضًا أن القلب واللب والفؤاد مستويات إدراكية يختلف بعضها عن بعض. فالفؤاد هو غشاء القلب، واللب سويداؤه وحبته. ويمكن الإشارة إلى ما أختص به القلب وهو الفقه، وما أختص به اللب وهو التذكر، وما انفرد به الفؤاد وهو الرؤية.

من الجولة اللغوية السابقة، يتضح أن القرآن الكريم يتبنى مفهومًا يعتبر أن الإنسان قد رُوِّد بجهاز إدراكي معرفي بالغ التعقيد، يقوم بوظيفتين رئيسيتين هما؛ الإدراك والمعرفة والعلم، والإيمان وما يتصل به من عاطفة ووجدان وإرادة، وأن جوهر هذا الجهاز هو العمليات العقلية.

ونختم جولتنا مع العقل البشري بشيء مما ذكر حول قول الحق عزَّ وجلَّ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ﴾ (١) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿١﴾ [النازعات]: مَنْ الذِي خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ؟

هل الجسم؟ لا، فلا قبل له بهذا.

هل الروح؟ لا، فتوجهاتها واهتماماتها علوية.

إذًا، لا يكون إلا العقل.

3 - القلب ...

ينظر الإسلام إلى القلب في الإنسان كالمملك بين الرعية، وكالسيد بين أتباعه، وبهذا وردت أحاديث رسول الله ﷺ التي منها: «.. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»⁽¹⁾.

وفي اللغة، القلب: عكس القالب، فهو بمنزلة اللب من القشرة. والقلب: هو تحويل الشيء عن وجهه. وقلِّب الأمور بمعنى بحثها ونظر في عواقبها. وتقلَّب في الأمور وفي البلاد أى تصرف فيها كيف شاء. ويقول العرب: جئت هذا الأمر قلبًا أى محضًا لا يشوبه شيء.

(1) من حديث النعمان بن بشير - متفق عليه.

وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، فقال له أصحابه وأهله: يا رسول الله أتخاف علينا وقد آمننا بك وبما جئت به؟ قال: إن القلوب بيد الله عزَّجَلَّ يقلبها» (1).

وقد يُعبرُ بالقلب عن العقل، فالعرب تقول: ما قلبك معك؟ وما لك قلب؟، وأين ذهب قلبك؟ وهم يقصدون عقلك.

والقلوب في القرآن الكريم على ثلاثة معانٍ:

الأول: الروح أو النفس، في قوله تعالى ﴿... وَبَلَّغْتَ الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ...﴾ (١٠) ﴿[الأحزاب]، فعبّر عن النفس الحية بالقلب.

الثاني: العقل، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٧) ﴿[ق].

الثالث: حقيقة القلب الذي في الصدر، كما ورد في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٤٦) ﴿[الحج].

ويبين الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين - باب العلم - أن القلب قلبان، الأول هو ذلك العضو العضلي الصنوبري الشكل القابع في تجويف الصدر، وهو المسئول عن ضخ الدم، والثاني هو القلب الذي تُنسب إليه الوظائف المعرفية والشعورية والإيمانية. ثم يبين أن بين هذين القلبين علاقة وتعلُّق.

وفي القرآن الكريم، ليرى ذكر للقلب كعضو محوري في الدورة الدموية ومسئول عن ضخ الدم، بينما جاء ذكره 131 مرة مشيراً إلى وظائف عاطفية Emotional أو عقلية منطقية Rational (2).

(1) أخرجه أحمد في مسنده.

(2) عن كتاب «وظائف القلب بين القرآن والطب» تأليف أ.د. فؤاد يحيى أحمد - أستاذ التشريح بكلية الطب - جامعة عين شمس.

وظائف القلب العاطفية والمنطقية

إذا نظرنا إلى الوظائف العاطفية التي تُنسب للقلب، كما وردت في آيات القرآن الكريم، وجدناها تتأرجح بين الخير والشر. فمن أمثلة الأوصاف الحيرة، وصف القلب بأنه «قلب سليم»⁽¹⁾، و«قلب منيب»⁽²⁾، و«قلب وجِل»⁽³⁾، و«قلب مُخْتِ»⁽⁴⁾، و«قلب خاشع»⁽⁵⁾ و«قلب لين»⁽⁶⁾. كما تصف الآيات القرآنية القلب بأنه موضعاً لـ «التقوى»⁽⁷⁾ و«الإيمان»⁽⁸⁾ و«السكينة»⁽⁹⁾ و«الرأفة والرحمة»⁽¹⁰⁾، و«الاطمئنان»⁽¹¹⁾ و«الهداية»⁽¹²⁾ و«الخير»⁽¹³⁾. كما يصف القرآن الكريم القلب بأنه قابل لـ «التأليف مع القلوب الأخرى»⁽¹⁴⁾.

(1) ﴿إِلْمَنْ أَمَى اللَّهُ قَلْبَ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء].

(2) ﴿مَنْ حَسِبَ الرَّحْمَنَ بِالْعَيْبِ وَجَاءَ قَلْبَهُ مُنِيبٌ﴾ [ق].

(3) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال]

[الأنفال]

(4) ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج].

(5) ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ...﴾ [الحديد].

(6) ﴿اللَّهُ زَلَّ الْحَدِيثَ كَلْبًا مُنْشِئَهَا مَنَافَىٰ نَفْسٍ مِّنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ...﴾ [الزمر].

(7) ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْطِمْ شَعْبِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج].

(8) ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾ [الحجرات].

(9) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ...﴾ [الفتح].

(10) ﴿ثُمَّ فَتِنَا عَلَىٰ ءَأْدِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنَةٌ يُسْتَدْعُوهَا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا...﴾ [الحديد].

(11) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الزمر].

(12) ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِمْ﴾ [التغابن].

(13) ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال].

(14) ﴿وَءَاعِظُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرُّقُوا وَءَاذَكُرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ ءَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَءَأَصْبَحْتُمْ بِبِعْمَتِهِ إِخْوَانًا...﴾ [آل عمران].

ولـ «التطهير»⁽¹⁾ ولـ «الإصغاء = الاستماع والاستجابة للحق»⁽²⁾ وقابل لـ «الامتحان»⁽³⁾.

ومن صفات الشر التي يمكن أن تصيب القلب، كما جاءت في القرآن الكريم؛ إمكانية اتصافه بـ «الغلظة»⁽⁴⁾ و «الغفلة»⁽⁵⁾ و «الغيظ»⁽⁶⁾ و «القسوة»⁽⁷⁾ و «الغل»⁽⁸⁾ و «الارتباب»⁽⁹⁾ و «النفاق»⁽¹⁰⁾ و «إنكار الحق»⁽¹¹⁾ و «اللهو»⁽¹²⁾ و «التعصب»⁽¹³⁾ و «التشتت»⁽¹⁴⁾. وفي مجال الشر أيضًا يصف القرآن الكريم بعض القلوب بأنها قابلة لـ «المرض»⁽¹⁵⁾ و «الزيغ عن الحق»⁽¹⁶⁾ و «تقبل الضلال والتمسك به»⁽¹⁷⁾ و «اكتساب الإثم»⁽¹⁸⁾ و «الارتعاب من الحق»⁽¹⁹⁾

- (1) ﴿... وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ...﴾ (٥٧) ﴿[الأحزاب].
- (2) ﴿إِنْ نُوَبِّأُ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا...﴾ (٤) ﴿[التحريم].
- (3) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٣) ﴿[الحجرات].
- (4) ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾ (١٣٨) ﴿[آل عمران].
- (5) ﴿... وَلَا تَطِيعُ مَنْ أَعْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨) ﴿[الكهف].
- (6) ﴿وَيَذْهَبُ عَيْظٌ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٥) ﴿[التوبة].
- (7) ﴿ثُمَّ فَسَّتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً...﴾ (٧٦) ﴿[البقرة].
- (8) ﴿... وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٦١) ﴿[الحشر].
- (9) ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَزْوَاجٌ قُلُوبُهُمْ فَهَرَّتْ فِي رَبِّبِهِمْ يَنْرَدُّونَ﴾ (١٥) ﴿[التوبة].
- (10) ﴿فَاعْقِبْهُمْ نَسَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ، بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧) ﴿[التوبة].
- (11) ﴿إِلَهَکُمْ اللَّهُ وَوَحْدَهُ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢) ﴿[النحل].
- (12) ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النُّجُوى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هُنَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ...﴾ (٧) ﴿[الأنبياء].
- (13) ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ...﴾ (٦١) ﴿[الفتح].
- (14) ﴿...تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١١) ﴿[الحشر].
- (15) ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (١٠) ﴿[البقرة].
- (16) ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨) ﴿[آل عمران].
- (17) ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ ثَبَتَهُمُ اللَّهُ وَتَلَّاهُمْ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَتَّى وَقَوْلُهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥٥) ﴿[النساء].﴾ ... رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨٨) ﴿[يونس].﴾

- (18) ﴿... وَلَا تَكْفُرُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْفُرْهَا فَإِنَّهُ إِذَا مَاتَ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٧٨) ﴿[البقرة].
- (19) ﴿سَتَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ...﴾ (١٧١) ﴿[آل عمران].

و «الاشمزاز من الحق»⁽¹⁾ و «اكتساب المعاصي»⁽²⁾ و «تعمد الخطأ»⁽³⁾ و «الانشغال عن الحق»⁽⁴⁾ و «الغرق = غمرة»⁽⁵⁾ و «الحجب = الرين والحتم والأكنة»⁽⁶⁾ و «التكبر والتجبر»⁽⁷⁾.
وتنقسم الوظائف العقلية المنطقية التي ينسب القرآن الكريم إلى القلب القيام بها، إلى ما هو «خير» وما هو «شر». ومن أمثلة ما هو خير: «تَقْبَلُ الْوَحْيَ»⁽⁸⁾ و «التفقه»⁽⁹⁾ و «عقل الأمور»⁽¹⁰⁾ و «التدبر»⁽¹¹⁾ و «التذكر»⁽¹²⁾ و «محل النية: الحسنة والسيئة»⁽¹³⁾. ومن أمثلة الوظائف العقلية السيئة: «العمى عن الحق»⁽¹⁴⁾ و «التمرد على الحق»⁽¹⁵⁾ و «الاجتماع على الباطل»⁽¹⁶⁾ و «تبييت الباطل»⁽¹⁷⁾.

- (1) ﴿ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ شَمَّرَتْ قُلُوبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ... ﴾ [الزمر].
- (2) ﴿ لَا يُوَاقِدُكُمْ اللَّهُ بِاللَّعْنَةِ فِي أَنْفُسِكُمْ وَلَكِنْ يُوَاقِدُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة].
- (3) ﴿ ... وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب].
- (4) ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴾ [المؤمنون].
- (5) ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴾ [المؤمنون].
- (6) ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين]، ﴿ حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة]، ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي ذَاتِنَا وَقَدْ... ﴾ [فصلت].
- (7) ﴿ ...كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر].
- (8) ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ، عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة].
- (9) ﴿ وَتَلَقَّى دَرَجَاتٍ لِحَبْرَتِكَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْدَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف].
- (10) ﴿ أَفَأَنْتُمْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَعْلَمُونَ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج].
- (11) ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَعَوَاتِ أَرَأَيْتَ قُلُوبَ أَقْفَالِهَا ﴾ [محمد].
- (12) ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق].
- (13) ﴿ ...وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ [الأحزاب].
- (14) ﴿ ... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج].
- (15) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُهُ مُخَشِّرٌ ﴾ [الأنفال].
- (16) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِلُنَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ شَتَّاهْتُمْ قُلُوبَهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة].
- (17) ﴿ ... وَيَسْتَعِزُّ بِاللَّهِ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَيَمَجِّصُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران].

سبحان الله، أيقوم القلب بكل هذه المهام، في المجالات العاطفية والعقلية المنطقية، الخَيْر منها والشرير؟ أكاد أجده مستؤول عن سلوك الإنسان كله، ذلك السلوك الذي يدخله الجنة أو يورده المهالك. والغريب - بعد ذلك - معظم المهتمين بدراسة الذات الإنسانية، سواء من الأقدمين أو المعاصرين، يسقطونه من تصنيفاتهم، ولا يعدونه عنصرًا من عناصر الذات الإنسانية!

أقسام القلوب

تبعًا للصفات التي ذكرها القرآن الكريم، والتي طرحنا فيما سبق أمثلة منها، يمكن تقسيم القلوب إلى أربعة أنواع:

1- قلوب المؤمنين:

جاء وصف قلوب المؤمنين في القرآن الكريم في مواضع كثيرة بصفات عديدة، مدخلها الطُّهر، فشهادة التوحيد تطهر القلوب من رجس الوثنية ومن دَنَس الشرك، فإذا أقرت القلوب بالإيمان بـ«لا إله إلا الله، محمد رسول الله» كان في ذلك حياتها ونورها، فإذا قام العبد بالطاعات صُب في قلبه أنوارها، فازداد لينا، وخشوعًا، وإخباتًا، ووجلاً لله رب العالمين.

2- قلوب الكفار والمنافقين:

وهذه القلوب تتدرج في الضلال، حتى تصبح قلوبًا «أقسى من الصخر»، وذلك لمرضها وبعدها عن الإيمان، وسيرها في طريق الضلال. ومن هذه المراحل أن تصبح القلوب «في غمرة»⁽¹⁾، كأنها غرقت في بحار اللهو، والغفلة، والحيرة، والضلال. فإذا امتلأت هذه القلوب بالظلام طفح ذلك على خارجها، وتبدأ آثار ذلك بـ«الرين»، فإذا ازداد، «طبع» الله عليها، فصارت «في غلاف مخنوم». ثم جاء وصف «الأكنة» وهي الحجب الكثيفة الحائلة بين القلب وبين الهدى، وهذه الصفات تدل على أن مرض هذه القلوب صار خطيرًا لا شفاء له، فالظلام عم القلب داخله وخارجه، مما يُسلمه إلى الوصف التالي:

(1) الغمرة هي الماء الكثير المُغْرِق.

3- القلب الميت:

وكما أن الأجسام تمرض وتموت، فكذلك القلوب، تمرض بالجهل وتموت بالكفر والنفاق، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۗ ﴾ [الروم]. والقلوب الميتة تعمي عن رؤية الحق: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۗ ﴾ [الحج] هذا من ناحية الاعتقاد، أما من ناحية التعامل مع الدنيا، فالقلب الميت واقف عند شهواته تملكته الدنيا فأصبح أسيراً لها، استنذله الهوى فصار عبداً له، واحتنكه الشيطان فصار له تابعاً وخادماً، واتخذهُ ولياً ونصيراً، فهو عابد لشیطانهِ في الحقيقة.

وعن القلوب الميتة يقول صاحب الحكيم⁽¹⁾: موت القلب سببه ثلاثة أشياء: حب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله، وإرسال الجوارح في معاصي الله. وعلامة موته ثلاثة أشياء: عدم الحزن على ما فات من الطاعات، وترك الندم على ما فعل من الزلات، وصحبة الغافلين الأموات. وسبب حياة القلب ثلاثة أشياء: الزهد في الدنيا، والاشتغال بذكر الله، وصحبة أولياء الله.

4- القلب المريض:

قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا... ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ... ﴾ [المائدة].

ويصف حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ القلب المريض بأنه: «قلب تمده مادتان، مادة إيمان ومادة نفاق، وهو لما غلب عليه منها». ويشرح ابن القيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذا الوصف قائلاً: «ففيه من محبة الله تعالى، والإيمان به والإخلاص في تحصيلها، كما أن فيه من الحسد، والكبر، والعُجب، وحب العلو، والفساد في الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه. لذلك فهو ممتحن بين داعيين، داع يدعو إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعو إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه أباً، وأدناهما إليه جواراً، فهذا القلب إما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى»⁽²⁾.

(1) ابن عطاء الله السكندري، صاحب الحكم العطائية.

(2) إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان لابن قيم الجوزية.

هل القلب مجرد مضخة للدم؟

ما ذكرناه من وظائف معرفية وشعورية وإيمانية للقلب (منها ما هو خير ومنها ما هو شر) إنما هو نماذج من كثير ورد في القرآن الكريم. وهي في نفس الوقت تمثل كما كبيراً من الوظائف العليا التي اعتدنا أن ننسبها إلى المخ فقط، فهل كلمة العلم حاسمة في أن القلب لا يشارك في هذه المهام، أم أن هناك جديداً في هذا المجال؟

نجيب عن هذا السؤال المهم، بأنه خلال الربع الأخير من القرن العشرين حدث انفجار معرفي في علوم القلب، فقد توالى الاكتشافات التي أظهرت أن القلب ليس مجرد مضخة للدم و فقط، بل إنه يشارك في نشاطات الإنسان المعرفية والشعورية. ويتم ذلك من خلال التأثير على قيام المخ بتلك المهام، أي أن علاقة القلب بالمخ ليست علاقة العبد بالسيّد، بل إن السيادة بينهما تبادلية، هذا بالإضافة إلى دور يمارسه القلب بصورة مباشرة مستقلة عن المخ. ويمارس القلب مهامه تلك من خلال أربع آليات: كهربومغناطيسية، وعصبية، وكيميائية (هورمونات)، وميكانيكية⁽¹⁾.

وبالرغم من صدور العديد من الدراسات حول هذا الموضوع من عدد من المراكز والشخصيات العلمية المحترمة، فإن ما تجمع حتى الآن هو شواهد تفتح الباب أمام تقبل فكرة وجود دور للقلب في المهام المعرفية والشعورية والإيمانية. ولا شك أن المجال ما زال مفتوحاً للمزيد من الأبحاث قبل وضع منظومة علمية متكاملة حول هذا الموضوع.

4- الروح⁽²⁾ ...

الروح أشرف عناصر الذات الإنسانية وأزكاها، وهي خصوصية الإنسان التي يتميز بها على جميع الكائنات. وقد فتح نفخ الروح للإنسان المجالات العلوية، فأصبح قادراً على التعامل

(1) لتفاصيل هذا الأمر وأدلته العلمية، راجع كتاب «رحلة عقل» للمؤلف، الفصل السادس - نيويورك للنشر والتوزيع، 2017.

(2) أطلق لفظ الروح في المقام الأول على النفخة الإلهية في آدم ثم في الجنين، ثم أطلق بعد ذلك بأربعة معانٍ أخرى؛ فهو جبريل عليه السلام، وهو الوحي أو القرآن، وهو آية من آيات الله في خلقه، وهو رحمة الله عز وجل. وأشير هنا إلى ما ذكرته في نهاية حديثي عن الجسد، من أن الروح ليست هي مصدر الحياة، ولكن الحياة ظاهرة بيولوجية تشترك فيها جميع الكائنات الحية.

مع عوالم الضمير والإيمان والعدالة والرحمة والجمال والفن، لقد أصبح الإنسان بتلك النفخة سيداً عالمياً كونياً أبدياً. وفي ذلك يخاطب الحق عزَّجَلَّ ملائكته قائلاً: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ﴾ (٢١) [الحجر]، وهذه الخصوصية استحق الإنسان الخلافة من الله عزَّجَلَّ في الأرض. وقد أدركت خصوصية الروح جميع الديانات والحضارات اللامادية حتى اعتقد الكثيرون أنها هي (وحدها) جوهر الإنسان.

وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً

إن قول الحق عزَّجَلَّ: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) [الإسراء] لا يعنى النهي عن التفكير والبحث في الروح وماهيتها، لكن الآية تشير إلى أننا لن نصل إلا إلى القليل عنها، وقد فهم الكثير من العلماء هذا المعنى، فأفردوا كتباً للحديث عن الروح، وربما كان من أشهرها كتاب «الروح» لابن قيم الجوزية. وسنعرض الآن ما في أيدينا من هذا القليل:

أولاً: لا شك أن أى تعريف للروح سيكون قاصراً وعاجزاً عن نقل تصور كامل عنها للإنسان، لذلك نكتفى بالقول إن الروح ملكة لا مادية، تتعلق بجسم الإنسان بأسلوب يختلف من حين لآخر، وهى باقية خالدة بعد موت الجسد.

والدليل على بقاء الروح بعد الموت، قول الحق عزَّجَلَّ: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ﴾ [الأنعام].

أى أننا مردودون إلى الله عزَّجَلَّ بعد موت الجسد.

ويرى الإمام الغزالي؛ أن معرفة حقيقة الروح ممكنة للخاصة من الأولياء والراسخين في العلم، ويُحرم على من له إمام بشيء من ذلك التصريح به لغير أهله.

ثانياً: استشهد الفلاسفة المسلمون القائلون بوحدة الوجود على مفاهيمهم (الخاطئة) بقول الحق عزَّجَلَّ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...﴾ (٧٢) [ص]، ويعتبرون أن إضافة الروح إلى الله عزَّجَلَّ «روحي» تعنى أنها جزء من ذات الله (حاشا لله). ولدفع هذا الرأى نقول:

إن الإضافة نوعان؛ إضافة صفات لا تقوم بنفسها، كأن أقول علمي وكلامي وسمعي ويدي، وهذا المعنى ننكره في هذا الموضوع، والإضافة الأخرى إضافة أعيان منفصلة، كأن أقول بيتي ورسولي، وهذه هي الإضافة المقصودة في «روحي»، والغرض منها التخصيص والتشريف والتكريم. ومن هذا نستنتج أن الروح ليست قديمة أزلية، فلا قديم أزلي إلا الله، لكنها مخلوقة حادثه، ف﴿... اللَّهُ خَلَقُ كُلَّ شَيْءٍ ۖ ﴿١١﴾﴾ [الرعد].

ثالثاً: عن أوان نفخ الروح في الإنسان، يقول الحق عز وجل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]، معنى ذلك أن نفخ الروح يتم بعد مرحلة معينة من نشأة جسد الجنين. ومن هذه الآيات نفهم أن الإنسان يكون مشابهاً للثدييات في أطوار مبكرة من نشأته، إلا أنه في مرحلة معينة، يختلف عنها ويصبح كائنًا متميزًا (خلقًا آخر)، نتيجة لنفخة الروح التي تتم بعد انقضاء أربعة أشهر من حياتنا الجنينية، كما جاء عن رسول الله ﷺ⁽¹⁾.

لذلك يرى الكثيرون من الفقهاء أن الجنين قبل تمام الأربعة أشهر الأولى في الرحم لا يكون بشرًا، وإذا سقط ومات لا يُصلى عليه ولا يُطلق عليه اسم. أما بعد نفخ الروح فيكون بشرًا، وإذا أجهض ومات يُطلق عليه اسم ويُصلى عليه قبل دفنه، لأنه سيُبعث يوم القيامة.

رابعًا: تختلف الآراء حول تعلق الروح بالجسم إلى مجموعتين، الأولى ترى أن الروح «متحيزة» في الجسم، تجرى من الخلايا مجرى الدم. وترى المجموعة الأخرى أن الروح «غير متحيزة»، لكنها تتواصل مع الجسم كما تتواصل الشمس بأشعتها مع الأرض. وسواء كانت الروح متحيزة أو غير متحيزة، فإن لها تعلق بالجسم يختلف من حين لآخر، على ست هيئات في فترات متتالية:

1- يبدأ تعلق الروح بالجنين منذ نهاية الشهر الرابع من الحمل، كما ذكرنا.

(1) في صحيح البخاري ومسلم، حديث رواه زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ: «إن أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا، يؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح...».

2- تعلق الروح بالجسد بعد الولادة، وهو تعلق أتم وأكمل من تعلقها بالجنين، وتتواصل الروح مع الوجود عن طريق الجسم، وعن طريقه تتعلم طوال حياته الدنيوية.

3- تعلق الروح بالجسد أثناء النوم: عند النوم تفارق الروح الجسد (بشكل ما)، وتُرد إليه (بشكل ما) عند الاستيقاظ. ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾ [الزمر] (1).

4- تعلق الروح بالجسد بعد الوفاة: تظل الروح متعلقة بالجسد بدرجة ما وبشكل لا يعلمه إلا الله عزَّجَلَّ (2).

5- تعلق الروح بالجسد عند البعث: عندما يبعث الله تعالى الأجساد التي في القبور، تنطلق كلُّ روح إلى جسدها وتتعلق به. والإنسان في آخرته يجادل عن نفسه، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت روحه ونفسه وعقله على اتصال وثيق بجسده وقت البعث والحساب، انظر إلى قول الله عزَّجَلَّ ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس].

6- والصواب أن الروح ترافق صاحبها في الجنة، إن كان من أهل الجنة، ولا ترافقه في النار إذا كان من أهل النار.

خامساً: إذا كنا نتلقى مع مَنْ نُحِبُّ - ومع مَنْ نَكْرَهُ - في هذه الدنيا، بالأجساد والأرواح، فهل تتلقى الأرواح إذا فارقت الأجساد؟

1- تلاقى أرواح الموتى: ذكر الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه «الروح»، أن أرواح الموتى تتلقى وتتراور وتتذاكر. وقيل للنبي ﷺ: ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا. فإنك إذا مت، رُفِعَتْ فوقنا فلا نراك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ

(1) للمزيد عن علاقة الروح بالجسد في أثناء النوم، انظر الفصل التالي بعنوان «أنا... والموت».

(2) يُسْتَدَلُّ على ذلك بحديث صحيح مسلم في قتلى بدر من المشركين حين كلمهم رسول الله ﷺ قبل دفنهم في القليب وقال لهم: «هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني الله حقاً» فقال له عمر: كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يردوا عليَّ شيئاً». كما ورد عن رسول الله ﷺ: «أن الميت يسمع وقع أقدام مشيعيه»، عن حديث رواه الإمام مسلم.

اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٦﴾ [النساء].

2- تلاقى أرواح الأموات وأرواح الأحياء: أخبر الله تعالى عن الشهداء أنهم أحياء عند ربهم يُرزقون، وأنهم يستبشرون بما ينقله لهم من لم يلحقوا بهم (نقلًا عن رسول الله ﷺ) من أنه لا خوف عليهم ولا حزن. وذلك يعنى أن أرواح الأموات تتلاقى مع أرواح الأحياء، وغالبًا ما يكون ذلك عند نوم الأحياء ومفارقة أرواحهم لأجسادهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿٣١﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران].

كذلك تُعتبر الرؤى الصادقة من أدلة التقاء أرواح الأحياء والأموات في المنام، فيسأل الحَيُّ الميت، فيخبره بما لا يعلم. والرؤى الصادقة أقسام، منها إلهام يلقيه الله تعالى في قلب العبد في المنام، ومنها التقاء روح النائم بأرواح الموتي أو الأحياء من أهله ومن غيرهم. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ كثير من الأحاديث الصحيحة التي تتعلق بالرؤى والأحلام.

سادسًا: إذا كان النفي أحد وسائل المعرفة، نشير إلى بعض المفاهيم الخاطئة عن الروح، والتي ذكرها أبو النصر السراج الطوسي⁽¹⁾ في كتابه «اللمع»، عسى أن تقربنا من إدراك الحقيقة:

«وقد غلط أقوام وتاهوا في الحديث عن الروح؛

فقوم قالوا: الروح نور من نور الله، فتوهموا أنه نور ذاته فهلكوا.

وقوم قالوا: الأرواح مخلوقة، وروح القدس من ذات الله تعالى.

وقوم قالوا: أرواح العامة مخلوقة، وأرواح الخاصة ليست بمخلوقة.

وقوم قالوا: الأرواح قديمة، إنها لا تموت ولا تعذب ولا تبلى.

(1) اللمع لأبي النصر السراج الطوسي (554-555 هـ)، أعد الكتاب الإمام الشيخ عبد الحلیم محمود شيخ الجامع الأزهر الأسبق رحمه الله. وفي مقدمة الكتاب، يصف الدكتور عبد الحلیم محمود السراج الطوسي بأنه: أعظم مؤلف صوفي في تاريخ التصوف.

وقوم قالوا: الأرواح تتناسخ من جسم إلى جسم.

وقوم قالوا: الروح خَلق من النور.

وقوم قالوا: الروح روحانية خُلقت في الملكوت، فإذا صفت رجعت إلى الملكوت.

وقال آخرون: الروح روحان: روح لاهوتيه، وروح ناسوتيه.

ثم يضيف الطوسي، «والذي عليه أهل الحق - والله أعلم - أن الأرواح مخلوقة، وهي أمر من أمر الله، ليس بينها وبينه تعالى سبب ولا نسبة، غير أنها من ملكه وطوعه وقبضته، غير متناسخة، ولا تخرج من جسم فتدخل غيره، وتذوق الموت كما يذوق البدن، وتنعم بتنعيم البدن، وتُعذب بعذابه، وتُحشر في الجسد الذي تخرج منه».

5 - النفس ...

النفس عنصر من عناصر الذات الإنسانية الخمسة، ولا يخلو فيلسوف من كلام عنها، لأنها أقرب الأشياء إلينا، ومع ذلك فهي شديدة الغموض. وقد اختلف الفلاسفة هل النفس من قوى العقل، أم أن العقل من قواها. واختلفوا؛ هل النفس هي الروح أم أنها جوهر قائم بذاته، واختلفوا.... واختلفوا.... واختلفوا....

والنفس في القرآن الكريم وجود غير مادي. وإذا كانت أسرارها من الغيبات، فإن القرآن الكريم يخبرنا الكثير عن دورها وكيفية التعامل معها في 295 موضعًا، فكان لها نصيب من الذكر أكبر من الروح بكثير. وبالرغم من ذلك، تتباين آراء علماء الدين - مثل الفلاسفة - حول النفس تباينًا كبيرًا؛ لذلك سنركز هنا على الخطوط العريضة حولها، وعلى من يبغى المزيد الرجوع إلى الكتب المتخصصة.

النفس والروح؛ ثنائية أم واحدية؟

يشير القرآن الكريم (والأحاديث النبوية الصحيحة) إلى النفس بمعنيين: الإنسان ذاته، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُنَّ مِنَ الْأَفَّاكِعِلُونَ﴾ [البقرة، ٤٤]، والمعنى الثاني - وهو المقصود في هذا البحث - أن النفس أحد المكونات

الخمس للذات الإنسانية. وفي هذا المعنى انقسم العلماء إلى قسمين رئيسيين؛ يرى أحدهما أن النفس هي الروح بعد أن نُفِخَتْ في الجسد، فاكْتَسَبَتْ صفات أخرى ودورًا آخر. ومن أوائل من تبنوا هذا الطرح الفقيه المالكي والعالِم الغوي «أبو قاسم السُهَيْلي»⁽¹⁾. فهو يرى أن الروح عندما لا بست البدن صارت نفسًا، أي صارت جوهرًا آخر، وصارت قابلة للمدح والذم، بخلاف الروح التي هي خير مطلق. وَيُشَبَّه الإمام السُهَيْلي تحول الروح إلى نفس بالماء، إذا سُقِيَ به نبات العنب صار عصيرًا للعنب، يتفق مع الماء في أوجه، ويخالفه في أوجه. لذلك فالروح تسمى نفسًا (مجازًا) باعتبار ما استؤول إليه، والنفس تُسمى روحًا (مجازًا) باعتبار ما نشأت عنه.

أما الرأي الثاني، فيرى أن النفس جوهر مختلف عن الروح، وأنها قد نُفِخَتْ في الجسد عندما نُفِخَتْ الروح، كما أنها تفارقه مع مفارقة الروح. وتبعًا لهذا المفهوم تتحرك النفس بين قطبي الإنسان؛ سماء الروح وأرض البدن، أي أن الروح والبدن مجالان تتحرك بينهما النفس (والعقل أيضًا).

وتحتمل آيات القرآن الكريم الرأيين السابقين، رأى السُهَيْلي ونظرية المجالين، ولكنها أكثر انسجامًا مع الرأي الأول، فالقرآن الكريم ما أن يذكر الروح ونفخها في البدن لا يعد يذكرها مرة أخرى، بل حديثه دائمًا عن النفس. كذلك ليس هناك آية واحدة تذكر أن الروح تُقبَض، بل القبض يقع دائمًا للنفس، وما جاء في بعض الأحاديث عن قبض الروح يخالفه القرآن الكريم.

وسواء كانت الروح والنفس ذاتا أصليين مختلفين من البداية، أو كان أصل النفس هو الروح بعد أن نفخت في الجسم، فقد صار بينهما اختلافًا يَبِينًا. فالروح خير مطلق بينما قد تكون النفس أمانة بالسوء، وقد تسعد بلذات الدنيا بينما تسعد الروح وتتألق بالحرمان منها. وإذا كانت النفس هي مستودع مشاعر الإنسان ورغباته ودرجة إيمانه، فالروح هي سر حقيقة الإنسان ووعيه وخلوده. وأخيرًا، إذا كانت النفس تُحاسب وتُجازى يوم القيامة، فالروح لا تُحاسب ولا تُجازى، فهي خير محض.

وإذا أردنا أن نحدد الدور الأساسي للنفس تجاه منظومة الذات الإنسانية، لخصنا ذلك في جملة قصيرة، وهي أن:

(1) طرح هذا الفهم في كتابه «نتائج الفكر»، قبل ابن القيم بثلاثمائة سنة، ونقله عنه ابن كثير، ويتبنى هذا الرأي الإمام الشيخ الشعراوي.

النفس محل التكليف والاختيار

قال تعالى: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعًا...﴾ (٣٨١) [البقرة]، وقال: ﴿...لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتْنَاهَا...﴾ (٧) [الطلاق]، فالنفس هي محل التكليف الذي لا يكون إلا على قدر ما آتاه الله من الوسع ومن العطاء. ولما كانت النفس هي المُكَلَّفَة صارت المسئولة عن تصرفات الإنسان من أقوال وأفعال، وعلى قدر ما كسبت واكتسبت يكون الثواب والعقاب، كما تشير إلى ذلك الآيات المباركات: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ...﴾ (١٧) [غافر]، ﴿... وَوَفَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٥) [آل عمران].

إن الإنسان إذا عرف نفسه، وأدرك قدرها، فقد حاز الخير كله، وإذا غفل عن حقيقتها، فقد ظلمها، وأوردها موارد التهلكة، ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ (٣٧) ﴿وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٣٨) ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٣٩) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ (٤٠) ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٤١) [النازعات]، ﴿...فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ. وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا...﴾ (١٠٨) [يونس].

ثم إن من اهتدى إلى صفات نفسه من العبودية، وسلك بها لمعرفة كمالات الربوبية، وَجَّهَ اللهُ عَرَبِيَّ نِعْمَةٍ إِلَيْهِ. فإذا علم الإنسان أنه متصف بالفقر وشدة الحاجة، أدرك أن الله تبارك وتعالى غني عن العالمين. ومن علم أنه متصف بالضعف وقلة الحيلة، أدرك أن الله هو القوي وأن جميع خلقه مفتقر إليه. ومن كانت صفته الذل أيقن أن العزة لله وحده ولرسوله وللمؤمنين. ومن كانت صفته الخوف علم أن الأمن عند الله، وأن الطمأنينة والسكينة في تمام العبودية لله. ومن أدرك أن الفناء سيلحقه، أيقن أن الباقي هو الله وحده. وبذلك صار: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»، فمن اهتدى فإنما يهتدى لصفات نفسه ومعرفة ربه، ومن ضل فإنما يضل عن نفسه وعلى نفسه، فيهوى بها في الجحيم.

علاقة النفس بعناصر الذات الإنسانية

إذا أردنا أن نضع تصورًا إسلاميًا لعلاقة النفس ببقية عناصر الذات الإنسانية، وجدنا أن الدنيا قد مثلت بالمتاع الذي تعددت صورته، وتوجهت إليه النفس. فالعين تشاهد وتراقب صور الجمال المرئي، والأذن تستقبل صور الجمال السمعي، وكذلك الذوق، واللمس، وحاسة

الشم، وتصيب جميع هذه المشاهدات في النفس فتفعل بها وتتأثر، فيُنتج ذلك «عزماً» تبعاً لهوى النفس ورغباتها، وقرره «كخاطر» إلى القلب. والقلب إما قلب سليم في حضور مع الله وعلى ذكر وطهارة، أو قلب مُغلّف بآثار الذنوب وظلمات المعاصي. ويصل ما تجمع في القلب من خواطر النفس إلى العقل، فإما يجد القلب عند العقل ما يعقل به النفس ويردها عن هواها، أو يجد تشجيعاً وتأييداً لخاطر النفس، وتذليلاً للصعاب التي تعترض طريق المعصية، ومن هنا ينتقل العزم إلى مرحلة «إرادة» ثم «تنفيذ» الفعل، فتأتي الأوامر والتعليمات من العقل مطابقة لما استقر عليه القلب.

وملخص ذلك أن الإنسان يعلو على جسده بنفسه ثم قلبه، ويعلو عليهما بعقله، ويعلو على عقله بروحه، وتظل هذه العناصر المكونة للذات الإنسانية الواحدة في تدافع لا ينفصم أبداً.

صور من معاصي النفس

ويبين القرآن الكريم، أن النفس تقترف العديد من المعاصي، ينجح العقل في كبح بعضها، ولا ينجح مع البعض الآخر. وعقيدتنا أن الحسنة عطاء من الله، بينما النفس مصدر السيئات، وهى التى تكتسبها؛ قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ...﴾ (٧٨) [النساء]، وبالتالي يعود الوزر عليها؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ...﴾ (١١١) [النساء].

فالنفس هى محل الكبر والعتو؛ قال تعالى: ﴿... لَقَدْ أَشْتَكَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (٦١) [الفرقان]. والنفس محل الهوى والرغبات والشهوات؛ قال تعالى: ﴿... إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ...﴾ (٢٣) [النجم]. لذلك فهى التى تسول لصاحبها المعاصي؛ قال تعالى: ﴿... وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (٦٦) [طه]. كذلك فهى أداة المرادة؛ قال تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ النَّفْسُ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ...﴾ (٢٣) [يوسف].

ومن أشد الآثام ظلم المرء لنفسه، والشرك أكبر الظلم؛ قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ...﴾ (٣٥) [الكهف]. وتعدى حدود الله من أكبر صور ظلم المرء لنفسه، قال تعالى: ﴿... وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ...﴾ (١) [الطلاق].

وكذلك نجد النفس شحيحة بخيلة؛ قال تعالى: ﴿...وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ...﴾ (٢٨) ﴿محمد﴾، وقد جعل الله تبارك وتعالى النجاة في توقي الشح؛ قال تعالى: ﴿...وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١) ﴿الحشر﴾.

أثر الطاعات على النفس

تعود كل أعمال الخير التي يتزكى بها المرء على نفسه؛ قال تعالى: ﴿...وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ... وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨) ﴿فاطر﴾. كذلك فإن شكر الإنسان لنعم الله سبحانه وتعالى يعود أثره على النفس، قال تعالى: ﴿...وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَّبِّي عَنِّي كَرِيمٌ﴾ (٤٠) ﴿النمل﴾.

وثواب الجهاد وأثره لا يعود على الأمة الإسلامية ككل ولا على عزة الأوطان فقط، وإنما يعود أيضاً على النفس، فللنصر ورفعة الإسلام حلاوة، وهزيمة الباطل وذل أتباعه فرحة، كما أن للمجاهدين المكانة العليا والمنزلة السامية في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿...وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ... إِنَّ اللَّهَ لَعَنِيَّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٦) ﴿العنكبوت﴾.

وكان المسلم قد اشترى جنة الله تعالى ببيعته نفسه وماله لله تعالى؛ يقول سبحانه: ﴿...إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ...﴾ (٣١) ﴿التوبة﴾، فالشكر، والجهاد في سبيله، وتزكية النفس عن أدرانها، والإيثار، تجعل الإنسان يشترى (١) نفسه ابتغاء مرضات الله، ولذلك كان ثواب تلك الطاعات الجنة.

سُنَّةُ اللَّهِ مَعَ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ

لم يترك الله تبارك وتعالى الإنسان منفرداً ضعيفاً مع نفسه تأمره بالسوء فيستجيب لها، بل لقد وضع فيه فطرة البحث عن الحق وأخذ عليه العهد بالإقرار بالربوبية، ثم عززه وأنار له الطريق، وأرسل له الأنبياء والمرسلين، يلقون الضوء على جوانب الحياة، حتى يأخذ الإنسان بأسباب نجاته، ولا يتوه في شعب الضلال، قال تعالى: ﴿...قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ... فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ... وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا...﴾ (١٠٤) ﴿الأنعام﴾.

(1) يشترى بمعنى يبيع، أي عكس يشترى.

كما بيّن الله تبارك وتعالى للإنسان ما يرتضيه لعودة المذنبين إلى عفوه وكرمه بعد إعراضهم عنه، فجعل التوبة والاستغفار من أكد الطاعات المقربة إليه والتي تفتح أبواب المغفرة والرحمة على عباده؛ فيقول عزّ من قائل: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١١٠ ﴾ [النساء]، كما لم يُقنط الله عزّ وجلّ من أسرف على نفسه، ولم يرده عن بابه، ولم يطرده من جنانه، بل جعل له سبيلاً إلى مغفرته ورضوانه؛ فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥٣ ﴾ [الزمر].

عوالم ومراتب النفس

كتب الإمام ابن قيم الجوزية عن النفس، وقال: إن للنفس أربع دور، كل دار منها أعظم من التي قبلها:

الدار الأولى: الجنين في بطن أمه.

الدار الثانية: الدار الدنيا، التي تكتسب فيها النفس الخير والشر، والسعادة والشقاء.

الدار الثالثة: دار البرزخ، وهي أوسع من دار الدنيا وأعظم.

الدار الرابعة: الدار التي لا دار بعدها، دار القرار والأجر، وهي الجنة أو النار.

والله تعالى ينقل النفس من هذه الدور، داراً بعد دار، ولها في كل دار حُكْم وشأن، غير شأن الدار الأخرى.

فالنفس في دار الحياة الدنيا، تكتسب سبع صفات، تدخل في صفة وتخرج من أخرى، تتدرج من مرتبة إلى مرتبة، أو قل سبعة أحوال، تخرج من حال وتدخل في حال أخرى.. وهذه الأحوال السبع: الأمانة، واللّومة، والمُلَهمة، والمطمئنة، والراضية، والمرضية، والكاملة. أما في البرزخ فليس للنفس هذه الأحوال والصفات. وأما يوم القيامة فتكون نفساً مطمئنة أو راضية مرضية، وهي نفوس أصحاب الجنة، أو تكون نفساً مجادلة، تجادل عن نفسها، وهذه نفس أهل المعاصي.

وقد فصّل القرآن الكريم ثلاثاً من هذه المراتب، وهي:

1- النفس الأمارة بالسوء: قال تعالى عنها: ﴿... إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ...﴾ ﴿٥٧﴾ [يوسف]، وهي أرذل أنواع النفس، فهي تدفع صاحبها إلى الإضرار بالغير، والإفساد في الأرض. وصاحب النفس الأمارة بالسوء إنسان صار الشيطان له قرينًا، يلهيها ويزين لها الخطأ، ويكره لها الصواب، ويفرش لها طريق طاعة الله بالشوك، ويفرش لها طريق المعاصي بالورد، فصارت تطيعه ولا تعصى له أمرًا.

2- النفس اللوامة: قال تعالى عنها: ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ ﴿٢﴾ [القيامة]، وهي نفس أشرف من الأولى؛ لأنها تندم وتلوم صاحبها على ما صدر منه من المعاصي.

3- النفس المطمئنة: قال تعالى عنها: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٧﴾ [الأنبياء]، وهي نفس مستقرة ثابتة على الحق، لا يخالجه شك؛ فقد استنارت بنور الإيمان، وتخلت بمكارم الأخلاق، وتخلت عن الأخلاق الذميمة. واطمئنان النفس يستمر ويزداد نورًا وأمانًا بذكر الله، كما قال تعالى: ﴿... أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ﴿٢٨﴾ [الرعد]، ويصحب اطمئنان القلوب اطمئنان النفوس والعقول.

وذكر الإمام أبو حامد الغزالي، أن للنفس الأمارة بالسوء أربعة ميول مختلفة، تؤدي بالإنسان إلى اختلاف تصرفاته، واختلاف ردود أفعاله. وهذه الميول هي:

- 1- نفس ذات ميول عدوانية، يميل صاحبها إلى العدوان على غيره.
 - 2- نفس ذات ميول بهيمية، يميل صاحبها إلى إشباع غرائز بدنه الحسية البهيمية.
 - 3- نفس ذات ميول تسلطية، يميل صاحبها إلى الكبرياء والغطرسة، وإلى حب الرياسة والتسلط على غيره.
 - 4- نفس ذات ميول شيطانية، يميل صاحبها إلى كراهية غيره من الناس وبغضهم، دون سبب معقول يدعو إلى ذلك.. بل ويتمنى الإضرار بالغير.
- وأصحاب تلك النفوس يثورون ويغضبون إذا لم يتحقق لهم مرادهم، ويهدأون ويستريحون إذا تحقق لهم ذلك.

ويرى الإمام أبو حامد الغزالي أن النفس البشرية تتنقل بين الدرجات والأحوال. فقد تسمو النفس الأمانة بالسوء، فتصير نفساً مطمئنة حيناً، وقد تصير نفساً لوامة حيناً، وقد تظل كما هي أمانة بالسوء، فالنفس البشرية لا تثبت على حال إلا إذا أراد الله تعالى لها الثبات.

القارئ الكريم

لعلك توافقني (بعد تلك الرحلة) أن فهم الذات الإنسانية لا يمكن أن يتم من خلال النظرات الجزئية للفرق المختلفة المهمة بالإنسان، فللماديين رؤية (تركز على الجسد) وللفلاسفة رؤية (تركز على العقل) ولعلماء النفس رؤية، وللمهتمين بالدراسات الروحية رؤية. ولا شك أن الطرح الحقيقي والشامل للذات الإنسانية هو طرح الله عزَّجَل الذي لا تتوقف صلته بالذات عند إنشائها، بل يتابعها في حياتها، ويكلفها، ويحاسبها، ويجازيها.

ويعتبر حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي أن حقيقة الذات الإنسانية هي فقط المكوّن الغيبي، وأن الجسد دابتها وليس عنصراً أساسياً فيها. كما يرى أن النفس والروح والعقل والقلب شيء واحد في الحقيقة، يختلف بالاعتبار. فإذا نظرنا إلى حياة البدن فهي الروح، وإذا نظرنا إلى الشهوة فهي النفس، وإذا نظرنا باعتبار آلة الفكر فهي العقل، وإذا نظرنا إلى موضع المعرفة فهي القلب.

ولعلك - قارئ الكريم - قد استنتجت من قراءتك لهذا الفصل، نقاط اختلافنا (على قلة شأننا) مع طرح شيخنا وأستاذنا حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي، وغيره من العلماء ممن يتبنون نفس الرأي.

فالإنسان - كما طرحنا - كائن حي عاقل مدرك، خالد أبدي، لا يفنيه الزمن. وهو كائن ثنائي، أنشأه الله عزَّجَل من مُكوّن غير مادي (الروح - النفس - العقل - القلب) ومُكوّن مادي (الجسد) دائم التجدد في الدنيا، ثم يتجدد في بداية الحياة الآخرة.

بذلك فالذات الإنسانية مكونة من خمسة عناصر أساسية، يختلف كل منها عن الآخر. فالنفس فيها النوازع النفسية، سواء كانت خيراً أم شراً، وقد تكون نفساً مطمئنة، أو نفساً لوامة، أو نفساً أمانة بالسوء.. وهي التي تفعل الخير وتفعل الشر، وهي التي تُحاسب. والقلب،

قريب من النفس في تباين نزعاته وأحواله؛ وإن كانت للنفس أشواق ليست للقلب، كذلك نُسبت للقلب في القرآن الكريم صفات تُعجز عن الحصر ولا تتصف بها النفس.

أما العقل، فهو الذى يوجه النفس، ويجعلها تختار بين البدائل، وتتعرف على الخير والشر، والحلال والحرام. فالعقل هو مناط التكليف فى الإنسان، ولولاه ما كان الإنسان مكلفاً بل صار مثل الدواب. أما الروح فهى الخير المطلق لا تخضع للمحاسبة والجزاء، وهى سر الخلود.

ويمكن تلخيص نظرتنا للعلاقة بين هذه العناصر الخمس للذات الإنسانية، فى أن جوهر الذات الإنسانية هو النفس، وأن الروح والعقل والقلب هى قوى النفس اللامادية، وأن الجسد هو قواها المادية.

ونختم طرحنا هنا برأى طريف لبعض الحكماء؛ فهم يرون أن للإنسان خمسة أعمار؛ الأول «عُمر الميلاد» كما يحدده تاريخ ميلاد الإنسان. والثانى «عُمر الجسم» تبعاً للحالة الصحية لمختلف أعضائه، فُرب شخص عمر ميلاده ستون عاماً أما حالته الصحية فتعادل حالة رجل فى الأربعينيات. والعمر الثالث هو «عُمر العقل» ويحدده ما اكتسبه الإنسان من خبرة ومعرفة وحكمة فى حياته. ثم «عمر القلب»، ويتوقف على إقبال الشخص على الحياة وما يعتمل فى قلبه من مشاعر، حتى قالوا الشباب شباب القلب.

وأخيراً يأتى «عُمر الروح» الذى لا يتقدم بتقدم الأعمار السابقة، فالروح خالدة لا يؤثر فيها مرور السنين، بل تزداد تألقاً بمرور الوقت وتقدّم العناصر الثلاثة السابقة فى العمر، إذ بتقدم عمر الميلاد تضعف هذه العناصر التى تمثل حُجُباً على الروح.

وبهذا يصبح لكل عنصر من عناصر الذات الإنسانية عمره الخاص به.



الفصل العاشر

أنا .. والموت

- مفهوم الموت في الحضارات الإنسانية

- الطب والموت

□ مستويات موت المخ

□ حقيقة الحياة بعد موت المخ

□ التوصيف الطبى لمراحل الموت

- الدين والموت

□ الحياة غير الروح

□ حياة الإنسان بالمنظور الدينى

□ موت الإنسان بالمنظور الدينى

□ الفرق بين الوفاة والموت

- أعلنونى ميتًا

□ رأى الإسلام بخصوص موت المخ

- تأملاتى مع الموت

□ حقيقة الموت

- أنا بعد الموت

□ الحياة فى البرزخ

□ أنا فى الحياة الأخرى

- طبيعتى فى الجنة

- القارئ الكريم

لا شك أن الموت حق⁽¹⁾، وأنه مصير كل حي ولو كان رسولاً أو ملكاً مقرباً، وهو يصير الجبابرة بنفس السهولة التي يصير بها الأقرام، ويقهر المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء بسواء. وإذا حضرت ساعة الموت فلا دافع لها، ولا رجعة إلى الحياة من بعدها، ولا يمكن لمخلوق - أيًا كان - أن يُقدّم لحظة الموت أو يؤخرها عما قدره الله لها: ﴿... فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ١١﴾ [النحل].

وقد كان الرسول ﷺ يحض دائماً على ذكر الموت؛ «أكثر وأذكر هازم للذات»⁽²⁾، ذلك لأن المؤمن الذي يرقب الموت تكون أعماله نقية طاهرة؛ لأنه يعلم أنه مُقبل على الله تعالى لا محالة، وأن الله يرصد أعماله ويحصيها عليه. ولكن ينبغي أن ندرك أن ذكر الموت والاستعداد له لا يتعارض مع الدعوة إلى عمارة الكون ودفع عجلة الحياة، فعن الرسول ﷺ أنه قال: «إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»⁽³⁾.

وينظر العلم المادى إلى الإنسان باعتباره جسداً تدب فيه الحياة، التي هي ظاهرة بيولوجية صرفة. كما يفسر العلم إدراكنا لذواتنا الإنسانية، وجميع ما تقوم به هذه الذوات من مهام، بأنه راجع لنشاط أمخاخنا المادية فقط، ولا يشارك فيها عنصر غيبي (الذي هو الروح عند المتدينين).

أما المنظور الديني، فيرى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق جسد آدم من عنصر مادى هو مادة الأرض، ثم سَوَّاهُ؛ أى أمدّه بالإمكانات الجسدية التي توَهله لِنَفْخِ الرُّوحِ فيه ليتحمل الأمانة،

(1) مراجع هذا الفصل: كتاب «الوفاة الإكلينيكية وعلاقتها بخروج الروح» للأستاذ د. صلاح الدين سند، أستاذ أمراض النساء والتوليد، بكلية الطب، جامعة القاهرة.
كتاب «رحلة في الملكوت» للأستاذ د. عماد الشربيني (رحمه الله) عميد كلية الحقوق ونائب رئيس جامعة طنطا سابقاً.

(2) الحديث أخرجه الترمذى وصححه الألبانى.

(3) رواه البخارى فى الأدب المفرد، وأحمد.

وأهم هذه المؤهلات هو المخ المتطور الذي يُظهر أهم أثر من آثار نفخ الروح في الإنسان وهو العقل المفكر الذي يَعمرُ الأرض، ويتعرف على الله سبحانه وتعالى.

مفهوم الموت في الحضارات الإنسانية

رغم أن الناس يعرفون الموت والحياة بالمعايشة والمشاهدة، إلا أن تعريف الموت - مثل تعريف الحياة - يكتنفه كثير من الصعوبات. مع ذلك فقد اتفقت جميع الحضارات الإنسانية بما فيها المصرية القديمة والبابلية والآشورية والصينية والهندية واليونانية، وكذلك الديانات السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، في أن الموت يصحبه مفارقة الروح للجسد.

وقبل تطور الحضارات الإنسانية كان الإنسان البدائي مقتنعاً بأن لكل كائن حي حياة أخرى دفينة في جوفه تنفصل عن الجسد عند الموت أو النوم، وقد عزز تلك الفكرة أنه رأى في منامه بعضاً من ماتو. وكان الإنسان البدائي يخشى أن تعود روح الميت وتصب لعنتها عليه، فكان يدفن مع الميت سائر حاجاته وألوان الطعام، أو يُترك للميت الدار التي مات فيها، وينتقل هو إلى دار أخرى. وكان بعضهم يُخرج الجثة من خلال فتحة يُحْدِثها في الجدار، ثم يدور بها حول الدار ثلاث دورات سريعة لكي تنسى الروح موضع مدخل الدار فلا تعاودها أبداً.

وجاء في بعض كتب الهند القديمة: «لا يُوقَظَنَّ نائمٌ إيقاظاً مفاجئاً؛ حتى لا تضل الروح طريقها إلى جسدها». وذلك يدل على أنهم اعتقدوا في مغادرة الروح للجسد عند النوم كما تغادره عند الموت.

ويعتقد الهنادة⁽¹⁾ والبوذيون⁽²⁾ والشنتو⁽³⁾ أن الروح تظل حبيسة في الجمجمة عند الموت، وأنها لا تنطلق إلا بعد حرق الجثة وانفجار الجمجمة، ويساعد اللهب المتصاعد الروح التي تتحرر على الصعود لأعلى. ثم إن الهنادة والبوذيين يعتقدون بتناسخ الأرواح، وأن الروح الشريفة تُعاد في جسد حقير مثل الكلب والخنزير، وتظل في تلك الدورات حتى تتطهر، بينما

(1) الهندوسية، ديانة يعتنقها قرابة مليار إنسان، يعيش معظمهم في شبه القارة الهندية.

(2) البوذية، هي وسط بين الدين والفلسفة، وتنتشر في الصين وبورما وتايلاند، ونيبال والتبت وسيلان.

(3) الشنتوية، ديانة اليابان، وتقدس قوى الطبيعة والوطن والإمبراطور والأبطال القوميين.

تتنقل الروح الصالحة في الأجساد الخيرة. وتصل الروح إلى السعادة الأبدية المطلقة، بالتحاقها بالروح الكلي (الإله) كما تعود قطرة الماء إلى البحر المحيط، وهي ما يطلقون عليها حالة «النيرفانا».

وإذا كانت الحضارات الإنسانية والديانات المختلفة قد انفقت على مغادرة الروح للجسد عند الموت، فقد اختلفت اختلافات شتى في كيفية خروج الروح وخلوصها من الجسد، وهل تعود إلى هذا الجسد أم تعود إلى جسد آخر؟

أما الملحدون بشكل عام فيعتقدون أن الموت يؤدي إلى فناء الجسد والنفس، ويؤمن بعض فلاسفتهم بـ«فلسفة التلاشي» التي تعتبر النفس مؤلفة من ذرات شأنها شأن الجسد، وعند الموت وبعد تحرر النفس من الجسد فإن كليهما يفسد، وتنحل وتتبعثر ذراتها ضمن الدورة الشاملة الكبرى للطبيعة؛ أي أن النفس تتبدد عند الموت.

الطب والموت

نحتاج قبل طرح نظرة الإسلام إلى الموت أن نتعرف عليه من وجهة النظر الطبية، ونمهد لذلك بوقفة مع علم الفسيولوجيا، المختص بدراسة وظائف أعضاء جسم الإنسان:

يحتوى جسم الإنسان على عدد من الأجهزة تُعرف بالأجهزة الحيوية، التي إذا توقفت أحدها عن العمل مات الإنسان خلال دقائق قليلة. وأهم هذه الأجهزة ثلاثة، وهي:

1- الجهاز التنفسي، الذي يستخلص من الهواء المحيط بنا الأكسجين اللازم لحرق الغذاء، لإمداد أنسجة الجسم وخلاياه بالطاقة الضرورية للحياة.

2- القلب، الذي يضخ الدم لتوصيل الأكسجين والغذاء اللازمين لحياة جميع أعضاء الجسم.

3- المخ، الذي يعطى الأوامر لحدوث التنفس وتنظيم خفقان القلب، بالإضافة لوظائفه العضوية والعقلية والنفسية الأخرى.

لذلك:

(أ) إذا توقف التنفس، تموت جميع أعضاء الجسم (بما فيها المخ والقلب).

(ب) إذا توقف القلب، تموت جميع أعضاء الجسم (بما فيها المخ وعضلات التنفس).

(ج) إذا توقف المخ، يتوقف التنفس، ويضطرب عمل القلب، ثم يتوقف.

من ذلك نرى أن حياة جسد الإنسان تعتمد على هذه الأجهزة الثلاثة الحيوية (الحياتية) الأساسية التي تعمل بطريقة تكاملية. لذلك يؤدي توقف الحياة في أى منها إلى توقف الحياة في الجهازين الآخرين، وبالتالي موت الجسم ككل. ويمكن تشبيه علاقة هذه الأجهزة الثلاثة بحياة الإنسان بكرسى ذى ثلاثة أرجل، إذا كسرت إحداها سقط الكرسي.

وفي أثناء عمليات القلب المفتوح، يُوقَّف القلب لمدة ساعتين أو أكثر، ولا يعنى ذلك أن الشخص قد مات؛ فوظيفة القلب تقوم بها مضخة تضخ الدم في جهاز يقوم بوظيفة الرئة. ثم يُعاد الدم إلى الجسم، وبالرغم من توقف القلب والتنفس فإن هذا الشخص حى بكل تأكيد.

مستويات موت المخ

يُفرَّق الطب بين موت الأجزاء المختلفة للمخ⁽¹⁾ كالآتي:

1- موت القشرة المخية، مع بقاء جذع المخ سليماً⁽²⁾: Cerebral Death

يؤدى ذلك إلى غيبوبة تامة، ولكن يظل الإنسان يتنفس وقلبه ينبض، ويستطيع أن يفتح ويُغمض عينيه ويحرك عضلات وجهه كرد فعل انعكاسي للمؤثرات المختلفة، كما يستطيع أن يبتلع الطعام. وهذه الحالة لا يعتبرها الأطباء موتاً للإنسان؛ لأنه يتنفس بدون أجهزة صناعية، وقلبه ينبض بدون الاعتماد على العقاقير. وقد أفاق بعض الحالات من هذه الغيبوبة بعد فترات قصُرت أو طالت. ويعيش الإنسان إذا أفاق بعجز مستديم حسب المراكز المخية التي ماتت؛ مثل الشلل الكلى أو الجزئي، أو عيوب في النطق أو قصور الذاكرة أو غيرها.

(1) Critical Care Medicine: American Society of Critical Anesthesiologists 2nd edition, 2004, by Lippincott Williams and Wilkins, philadelphia USA

(2) «القشرة المخية» في مخ الإنسان هي المسئولة عن نشاطاته الحركية والحسية والعقلية ووعيه. بينما يحتوى «جذع المخ» على المراكز الحيوية المسئولة عن تنظيم العمليات الحياتية الأساسية للإنسان، كالتنفس ووظائف القلب ودرجة حرارة الجسم وغيرها.

2- موت جذع المخ: Brian Stem Death

يؤدي ذلك مباشرة إلى الموت، بسبب توقف التنفس والدورة الدموية. وإذا تدخلنا سريعاً واستطعنا المحافظة على خفقان القلب بواسطة عقاقير تحقن وريدياً طوال الوقت بالإضافة إلى أجهزة التنفس الصناعي التي تضخ الأكسجين إلى الرئتين، يظل هذا الإنسان في غيبوبة، وذلك لانقطاع الإشارات العصبية التي يرسلها جذع المخ إلى قشرة المخ ليشارك بها في منظومة اليقظة، ويظل هذا الإنسان معتمداً على الأجهزة والعقاقير التي إذا توقفت توقف التنفس والقلب.

3- موت المخ الكلي: Whole Brain Death

يؤدي هذا بالطبع إلى الموت مباشرة، إلا إذا تدخلنا أيضاً سريعاً بأجهزة التنفس الصناعي والعقاقير التي تحافظ على خفقان القلب، وفي هذه الحالة يظل الإنسان في غيبوبة تامة وشلل، ويظل معتمداً كلياً على الأجهزة والعقاقير التي إذا توقفت توقف التنفس والقلب. وتُسمى هذه الحالة «موت الدماغ أو المخ» أو «الموت الإكلينيكي» وهناك شبه إجماع بين الأطباء على اعتباره موتاً للكائن الإنساني.

حقيقة الحياة بعد موت المخ

تعتمد حياة القلب وبعض أعضاء الجسم بعد موت المخ الكلي (وأيضاً موت جذع المخ) على أجهزة طبية خاصة وعقاقير معينة، ولا تُعتبر حياة إنسانية، فهي حياة صناعية بدون روح⁽¹⁾. بل إن هذه الحياة لا يمكن مقارنتها بحياة الجنين داخل الرحم قبل نفخ الروح فيه، وذلك لأن مخ الجنين يكون حياً، كما أن حياة أعضائه تعتمد على مدد وتعليمات تأتيه من جسم الأم الحى، وليس من أدوية وأجهزة صناعية. وأخيراً فإن حياة الجنين عادة ما تتطور للحياة الإنسانية الكاملة، بينما توقّف المخ التام عن العمل توقف نهائي لا رجعى، ويعقبه دائماً فشل بقية الأجهزة الحيوية، ولا يمكن للحياة ولا للروح أن تعود إليه مرة أخرى.

ويطلق الطب الحديث على بعض حالات موت المخ الكلي تعبير «الحياة النباتية Vegetative Life»، ولكن الحقيقة أن الحياة الصناعية بعد موت المخ لا ترقى إلى حياة النبات الذاتية، التي

(1) سنشرح هذا المعنى بعد قليل.

تعتمد حياة أعضائه المختلفة بعضها على بعض؛ بينما هذه الحياة لا تقوم بذاتها، ولا يكتمل بعضها بعضًا. وإنما هي خلايا وأعضاء منفردة تنظم عملها عقاقير وأجهزة طبية.

التوصيف الطبى لمراحل الموت

ذكرنا أن الطب يعتبر الموت فشل الجسم كجهاز تكاملي، وعلامته التوقف النهائي للأجهزة الحيوية في الجسم، وأهمها الدورة الدموية والتنفس والجهاز العصبي. ويسجل الطب مرحلتين للموت:

المرحلة الأولى: «الموت الجسدى أو الموت الإكلينيكي» Somatic Death

وهو نفس المفهوم السابق، أى توقف أجهزة الجسم الحيوية عن العمل، فلا يعود الإنسان إلى الحياة مرة أخرى. وعلامات هذه المرحلة: توقف التنفس، توقف نبضات القلب، انفتاح العينين واتساع وتوقف حركة حدقة العين، ارتخاء عضلات الوجه مما يسبب سقوط الفك السفلي، وبعد فترة يحدث تسطح أجزاء الجسم الملاصقة للسرير أو للأرض، ثم يلي ذلك برودة الجسم حتى تصبح درجة حرارته معادلة لدرجة حرارة الوسط المحيط، وتغير لون الجسم إلى لون أزرق نتيجة لركود الدم في الشعيرات الدموية.

المرحلة الثانية: «الموت الخلوى أو الموت الجزيئى» Molecular Death

يعقب الموت الجسدى تحلل الخلايا والأنسجة وأعضاء الجسم كل على حدة. وتستمر أعضاء الجسم وخلاياها في الحياة (بدون تواصل بين بعضها البعض) لفترات تختلف من عضو لآخر، حتى يتم استهلاك المتبقى داخلها من الغذاء والأكسجين. فخلايا المخ تستمر في الحياة حتى سبع دقائق، وخلايا القلب حتى عشرين دقيقة، وخلايا الكليتين حتى ثلاثين دقيقة، وخلايا الأطراف (اليدين والقدمين) تستمر في الحياة حتى ست ساعات، بينما تستمر خلايا القرنية والعظام والأوتار والجلد في الحياة حتى اثنتى عشرة ساعة.

وخلال هذه الفترة، إذا نقلنا أى نسيج أو عضو من هذه الأعضاء قبل موته الخلوى أو الجزيئى إلى جسد إنسان آخر فإنه يستطيع أن يحيا في الجسد الجديد لسنين عديدة. أى أن

لكل نسيج أو عضو فترة صلاحية يمكن استخدامه فيها⁽¹⁾، وإلا تعفنت خلاياه وتحللت إلى عناصرها الأولية. وهذا يثبت أنه برغم توقف الحياة في الجسد ككائن حي متكامل - وهو ما يطلق عليه الطب «الموت الجسدي» - فإن ذلك لم يأخذ معه الحياة من الخلايا والأنسجة والأعضاء المنفردة، والتي تستطيع أن تكمل حياتها لساعات في جسد الميت، ثم لسنين طويلة تحت إمرة وفي خدمة جسد وروح جديدين.

الدين والموت

يبين لنا القرآن الكريم أن «الموت هو المقابل أو النقيض للحياة»، ويظهر هذا جلياً في مقابلة الموت بالحياة في أكثر من ستين موضعاً في القرآن الكريم⁽²⁾. ومن أمثلة ذلك:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ...﴾ (٢) ﴿[الملك].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣٣) ﴿[الأنعام].

﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ (٤٠) ﴿[القيامة].

الحياة غير الروح

نمهد لعرض المنظور الديني للموت بأن نوكد أن الحياة غير الروح، وحول هذا المعنى قال فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى «إن الذين يقولون إن الحياة هي الروح مخطئون، فالنبات به حياة، يمكن أن نسميها «نامية نباتية»، فالنبات فيه نمو وفيه حركة وفيه أشياء نعرف منها أن النبات حي، وإذا توقفت الحياة فإن النبات يذبل ويموت. والحيوان به حياة (نامية حيوانية)، لكن وظائف هذه الناميات الحيوانية غريزية لا تستخدم العقل في توجيهها، فمثلاً إذا ضربت

(1) مثال ذلك، زراعة «قرنية العين»، فبعد تشخيص الموت بساعات عديدة (تصل إلى اثنتي عشرة ساعة) نستطيع أن نأخذ قرنية من جثة الميت، ونقوم بنقلها إلى جسد إنسان آخر يحتاج إليها، كما يمكن حفظ هذه القرنية كنسيج مستقل لمدة تصل إلى أسبوع أو أكثر في درجة حرارة منخفضة (أربع درجات مئوية)، بل ونستطيع الاحتفاظ بحيويتها في مزارع نسيجية لمدة طويلة تصل إلى ثلاثين يوماً. وليست القرنية فحسب، بل أصبحت عمليات نقل القلب والكلى والكبد من العمليات الجراحية الشائعة.

(2) سواء بالمصدر الصريح، أو المصدر الميمي، أو اسم الفاعل، أو الزمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

القطة فلا إجابة لك عندها إلا الخربشة، أما الإنسان فيختار من بين بدائل متعددة باستخدام العقل والفكر».

ويضيف الشيخ الجليل: «إن سر الإنسانية هو زيارة الملك للجنين ونفخ الروح فيه، وهي حمل الأمانة والتكاليف الشرعية، وذلك بالاختيار بعقله بين البدائل المختلفة».

ومما يؤكد الطبيعة المختلفة للروح عن حياة الجسد هو مغادرة الروح للجسد أثناء النوم، وبالرغم من ذلك فالنائم ليس ميتاً، بل إن كل أعضاء جسده في حياة تامة، فهو يتنفس وقلبه ينبض. وقد بين القرآن الكريم والحديث الشريف باللفظ الصريح أن النوم هو شبيه الموت، وأن اليقظة من النوم هي شبيهة البعث، وذلك لكي نتعظ ونوقن بالبعث، ولكي نطبق كثيراً مما يحدث في أثناء النوم على الموت. وقد فهم جُل علماء المسلمين من قديم هذا المعنى، واتفقوا على تعريف حالة النوم بأنها حالة «الموت الأصغر»، وأن النوم هو «شقيق الموت».

ودليل مفارقة الروح الجسد في أثناء النوم نجده في الآتي:

1- يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر]. وقد اتفق جمهور العلماء على أن الأنفس المذكورة في الآية تعني أرواح الناس، وأن التوفى - كما سنرى بعد قليل - معناه قبض الروح.

2- يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ... ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام].

3- دعاء النوم عن الرسول ﷺ «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»⁽¹⁾. وكذلك دعاؤه ﷺ إذا أوى إلى فراشه: «باسمك اللهم أموت وأحيا»، وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»⁽²⁾.

4- قصة نوم الرسول ﷺ وأصحابه وهم راجعون من غزوة خيبر حتى طلعت الشمس

(1) الحديث: أخرجه البخارى ومسلم.

(2) الحديث: أخرجه البخارى، ومسلم.

ففاتتهم صلاة الصبح، فعندما قام قال لأصحابه: «إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء»⁽¹⁾.

حياة الإنسان بالمنظور الدينى

مما سبق، نخرج بأن حياة الإنسان - بالمنظور الدينى - تتكون من مرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة خلق جسد الجنين وتسويته ووجود الحياة في خلاياه، والحياة موجودة في سائر الكائنات الحية وليست في الإنسان وحده.

المرحلة الثانية: مرحلة نفخ الروح في الجنين بعد تسويته، وتستمر حتى وفاته. وهذه المرحلة خاصة بالإنسان وحده دون سائر المخلوقات.

معنى ذلك أن الحياة والروح أمران ضروريان لحياة الكائن الإنساني، وكل منهما يؤثر في الآخر ويتأثر به. فالكتمال تسوية جسد الجنين وحياته شرط لازم لنفخ الروح فيه، كما أن حياة الإنسان ترتبط بوجود الروح في جسده فإن غادرته الروح نهائيًا توقفت حياة الإنسان.

موت الإنسان بالمنظور الدينى

وبما أن الموت هو نقيض الحياة، فإنه يتكون أيضًا من مرحلتين، هما:

1- مغادرة الروح للجسد.

2- توقف الحياة (الموجودة أصلًا في الجسد قبل نفخ الروح).

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو: عند الموت، هل مغادرة الروح للجسد وتوقف الحياة يحدثان معًا، أم أن أحدهما يسبق الآخر؟

من الأدلة التالية، سنرى أن مغادرة الروح للجسد تسبق توقف الحياة في الإنسان ككل، وفي أعضائه وأنسجته وخلاياه.

الدليل الأول: هو دليل منطقي، يعتمد على مبدأ أن «نقض البناء يكون عكس مراحل

(1) الحديث: أخرجه البخارى ومسلم.

إقامته»، وعند تطبيق هذا المبدأ على مرحلتى خلق الإنسان، نجد أن الجنين منذ كان نطفة هو كائن حي، ثم تُنفخ فيه الروح عند مائة وعشرين يوماً⁽¹⁾، وإذا كان الموت هو نقيض الحياة، فالأرجح أن تغادر الروح الجسد عند الموت أولاً ثم تتوقف الحياة بعد ذلك.

الدليل الثانى: هو دليل تجريبي، يعتمد على إمكانية نقل بعض أعضاء الإنسان الحيوية بعد بضع ساعات من موته إلى جسد جديد، حيث تظل حية لسنين طويلة. وهذا يثبت أنه بالرغم من أن الروح قد غادرت الجسد، فإن الأعضاء الحيوية والأنسجة تظل حية لساعات في جسد الميت مما يسمح بنقلها، أى أن قبض الروح يسبق توقف الحياة.

الدليل الثالث: دليل الرواية، وهو ما يُعرف بـ «أحاديث شخوص البصر عند الموت» وفيها يُخبر الرسول الكريم ﷺ أن البصر عند الموت يتبع - أو يَشَخَّصُ إلى - الروح أو النفس، أى أن الروح تفارق الجسد وهو ما زال حياً، وهى ثلاثة أحاديث:

1- دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره (شَخَّصَ) فأغمضه. ثم قال: «إن الروح إذا قَبِضَ تبعه البصر»⁽²⁾.

2- قال الرسول ﷺ: «إذا حضرتم موتاكم فأغمضوا البصر، فإن البصر يتبع الروح...»⁽³⁾.

3- قال رسول الله ﷺ: «ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره؟». قالوا: بلى. قال: «فذلك حين يتبع بصره نفسه»⁽⁴⁾. وفي شرح النووى: قول الرسول ﷺ «شَخَّصَ بصره»: أى: ارتفع ولم يرتد، وقوله ﷺ «يتبع بصره نفسه»: المراد بالنفس هنا الروح، ويؤكد الحديث أن الموت ليس بإفناء، وإنما هو انتقال وتغير حال وإعدام الجسد دون الروح.

الدليل الرابع: وهو دليل من القرآن الكريم، فأيات سورة الواقعة تتحدث عن مغادرة

الروح الجسد: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتَ حِينْدٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة].

(1) بالمعنى، من حديث أخرجه البخارى ومسلم.
 (2) رواه أحمد وأبو داود والحاكم، وصححه الألبانى.
 (3) رواه أحمد وابن ماجه، وحسنه الألبانى.
 (4) أخرجه مسلم.

وتبين الآيات حقيقتين:

الأولى: إن الخلق هو آخر جزء من الجسد تغادره الروح، وهذا نفهمه من أسلوب التحدى لأي شخص أن يستطيع إرجاع الروح إلى مستقرها داخل الجسد.

الثانية: إذا وصلت الروح إلى مستوى الخلقوم فهي قد تركت مستقرها داخل الجسد، وهذا نفهمه من كلمة «ترجعونها»، فالإرجاع يدل على أنها تركت مكانها الأصلي داخل الجسد. وهذا مثل قوله سبحانه: ﴿...إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة]، ولم يقل مثلاً «ذاهبون»، مما يدل على أن الأرواح ترجع لمكانها الأصلي عند الله سبحانه وتعالى.

ويقوم الحديث الشريف بتفسير هذه الحقيقة؛ فبين الرسول الكريم ﷺ أن الروح إذا وصلت الخلقوم فلا تقبل التوبة ولا تقبل الوصية⁽¹⁾، وقدرة الإنسان على التوبة والوصية تعني أنه ما زال حياً.

ونخلص من هذه الأدلة الأربعة، إلى أن الروح تغادر الجسم قبل توقف الحياة في جسم الإنسان (ككائن حي)، وفي خلايا وأنسجة وأعضاء الجسم منفردة. كذلك فإن الروح تركت مستقرها في الجسد قبل توقف الحياة في المخ وأعضاء التنفس والقلب، وهذه الأجهزة هي الأجهزة الحيوية التي إذا توقف واحد منها عن العمل مات الإنسان.

الفرق بين الوفاة والموت

من أجل أن نتبين الفرق بين الوفاة والموت بالمنظور الديني، يجب أن نتأمل آيات القرآن الكريم التي جاءت فيها الكلمتان باشتقاقاتها المختلفة⁽²⁾، وبتأمل هذه الآيات نتوصل إلى ست حقائق توضح الفرق في المعنى بين الكلمتين.

(1) (أ) جاء في الحديث الشريف: «إن الله عزَّ وجلَّ يقبل توبة العبد ما لم يُعْرَغر» الحديث: أخرجه الترمذي، وابن ماجه وأحمد في المسند، وحسنه الألباني. وقوله ﷺ «ما لم يعرغر»: بمعنى لم تبلغ روحه خلقومه، فإذا وصلت الروح للخلقوم فلا توبة.

(ب) وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق وأنت شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الخلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان» أخرجه البخاري. وقد جاء في شرح هذا الحديث الشريف: أوصيت بدفع الحقوق حيث لا تنفع وصيتك، فقد صار التصرف في مالك للورثة.

(2) المصدر والفعل واسم الفاعل.

الحقيقة الأولى: يُنسب الموت إلى الإنسان⁽¹⁾ وبقية الكائنات الحية⁽²⁾ وأيضًا الجمادات⁽³⁾.

الحقيقة الثانية: «الوفاة» لا تُنسب إلا إلى الإنسان⁽⁴⁾.

الحقيقة الثالثة: الوفاة أو التوفى ليس هلاك الجسد أو إهلاكه، فالوفاة تحدث أيضًا في أثناء النوم⁽⁵⁾:

الحقيقة الرابعة: الوفاة والموت شيان مختلفان، ولما كانت الوفاة هي قبض الروح، فلا بد أن يكون الموت شيئًا آخر⁽⁶⁾:

الحقيقة الخامسة: يتكون الموت من مرحلتين، هما قبض الروح ثم الموت الجسدي⁽⁷⁾:

الحقيقة السادسة: الموت (وليس الوفاة) هو المرحلة الأخيرة للإنسان في هذه الحياة الدنيا،

- (1) ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام].
- (2) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ... ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة].
- (3) ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا... ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة].
- (4) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمَنَّكُمْ مِنْ بَرٍّ إِنَّكُمْ لَأَنْذِلُ الْعُمُرَ لَكُمْ لِأَنْ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل].
- (5) ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيم_Sِيكُ الْتَى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر].
- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَاضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام].

(6) 1- ذُكِرَ الموتُ في ستين موضعًا في مقابلة الحياة، أما التوفى (قبض الروح) فيقابلة (نفس الروح).

2- عند مخاطبتنا لله سبحانه وتعالى طالبين الموت نقول «توفني» أو «توفنا»، ولم يرد في القرآن لفظ «أمتي» أو «أمتنا»، وذلك تادبًا مع الله، فالإماتة تحمل معنى الهلاك، أما التوفى فهو تحرر من سجن الجسد واللاحق بنعيم الله عزَّ وجلَّ. ﴿... رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف].

3- يخاطب الله عزَّ وجلَّ رسوله الكريم ﷺ بلفظ التوفى فقط ﴿وَأَمَّا رَبُّكَ بِعَظْمِ الَّذِي تُوَدِّعُهُمْ أَوْ تَنْوِيحُهُمْ فَإِتَيْنَا مَرْجِعَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس].

4- الاستثناء الوحيد في مخاطبة رسول الله ﷺ بلفظ الموت، في قوله تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر]. وهذا مقصود، لينقل لنا معنى أن كل شيء هالك إلا وجهه عزَّ وجلَّ.

(7) ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيم_Sِيكُ الْتَى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر].

لذلك فكل آيات القرآن الكريم التي تُذكر فيها أحداث ما بعد الحياة الدنيا تجيء بعد لفظ الموت، وليس لفظ الوفاة⁽¹⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن كثيراً من العلماء اتفقوا على إطلاق تعبير «الموت الأصغر» على النوم، والأكثر صواباً هو تسمية النوم بـ«الوفاة الصغرى» أو «وفاة النوم»، بينما تكون مغادرة الروح النهائية والمستديمة للجسد عند الموت هي «وفات الموت».

يتضح من هذه الحقائق أن التكريم الأساسي للإنسان وما حُمِّل من تكاليف شرعية يرجع إلى وجود الروح فيه، لذلك نرى أن الوزر الشرعي الأساسي والرئيسي على جريمة القتل يرجع إلى إزهاق هذه الروح (الوفاة) وليس إنهاء حياة الجسد (الموت)، الأمر المشترك بين جميع الكائنات الحية.

أعلنوني ميتاً⁽²⁾

إذا كان القرآن الكريم يبين أن الروح تفارق الجسد قبيل الموت، وإذا كان الطب لم يتوصل بعد إلى مفهوم الروح كعنصر غيبي في الذات الإنسانية، فمعنى ذلك أن كلاً من الدين والطب يعتبران موت الجسد هو نهاية الوجود الإنساني في هذه الدنيا. ولما كان الموت يعني توقف آليات الحياة⁽³⁾، فإن هذا أمر مادي يستطيع العقل والعلم الحديث البحث فيه وإدراكه.

وقد توصل الطب الحديث إلى حقائق مهمة بخصوص العلاقة بين موت الإنسان وموت المخ. فقد صار التشخيص المؤكد للموت الكلي للمخ ممكناً، كما أصبح من الممكن أيضاً الجزم بأن توقف المخ الكلي عن العمل (أو موته) هو توقف نهائي لا رجعي، وليس غيبوبة مؤقتة قد

(1) ﴿مُّمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرُوهٗ﴾ [عبس].

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَفِيهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف].

﴿أَبْعَدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون].

(2) من ناحية اللغة، مَيِّت بتشديد وكسر الباء تعني الإنسان القابل للموت، سواء كان حياً أو فارق الحياة، وكلنا ذلك الشخص. أما المَيِّت بسكون الباء فهو من مات بالفعل.

(3) أي توقف قدرة الخلايا على الحفاظ على وجودها، نتيجة لتوقف إمداد الغذاء والوقود والتعليمات اللازمة لعملها، مما يؤدي إلى توقف العمليات الكيميائية داخل الخلايا.

يفيق منها الإنسان. وإذا كان جذع المخ هو المتحكم في وظائف القلب والتنفس، فإن موت جذع المخ يؤدي مباشرة إلى توقفهما، أي إلى الموت.

لذلك أصبح الطب الآن يعتبر أن موت المخ هو موت للجسد أو هو موت الكائن الإنساني⁽¹⁾. وبالتالي إذا أثبت الطب موت المخ الكلي أو موت جذع المخ بالرجعة، فقد سبقه مغادرة الروح لجسم الإنسان، وبذلك تكتمل ظاهرة الموت من وجهتي النظر، العلمية والدينية.

ويتم تشخيص موت المخ (أي موت الإنسان) إكلينيكيًا (سريريًا) من خلال ثلاث علامات إكلينيكية [سريرية] يجب أن تجتمع معًا، وهي⁽²⁾⁽³⁾:

1- فقد الوعي، وفقد القدرة العضلية على الاستجابة للنداء على الشخص، وعدم التجاوب مع المؤثرات المؤلمة (مثل وخز الإبر) في الوجه⁽⁴⁾.

2- فقد القدرة على ردود الأفعال المنعكسة اللاإرادية، والتي يتحكم فيها جذع المخ (Brain Stem Reflexes)، وأهمها عدم ضيق حدقة العين عند تسليط الضوء عليها.

3- عدم وجود تنفس تلقائي بعد إيقاف جهاز التنفس الصناعي لمدة ثمان إلى عشر دقائق. وأحيانًا، تؤثر بعض العوامل على وظيفة المخ، وتؤدي إلى الإغماء المؤقت، مثل: انخفاض شديد في درجة حرارة الجسم أو هبوط شديد في ضغط الدم أو تعاطى أدوية معينة أو حالات السكر الشديد أو انخفاض مستوى سكر الدم. وفي مثل هذه الحالات يلزم التأكد من موت المخ بواسطة «اختبارات إضافية متخصصة»⁽⁵⁾.

(1) Critical Care Medicine: American Society of Critical Anesthesiologists 2nd edition, 2004, by Lippincott Williams and Wilkins, Philadelphia USA

(2) Critical Care Medicine: American Society of Critical Anesthesiologists 2nd edition, 2004, by Lippincott Williams and Wilkins, Philadelphia USA

(3) Brain Death Worldwide: Accepted fact But No Global Consensus on Diagnostic Criteria: Wijdicks .E., Neurology, 58:20- 25, 2002

(4) الوجه من المناطق التي يتحكم في عملها الأعصاب الجمجمية التي توجد مراكزها في جذع المخ.
(5) مثل عدم وجود أي دذبذبات في رسم المخ الكهربائي، واختبارات الجهد الكهربائي المشار (Evoked Potentials)، وتقنيات التصوير الإشعاعي المتقدمة، خاصة تلك التي تبين عدم تدفق الدم إلى المخ، ويضيف البعض عدم استجابة جذع المخ لحقن عقار الأتروبين.

ولا شك أن القرآن الكريم لم ينزل ليعلمنا كيف نحكم على موت الإنسان، وترك ذلك لأهل الذكر وهم الأطباء، وهذا ما قرره مجمع البحوث الإسلامية. ومع ذلك فإن المجمع قد حدد 4 علامات - استنبطها من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة - يُشخص وجودها مجتمعة موت الإنسان، وهذه العلامات تتفق مع رأى الطب، وهى:

- 1- توقف التنفس.
- 1- إحداد البصر: معناه شخوصه وثبات العينين⁽¹⁾.
- 3- انفراج الشفتين⁽²⁾.
- 4- سقوط القدمين فلا ينتصبان⁽³⁾.

رأى الإسلام بخصوص موت المخ

انعقدت دورتان للمنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت، الأولى عن «الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها» عام 1985، والثانية عن «التعريف الطبى للموت» عام 1996، وقد اعتبرت كلتاهما الإنسان ميتاً إذا توقفت جميع وظائف دماغه نهائياً عن العمل بما في ذلك جذع المخ.

وهذا أيضاً ما قرره مجمع الفقه الإسلامى التابع لمنظمة مؤتمر العالم الإسلامى المنعقد فى العاصمة الأردنية عمان عام 1986، ومجمع البحوث الإسلامية فى القاهرة عام 2009، فقد أفاد المجمعان أنه بعد التداول فى سائر النواحي التى أثرت حول أجهزة الإنعاش والاستماع إلى شرح مستفيض من الأطباء المختصين، أنه يسوغ رفع أجهزة الإنعاش المركبة على الشخص إذا حكم الأطباء الاختصاصيون الخبراء بتعطل جميع وظائف دماغه تعطلاً نهائياً لا رجعة فيه، حتى وإن كان بعض الوظائف - كالتنفس والقلب - لا تزال تعمل آلياً بفعل الأجهزة المركبة والعقاقير، ويُعتبر الشخص ميتاً شرعاً بعد توقف التنفس والقلب توقفاً تاماً بعد رفع هذه الأجهزة⁽⁴⁾.

- (1) يحدث ذلك بسبب موت مراكز الأعصاب الجمجمية (Cranial nerves) المسئولة عن حركة العين.
- (2) يحدث ذلك بسبب موت مركز العصب السابع من الأعصاب الجمجمية المسئول عن حركة الشفتين.
- (3) ويحدث ذلك بسبب فقد ردود الفعل المنعكسة اللاإرادية، وعدم الإحساس بمكان القدمين والمسئول عنه المخ.
- (4) أخذت معظم دول العالم الإسلامى - وغير الإسلامى - برأى الطب فى اعتبار موت الدماغ موتاً للإنسان، ووُضعت القوانين المنظمة لرفع أجهزة الإنعاش المركبة على هؤلاء الأشخاص، كما وضعت القوانين واللوائح المنظمة لنقل الأعضاء منهم. وفى منطقة الشرق الأوسط لم يتبق سوى قليل من الدول التى لم تضع بعد هذه القوانين كمصر والسودان وليبيا والعراق.

ويضيف د. صلاح الدين سند، مستكملاً جهده الكبير في إخراج دراسته العميقة (الوفاة الإكلينيكية) قائلاً: إنه إذا كانت هذه المؤتمرات الفقهية قد اعتمدت في قراراتها على رأى الطب في اعتبار الشخص ميتاً عند موت الدماغ، فإن إثباتنا سبق مغادرة الروح لجسد الشخص الميت دماغياً يدعم قرارات هذه المؤتمرات الفقهية، ويساعد أهل وأقارب هذا الشخص على أخذ القرار برفع أجهزة الإنعاش عنه.

تأملاتى.. مع الموت

لا شك أن ظاهرة الموت أدهشت الإنسان وأربكته منذ وعى بذاته، فالإنسان البدائي كان يجد رفيقه الذى يفور جسده بالحركة والحس والنضرة، قد تبدل في لحظة، وصار جسداً بارداً لاهياة فيه، رغم تكامل كل أعضائه وأجزائه. ربما ربط هذا الإنسان بين خفوت الحياة ثم انطفائها في جسد رفيقه وبين خفوت النار المشتعلة، وربما ربط بين ذلك وبين تصاعد الدخان من النار إلى السماء قبيل انطفائها، ومن هذا الربط ربما اعتقد الإنسان البدائي أن داخله عنصراً خفياً يمكن أن يفارق جسده ويتصاعد إلى السماء (كالدخان)، وأن هذه المفارقة هى التى تؤدى إلى الموت. ومن هذه الملاحظات بنى الإنسان أسطوره، التى ربما تمثل أول تصور عقلي للبشرية عن الروح.

وحدث الموت يحتاج جميع الكائنات الحية، من إنسان وحيوان ونبات، فهو وجه العملة المقابل للحياة. وفي نفس الوقت فإنه يصادف هذه الكائنات في أية مرحلة من مراحل حياتها. فقد يصادفها في لحظة ميلادها، وقد يعترىها في مرحلة شبابها، وقد يأتى عليها في مرحلة الشيخوخة. وإذا كان الموت يرجع في معظم الأحيان لمرض أصاب الجسم أو حادثٍ أَلَمَّ به، فقد يكون تلقائياً دون مقدمات، وهو في النهاية حدث واقع لا محالة، ولا مجال لتجنبه وتحاشيه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُمُ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء].

والموت يمثل على المستوى النفسى، حدثاً مخيفاً مرعباً.. ومؤلماً.. وبغيضاً..

فلا جدال أن الموت مخيف ومرعب. فبعد أن كنا بين الأهل والرفاق نتنفس معهم نسيم الحياة ونستمتع معهم بلذاتها، نتصور أنفسنا ونحن نوارى في باطن الأرض، حيث يهيل علينا الأحبابُ التراب، ليودعونا إلى الأبد، فنبقى في فزع وحدة القبر ورعب السكون القاتل بين الأجداد في حَلْكة الليل.. نعم إنها لحظة تقشعر من هول تخيلها الأبدان.

ولا شك أن الموت حدث مؤلر. وإذا كانت بعض هذه الآلام ترجع إلى طبيعة المرض المميت الذي يصيب الإنسان، فإن علماء الدين والأطباء يخبروننا بأن للموت سكرات مختلفة عن آلام المرض، مصداقاً للآية الكريمة ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق]، بل إن هذه السكرات كان يعانها أقرب الخلق إلى الله عزوجل، فقد كان المصطفى ﷺ في لحظات احتضاره يمسح وجهه بالماء ويدعو: «اللهم أعني على سكرات الموت»⁽¹⁾.

وأخيراً.. لماذا الموت حدثٌ بغيب؟... لا شك أن الموت بما يحمله من معاني الفناء والعدم، يُعتبر أكثر الأمور كراهية للنفس البشرية، حتى وإن آمن الكثير منهم أنهم منتقلون إلى عالم أفضل. كذلك فإن الاستمتاع بالدنيا والتعلق بها كبر عند النفس بغض مفارقتها. وقد أدرك اللعين إبليس بغيض النفس البشرية للفناء والعدم، فدخل إلى آدم من هذا الباب ليغريه بمعصية ربه والأكل من الشجرة المحرمة ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه].

وإذا كان الفناء والعدم أبغض الأمور للإنسان، فلا شك أن نعمة الإيجاد أعظم نعم الله عزوجل علينا. والمدهش أن بعض الملاحدة يمارى ويدعى أنه غير راض على وجوده في الدنيا، ويضيف ساخرًا: إن خالقكم لم يأخذ رأيي قبل أن يخرجني إلى الوجود. وقد أفحمت أحد هؤلاء المدعين وقلت له إن لم تكن راضيًا عن وجودك في الدنيا فلم لا تخرج منها؟ فسألني كيف؟ أجبت: بالانتحار! فتركنى ومضى.

وبالرغم من أن الموت - عند معظمنا - حدث مخيف مرعب .. ومؤلر .. وبغيض، فإن هذه المشاعر تقل، وربما تتبدل إلى عكسها، عند نفرٍ أربعة: شخص اشتاق للقاء ربه واعتبر الدنيا هى الحجاب الأوحى عن هذا اللقاء، وشخص آمن بصدق أن وراء الموت حياة أخرى أفضل وأنه أول منازل هذه الحياة الرغدة الأبدية المرتقبة، وشخص يرى فى الموت سبيلًا للقاء من ودعه من أحبة تعلق بهم كثيرًا، وأخيرًا شخص يرى فى الموت راحة من مرض عضوى ألر به أو عذابات نفسية صار احتمالها فوق طاقته.

(1) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده.

حقيقة الموت...

إذا كنا (على المستوى النفسى) نرفض اعتبار أن الموت مرادف للفناء والعدم، وفي نفس الوقت لا يستطيع العلم المادى أن يقدم لنا رؤية أخرى للموت، فإن خير من يُعرفنا حقيقة الموت هو خالق الموت والحياة، آيات القرآن الكريم تخبرنا بأن:

1- الموت خلق شأن الحياة تمامًا: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سورة الملك]، ومعنى أن الموت «خلق» يتعارض مع النظر إليه باعتباره عدمًا وفناءً.. فالخلق عكس العدم.

2- الموت مرحلة من مراحل الأبدية: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِمَّنْ شِئْتُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم]، فالموت سبقه الخلق والرزق، ثم يتبعه بعث ونشور.

3- الموت ينقلنا إلى عالم حقيقى، بل قل إلى عالم الحقيقة... فالموت يكشف عنا حُجُبًا تُعَشِي عَنَّا الْمَلَكُوتَ الْعُلُوى ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق]، عندها يرى الإنسان أن الوعد والوعيد حق، وربما يرى نفسه خلال مسيرته في الأزل والأبد: أين كان وإلى أين المصير؛ فيرى أن الحياة الدنيا كانت كطرفه عين، ويبصر مكانه في الحياة الآخرة الأبدية ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكِيدِينَ الصَّالِينَ ﴿٩٢﴾ فَزَلٌّ مِنْ جَحِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصِيلَةٌ مَجِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة].

4- الموت معبر له قوانينه وعواقبه: ويمكن التكهن ببعض هذه القوانين من خلال مخالفتها للقوانين التي تحكم الحياة، ويمكن التكهن ببعض الآخر من خلال استمرارية بعض قوانين الحياة التي لا تتأثر بالموت. فالمجموعة الأولى المخالفة لقوانين الحياة، أهمها انعدام الإحساس المادى وانقطاع عمل الإنسان، وذلك لتحلل الجسد، ويترتب على ذلك السكون عن الحركة والفعل، والصمت نتيجة لتوقف أدوات الحس والتعبير. أما المجموعة الثانية التي هي امتداد لقوانين الحياة، فأهمها استمرارية الذات الإنسانية

والحس المعنوي المرتبطين بالروح والنفس، ولعل هذا الحس يزداد بعد فناء الجسم المادى، وهذا الحس المعنوي يتوجه تجاه النعيم أو العذاب.

وفي ختام تأملاتى عن الموت، ربما كان أكثر ما يثير دهشتى هو موقفنا العملى تجاه الموت! فبالرغم من أن الموت هو الحقيقة الأكبر - التى ليست بحاجة إلى استدلال واستشهاد - فى حياتنا، فإننا نسلك فى الدنيا كأننا مخلدون، غير مبالين به! أو كأن الفرار منه محتمل وربما هو الأرجح. وفى هذا المعنى يقول المولى عزوجل: ﴿الْهَمُّ الْتَكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتَسْتَلْنَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر]

صدق الله العظيم

أنا... بعد الموت

الحياة فى البرزخ

بعد المرور عبر بوابة الموت، ينتقل الإنسان إلى «البرزخ». والبرزخ بمفهوم اللغة والعلم، هو وجود يفصل بين تكوينات وحيوات، لكل منها مقوماتها الخاصة، بحيث لا تبغى إحداها على الأخرى ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١١ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۝١٢﴾ [الرحمن].

ويعنى البرزخ فى المفهوم الدينى وجوداً للنفس بين حياتين: الدنيا والآخرة، كمرحلة انتقالية تُصَفَّى فيها النفس أعمالها الدنيوية وتتهيأ لملاقاة حياتها الأخرى، التى تبدأ يوم القيامة أو البعث العظيم.

ويكاد الوجود فى البرزخ يشبه الوجود فى الأرحام، الذى يفصل بين حياتنا الدنيا وبين حياة غيبية للإنسان تسبق هذه الحياة. ويمكن تشبيه البرزخ بما نلاحظه فى الكائنات التى تمر بأكثر من حياة فى الوجود الذى نعيشه، فوجود الحشرة فى الشرنقة يفصل بين حياتها السابقة كدودة وحياتها التالية كفراشة، وفى تلك الشرنقة تتغير الحشرة وتتبدل لاستقبال حياتها الجديدة.

وإن كان الوجود البرزخى مرحلة انتقالية تسبق البعث يوم القيامة، فالنفس فيها تتنعم أو تتألم بعواقب أفعالها فى الحياة الدنيا. والدليل على ما يمكن أن يلقاه المرء من نعيم قبل يوم

الحساب قول الحق عزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١١٤﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران]. أما الدليل على العذاب الذي يمكن أن يلقاه المعاندون والعصاة قبل يوم القيامة، قول الحق عزَّجَلَّ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر]. وتستمر حياة الإنسان في البرزخ حتى يوم البعث ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون].

أنا ... في الحياة الأخرى

تبدأ الحياة الأخرى بالبعث؛ والبعث في المفهوم الضيق هو عودة الروح والحياة إلى الجسد، أى عودة الإنسان إلى الحياة. ولكن البعث في مقام الحديث عن يوم القيامة يحمل معنى يجاوز ذلك بكثير، إنه بداية الانطلاقة الكبرى نحو الحياة الأبدية بقوانينها الجديدة، بعد فناء الحياة الدنيا وما كان ينظمها من قوانين الطبيعة.

ومن أهم التغيرات التي تحدث مع فناء الحياة الدنيا، انعدام عنصرى الزمان والمكان وتوقف قانون السبب والنتيجة. وينعكس ذلك في الحياة الأبدية على هيئة قوانين جديدة، ربما يعجز فكرنا عن إدراكها، ومن هذه القوانين:

1- الديمومة والخلود، حيث انعدام قيد الزمان:

يحيا الإنسان في حياته الدنيا في ظل بديهية أن ما كان له بداية فإن له نهاية، وينبنى على ذلك أن الابتلاء في الحياة الدنيا - كأى امتحان - له وقت محدد. أما في الحياة الأخرى فهناك ديمومة مطلقة ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلْدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلْدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُورٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود]. ويفسر هذا المنظور بعض ما سيحدث لذواتنا الإنسانية في تلك الحياة، فالعمر يثبت عند مرحلة الشباب، والجو يشبه وقت العصر دون تناوب الليل ونهار.

2- لا نهائية المكان، حيث انعدام قيد المكان:

إذا كانت الأرض - في الوجود الذي نعيشه - تكاد تضيق بمن عليها، فما أدراك بالبعث الذي يشمل الخلق جميعاً على اختلاف العصور، وما أدراك بالجنان التي تُخَصَّص لكل طائفة منيب، لا شك أن ذلك يحتاج أرضاً غير محدودة المدى. ﴿يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم] (1).

وإذا كانت ديمومة الزمان ولا نهائية المكان أمور يصعب تصورهما، فيمكننا تيسير ذلك بتأمل ما نراه في الأحلام، فللأحلام قوانينها التي لا تراعى الزمان ولا المكان، ففي دقائق معدودة يمكن أن تحيا حياة طويلة تنزوج فيها وتنجب وربما تزوج أبناءك. كذلك في دماغنا المحدود يمكن أن نحيا في أثناء الأحلام في مروج شاسعة ونشاهد محيطات لا نهاية لها.

3- أما انعدام قانون السبب والنتيجة، فيمكن أن يُفسَّر العديد من العطاءات التي يعدنا بها الله عزَّوجلَّ في الجنة، حيث يجد الإنسان كل ما يخطر في باله حاضرًا أمامه دون أن يسعى إليه.

ولا شك أن الناس سيتفاوتون فيما يمر بهم من أحداث في يوم القيامة، ما بين أنبياء وصديقين وأولياء يكون عليهم هذا اليوم بمثابة المتعة في الحضرة الإلهية، وبين كفار وعصاة وفجرة ومنافقين يرون أهوالاً لا تخطر على قلب بشر. وفي النهاية، إما إلى جنان أو إلى نيران. وتفصيل هذه المراحل كلها خارج نطاق هذا الكتاب، الذي يتحدث عن الذات الإنسانية، لذلك اخترت أن أنهي هذا الفصل - والباب - بالحديث عما يجري على الذات الإنسانية المنعمَّة في الجنان من تغيرات.

طبيعتي ... في الجنة

إذا كان الإنسان يتركب من خماسية تمثل الذات الإنسانية، ولكل عنصر من عناصرها دوره في الحياة الدنيا؛ جسم يخوض به مسيرة الحياة، وعقل يدبر به أموره، ونفس وقلب تُعرض عليهما

(1) يمكننا علمياً تقبل مفهوم لا نهائية المكان؛ فإذا كانت المسافة بين أي نقطتين تساوى حاصل ضرب السرعة في الزمن، فإن مقدار المسافات في حالة لانهاية الزمن لا بد أن تكون لا نهائية.

البدائل، وروح هي نفخة من روح الله. فهل ستظل هذه العناصر تؤدي نفس أدوارها في الحياة الأخرى، أم أن طبيعة ذواتنا الإنسانية ستختلف لاختلاف طبيعة الحياة الأبدية في الجنة؟ في الحياة الأخرى، نسأل الله الكريم أن نكون من أهل الجنة، حيث النعيم.. حيث الأبدية.. حيث الانتصار على الشيطان.. حيث النفس مطمئنة.. حيث النشوة في الحضرة الإلهية.. حيث العطاء الإلهي بكل سعته.. حيث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، في هذه الحياة لا بد أن يعترى التغيير عناصر ذواتنا البشرية.

فالجسم، قد تحلل من دورته في الحياة الدنيا - وهي دورة الطفولة والشباب والشيخوخة - ليصير في شباب دائم ومتصل إلى أبد الأبد، شباب من طبيعته أن يتضاعف فيه الإحساس بالنعيم. جسم برة من أمراضه ليصير في نضرة وحيوية كاملة، فينهل من النعيم، وهو موفور الصحة والعافية. جسم تنصل من شيطانه الذي كان يقهره على الفسق والفجور، ليستمتع برغباته في حب ونقاء، شكرًا وثناء. **جسم تسامت ذاته**، فلا يجد ما يرضيه من فكر وإجهاد ولا ما يشقيه من قهر واستعباد، وإنما هي دائمًا حلاوة القرب والاستغراق في النعيم. جسم تحرر في النهاية من الطاعة المفروضة عليه في جبر وعناء، ليحل محلها المفاضلة بين المتع الحسية والنفسية في حرية واسترخاء. ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّينَ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس].

وهكذا يمكن القول إن جسم الإنسان يعاود سيرته الأولى يوم كان الإنسان في الجنة ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة]، بل يمكن القول أنه سيكون أكثر سعادة عند عودته إلى الجنة؛ فلن تكون هناك شجرة محرمة عليه! إن ما طرأ على الجسد الإنساني من تغير في الحياة الدنيا كان نتيجة هبوطه الأرض، حتى يلائم ظروفه وطبيعة الدور المعقود عليه القيام به، في الصراع الدائر بينه وبين الشيطان.

والعقل أيضًا، تتبدل وظيفته من الوظيفة المعروفة في الحياة الدنيا، فيتغير من عقل كادح.. يعمل ليل نهار وفي كل الظروف والملابسات - حتى ولو استقر حاضره - ليؤمن مستقبله الذي يجهله، إلى عقل هادئ مستقر تخفف من كل أحماله، حتى صار يرفرف فوق واقعه، ويهتز فرحة ولذة لنعيمه. ليس عنده ما يشغله من هم وغم وكرب وموت، وإنما فقط ينتقل من نعيم لنعيم ومن حسن لآخر أحسن منه.. بعد أن كُتب له الخلود، وصار من المقربين.

إنه يرتفع هناك إلى حيث مصادره الأولى... إلى حيث العقل الأعظم... إلى حيث الطمأنينة.. إلى حيث النقاء.... إلى حيث مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

فهل ما زال الإنسان في الحياة الآخرة يشعر بالرتابة والملل كما يدعى الماديون ساخرين؟ كلا، ألف كلا.

أما النفس والقلب، الأنا المختارة، عندما تنتقل إلى الحياة الآخرة - حيث الوفرة، كل الوفرة - فإنها بالطبيعة تتغير من «الأنا المريدة» التي تميز النفس الأمانة إلى «الأنا المحبة» التي تميز النفس الآمنة المطمئنة. وفارق كبير بين الأنا المريدة والأنا المحبة، ذلك أن الأولى طبيعتها الصراع للاستئثار بكل ما هو متاح وغير متاح، ومن ثم ففيها الطمع والجشع وحب الذات... إلخ.

أما «الأنا المحبة» فطبيعتها الإيثار والعطاء، ذلك أن الحب يسمو بالنفس ويتعالى بها عن الجشع والطمع. وما منا من عايش حالة حب إلا ووجد نفسه وقد ضحى بالكثير وأعطى المزيد، برضا وسماحة وإنكار كامل للذات.. فما بالك وقد سَمَتِ النفس إلى درجات الحب الإلهي، بالقطع ستسمو فوق الماديات، وتزداد تفران في العطاء، ولن يغرقها في النعيم هناك إلا إحساسها بأن ذلك عطاء الله، إذ ستتهل منه بعشق الحبيب... فيتضاعف الإحساس بالنعيم مرات ومرات. وقد بين لنا الله عزَّجَلَّ آيةَ التحول من «الأنا المريدة» إلى «الأنا المحبة» في قوله تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلِيٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر].

أما الروح، فشأنها شأن آخر، فرحتها تفوق فرحة عناصر الذات الإنسانية الأخرى، لقد قُطِعَ الطريق، وانقضى السفر، وعادت إلى حيث مصدرها، عادت إلى الحبيب المحبوب، كل ما مضى من عناء كان لأجل هذا اللقاء.

وهكذا:

فإن عالم السلام، عالم السكينة، عالم الوفرة، يعكس بالضرورة سلاماً مع النفس، يجعلها راضية مطمئنة، في سلام مع الآخرين، حيث تكون تحيتهم فيها سلام.. تصعد «الأنا» إلى عليين، وتتفاعل مع عالمها.. فتكون اختياراتها دائماً تسيباً وشكراً، وتكون متعتها الحسية دوماً قريباً وحباً، وتكون دعوتها: أن الحمد لله الذي صدقنا وعده، تنبوء من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين.

كيف السبيل

إن الطريق لتحقيق هذا النعيم يبدأ بمجاهدات للنفس، يقوم بها الإنسان في الحياة الدنيا، حتى يتسنى تكييف الذات الإنسانية المريدة بالعقل.

ومن ثم، على الإنسان أن يجاهد نفسه المريدة بكل عواقبها من طمع وجشع وحسد، لترقى إلى نفس محبة تسمو فوق الماديات في إيثار وعطاء.

وعليه أيضًا أن يجاهد نفسه القلقة المتوترة التي تجزع وتحزن وتفزع لكل ما يصيبها من قضاء، لتصبح نفسًا مطمئنة راضية بما قُدِّر لها ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَضَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلْ فِي عَبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلْ جَنِّي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر].

فكأن طمأنينة النفس في الحياة الدنيا، وصلها بالحب الإلهي، وقهرها لشهواتها، والتحكم في غرائزها، والسيطرة على دوافعها من استئثار وجشع، والرضاء الكامل بقضاء الله باعتبار أنه صادر عن خالق حكيم دونه إدراكاتنا.. كل هذه هي مؤهلات الإنسان التي ينبغي أن يتحصل عليها من دنياه.. للرجوع إلى الخالق ودخول الجنة.

والمحصلة النهائية، أن الذات الإنسانية بمكوناتها؛ الجسم والملكات العقلية والنفخة الغيبية تتغير لتتلاءم مع حياة النعيم في الجنة، شريطة أن يكون الإنسان قد أهَّل نفسه في حياته الدنيا لتقبل هذا التغيير والتبديل.

القارئ الكريم

ذكرنا في بداية الفصل أن الحضارات الإنسانية والديانات المختلفة تكاد تُجمع على الربط بين الموت ومغادرة الروح للجسد، أما الطب، فيعتبر أن موت الأجهزة الحيوية الثلاثة، القلب والجهاز التنفسي والمخ يُعتبر موتًا للجسد. ثم ربطنا بين هذين المفهومين (الديني والطبي) للموت.

ومن أجل المزيد من الفهم لطبيعة الموت، أوضحنا أن خلق الإنسان يمر بمرحلتين:

مرحلة خلق جسد الجنين وتسويته وبحث آليات الحياة في خلاياه، تلك الآليات التي تشارك الإنسان فيها سائر الكائنات الحية. ثم تأتي مرحلة نفخ الروح في الجنين بعد تسويته، وهذه

المرحلة خاصة بالإنسان وحده دون سائر المخلوقات. معنى ذلك أن آليات حياة الخلية والروح أمران ضروريان لحياة الكائن الإنساني، وكل منهما يؤثر في الآخر ويتأثر به، فاكتمال تسوية جسد الجنين شرط لازم لنفخ الروح فيه، كما أن حياة الإنسان ترتبط بوجود الروح فيه.

ويبين القرآن الكريم أن الموت هو مقابل أو نقيض الحياة. ومن ثم فإن الموت يتكون أيضًا من مرحلتين، هما مغادرة الروح للجسد بالإضافة إلى توقف آليات الحياة في الجسد. وقد أثبتنا أن الروح تغادر الجسد قبل توقف سر الحياة في الجسد عند الموت.

لذلك إذا جَزَمَ الطب بموت المخ موتًا نهائيًا لا رجعيًا، فقد غادر مكونا الحياة جسد الإنسان، أي «غادره الروح وغادرت آليات حياة الجسد». وبالتالي فإن الإنسان الميت مخيًّا هو إنسان «مُتوفٍ» بالمفهوم الديني كما أنه «ميت جسديًا» بتعريف الطب. وفي هذه الحالة، قد تبقى - لفترة - حياة خلوية لأنسجة تعمل منفردة معتمدة على أجهزة صناعية، وهي أقل درجة من حياة النبات ومن حياة الجنين داخل الرحم قبل نفخ الروح فيه، وهي شبيهة بعمل أجزاء الأجهزة الصناعية المفككة التي لا تستطيع أن تعمل بشكل تكاملي.

وتبين آيات القرآن الكريم أن الموت حَلَقٌ شأن الحياة تمامًا، وأنه مَعْبَرٌ بين مسيرتين، ينقلنا إلى عالم الحقيقة. وللموت قوانينه التي تحكمه، وأهمها انعدام الإحساس المادي وانقطاع عمل الإنسان، فهي النشاطات المرتبطة بالجسد الذي يبلى، وفي الوقت نفسه يستمر الحس المعنوي، والشعور بالذات الإنسانية لارتباطها بالروح والنفس.

ولا تُعتبر الحياة الآخرة مجرد عودة الروح والحياة إلى الجسد، بل إن البعث يمثل بداية الانطلاقة الكبرى نحو الحياة الأبدية بقوانينها الجديدة، بعد فناء الحياة الدنيا وما كان ينظمها من قوانين الطبيعة. وأهم تلك القوانين الجديدة الديمومية والخلود ولا نهائية المكان، حيث انعدام قيد الزمان وقيد المكان، والحياة في معزل عن قانون السبب والنتيجة.

كذلك فإن تلاشي قوانين الطبيعة وبزوغ قوانين الحياة الجديدة، يتطلب حدوث تغيرات في الذات الإنسانية، تشمل عناصرها جميعًا، لتتلاءم مع حياتها في الجنان، شريطة أن يكون الإنسان قد أهَّلَ نفسه في حياته الدنيا لتقبل هذا التغيير والتبديل.

حصاد الرحلة

واكتملت الرحلة...

والاكتمال غير الكمال، فالكمال لله عَزَّجَلَّ وحده، أما الاكتمال فهو أن تُتم ما سبق أن خططت له ووضعت حدوده وأبعاده، بقدر مقبول من التوفيق. وقد كان المقصود من هذه الرحلة أن نُعرِّف الإنسان بذاته الإنسانية، كما تنظر إليها العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والعلوم الدينية، خاصة بعد أن جارت على الرؤية الصافية مفاهيم زائفة صارت تتردد كأنها حقائق علمية، كالحتمية البيولوجية والحتمية التربوية، والمادية الجذرية والنسبية المطلقة، وما بعد الحدائثة... أما جنائية الداروينية على الذات الإنسانية فلم تقف عند المفاهيم التي تطرحها كنظرية علمية، بل سادت كل مجالات الحياة وحولتها إلى حلبة صراع وميدان معركة، فصرنا نسمع عن الداروينية السياسية، والداروينية الاجتماعية، والداروينية الاقتصادية، والداروينية في الأدب، و...

إن هدفنا هو أن ننقى نظرتنا لأنفسنا من سموم شوهت الإنسان وجعلته مسخًا. حتى إذا ما صبغت الرؤية، تمكن الإنسان - بشكل أيسر - من أن يسلك نهجًا حيائيًا أكثر انسجامًا مع طبيعته وفطرته وأكثر تحقيقًا لرسالته.

ولاشك أننا في حديثنا عن الذات الإنسانية كنا بعيدين عن الإحاطة الكاملة، فهذا في حكم المستحيل، لذلك اقتطعنا من العلوم المختلفة نماذج تعبر عن نظرة كل علم، وتحقق الهدف الذي قصدنا إليه، وجمعنا هذه النماذج بشكل متناسق في الباقية التي بين يديك. والآن إلى حصاد الرحلة:

أنا... فى العلوم الطبيعية

أولاً: أنا ذات عاقلة

1- يتميز الإنسان على غيره من الكائنات بالملكات العقلية، التى جعلته يسود كوكب الأرض، ويتطلع إلى الكواكب الأخرى؛ فى الوقت الذى أوشك أقرب الكائنات إليه جينياً وجسدياً - وهو الشمبانزى - على الانقراض. ولشدة تعقيد آليات العمليات العقلية الإنسانية فإن اضطرابها يؤدى إلى العديد من المشكلات التى تفوق خيال أشد المؤلفين القصصيين جموحاً!

2- عند الحديث عن الملكات العقلية، ينبغى أن يكون «الوعى» أولها، فالإنسان غير الواعى لا يمكنه أن يمارس بقية النشاطات. وأول ما يتمخض عنه الوعى الإنسانى هو «الإدراك»؛ إدراك الإنسان لذاته وللمحيط. ويتلو الإدراك عملية «الفهم»، التى لولاها لارتد طفلاً لا يفهم معنى ما يعى ويدرك ولا يتفاعل معه.

3- ومن بدييات الذات الإنسانية العاقلة استشعارها أن جميع سماتها ونشاطاتها تخص «جسدها المادى المتوحد»، وأنها بالأمس هى هى اليوم، وأنها يمكن أن تنتقل بخيالها إلى المستقبل، أى أنها «ذات ممتدة عبر الزمن، وقادرة على الانتقال فيه».

4- وربما كانت «حرية الإرادة» من أهم سمات ذواتنا العاقلة التى أثبتها العلم، وحررنا بذلك من مفهوى الحتمية البيولوجية والحتمية التربوية اللذين يتخيلهما بعض البيولوجيين والتربويين، وأيضاً مفهوى الجبر والتسيير اللذين أوقعنا فيهما بعض الفلاسفة ورجال الدين.

5- ولا شك أن الإنسان هو الكائن الأوحى الذى يتمتع بـ«حياة عقلية داخلية خيالية» تمكنه من تصور البدائل، وتوقع الأفضل والأسوأ، وتقدير النتائج مسبقاً والتخطيط لتحقيق أفضلها، ولا شك أن هذا الخيال يقف وراء العلم والفن والفلسفة والدين.

6- ولا يكون الخيال مثمراً ومبدعاً ما لم يتمتع الإنسان بـ«الذكاء». وقد ثبت - حتى الآن - أن الذكاء الإنسانى عشرة أنواع، تمارس نشاطاتها فى مختلف مجالات الحياة الإنسانية، ولكل منها مركزه المسمى المتخصص.

7- والإيمان بأن «وراء كل حدث سبب» ملكة فطرية غريزية في عقولنا، تقف وراء سعى الإنسان الحثيث من أجل تفسير الأحداث. ولولاها لتخبط العقل البشرى في جميع الاتجاهات على غير هدى. ولدفع الإنسان للبحث عن هذه الأسباب، زوّد العقل البشرى بملكة «حب الاستطلاع والبحث»، التي أعانته على تحمل مخاطر جمة من أجل اكتشاف أسباب وآليات ما يمر به من أحداث، وأيضاً من أجل اكتشاف المجهول.

8- والإنسان «كائن اجتماعي تعاطفي»، أُشتق اسمه من الائتناس بغيره. ولولا ذلك لما أنشأ مؤسسة الأسرة التي هي لبنة بناء المجتمعات، ولعاش وحيداً عاجزاً عن الدفاع عن نفسه. وقد زوّد السلوك الاجتماعي الإنسان بالقدرة على الصمود ضد أعدائه ونجّاه من الانقراض كغيره من الكائنات.

9- لقد كان ظهور «اللغة الإنسانية» انبثاقاً مفاجئاً، وليس نتاج تطوري لوسائل تواصل أسلاف الإنسان، لذلك أطلق ناعوم تشومسكي على نشأة اللغة اصطلاح «الانفجار اللغوي الأعظم». وقد مكنت اللغة الإنسان من الترميز لكل شيء باسم، مما أعانته في عملية التفكير، كما مكنته من التواصل الاجتماعي ونقل المعلومات للآخرين وتوارثها عبر الأجيال، وبذلك صار الإنسان إنساناً، وتمكن من بناء حضارته.

10- كما وهب الإنسان بالفطرة «ذاتاً فنانة متذوقة للجمال». وقد أثبت العلم أن تذوق الجمال عملية بيولوجية موضوعية وليست أمراً ذاتياً ليس له مقاييس. وقد توصل العلماء إلى المراكز المخية التي تتذوق الجمال، وهي نفس المراكز التي تُبدع الفن. كما توصلوا - حتى الآن - إلى عشرة قوانين لها آلياتها المخية، تحكم الحس الجمالي والتذوق الفني، وبذلك صار الجمال والفن علماً تطبيقياً بعد أن كانا محصورين في نطاق العلوم الإنسانية.

11- وربما كان أعظم الإنجازات في مجال المخ والأعصاب خلال العشرين عاماً الماضية هو اكتشاف ما يُعرف بـ «عصبونات المحاكاة»، وهي الخلايا العصبية التي تنتشط عندما يمارس الكائن عملاً ما، وأيضاً عندما يرى هذا العمل يُمارس أمامه. وقد فسّر وجود هذه العصبونات الكثير من نشاطات الإنسان الحركية والحسية والشعورية والتعليمية، كما كان لها دور رائد في نشأة اللغة وبناء الحضارات. كما يمكن القول إن هذه العصبونات ربطت بين الناس حتى صاروا جميعاً كأنهم فرد واحد.

12- وقد أثبت العلم أن الرجال والنساء ليسوا متماثلين في النشاطات العقلية، وأصبح يتحدث عن «المخ/العقل التنظيمي الذكوري» و«المخ/العقل التعاطفي الأنثوي»، بعد أن ثبت أن هناك فوارق بيولوجية في بنية وطريقة أداء المخ كل من الجنسين لوظائفها، فوارق تقف وراءها عوامل جينية وهورمونية ثم تربوية. وقد فسرت تلك الفوارق الاختلافات السلوكية والعقلية والشعورية بين كل من الرجال والنساء.

13- وفي مجال «نشاطات الإنسان الروحية»، أثبت العلم أن المخ البشري مزود بآليات للتعامل مع بنية الدين، تبدأ بالقدرة على الفهم العقلي للوحى السماوى، ثم وجود الشوق الفطرى تجاه مفاهيم الألوهية والدين، ثم الرغبة الفطرية في تجسيد المفاهيم العقلية، ثم القدرة على تحويل المعتقدات العقلية إلى تجارب حسية ذاتية، وأخيراً القدرة على إغلاق الدوائر المخية للشعور بالذات وبالوسط المادى المحيط، مع استحضار مشاعر التسامى، ثم التواصل مع عوالم الغيب الحقيقية.

وكما يمكن تدريب الجسم لتحسين مهامه الجسدية، فيمكن تحسين آدائنا العقلى والروحى من خلال مجاهدة النفس والتأمل وممارسة العبادات والتدريبات العقلية والروحية. ألم يكن سير ألفريد والاس محققاً - خلافاً لدارون - حين أعلن أن ملكة العقل نفخة إلهية.

ثانياً: الوعى يقهر اللاوعى

1- تقوم تنشئة الوالدين لأطفالهما بدور كبير في برجة عقولهم ابتداء من المرحلة الجنينية، ولا تقل أهمية هذا الدور - بل تزيد - على البرجة الجينية الوراثية، ويقوم بدراسة هذا الدور علم جديد يُعرف بـ «علم التحكم فى الجينات». لذلك أصبحت تنشئة الوالدين لأطفالهما نوعاً من «الهندسة الوراثية» إذ تقوم بتنشيط أو تثبيط بعض الجينات التى لها دور فى توجيه سلوك الأطفال وحالتهم النفسية والعقلية.

2- وإذا كانت التنشئة السوية لأطفالنا فى جو من الحب والتوافق تُنتج أطفالاً أسوياء، فإن افتقاد هذا الجو يُطفئ جذوة التعاطف فى نفوسهم، ويفرز أنماطاً متعددة من الانحراف النفسى والسلوكى.

3- وإذا كانت الجينات تحدد الاستعداد الوراثي للطفل، فإن التنشئة تحدد نوع السلوك الذي يتبناه الشخص في إطار هذا الاستعداد. كذلك لا يفيد كثيراً أن يمتلك الجنين جينات إيجابية إذا كان سيواجه من الإهمال وسوء التربية ما يثبط تلك الجينات.

4- وتقوم التنشئة بدور كبير في برمجة عقلنا اللاواعي على العديد من المفاهيم التي ستعتبر بديهيات عقلية وتوجه مشاعر وسلوك الإنسان فيما بعد، تماماً كما يقوم الطيار الآلي بتوجيه الطائرة. لذلك فإن من أهم أسباب ما يعانیه البشر من صراعات نفسية هو التعارض بين طموحاتنا الواعية وبين ما تم برمجته في عقولنا اللاواعية.

5- وقد أثبت العلم، أن الإنسان قادر بوعيه (بعد تدريبات شاقة) على تغيير ما تم برمجته في اللاوعي، بل وقادر أيضاً على التحكم في وظائف جسمه اللاإرادية مثل نبضات القلب ومعدل التمثيل الغذائي. لذلك يهتم الطب النفسي من خلال «العلاج المعرفي» بتعديل الخريطة المعرفية للإنسان، والتي تحدد أولوياته الواعية واللاواعية، من أجل علاج المريض من العديد من مشكلاته وأمراضه النفسية.

ثالثاً: لسنا روبوتات

1- أثبت العلم خطأ النظرة التي سادت علم البيولوجيا لعقود، باعتبار أن الشفرة الوراثية (الجينات = الدنا DNA) هي سر حياة الخلية، وأن النواة التي تحمل الجينات هي بمثابة مخ الخلية. والدليل على خطأ ذلك أن الخلية إذا نُزِعَت نواتها تستمر في الحياة لفترة تصل إلى شهرين، وإن كانت تفقد القدرة على التكاثر وعلى إنتاج بروتينات جديدة.

2- في المقابل، يمكن اعتبار غشاء الخلية هو سر حياتها والقائم بمهام المخ فيها! فهذا الغشاء هو المسئول عن استشعار ما يدور خارج وداخل الخلية، ثم توجيه أنشطة الخلية تبعاً لما يستقبله من معلومات، كما أنه المسئول عن التحكم في نشاط الجينات، كذلك يقوم هذا الغشاء بتوجيه تفاعل الخلية مع العوامل التربوية والحالة النفسية للإنسان. إن كل ذلك يعني كذب مفهوم «الحتمية البيولوجية» الذي يرى أننا أسرى للشفرة الوراثية المُبرمجة سلفاً في جيناتنا.

3- وبذلك أسدت «البيولوجيا الجديدة» الستار على عالم الداروينية، الذي يصور الدنيا

كحلبة للصراع بين روبوتات ينتصر فيها الأقوى، وفي نفس الوقت فتحت آفاقنا على حياة جديدة يتعاون فيها البشر من أجل الحياة في سعادة وحب، تلك الحياة التي يتفاعل ويتناغم فيها الإنسان مع الوجود من حوله.

رابعاً: قواى الخفية أشبه بالخيال

1- أظهرت الأدلة العلمية الجديدة أهمية دور الطاقات الحيوية والكونية في النشاطات البيولوجية والعقلية والنفسية للإنسان. فقد ثبت أن للمجالات المغناطيسية الكونية وكذلك للحقول المغناطيسية الأرضية تأثيراً على العديد من نشاطات الإنسان الفسيولوجية وعلى النشاط الكهربي للدماغ، مما يؤثر على قدراتنا وصحتنا ووعينا ومزاجنا ومشاعرنا الروحية، مما يجعلنا جزءاً من منظومة الوجود تتأثر بها إلى حد يفوق توقعاتنا.

وتُعتبر «ظاهرة الإفضاء» من أكثر الظواهر الفيزيائية غموضاً، وفيها يتم تبادل الطاقة والتجاوب بين منظومات فيزيائية (كحركة بندولين) وبيولوجية (كدقات قلبين) وكذلك بين كل موجودات الكون، مما يؤدي إلى قدر من التوحد الحركي والانفعالي!

كذلك ثبت أن أشكال الحياة المختلفة متوافقة بدقة مع بعضها البعض (الإنسان - النبات - الحيوانات - الكائنات البدائية) وأن الكائنات الحية ترسل معلومات تحاطرية فيما بينها في كل لحظة، وهو ما صار يُعرف «بتأثير باكستر».

ويمارس بعض الخبراء «علاج المرضى عن بعد»، عن طريق التركيز العقلي. كما تمارس حضارات الشرق الأقصى أنواعاً من العلاجات للأمراض المختلفة، مستغلة مجالات الطاقة، «كالعلاج بالإبر الصينية». ويعجز العلم التقليدي عن تفسير العديد من الظواهر، كالقدرة على تحريك الأجسام عن بُعد، وتوارد الخواطر، والرؤى الصادقة. وكذلك ما يُعرف بـ«تأثير الجرميلين»، والذي يعنى قدرة أفكارنا بل وحالتنا النفسية على التأثير عن بعد على الأجهزة الإلكترونية.

2- من أهم القضايا التي تشغل الفيزياء الحديثة اليوم، أن المكونات تحت الذرية يتأثر بعضها ببعض مهما كانت المسافة بينها، ويُعرف ذلك بـ«مفهوم التشابك». وحديثاً ثبت أن

التشابك يحدث على مستوى الذرات والجزيئات والبلورات الكبيرة. كما ثبت أن جزيئات المادة كبيرة الحجم قادرة على التواجد في مكانين في آن واحد، أي أنها ليست مستقرة، وأنها تحت ظروف معينة تتجاهل قوانين نيوتن وتخضع لقوانين الكوانتم! إن هذه الاكتشافات تثبت أن هناك قانوناً واحداً للفيزياء، ومن ثم إذا كان للراصد دور في فيزياء الكم، فهل يمتد هذا الدور إلى عالم الأجسام الكبيرة؟

3- وقد ثبت أن الكثير من التأثيرات السابقة تتم عن طريق المجالات الكهربائية والمغناطيسية، بل لقد أمكن تصميم أجهزة قادرة على تسجيل وقياس مجالات الطاقة التي تنتجها نشاطاتنا العقلية التي تمارس من خلالها بعض التأثيرات السابقة.

4- ومن أعظم الاكتشافات البيولوجية في الربع الأخير من القرن العشرين اكتشاف «الانبعاثات الفوتونية الحيوية». فقد ثبت أن جميع الكائنات الحية تبعث تياراً ضئيلًا مستمرًا من الفوتونات (وحدات الضوء)، التي أعتبرت من أهم وسائل التواصل بين أجزاء الكائن الحي، وبين مختلف الكائنات، وكذلك بينها وبين العالم الخارجي. وقد أمكن تصوير هذه الفوتونات بوضوح مذهل وهي تنبعث من مختلف أعضاء الكائنات الحية. كما أمكن تصويرها وهي تتدفق من أطراف أصابع خبراء المعالجة عن بعد.

5- وقد أثبتت تجارب ويليام تيللر أن التركيز الذهني ونشاطاتنا العقلية (أفكارنا ونوايانا) تصدر طاقات (يمكن تخزينها ونقلها) قادرة على إحداث تأثير على بعض العمليات الكيميائية والبيولوجية في الوسط المحيط!

6- وبعد أن كان العلم ينظر لفيزياء الكم باعتبارها أم الفيزياء، وينطلق منها لتفسير جميع الظواهر الفيزيائية، فقد توصل العلم اليوم إلى ما يعرف بـ «فيزياء الفراغ» التي ينبغي اعتبارها نقطة الانطلاق في تفسير كل ما يجري في كوننا (الكبير والصغير = الإنسان). فالفراغ يحوى كمًّا هائلًا من الطاقة الكامنة غير المتشكلة، وربما كان تأثير الوعي/الأفكار/ النية البشرية على ما حولنا يتم من خلال تحويل جزء من هذه الطاقة الكامنة إلى طور فعّال يمكنه التأثير على العالم الفيزيائي.

7- إن ذلك يؤكد أن الوجود كله وحدة متشابكة، وأن الإنسان يؤثر بعقله ونيته وإرادته في

العالم المادى وفي حقائقه الفيزيائية، وأن الطبيعة أغرز كثيرًا وأغنى كثيرًا من كل تصوراتنا، إننا مجرد أطفال نحى تحت أقدام الوجود.

8- ينبغى التحذير من أن قدرة عملياتنا العقلية على التأثير على العالم الفيزيائى يتم إساءة استغلالها من قِبَل «رجالين» غير متدربين، مستغلين في ذلك حاجات الناس الاجتماعية والنفسية والصحية.

خامسًا: أنا نتاج التطوير الإلهى

1- لا شك أن نظرية التطور لدارون هي أكثر النظريات - عبر التاريخ - إثارة للجدل. وتتكون النظرية من شقين رئيسيين: الأول، أن لكل الكائنات الحية سلفًا مشتركًا واحدًا (أو أسلاف قليلة) نشأت عنه بالتطور البيولوجى. والشق الثانى، أن التطور حدث بألية الانتخاب الطبيعى بعد حدوث طفرات عشوائية. والأدلة العلمية تؤكد الشق الأول، لكنها تثبت تمامًا عجز العشوائية عن إحداث التطور.

ونضيف إلى ذلك - بخصوص الإنسان - عجز التطور العشوائى عن تشكيل المنخ البشرى وإمداده بقدراته العقلية المتميزة. وقد حدا ذلك سير ألفريد والاس (نظير دارون) إلى اعتبار العقل البشرى نفخة إلهية. كما حدا ناعوم تشومسكى (حُجة علم اللغويات) إلى اعتبار أن نشأة اللغة الإنسانية (التي هي أهم تجليات العقل البشرى) كانت عملية انبثاق فجائية.

2- نتيجة للمفاهيم السابقة، ظهرت في العالم مدرسة تتزايد قوتها، تتبنى مفهوم «التطوير الإلهى». وتقبل هذه المدرسة مفهوم تطور الكائنات الحية، وفي الوقت نفسه ترى أن عملية التطوير وكذلك نشأة العقل البشرى قد احتاجت إلى قدر هائل من العلم والذكاء والإبداع، مما تعجز عنه العشوائية، ولا يتوافر إلا لإله حكيم قادر.

3- يرجع انفصال أشباه الإنسان عن السلف المشترك الذى جمعه بباقى الرئيسيات إلى قرابة 8 ملايين عام. لقد كان القرد الجنوبي أول أشباه الإنسان التى عثر على حفريات لها، ثم تطور عنه أول أنواع جنس الإنسان، وهو الإنسان الصِّناع، ثم الإنسان منتصب القامة، الذى يُعتبر سلفًا لإنسان نياندرتال (منذ 200 ألف سنة) وإنسان كرومانيون (منذ 130 ألف سنة) الذى هو

الإنسان العاقل الحديث. والرأى الأرجح أن كل هذه التطورات قد حدثت في قارة أفريقيا، التي يمكن اعتبارها مهد الجنس البشرى.

4- يمكن تلخيص الملامح التطورية لـ «جسد الإنسان الحديث» التي انفصل بها عن أسلافه في أربع نقاط رئيسية: الزيادة التدريجية المطردة في حجم المخ، السير على القدمين منتصب القامة، تغيرات جوهريّة في بنية وأداء اليد، إعداد الحنجرة لإنتاج الكلام، وهى الخطوة التي تمت قبل بدء الإنسان في الكلام بمئات الآلاف من السنين، مما يثبت أنها كانت عملية تكيف مسبق، تم الإعداد فيها (قصداً) لنشأة اللغة. كما أثبتت الدراسات أن مجرد الزيادة في حجم المخ البشرى ليست كافية لظهور قدراته العقلية المتميزة، وإن كانت هذه الزيادة قد سمحت بزيادة القدرة التخزينية المعلوماتية للمخ البشرى بقدر هائل. وقد حدثت هذه الزيادة بشكل خاص في القشرة المخية للجزء الأمامى من الفص الجبهي.

5- وعلى المستوى الجينى، يتفق الإنسان مع أقرب الرئيسيات إليه وهو الشمبانزى إلى حد التطابق (100 %)، وبعد استبعاد الجينات الحاملة يصل تشابه الجينات العاملة إلى 98.7%، مما يشير إلى أن العامل الحاسم في تميز الإنسان (على المستوى الجسدى) هو تنشيط بعض الجينات الحاملة. وقد توصل العلماء بالفعل إلى تلك الجينات التي تم تنشيطها.

أنا... فى العلوم الإنسانية

سادساً: الذات الإنسانية حيرت العقل البشرى

1- تُعتبر «الفلسفة الغربية» (الفلسفة اليونانية القديمة والفلسفة الحديثة)، في نظرتها إلى الذات الإنسانية، أكثر الأنماط تجرداً كعمل عقلى بعيد عن الروافد الدينية. وقد أدرك معظم فلاسفة هذه المدرسة ثنائية الروح / العقل - الجسم فى الإنسان، ثم انقسموا إلى فريقين رئيسيين؛ الأول يرى أن الروح موجود مادمى تتكون من نفس ذرات المادة فى أدق صورها (كالهواء والنار) وأهم هؤلاء هم الفلاسفة الذين فى مرحلة ما قبل سقراط. والفريق الثانى يرى أن الروح / العقل جوهر لا مادمى، وأشهرهم الفيثاغورثيون وأرسطو ثم الديكارتيون فى الفلسفة الحديثة.

2- تُقابلنا في الفكر الشرقي القديم، الديانة «الهندوسية»، كمزيج متباين من الفكر الديني والعمل العقلي والنظرات الفلكلورية، وفيها نجد ثنائية الروح/العقل - الجسم ظاهرة تمامًا في حياة الإنسان الحالية. وبعد أن تنتهي دورات التناسخ، تتحرر الروح وتفتى الجسدية، وترتد الثنائية إلى واحدة، ليست للكائن الإنساني وحسب، لكنها وحدة وجود مطلقة ليس فيها فرق بين والموجد الموجود ولا بين السبب والنتيجة.

3- لم تكتف «البوذية» بأن تكون محاولة للتحرر من سطوة رجال الدين الهندوس، بل أصبحت تحررًا من الدين ككل. فبوذا - انطلاقًا من تجاربه الذاتية - أنكر الوجود الإلهي، كما أنكر وجود الذات الإنسانية! بعد أن اعتبر أن كل ما يقوم به الإنسان هو مجرد خصائص ونشاطات لا ترجع إلى ذات فاعلة. وبالرغم من ذلك نجد البوذيين اليوم يقصدون بوذا ويضعون تماثيله ضمن تماثيل آلهة الهندوسية، ولا أرى ذلك إلا استجابة لفطرة عارمة داخل الإنسان تدفعه للبحث عن الإله الخالق.

4- ترجع نظرة «الفكر المصري القديم» بخصوص الذات الإنسانية إلى أصول دينية سماوية، بينما اقتصر دور العقل على صياغة التفاصيل، التي إذا جُردت تبقى تصور عقائدي واضح لا يختلف كثيرًا عن معتقداتنا الدينية. فالمصري القديم يؤمن بثنائية الإله الخالق والإنسان المخلوق، كما يؤمن بثنائية الروح - الجسم، سواء في الحياة الدنيا أو في الحياة الآخرة. وقد انعكست هذه النظرة على حياة المصري القديم، سواء في سلوكه، أو عاداته وتقاليدته، أو هندسته ومعمارته.

5- إذا كان «لكل جواد كبوة» فإن العقل الإنساني قد أصاب أحيانًا وكبًا أحيانًا أخرى في سعيه لفهم الإنسان. ولعل العقبة الكؤود التي أعاقته عن الوصول إلى كمال الحقيقة هي أن إدراك الشيء على حقيقته يحتاج إلى مُدرك أعلى؛ لذلك فإن النظرة في المرآة لا تعكس إلا الصورة الظاهرة، ولكن ألا يكفي العقل الإنساني شرف المحاولة؟!

سابعًا: هكذا بنيت الحضارة

1- لا شك أن ما مكنَّ الإنسان من البقاء ثم الانتشار وبناء الحضارات هو مزيج مُحكم التوازن من عناصر ثلاث: العقل - والبنية الجسدية - والسلوك الاجتماعي الفطري. وقد دفعت

الميل الاجتماعية الإنسان لابتكار مؤسسة الأسرة والمحافظة عليها، فكانت اللبنة التي قامت عليها الحضارة الإنسانية وحمّت الإنسان من الانقراض.

2- عاش الإنسان في المراحل الأولى من وجوده كأسر متناثرة، يمارسون الصيد الذي تخصص فيه الرجال وجمع الثمار الذي كانت تقوم به النساء بالإضافة لرعاية الصغار، وقد حقق هذا النمط المعيشي للإنسان قدرًا من الرفاهية وفرص الترفيه، بشكل غير متاح لكثير من الشعوب الآن! وعندما استشعر الإنسان أهمية الحياة الجماعية بدأت الأسر في الاجتماع في مجموعات تحقق لها الأمان. وكلما نضبت الموارد في منطقة، كان قاطنوها يجزمون متاعهم الخفيف ليرحلوا إلى أماكن أخرى.

3- ثم انتقل الإنسان تدريجيًا (في مختلف أنحاء العالم) من حياة الصيد وجمع الثمار إلى «إنتاج الغذاء». وصحب ذلك عملية تهجين للنباتات وأيضًا للحيوانات، وقد سمح ذلك بوفرة غذائية سدت احتياجات الأعداد المتزايدة من البشر. وبذلك استقر الإنسان في «قرى زراعية» أخذت في التزايد عددًا واتساعًا على حساب مناطق معيشة الصيادين وجامعي الثمار.

4- منذ أكثر من عشرة آلاف سنة قامت «الثورة المدنية»، فبدأت المدن في الظهور، كمرآكز صناعية وتجارية بعد أن استقرت مجموعات كثيفة من السكان قرب مصادر المواد الخام. وقد تطلب ذلك إنشاء تحصينات دفاعية وتكوين طبقة متخصصة من الجنود المتفرغين للحماية من السلب والنهب والدفاع عن المدن. كما مدت تلك المدن المحصنة القوية سيطرتها على المناطق المحيطة وألقت على كاهل الفلاحين عبئًا هائلًا من أجل توفير الغذاء والسلاح وإعداد الجيش بالأفراد. وكانت هذه المدن بداية نشأة الإمبراطوريات في العالم القديم، وبذلك انقسمت المجتمعات إلى طبقة حاكمة متميزة وطبقات فقيرة مطحونة.

ولاشك أن الانتقال من حياة الصيد وجمع الثمار إلى حياة القرية، ثم قيام الثورة المدنية، قد صاحبه تغييرات جذرية في كل مجالات الحياة؛ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والصحية.

5- ومنذ قرابة 7-8 آلاف سنة، دفعت الحياة المدنية نشأة «الكتابة» وتطورها وانتشارها خطوات واسعة للأمام، فقد كانت ضرورية لتسجيل المعاملات المادية وكذلك إعطاء القوانين

والقرارات الإدارية صفة الديمومة والذبوع. وقد تطورت الكتابة من رسوم للأشياء، إلى رسوم تمثل المعاني، إلى رموز كانت هي بداية حروف الهجاء.

6- خلال القرن الأخير، تغيرت الحياة الإنسانية في كل مناحيها بسرعة أكبر وبشكل أشمل مما حدث طوال العشرة آلاف سنة السابقة، وتعد هذه التغيرات إفراناً للشورة الصناعية في أوروبا الغربية.

وقد حقق هذا «التحديث» للإنسان مستويات من الرفاهية وزيادة متوسط العمر لم يكن يحلم بها، كما أنشأ أنظمة ديمقراطية قل معها الاستبداد الفردي. وفي المقابل، صاحب التحديث سلبيات عديدة، أهمها تلالشي انتماء الفرد لعائلته وعشيرته ودينه بل ولأمته، لحساب زملائه في المهنة والنظام الوظيفي. كما حدثت تغيرات جذرية على المستوى الشخصي، لا تحقق للإنسان أهدافه وغاياته الطبيعية، بل فرضت عليه أهداف وغايات لا تتناسب مع احتياجاته الفطرية، فشعر الإنسان بالاعتراب، حتى إن الكثير من الأنثروبولوجيين يرون أن أسلافنا من الصيادين وجامعي الثمار كانوا أسعد منا حالاً.

7- لقد سمح الموقع الجغرافي والطبيعة المناخية لوادي النيل بأن يكون «جنة الخلد» التي لجأ إليها إنسان العصر الحجري الفار من جفاف وتصحر هضبة شمال أفريقيا، فكونوا أقدم مجتمع عظيم على الأرض استطاع أن يضمن لنفسه غذاء نباتياً وحيوانياً ثابتاً، كما استخرجوا وشكلوا المعادن، واخترعوا أقدم نظام كتابي، وأنشأوا بذلك في مصر القديمة أول دولة متحضرة كبيرة في التاريخ، يحكمها ملك واحد منذ سبعة آلاف سنة، فمهدوا بذلك طريق التقدم الطويل نحو التطور الحضاري.

ومع ذلك لم يكن العطاء الأكبر الذي قدمته الحضارة المصرية القديمة للبشرية هو التقدم المادي، بل كان هو «الضمير»، الذي هو ميزان الصواب والخطأ، وما ينبغي وما لا ينبغي، ومفاهيم الحرية والعدل والمساواة، وإنكار الذات، والاحترام المتبادل، والسعي إلى التسامح الروحي.

8- ما كان للحضارة الإنسانية المعاصرة، التي يباهي بها الإنسان الحديث، أن تحقق ما حققته في المجالات العلمية والإنسانية دون الرافد العظيم الذي أمدتها به الحضارة العربية

الإسلامية، وقد أكد ذلك المعنى المستشرق سبنسر فاميرى في قوله: «... لا يَسَعُ فلكي واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ اسمًا عربيًا، ولا يستطيع أى عالم طبيعي أن يُجَلِّد ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درسًا عربيًا، ولا يقدر أى قاض أن يبيت اليوم في خلاف دون أن يستدعى مبدأ أملته العرب، ولا يسع أى طبيب أن يتأمل أحد الأمراض المعروفة منذ القدم إلا ويهمس بأراء طبيب عربي، ولا يستطيع أى رحالة أن يدلف إلى أبعد زوايا آسيا وأفريقيا دون أن يعتمد إلى اللغة العربية».

ثامنًا: الحضارة المعاصرة جعلتني مَسْحًا مشوهًا

1- يتجاذب النفس الإنسانية نمطان من التوجه في الحياة، الأول هو «نمط التملك» المهيمن على المجتمع الصناعى الحديث، الذى يحقق الشعور بالذات من خلال القوة والتملك المادى، ويقوم على الجشع والحسد والعدوان. أما الثانى، فـ «نمط الكينونة» الذى يسعى لإثبات الذات من داخلنا، ويقوم على الحب وسمو القيم الإنسانية فوق القيم المادية. إن الفرق الجوهرى بين الكينونة والتملك هو الفرق بين التوجه نحو الإنسان والتوجه نحو الأشياء.

إن الحاجة لإحداث تغيير جذرى فى وجدان الإنسان وقلبه وضميره لا تنبع من كونها مطلبًا أخلاقيًا ودينيًا وحسب، بل أصبحت لأول مرة فى التاريخ شرطًا لبقاء الجنس البشرى.

2- إن الحضارة المادية المعاصرة (بإيجابياتها وسلبياتها) إفراز لعقل مَادى محاييد، لا علاقة له بالأخلاق أو بالأسئلة الكلية (الخاصة بالوجود وبمنشأ الإنسان ومآله والغرض من وجوده) أو بالقدس أو بما يتجاوز عالم الحواس الخمس المباشر. لذلك فهو لا يعترف بوجود مرجعية أخلاقية أو إنسانية ثابتة مستقرة، بل يستمد قيمه من واقعه المتغير الذى يصير إليه، أى أنه يتبع «منطق الأمر الواقع» أو «أخلاق الصيرورة».

3- تقوم الحضارة الحديثة بتفكيك الإنسان تمامًا (رده إلى ماديته)، ثم إعادة تركيبه كمنتج ومستهلك. وحتى يتحمل الإنسان هذا النمط المعيشى غمرته تلك الحضارة بأ كبير قدر من الاستمتاع واللذة، فصار فى ظلها متوجهًا نحو هدف نهائى مركب واحد: «الاستمتاع - الإنتاج - الاستهلاك». وبذلك أصبح الإنسان خاليًا من المنظور الإنسانى، ومنزوع القداسة عن كل شىء، حتى عن نفسه.

4- من أهم سلبيات الحضارة المادية الحديثة «النسبية المعرفية والأخلاقية المطلقة» بعد أن فقد الإنسان مرجعيته (الدين، العرف، الأسرة...). إن هذه النسبية قوضت الإنسان من الداخل وجعلت منه شخصية هشة غير قادرة على اتخاذ أى قرار، ويمكن - في الوقت ذاته - إقناعه بأى شيء وكل شيء. وقد انعكس غياب المرجعية على كل مناحي الحياة؛ الاجتماعية - السياسية الفنية... وكنتيجة طبيعة لانعدام المرجعية ضمرت مؤسسة الأسرة، وساد الهوس الجنسى، والشذوذ، والاعتصاب، وقامت الثورة الجنسية في ستينيات القرن العشرين، وظهرت الأشكال البديلة للأسرة! وانتشرت الإباحية في الفن.

5- يصف روجيه جارودى الحضارة الحديثة بأنها «حضارة حفرت قبراً يكفى لدفن العالم». فقد بسطت سيطرتها على العالم عن طريق الإمبريالية العسكرية، ثم السياسية، ثم الاقتصادية. ولم تكف هذه الحضارة بذلك بل مارست على الإنسان «إمبريالية نفسية» حولته إلى حيوان اقتصادى جسمى، لا يبحث إلا عن منفعة الاقتصادية ولذته الجسدية. وتم ذلك عن طريق غزو داخلى مارسه الإعلام (من خلال الجنس والإبهار) بسطوة واقتدار، حين أقنع الإنسان بأن يكون «بسيطاً»، «طبيعياً» يحيا «بلا عقد». إنها باختصار حضارة «اللاحضارة».

6- ثم استمر مفهوم النسبية في الاتساع حتى قوّض كل شيء، بل وقوّض الإحساس بالوجود الحقيقى للعالم. لقد دخلت حضارتنا «عصر ما بعد الحداثة» الذى تحطمت فيه كل اليقينيات والمسلّمات، حتى سُميت «ضد الأساس»؛ لأنها تتعامل مع عالم بلا أساس ولا مركز ولا معيار يُحتكّم إليه؛ لذلك فأيدولوجية ما بعد الحداثة ترفض أن تعطى للتاريخ أى معنى (عصر نهاية التاريخ) وتُسقط كل الأيدولوجيات (عصر ما بعد الأيدولوجيات)، بل وترفض أن تعطى للإنسان أية قيمة أو مركزية (عصر ما بعد الإنسان).

7- لقد آن الأوان لعمل دراسة لكلفة التقدم الذى أصبح يهدد وجود الإنسان على هذا الكوكب بدلاً من أن يحقق له السعادة. لقد أصبح التقدم هدفاً في حد ذاته، فكانت النتيجة استنزاف موارد الطبيعة، وتلويث البيئة، والتلاعب بالجينات، ومسح الإنسان، وتحميل جهازه العصبى فوق الطاقة. لذلك ينبغي مقارنة عائد التقدم بتكاليفه، وأن ننظر للتقدم المادى في إطار ما يُحدث من تخلف إنسانى.

أنا... في القرآن الكريم

تاسعاً: ذات ذات خمسة روافد

1- تنظر الديانات والفلسفات الدينية للإنسان نظرات مختلفة، بين من يرى أنه جوهر واحد وهو الروح، إذ الجسد إلى فناء، ومن يراه روح وجسد، ومن يراه روح ونفس وجسد. والمتأمل في القرآن الكريم بعمق يرى الذات الإنسانية من خلال خماسية يؤكد عليها بالطرح المتكرر. فالإنسان - في القرآن الكريم - جسد، وعقل، وقلب، ونفس، وروح.

2- «الجسد» في القرآن الكريم مُكوّن أساسي للذات الإنسانية، فلا هو شيء مُدّنس مُنتَقَص لا يحقق الإنسان العروج الروحي إلا بإذلاله، ولا هو دابة للروح تصل بها إلى مُبتغائها ثم تتركها. و«حياة الجسد» عملية بيولوجية نشترك فيها مع كل الكائنات الحية، تعتمد على نشاطات عضوية لا علاقة لها «بالروح» الإنسانية العاقل المُكَلَّفَة.

3- يتحدث القرآن الكريم عن «التعقل» كوظيفة، ولا يأتي فيه ذكر للعقل. وقد وهب الله عَزَّوَجَلَّ العقل ملكات تعينه على القيام بمهامه التي حدد للإنسان مجالاتها وغاياتها، كما حَجَرَ عليه التفكير في مجالات أخرى. كذلك بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ للإنسان أن من يُعطل طاقة العقل الممنوحة له ينزل إلى مرتبة دون مرتبة الحيوان الأعجم.

4- ينظر القرآن الكريم إلى «القلب» في الإنسان كالمملك بين الرعية. وفي مواضع عديدة، يحدد القرآن الكريم للقلب صفات ووظائف عاطفية ومنطقية تُعجز عن الحصر، منها ما هو خير ومنها ما هو شر، حتى يكاد يكون مسؤولاً عن سلوك الإنسان كله. وتبعاً لذلك تنقسم القلوب إلى أربعة أنواع: قلوب المؤمنين، وقلوب الكفار والمنافقين، والقلوب الميتة، والقلوب المريضة.

5- «والروح»، هي أشرف عناصر الذات الإنسانية وأزكاها، فهي خير مطلق، وهي خصوصية الإنسان التي يتميز بها على بقية الكائنات. وقد فتح نفخ الروح للإنسان المجالات العلوية، فأصبح قادراً على التعامل مع عوالم الضمير والإيمان والعدالة والرحمة والجمال والفن. لقد أصبح الإنسان بتلك النفخة سيّداً كونياً أبدياً، واستحق الخلافة من الله في الأرض.

ويختلف تعلق الروح بالجسد من حين لآخر، فهو في الجنين غير تعلقه بعد الولادة، وفي اليقظة غير تعلقه في أثناء النوم، وتعلقه بعد الوفاة غير تعلقه عند البعث. وإذا كان من اليقين القرآني أن أرواح الموتى تتلاقى، فهناك إشارات تشير إلى تلاقى أرواح الأموات بأرواح الأحياء.

6- تُعتبر «النفس» أقرب عناصر الذات الإنسانية إلينا، وجاء ذكرها كثيرًا في القرآن الكريم، واختلفت الآراء في حقيقتها وفي علاقتها بالروح. والنفس «محل التكليف والاختيار» إذ إن فيها النوازع النفسية (إن خيرًا أو شرًا)، وقد أوقى الإنسان الحرية في تزكية النفس وتطهيرها أو تدينسها وظلمها. والنفس في القرآن الكريم على ثلاث مراتب؛ نفس أمارة بالسوء، ونفس لؤامة، ونفس مطمئنة.

7- ويمكن اعتبار أن للإنسان خمسة أعمار: عُمر الميلاد، وعمر الجسم (صحته) وعمر العقل (حكيمته)، وعمر القلب (إقباله على الحياة)، وعُمر الروح (الخالدة أبدًا).

عاشرًا: الموت بين العلم والدين

1- الموت بالنسبة للطب، هو توقف وظائف الأجهزة الحيوية للجسم «الجهاز التنفسي - الجهاز الدوري (القلب) - والجهاز العصبي (المخ)». ويميز الطب ثلاثة مستويات لموت المخ؛ موت القشرة المخية، موت جذع المخ، موت المخ الكلي. وبعد موت المخ قد يستمر نشاط بقية الوظائف الحيوية للجسم لفترة بدعم من أجهزة التنفس الصناعي والعقاقير الطبية. وقد انفقت معظم المجامع الدينية والطبية على اعتبار الإنسان بعد موت جذع المخ ميتًا، وأجازت نقل الأعضاء منه.

2- يُفَرِّق القرآن الكريم بين الموت والوفاة، فالموت نقيض الحياة، وهو أمر يُترك للطب تشخيصه. أما الوفاة فهي مفارقة الروح الإنسانية المدركة للجسم، وهذه المفارقة تحدث عند الموت، كما تحدث عند النوم، الذي يمكن اعتباره «الوفاة الصغرى».

وبتأمل الآيات القرآنية، يتضح أن الوفاة الكبرى (مفارقة الروح للجسم بشكل نهائي) تسبق الموت، ومن ثم فإن التشخيص الطبى للموت ينسجم مع المفهوم الديني الذي يرى أن الموت يكتمل بتحقيق مرحلتين، مفارقة الروح النهائية للجسم، ثم توقف الحياة.

3- ينظر القرآن الكريم للموت باعتباره «خلق» شأن الحياة تمامًا، وأنه معبر بين مسيرتين، نقلنا إلى «حياة البرزخ»، التي هي مرحلة انتقالية تُصَفَّى فيها النفس حياتها الدنيوية وتتهيأ لحياتها الأخرى التي تبدأ بيوم القيامة.

4- ليس البعث مجرد عودة الإنسان إلى الحياة، بل هو بداية الانطلاقة الكبرى نحو الحياة الأبدية بقوانينها الجديدة (كانعدام قيد الزمان والمكان وتوقف السببية)، بعد فناء الحياة الدنيا وما كان ينظمها من قوانين الطبيعة.

5- لا شك أن العناصر الخمسة للذات الإنسانية ستبدل بما يتلاءم مع حياتنا في الجنة (إن شاء الله). فالجسم يصير في شباب دائم، والعقل يتوقف عن كدحه ويهنأ بنعيمه الخالد، أما النفس فتتغير طبيعتها من «الأنا المريدة» التي تميز النفس الأمارة إلى «الأنا المحبة» التي تميز النفس الآمنة المطمئنة. وهذا التبدل في عناصر النفس يتطلب إعداداً مسبقاً يقوم به الإنسان في حياته الدنيا عن طريق المجاهدة والعبادة والعمل الصالح.

القارئ الكريم...

كان منهجنا في رحلتنا أن نتعرف على الذات الإنسانية، من خلال نظرة العلوم المختلفة إليها، ثم من خلال تعريف القرآن الكريم بها. وهدفنا المباشر من ذلك تحقيق مزيد من الفهم لأنفسنا ولمن حولنا، بعد أن طمست الحضارة الحديثة ملامح هويتنا الإنسانية. وهدفنا الأسمى أن نرقى من معرفة الإنسان إلى معرفة الله، فمن عرف نفسه عرف ربه...

وأتمنى أن نكون في ختام رحلتنا قد حققنا هدفنا...

تعريف بالمؤلف

أ.د. عمرو عبد المنعم شريف

- من مواليد بورسعيد عام 1950.
- أستاذ ورئيس أقسام الجراحة الأسبق - كلية الطب - جامعة عين شمس. مع التخصص في جراحات الكبد والجهاز المرارى وجراحة مناظير البطن وجراحات الحوادث.
- حاصل على درجة البكالوريوس في الطب والجراحة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى عام 1974، ودرجتى الماجستير عام 1978 والدكتوراه عام 1981 في الجراحة العامة من كلية الطب جامعة عين شمس.
- عضو مؤسس للجمعية الدولية للجراحة، والجمعية الدولية لجراحة الكبد والبنكرياس والجهاز المرارى - بسويسرا.
- أختير المدرس المثالى على مستوى جامعة عين شمس عام 1984، والطبيب المثالى على مستوى الجمهورية عام 1988.
- مفكر ومحاضر فى موضوعات التفكير العلمى ونشأة الحضارات، والعلاقة بين العلم والفلسفة والعقل وبين الأديان.

من مؤلفاته:

- كتاب «أبي آدم: من الطين إلى الإنسان»، طرح فيه مفهومًا جديدًا حول نشأة الإنسان عن طريق التطور الموجه.

- كتاب «رحلة عبد الوهاب المسيري الفكرية»، عرض فيه (من خلال فكر د. المسيري) إيجابيات وسلبيات الحضارة المادية الحديثة، وأسوأها ظهور الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل.
- كتاب «المخ ذكر أم أنثى؟»، وتناول فيه الفوارق التشريحية والوظيفية بين مخ الرجل ومخ المرأة، وانعكاس ذلك على أسلوب تفكير ومشاعر وسلوك كل من الجنسين. وشارك في تأليفه د. نبيل كامل خبير التنمية البشرية.
- كتاب «رحلة عقل»، ويعرض فيه كيف يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان، وذلك من خلال عرض الرحلة الإيمانية لأكبر ملحد في القرن العشرين (أستاذ الفلسفة البريطاني، سير أنتوني فلو)، ثم يستكمل الكتاب الرحلة ليعرض البراهين العقلية الدالة على تواصل السماء بالأرض (الديانات).
- كتاب «كيف بدأ الخلق»، يعرض قصة خلق الكون ثم الحياة وتطور الكائنات الحية، وصولاً إلى الإنسان. ويقرأ قصة خلق الإنسان في القرآن الكريم في ضوء حقائق العلم.
- كتاب «ثم صار المخ عقلاً»، ويتناول فيه دور المخ البشري في ملكات الإنسان العقلية ومشاعره الروحية، وهي أهم ما يميز به الإنسان على غيره من الكائنات.
- ترجم كتاب «الطب المصري القديم» مع د. عادل وديع فلسطين، وهو أفضل كتاب في موضوعه.